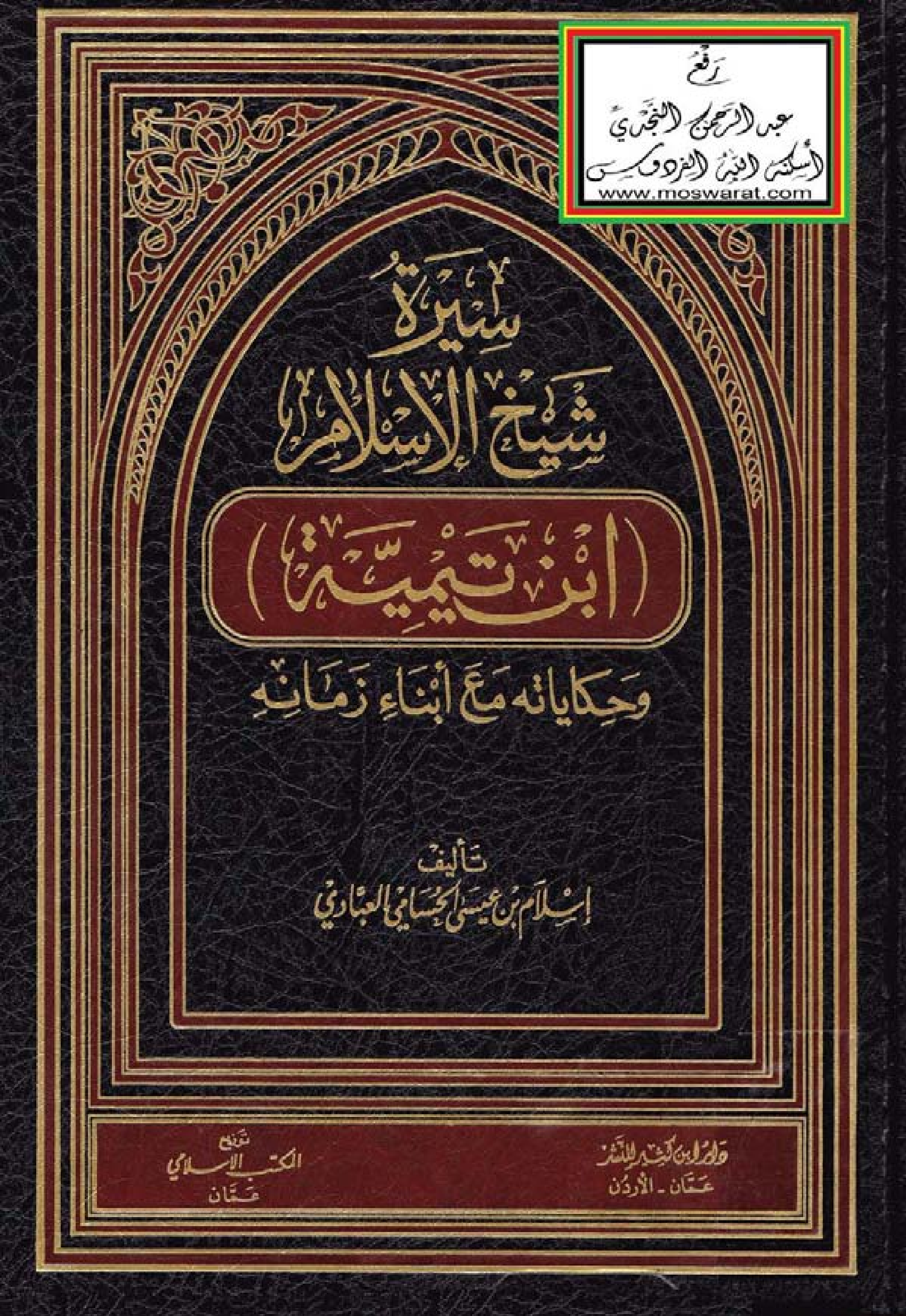


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
سيرة شيخ الإسلام
(ابن تيمية)
وحكاياته مع أبناء زمانه
تأليف
إسلام بن عيسى الحسامي العبادي
دار ابن كثير للنشر
عمان - الأردن
المكتب الإسلامي
عمان

سيرة شيخ الإسلام (ابن تيمية)

وحكاياته مع أبناء زمانه

تأليف
إسلام بن عيسى الحسامي العبادي

دار ابن كثير للنشر
عمان - الأردن

توزيع
المكتب الإسلامي
عمان



الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

المملكة الاردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٦/٣/٥٥١)

٩٢٢
العبادي ، اسلام عيسى
سيرة شيخ الاسلام ابن تيمية وحكاياته مع أبناء زمانه / إسلام عيسى الحسامي العبادي._عمان :المؤلف، ٢٠٠٦.
(   )ص
ر.إ :(٢٠٠٦/٣/٥٥١).
الواصفات:/الفقهاء المسلمون//الاسلام/

❖ تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

توزيع

المكتب الإسلامي
للطباعة والنشر

لبنان
• هاتف: ٤٥٠٦٣٨ (٠٠٩٦١٥)، ٤٥٦٢٨٠ (٠٠٩٦١٥).
• فاكس: ٤٥٠٦٥٧ (٠٠٩٦١٥)، ص.ب: ١١/٣٧٧١ بيروت - لبنان.
* Web Site: www.almaktab-alislami.com
* E-Mail: islamic_of@almaktab-alislami.com
عمان - الأردن
• هاتف وفاكس: ٤٦٥٦٦٠٥ - ص.ب: ١٨٢٠٦٥.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد للّه نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده اللّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد، «[١]فقد بزغ ابن تيمية في الثلث الأخير من القرن السابع والثلث الأول من القرن الثامن.

كان ابن تيمية رضي اللّه عنه، عظيماً في ذات نفسه، اجتمعت له صفات لم تجتمع في أحد من أهل عصره، فهو الذكي الألمعي، وهو الكاتب العبقري، وهو الخطيب المصقع، وهو الباحث المنقِّب، وهو العالم المطلع الذي درس أقوال السابقين، وقد أنضجها الزمان، وصقلتها التجارب، ومحصتها الاختبارات، فنفذت بصيرته إلىٰ لبها، وتغلغل في أعماقها، وتعرف أسرارها، وفحص الروايات، ووازن بين الآراء المختلفة، وطبقها علىٰ الزمان، مع إدراك للقوانين الجامعة، وربط للجزئيات وجمع للأشتات المتفرقة، ووضعها في قرن واحد.

---

(١) «ابن تيمية حياته وعَصْرُه ـ آراؤه وَفِقهُه» للشيخ محمد أبو زهرة.

ولقد أدته بحوثه ودراساته للثروة الفقهية والعقلية التي كانت بين يديه ميراثاً علىٰ الأسلاف إلىٰ أن يجعل من نفسه حاكماً علىٰ متخالفها، قاضياً في الآراء المختلفة في قضاياها، ولقد سار في الحكم عليها سير القاضي العادل تسيره المقدمات ولا يسيرها، وتوجهه البينات ولا يوجهها، وما كانت بيناته إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآثار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وما كان منهاجه إلا منهاجهم في أقضيتهم وأحكامهم، فما يجده سائراً مع الكتاب والسنة وآثار الصحابة أيده ونادىٰ به، وما يجده مخالفاً لها جاهر ببطلانه أياً كان قائله، ومهما يكن ناصره، فتحركت بذلك الطوائف المعتنقة لهذه الآراء التي يهدمها لمنازلته ومناهضته ورميه بالشطط ومجاوزة الحد».

لقد عمل شيخ الإسلام علىٰ إحياء ما كان عليه الصحابة أهل القرن الأول الذي تلقىٰ الإسلام صافياً لم يرنق بأفكار غريبة.

كان ينهج النهج الذي يعود بالإسلام إلىٰ عهد الصحابة في عقائده وأصوله وفروعه، وإذا استيقن أن ما يقول هو ما كان عليه الصحابة دافع عنه بالحجة والبرهان، وكل ما يواتيه عقله ودراساته من أدلة عقلية ونقلية، ويقرب ما يقول بعبارات مستقيمة وتعليلات سليمة، بواقع الحياة وما يجرىٰ بين الناس.

ولقد كان رضي الله عنه مثار إعجاب العلماء؛ رآه المحدث الكبير ابن دقيق العيد، وقد كان حجة العصر في الحديث وعلومه فقال فيه:

رأيت رجلاً جمع العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد ويدع ما يريده».

وقال له أول مرة رآه وسمع كلامه: كنت أظن أن اللّه تعالىٰ ما بقي يخلق مثلك[١]. [٢].

قال ابن العماد الحنبلي: وحسبه من الثناء الجميل قول أستاذ الجرح والتعديل أبي الحجاج المِزِّي الحافظ الجليل، قال عنه: ما رأيت مثله، ولا رأىٰ هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب اللّه وسنة رسوله، ولا أتبع لهما منه. وترجمه بالاجتهاد وبلوغ درجته والتمكن في أنواع العلوم والفنون: ابن الزملكاني، والذهبي، والبرزالي، وابن عبد الهادي وآخرون[٣]. اهـ.

وقال المزي أيضاً عن الشيخ «تقي الدين» ابن تيمية: لم يُرَ مثله منذ أربعمائة سنة[٤]. اهـ.

لقد عمل ابن تيمية علىٰ إعادة الإسلام غضاً طرياً كما أنزله اللّه علىٰ نبيه ﷺ فقد عمل علىٰ تصفية العقيدة مما علق بها من شرك وترهات، وعمل علىٰ تفنيد الشبهات التي أثيرت من قبل سائر الطوائف المنحرفة، كالجهمية والأشاعرة، والماتريدية، والمعتزلة وملاحدة الفلاسفة والباطنيين والرافضة وغيرهم، فأطاح بكل ما تعلقوا به من شبهات مزعومة.

وقال الحافظ البزار ـ بعد تعداد فضائله ـ: لم يزل آباؤه أهل الدراية التامة والنقد، والقدم الراسخة في الفضل، ووفقه [اللّه] في جميع أمره

---

(١) المرجع السابق.

(٢) قال العلّامة بكر أبو زيد: «والمتعين ترك العبارة.. لما يحمله ظاهرها من معنى غير لائق، وإن صدرت من إمام معتبر». «معجم المناهي اللفظية» (ص: ٤٨٩).

(٣) «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» لابن العماد الحنبلي (٨/ ١٤٧).

(٤) «الرد الوافر على من زعم بأن من سمَّى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر» لابن ناصر الدين الدمشقي (ص: ٢٣٠).

لأعلام السعادة، وجعل مآثره لإمامته من أكبر شهادة، حتىٰ اتفق كلُّ ذي عقل سليم أنه ممن عنى نبيُّنا بقوله: «إن اللّه يبعث على رأس كلِّ مئة سنة من يُجدِّدُ لهذه الأمة أمر دينها»[١] .[٢] اهـ.

وإن المضي في حشد أقوال العلماء النبلاء في ذكر مجديدية شيخ الإسلام ابن تيمية يستدعي محاضر عدة وهذا الذي ذكرنا هو غيض من فيض حتىٰ قال بعضهم: «ترجمت بعضُ دوائر المعارف للدولة العباسية بخمس وعشرين صفحة ولابن تيمية بأربعين صفحة! فانظر إلىٰ دولة عاشت ما يقارب الستمائة سنة، وحكمها سبع وثلاثون خليفة، ومع ذلك لم تحظ إلا بخمس وعشرين صفحة، وقارن بها هذا الفرد العلم الذي لم يتولَّ أي منصب، ولا وزارة ولا إمارة، ولم يجمع تجارة ومع ذلك تُرجم له بأربعين صفحة»[٣]. اهـ.

لقد قام ـ رحمه اللّه ـ بمواجهة الصوفية ومجادلتها ومناظرة قوادها، فكشف خباياهم وأبان للناس فسادهم وإفسادهم للدين والبعد عنه.

«وهاجم الشيعة هجوماً عنيفاً بقلبه وقلمه ولسانه، لأنه حسبهم مالؤوا خصوم الإسلام من الصليبيين علىٰ المسلمين، وكشفوا عورات المؤمنين، وحسبهم مالؤوا التتار علىٰ السكان الآمنين، ومكنوهم من رقابهم وأرضهم يعيثون فيها فساداً، فجرد عليهم ذلك الفارس الذي حارب التتار بسيفه، قلماً عضباً ولساناً حاداً، وأخذ يرد أصولهم، ويدحض حججهم غير وانٍ ولا كسل، ودَوَّن الرسائل الكاشفة، وقد رأى في حالة الشيعة الذين

---

(١) أخرجه أبو داود (٤ / ٤٢٩١)، وغيره. وصحح الألباني إسناده في «الصحيحة» تحت رقم (٥٩٩).

(٢) (ص: ١٠).

(٣) «إطلالة على ساحل ابن تيمية»، للشيخ عائض القرني، (ص: ١٤).

عاصروه من الباطنية والحاكمية وحال النصيرية وطرائقهم السرية ما جعله هو وسائر المعاصرين يتظنون فيهم الظنون، ويقبلون عنهم الأقاويل، فكان قوله فيهم يتفق مع ذلك كله، ذلك بأنهم كتموا أمورهم وأسرُّوا في أنفسهم وجماعاتهم ما لا يبدونه، وبالغوا في الحرص والكتمان، وكانوا يدبرون التدابير لاغتيال الزعماء والكبراء من أهل الجماعة الإسلامية، وظهرت آثار ذلك منهم في القرن السادس والسابع وتسامع الناس به، ولم يعد أمرهم خفيّاً، وكانت المعركة قائمة مستعرة الأوار بين أهل الإسلام وحملة الصليب، فكان للظن ما يسوغه، ويسهل قبوله.

ولما حقق اللّٰه النصر لأهل الإسلام وجند مصر اتجه ابن تيمية إلىٰ هؤلاء الشيعة الذين مالؤوا التتار مرتين فقاد كتيبة من أصحابه جردها عليهم وحرض السلطان الناصر علىٰ قتالهم وإلزامهم بشرائع الإسلام لأنهم في اعتقاده منافقون غير مسلمين، وأنهم شوكة في جنب الدولة المصرية الشامية يتربصون بها الدوائر، ويمالؤون عليها الأعداء، ومنهم العيون والجواسيس»[(١)].

وقد تصدىٰ له خصومه «مجاهرين بعداوته، ورموه بالشطط والخروج والضلال، وكانت بينه وبينهم حرب عوان نال منهم بالقول والبرهان، ونالوا منه بالزج في غيابات السجن وتأليب ذوي السلطان»[(٢)].

«جاء التتار إلىٰ الشام سنة ٦٩٩هـ، وهزموا عساكر السلطان الناصر ابن قلاوون وشتتوهم شذر مذر، وفر كثيرون من أعيان العلماء إلىٰ مصر كقاضي الشافعية إمام الدين، وقاضي المالكية الزواوي، وغيرهم من كبار

---

(١) «ابن تيمية» لأبي زهرة (ص: ٩ و٣٨ و٣٩) بتصرف.

(٢) المصدر السابق، (ص: ٨).

العلماء وكبار الرجال، حتىٰ صار البلد شاغراً من الحكام وكبار رجال الدين، ولكن عالماً واحداً بقي مع العامة، فلم يفر ولم يخرج، لأن له قلباً يحول بينه وبين الفرار، وله شعور يمنعه من أن يترك العامة من غير مواسٍ في هذه البأساء، وله دين يمنعه من أن يترك أمور الناس فوضىٰ لا حاكمٍ يردع، ولا نظام يمنع»[١].

«إن هذه المحنة التي نزلت بدمشق ـ علىٰ ما سيأتي تفصيله وبيانه ـ أظهرت ابن تيمية بطلها ورجلها، لا عالمها فقط، ولعل العلم يشاركه فيه غيره بقدر، ولكن في مواقفه هذه لم يشاركه أحد.

لقد أقام الفضيلة والأخلاق عندما صار رجل دمشق وحاكمها غير المتوج عندما فرَّ حكامها في سنة ٦٩٩هـ، وأصبح إنكار المنكر حقاً عليه بالفعل لا بالقول والقلب، إذ صار مبسوط اليد والسلطان فيها، رأىٰ الحانات والخمور فأخذ هو وصحبه وقد صاروا حكام الساعة، فحطموا أواني الخمر، وشقوا قربها، وأراقوا الخمور، وعزَّروا أصحاب الحانات المتَّخذة للفواحش، فلقي ذلك من العامة ترحيباً، إذ رأوا حكم القرآن ينفذ، وعهد الرسول ﷺ يعود»[٢].

لقد حقق اللّه النصر علىٰ يد هذا الإمام الكبير والمجاهد العظيم وكان سبباً في كسر التتار وجلائهم عن الديار بكل أنواع الذل والصغار. ـ كما سيأتي بيانه ـ واستمرت المحن ضد الشيخ حتىٰ نجحت مساعيهم باعتقاله وإرهابه واستمر جهاده من داخل أسوار السجن حتىٰ فوجىء الناس بسماع

---

(١) المرجع السابق، (ص: ٣٣).

(٢) المرجع السابق، (ص: ٣٦).

نعيه علىٰ أسواره.

وكان رضي اللّه عنه يقول[١]: إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل الزمان، فلا تنظر إلىٰ زحامهم في أبواب الجوامع، ولا ضجيجهم في الموقف بلبيك، وإنما انظر إلىٰ مواطأتهم أعداء الشريعة، عاش ابن الراوندي والمعري عليهما لعائن اللّه ينظمون وينثرون، هذا يقول: حديث خرافة، والمعري يقول:

تلوا باطلاً وَجَلَوْا صارماً وقالوا صدقنا، فقلنا نعم

يعني بالباطل: كتاب اللّه عز وجل. وعاشوا سنين وعُظّمت قبورهم، واشتريت تصانيفهم، وهذا يدل علىٰ برودة الدين في القلب. اهـ.

وكان يقول[٢]: الدين الحق لا بد فيه من الكتاب الهادي والسيف الناصر، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ﴾ [الحديد: ٢٥].

فالكتاب يبين ما أمر اللّه به وما نهىٰ عنه، والسيف ينصر ذلك ويؤيده.

«وعُقد مجلس لشيخ الإسلام يسأل فيه عن اعتقاده، وعما كتبه إلىٰ الديار المصرية، من الكتب التي تدعو إلىٰ الاعتقاد، وذلك لما سعىٰ إليه قوم من الجهمية والاتحادية والرافضة وغيرهم من ذوي الأحقاد، وجُمع قضاة المذاهب الأربعة، وغيرهم من نوابهم، والمفتين والمشايخ،

---

(١) «الآداب الشرعية» لابن مفلح المقدسي (١ / ٣٠٩).
(٢) «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (١ / ٥٣١ ـ ٥٣٢).

ممن له حرمة وبه اعتداد، فصدع بالحق وقال بحضرة الأمير وقد غضب غضباً شديداً:

من الذي قام بالإسلام أوقات الحاجة غيري؟

ومن الذي أوضح دلائله وبينه؟

وجاهد أعداءه وأقامه لما مال؟

حين تخلىٰ عنه كل أحد ولا أحد ينطق بحجته ولا أحد يجاهد عنه، وقمت مظهراً لحجته مجاهداً عنه مرغباً فيه[١]؟».

ولقد عمل رضي الله عنه علىٰ إرساء قواعد الإسلام وعُني بالتوحيد والعقيدة ونشرها ودافع عنها ونافح، ولم يقبل التنازل أو التفاوض عن هذه القضية، حتىٰ قال[٢]:

«إن هذه القضية ليس الحق فيها لي بل لله ولرسوله وللمؤمنين من شرق الأرض إلىٰ مغربها، وأنا لا يمكنني أن أبدل الدين، ولا أنكس راية المسلمين، ولا أرتد عن دين الإسلام لأجل فلان وفلان، نعم يمكنني أن لا أنتصر لنفسي، ولا أجازي من أساء إليَّ وافترىٰ عليَّ ولا أطلب حظي ولا أقصد إيذاء أحد بحقي، وهذا كله مبذول مني ولله الحمد ونفسي طيبة بذلك، وكنت قد قلت: الضرر في هذه القضية ليس عليَّ بل عليكم، فإن الذين أثاروها من أعداء الإسلام، الذين يبغضونه، ويبغضون أولياءه والمجاهدين عنه، ويختارون انتصار أعدائه من التتار وغيرهم، وهم دبروا عليكم حيلة يفسدون بها ملتكم ودولتكم».

---

(١) انظر (ص: ٣٠١) من هذا الكتاب.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢١٤ـ ٢١٥).

وقال: «فأنا علىٰ أي شيء أخاف؟! إن قتلت كنت من أفضل الشهداء! وكان عليَّ الرحمة والرضوان إلىٰ يوم القيامة! وكان علىٰ من قتلني اللعنة الدائمة في الدنيا والعذاب في الآخرة! ليعلم كل من يؤمن بالله ورسوله أني قتلت لأجل دين الله، وإن حبست فالحبس في حقي من أعظم نعم الله عليَّ، ووالله ما أطيق أن أشكر نعمة الله عليَّ في هذا الحبس، وليس لي ما أخاف الناس عليه! لا إقطاعي! ولا مدرستي! ولا مالي! ولا رياستي وجاهي!

وإنما الخوف عليكم إذا ذهب ما أنتم فيه من الرياسة والمال، وفسد دينكم الذي تنالون به سعادة الدنيا والآخرة، وهذا كان مقصود العدو الذي أثار هذه الفتنة»[١].

ولما أُكِّد عليه أن يتنازل عن عقيدته وأن يكتب ورقة في ذلك ليخرج من سجنه، قال لهم: تدعونني أن أكتب بخطي أنه ليس فوق العرش إلٰه يعبد، ولا في المصاحف قرآن، ولا لله في الأرض كلام! ودق بعمامته الأرض وقام واقفاً، ورفع برأسه إلىٰ السماء وقال: اللّهم إني أشهدك علىٰ أنهم يدعونني أن أكفر بك وبكتبك ورسلك، وأن هذا الشيء ما أعمله.

اللّهم أنزل بهم بأسك الذي لا ترده عن القوم المجرمين، نفذت فيهم سهام الله.

والله لتقلبن دولة بيبرس أسفلها أعلاها، ويكون أعزُّ من فيها أذلَّ من فيها، ولينتقمن الله من الكبير والصغير، وكم أجد عليهم وما

---

(١) المرجع السابق (٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦).

أدعو عليهم!»[١].

ولقد أبان شيخ الإسلام أن المقصود من مساءلته ومناقشته فيما يورده من نصوص الكتاب والسنة وإلزام المسلمين بهما لم يكن المقصود منه الحكم الشرعي؛ فقال كاشفاً المؤامرة والمتآمرين الساعين لاعتقاله وإراقة دمه:

«أنتم ما كان مقصودكم الحكم الشرعي، وإنما كان مقصودكم دفع ما سمعتموه من تهمة الملك»!

ولقد استنكر رضي الله عنه سجنه وحبسهم إيّاه فقال:

« . . . فلما ذهبوا بي إلىٰ الحبس حكم بما حكم به، وأثبت ما أثبت، وأمر في الكتاب السلطان بما أمر به، فهل يقول أحد من اليهود أو النصارىٰ ـ دعِ المسلمين ـ: إن هذا حَبْس بالشرع؟! فضلاً عن أن يقال: شرع محمد ابن عبد الله، وهذا مما يعلم الصبيان الصغار بالاضطرار من دين الإسلام أنه مخالف لشرع محمد بن عبد الله.

وهذا الحاكم وذووه دائماً يقولون: فعلنا ما فعلنا بشرع محمد بن عبد الله. وهذا الحكم مخالف لشرع الله الذي أجمع المسلمون عليه من أكثر من عشرين وجهاً»!

ويستنكر رضي الله عنه السجن الذي سجن فيه وما فيه من شدائد، وأن اليهود والنصارىٰ وعبدة الأوثان أحسن حالاً ومكاناً، ويستنكر اعتقال

---

(١) «ناحية من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» بقلم خادمه إبراهيم بن أحمد الغياني (ص: ٢٨ ـ ٢٩).

جماعته وتبرير ذلك باسم الشرع!

ويقول: ثم النصارىٰ في حبس حسن يشركون فيه باللّه، ويتخذون فيه الكنائس! فياليت حبسنا كان من جنس حبس النصارىٰ! وياليتنا سُوِّينا بالمشركين، وعباد الأوثان! بل لأولئك الكرامة ولنا الهوان. فهل يقول من يؤمن باللّه واليوم الآخر: إن رسول اللّه أمر بهذا؟! وبأي ذنب حبس إخوتي في دين الإسلام غير الكذب والبهتان؟! ومن قال: إن ذلك فُعِل بالشرع فقد كفر بإجماع المسلمين»[1]!!

وكان رضي اللّه عنه لا يأبه بخصومه لمعرفته بما هم منطوون عليه من باطل القول وزخرفه وإمعانهم في البعد عن التقيد بالكتاب والسنة، فقد اتفق الصوفية ـ بمصر ـ أن يشكوا الشيخ إلىٰ السلطان فطلع منهم خلق إلىٰ القلعة، وكان منهم خلق تحت القلعة، فكانت لهم ضجة شديدة حتىٰ قال السلطان: ما لهؤلاء؟ فقيل له: كلهم قد جاؤوا يشكون ابن تيمية.

وكان بعض الناس يأتون الشيخ فيقول له: إن الناس قد جمعوا لك جمعاً كثيراً، فيقول: حسبنا اللّه ونعم الوكيل.

ولما عُقِد للشيخ مجلس «بدار العدل» وتفرق الناس بعد انقضائه، قام الشيخ ومعه جماعة من أصحابه، فلما جلس أصحابه استلقىٰ الشيخ علىٰ ظهره، وكان هناك حجر لأجل تثقيل الحصير فأخذه ووضعه تحت رأسه فاضطجع قليلاً ثم جلس، وقال له إنسان: يا سيدي قد أكثر الناس عليك؟

---

(١) انظر (ص: ٣٦١ ـ ٣٦٢) من هذا الكتاب.

فقال: إن هم إلا كالذباب، ورفع كفّه إلىٰ فيه ونفخ فيه[١].

ولما جاء التدامرة لإبرام الصلح وإخراجه من السجن، قالوا له: كلُّ هذا يعملونه حتىٰ توافقهم، وهم عاملون علىٰ قتلك أو نفيك أو حبسك.

فقال لهم: أنا إن قتلت كانت لي شهادة، وإن نفوني كانت لي هجرة، ولو نفوني إلىٰ قبرص لدعوت أهلها إلىٰ اللّه وأجابوني، وإن حبسوني كان لي معبداً.

وأنا مثل الغنمة كيفما تقلبت تقلبت علىٰ صوف، فيئسوا منه وانصرفوا[٢].

«وكان رضي اللّه عنه يقول عندما تشتد المحن والابتلاءات، مع ثباته علىٰ الحق والدعوة إليه:

ما يصنع أعدائي بي؟! أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

نعم، لقد عجز كيد المرجفين، وعداوة الحاسدين وخشونة سجون الظالمين عن النيل من شموخ شيخ الإسلام ابن تيمية وعلو همته»[٣].

---

(١) «العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» لابن عبد الهادي (ص: ٢٦٨).
(٢) «ناحية من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» للغياني (ص: ٣٠).
(٣) «العلماء وأمانة الكلمة» للشيخ محمد بن سرور زين العابدين (ص: ٤٥ ـ ٤٦).

وأخيراً، فإن في كتابنا هذا تسمع أقوالاً وترىٰ أفعالاً وحكايات وبحوثاً ومناظرات تُنبي عن علو منزلة الشيخ وأنه إمام السلفية في عصره وفي العصور التي أتت من بعده وإلىٰ يومنا هذا وغدنا البعيد، وإن تجديده للدين لم يزل حتىٰ اليوم: يُنهل من علمه، ويُقتنص من فوائده، وتُذاع بين الناس بالدرس والتدريس والكتابة والتلخيص، حتىٰ كثر تلاميذه بالوجادة، وعُرِفوا علىٰ مدىٰ الدهور والعصور بالعلماء العاملين والدعاة الربانيين وأهل السنة السلفيين والمجاهدين التيميين، ولا يزال يَتناوب علىٰ إحياء فكره أهل الحق من عمالقةِ علماءِ أمتنا المجاهدين المرضيين، حتىٰ قال فيه المستشرق جولد تسيهر: وضع ابن تيمية ألغاماً في الأرض، فَجَّر بعضها محمد بن عبد الوهاب، وبقي بعضها لم يفجر حتىٰ الآن!

ولقد صدق شيخنا الألباني لما قال: ابن تيمية من نوادر الزمان، وقلما تلد مثله النسوان.

ورحم اللّه من قال: إن دراسة هذا الإمام الجليل تعطينا صورة لفقيه قد اتصل بالحياة، وتعلق قلبه وعقله وفكره بالكتاب والسنة والهدي النبوي، والسلف الصالح، رضوان اللّه عليهم أجمعين، فهو يأتي بفكر سلفي سليم آخذ بأحكام القرآن الكريم، والسنة النبوية، يعالج به مشاكل الحياة الواقعة بالقسطاس المستقيم، بل يلقي في حقل الحياة العاملة الكادحة المتوثبة بالبذرة الصالحة التي استنبطها من الكتاب والسنة فتنبت الزرع وتخرج الثمر، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها[١].

---

(١) «ابن تيمية» لأبي زهرة، (ص: ٦).

وسبحانك اللّهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وكتب

إسلام العبادي

* * *



الفصل الأول

نواحٍ من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية

(٦٦١هـ ـ ٧٢٨هـ)

[ابن تيمية]

هو الشيخ الإمام الرباني إمام الأئمة، ومفتي الأمة، وبحر العلوم، سيد الحفاظ، وفارس المعاني والألفاظ، فريد العصر، وقريع الدهر شيخ الإسلام، بركة الأنام، وعلامة الزمان، وترجمان القرآن، علم الزهاد، وأوحد العبّاد، قامع المبتدعين، وآخر المجتهدين تقي[1] الدين أبو العباس: أحمد ابن الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم، ابن الشيخ الإمام العلامة، شيخ الإسلام، مجدالدين أبي البركات عبدالسلام، بن أبي محمد عبدالله، بن أبي القاسم الخضر، بن محمد بن الخضر بن علي بن عبدالله بن تيمية [النُّميري][2] الحَرَّاني، نزيل دمشق وصاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها[3]. اهـ.

قال العلامة بكر بن عبدالله أبو زيد تحت ـ شيخ الإسلام ـ: «لا نعرف في علماء الإسلام من فاقت شهرته بهذا اللقب بحيث ينصرف إليه، ولو لم يقرن باسمه سوىٰ: شيخ الإسلام ابن تيمية أحمد بن عبدالحليم بن

---

(١) وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ يَكْرَهُ تَلقيبَهُ بتقيِّ الدِّين، ويقول: «الكنَّ أهلي لقَّبوني بذلك فاشتهر». اهـ. «معجم المناهي اللفظية» لبكر أبو زيد (ص: ٥٦٤).

(٢) نسبته «النُّميري» من إفادات تلميذ تلامذته ابن ناصر الدين، وتابعه عليها العدوي في «الزيادات». اهـ. «مقدمة الجامع» (ص: س) لبكر أبو زيد.

(٣) «العقود الدرية» (ص: ٢).

عبدالسلام النُّميري الحنبلي السلفي المجتهد المطلق»[1]. اهـ.

[اختلاف العلماء في علة تسمية الأسرة بابن تيمية]

قيل[2]: إن جده محمد بن الخضر[3] حجَّ على دَرْب تَيْماء، فرأى هناك طفلة، فلما رجع وجد امرأته قد ولدت له بنتاً فقال: يا تيمية، يا تيمية، فلقب بذلك.

قال ابن النجار: ذكر لنا أن جده محمداً كانت أمه تسمى تيمية وكانت واعظة فنسب إليها[4] وعرف بها. اهـ.

قلت: قال الحافظ الذهبي في «ذيل تاريخ الإسلام»[5]، والعلامة الصفدي في «أعيان العصر»[6]: وتيمية لقبٌ لجدّه الأعلى. اهـ.

[والد ابن تيمية (ت ٦٨٢)]

قال الحافظ ابن كثير[7]: الشيخ الإمام العالم شهاب الدين عبدالحليم ابن الشيخ الإمام العلامة[8] مجد الدين عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم

---

(١) «معجم المناهي اللفظية» (ص: ٣٢٢).

(٢) «العقود الدرية» (ص: ٢)، وانظر «الذيل على طبقات الحنابلة» لابن رجب الحنبلي (٢ / ١٦١).

(٣) انظر ترجمته في «السِّير» (٢٢/ ٢٨٨ ـ ٢٩٠).

(٤) وبهذا القول جزم الحافظ ابن كثير النسبة وأنها أم أحد أجداده الأبعدين. «الباعث الحثيث» (ص: ٢٢٨).

(٥) «ثلاث تراجم نفيسة» (ص: ٢٢).

(٦) «أعيان العصر وأعوان النصر» للعلامة الصفدي (١ / ١٦٣).

(٧) «البداية والنهاية» (١٣ / ٣٢٠).

(٨) قال شيخ الإسلام: كان جدّنا عجباً في سرد المتون وحفظ مذاهب الناس وإيرادها بلا كُلفة. اهـ. انظر «السِّير» (٢٣/ ٢٩١ ـ ٢٩٣).

ابن تيمية الحراني، والد شيخنا العلامة العلم تقي الدين ابن تيمية.

مفتي الفرق، الفارق بين الفرق، كان له فضيلة حسنة، ولديه فضائل كثيرة، وكان له كرسي بجامع دمشق يتكلم عليه عن ظاهر قلبه، وولي مشيخة دار الحديث «السكرية»[1] بالقصاعين، وبها كان سكنه ثم دَرَّسَ ولده الشيخ تقي الدين بها بعده في السنة الآتية[2]، ودفن بمقابر «الصوفية».

[والدة شيخ الإسلام]

الشيخة الصالحة ست النِّعم بنت عبدالرحمن بن علي بن عبدوس الحرانية، والدة الشيخ تقي الدين ابن تيمية، عمرت فوق السبعين سنة، ولم ترزق بنتاً قط، توفيت يوم الأربعاء العشرين من شوال[3]، ودفنت بالصوفية، وحضر جنازتها خلق كثير وجم غفير رحمها الله[4]. اهـ.

قلت: كان شيخ الإسلام بها براً ولها واداً ومحباً، له رسالة كتبها إليها أثناء إقامته بمصر، أفصح بها عن مشاعر الحنان والشوق والاحترام تجاهها[5].

وكانت مدة غيبته عنها وهو في مصر أكثر من سبع سنوات، ووصل دمشق في مستهل ذي القعدة سنة ٧١٢ وهي على قيد الحياة[6].

---

(١) قال ابن بدران: وقد اندرست آثارها، وذهبت رسومها. اهـ. انظر «منادمة الأطلال» (ص: ٤٥ ـ ٤٦).

(٢) (٦٨٣هـ).

(٣) (سنة ٧١٦هـ).

(٤) «البداية والنهاية» (١٤ / ٨١).

(٥) كما سيأتي في نص الرسالة (ص: ١٢٢).

(٦) انظر «الدرر الكامنة» (١ / ١٤٩).

وكان لها من الولد أربعة: الأول الإمام بدر الدين أبو القاسم محمد ابن خالد بن إبراهيم الحَرَّاني[1]، وهو أخو شيخ الإسلام لأمه. والثاني: شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبدالسلام ابن تيمية الحَرَّاني[2]. والثالث: الإمام زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحَرَّاني[3]. والرابع: الإمام شرف الدين عبدالله بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية الحَرَّاني[4].

[مولد الشيخ تقي الدين ابن تيمية شيخ الإسلام]

قال الشيخ شمس الدين الذهبي: ولد شيخنا تقي الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ شهاب الدين عبدالحليم بن أبي القاسم ابن تيمية الحراني بحران[5] يوم الاثنين عاشر ربيع الأول من سنة إحدى وستين وستمائة[6].

[خروج شيخ الإسلام من حران وعمره ست سنوات]

قال الحافظ ابن كثير: وفيها[7] خرج أهل «حران» منها وقدموا الشام،

---

(١) (٦٥٠هـ - ٧١٧هـ).

(٢) (٦٦١هـ - ٧٢٨هـ).

(٣) (٦٦٣هـ - ٧٤٧هـ).

(٤) (٦٦٦هـ - ٧٢٧هـ).

(٥) حران بلدة قديمة تقع شمالي شرق الجمهورية التركية: قرب أورفة.
والنسبة إليها: حراني وهو الشايع. والصواب: حرناني كما في «القاموس» و«تاج العروس». ومن زعم أنه منسوب إلى «حران العواميد» كالمنجد وغيره فقد وهم، فهذه شرقي دمشق وكانت تسمى: «حران المرج» وهذه قصبة ديار مُضر. اهـ مختصراً من حاشية الأستاذ الشاويش على «الأعلام» (ص: ١٨)، وانظر «الجامع» (ص: ٤٢٥، ومقدمته ص: س).

(٦) «البداية والنهاية» (١٣/ ٢٥٥).

(٧) (سنة ٦٦٧هـ).

وكان فيهم شيخنا العلامة أبو العباس أحمد ابن تيمية صحبة أبيه وعمره ست سنين، وأخوه زين الدين عبدالرحمن وشرف الدين عبدالله وهما أصغر منه[1]. اهـ.

قال في «العقود»[2]: سافر والده به وبإخوته إلى الشام عند جور التتار، فساروا بالليل ومعهم الكتب على عجلة، لعدم الدواب، فكاد العدو يلحقهم، ووقفت العجلة، فابتهلوا إلى الله واستغاثوا به فنجوا وسلموا. اهـ.

[صفة ابن تيمية الخَلقية والخُلقية]

قال الحافظ الذهبي: كان الشيخ أبيض، أسود الشعر واللحية، قليل الشيب، شَعره إلى شحمة أُذنيه، كأنَّ عينيه لسانان ناطقان، رَبْعَةً من الرِّجال، بعيدَ ما بين المنكبين، جهوري الصوت فصيحاً، سريع القراءة، تعتريه حِدَّةٌ، ثُمَّ يقهرها بحلم وصفح، وإليه كان المنتهى في فرط الشجاعة والسماحة وقوة الذكاء، ولم أرَ مثله في ابتهاله واستغاثته بالله تعالى وكثرة توجهه[3]. اهـ.

وقال: ولم يتزوج ولا تسرى، ولا له من المعلوم إلا شيء قليل، وأخوه يقوم بمصالحه، ولا يطلب منهم غداء ولا عشاء في غالب الوقت.

---

(١) «البداية والنهاية» (١٣ / ٢٦٩).

(٢) «العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» للحافظ ابن عبد الهادي الحنبلي (ص: ٢).

(٣) «ذيل تاريخ الإسلام»، «ثلاث تراجم نفيسة» (ص: ٢٦ ـ ٢٧).

وما رأيت في العالم أكرم منه، ولا أفرغ منه عن الدينار والدرهم، لا يذكره ولا أظنه يدور في ذهنه.

وفيه مروءة، وقيام مع أصحابه، وسعي في مصالحهم.

وهو فقير لا مال له، وملبوسه كآحاد الفقهاء، فَرَّجِيَّة ودِلْق، وعمامة تكون قيمة ثلاثين درهماً، ومداس خفيف الثمن، وشعره مقصوص.

ويصلي بالناس صلاة لا يكون أطول من ركوعها وسجودها.

وربما قام لمن يجيء من سفر أو غاب عنه، وإذا جاء فربما يقومون له، الكل عنده سواء كأنه فارغ من هذه الرسوم، ولم ينحن لأحد قط، وإنما يسلم ويصافح ويبتسم، وقد يعظم جليسه مرة، ويهينه في المحاورة مرات[1]. اهـ.

[بعض علماء حلب يمتحن ابن تيمية في الحفظ وهو صبي بعد ذيوع صيته في سرعة الحفظ]

اتفق أن بعض مشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق وقال: سمعت في البلاد بصبي يقال له: أحمد ابن تيمية وأنه سريع الحفظ، وقد جئت قاصداً لعلّي أراه.

فقال له خياط: هذه طريق كتّابه، وهو إلى الآن ما جاء، فاقعد عندنا الساعة يجيء يَعْبرُ علينا ذاهباً إلى الكتّاب.

فجلس الشيخ الحلبي قليلاً، فمر الصبيان، فقال الخياط للحلبي: هذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد ابن تيمية.

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٤ / ٣٩٥).

فناداه الشيخ فجاء إليه، فتناول الشيخ اللوح فنظر فيه ثم قال: يا ولدي؛ امسح هذا حتى أملي عليك شيئاً تكتبه. ففعل فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثاً، وقال له: اقرأ هذا.

فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته إياه ثم دفعه إليه. وقال: اسمعه عليَّ، فقرأه عليه عرضاً كأحسن ما أنت سامع.

فقال له: يا ولدي؛ امسح هذا ففعل فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها ثم قال: اقرأ هذا، فنظر فيه كما فعل أول مرة. فقام الشيخ وهو يقول: إن عاش هذا الصبيّ ليكونن له شأن عظيم فإن هذا لم ير مثله! أو كما قال[1].

[من عجائب حفظ شيخ الإسلام ابن تيمية]

قال الإمام أبو المظفر السُّرمُرّي[2] في المجلس السابع والستين من «أماليه» في الذكر والحفظ: ومن عجائب ما وقع في الحفظ في أهل زماننا شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.

فإنه كان يمر بالكتاب فيطالعه مرة فينتقش في ذهنه، فيذاكر به وينقله في مصنفاته بلفظه ومعناه.

ومن أعجب ما سمعته عنه ما حدثني به بعض أصحابه: أنه لما كان صبياً في بداية أمره أراد والده أن يخرج بأولاده يوماً إلى البستان على سبيل التنزه، فقال له: يا أحمد؛ تخرج مع إخوتك تستريح. فاعتل عليه، فألحَّ عليه والده فامتنع أشدَّ الامتناع.

---

(١) «العقود الدرية» (ص: ٤).

(٢) الإمام العلامة الحافظ أبو المظفر يوسف بن محمد بن مسعود العبادي ثم العُقيلي السُّرمُرّي نزيل دمشق الحنبلي (ت ٧٧٦)، انظر «الرد الوافر» (ص: ٢٣٢).

فقال: أشتهي أن تعفيني من الخروج. فتركه وخرج بإخوته، فظلوا يومهم في البستان ورجعوا آخر النهار.

فقال: يا أحمد؛ أوحشت إخوتك اليوم وتكدر عليهم بسبب غيبتك عنهم فما هذا؟

فقال: يا سيدي؛ إنني اليوم حفظت هذا الكتاب ـ لكتاب معه ـ.

فقال: حفظته!! كالمنكر المتعجب من قوله.

فقال له: استعرضه عليَّ، فاستعرضه، فإذا به قد حفظه جميعه، فأخذه وقبله بين عينيه، وقال: يا بني؛ لا تخبر أحداً بما قد فعلت. خوفاً عليه من العين. أو كما قال[1].

[تعيين الكتاب الذي حفظه في يوم]

قال العلامة الصفدي: قيل: إن أباه وأخاه وأهله، وآخرين ممن يلوذون بظله، سألوه أن يروح معهم يوم سبت ليتفرج، فهرب منهم وما ألوى عليهم ولا عرج، فلما عادوا آخر النهار لاموه على تخلفه، وتركه لاتباعهم وما في انفراده من تَكْلُفة.

فقال: أنتم ما تزيَّد لكم شيءٌ ولا تجدّدَ، وأنا حفظت في غيبتكم هذا المجلد. وكان ذلك كتاب «جَنّة الناظر وجُنّة المُناظر»[2] وهو مجلد صغير وأمره شهير.

---

(١) «الرد الوافر» (ص: ٢٣٤ ـ ٢٣٥).

(٢) «روضة الناظر وجنة المناظر» في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، تصنيف الإمام الفقيه موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠هـ)، ويقع الكتاب في (٣٥٠) صفحة من القطع الوسط.

لا جَرَم أنه كان في أرض العلوم حارثاً وهو همام، وعلومه ـ كما يقول الناس ـ تدخل معه الحمَّام[1].

[طرف من نشأة شيخ الإسلام ومبدأ أمره]

قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي: نشأ ـ يعني الشيخ تقي الدين رحمه اللّه ـ في تصوُّنٍ تامٍّ وعفاف وتألُّهٍ وتعبُّد واقتصادٍ في الملبس والمأكل.

وكان يحضر المدارس والمحافِل في صغره، ويُناظرُ ويُفحِمُ الكبار ويأتي بما يتحيّر منه أعيان البلد في العلم، فأفتى وله تسع عشرة سنة بل أقلّ.

وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت، وأكبَّ على الاشتغال.

ومات والده ـ وكان من كبار الحنابلة وأئمتهم ـ فدرّس بعده بوظائفه وله إحدى وعشرون سنة.

واشتُهِرَ أمره وبَعُد صيته في العالَم وأخذ في تفسير الكتاب العزيز في الجُمَع على الكرسيّ من حفظه، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم، وكذا كان الدرس بتؤدة وصوْتٍ جهوريٍّ فصيح.

قال الحافظ ابن عبد الهادي: وقال بعض قدماء أصحاب شيخنا ـ وقد ذكر نبذة من سيرته ـ:

أما مبدأ أمره ونشأته، فقد نشأ من حين نشأ في حجور العلماء، راشفاً كؤوس الفهم راتعاً في رياض التفقه ودوحات الكتب الجامعة لكل فن من الفنون لا يلوي إلى غير المطالعة والاشتغال والأخذ بمعالي الأمور خصوصاً علم الكتاب العزيز والسنة النبوية ولوازمها.

---

(١) «أعيان العصر» (١ / ١٣٧).

ولم يزل على ذلك خلفاً صالحاً سلفياً متألهاً عن الدنيا صَيِّناً تقياً براً بأمه ورعاً عفيفاً عابداً ناسكاً صواماً قواماً.

ذاكراً لله تعالى في كل أمر وعلى كل حال رجاعاً إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا وقّافاً عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه.

آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر بالمعروف، لا تكاد نفسه تشبع من العلم فلا تروى من المطالعة ولا تملُّ من الاشتغال ولا تكلُّ من البحث.

وقلَّ أن يدخل في علم من العلوم من باب من أبوابه إلا ويفتح له من الباب أبواب ويستدرك مستدركات في ذلك العلم على حذاق أهله، مقصوده الكتاب والسنة.

ولقد سمعته في مبادىء أمره يقول: إنّه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تشكُل عليّ، فأستغفر الله تعالى ألفَ مرّة أو أكثر أو أقلّ، حتى ينشرح الصدر وينحلَّ إشكال ما أشكل.

قال: وأكونُ إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أنْ أنال مطلوبي[1].

قال هذا الصاحب: ولقد كنتُ في تلك المدة وأوّل النشأة إذا اجتمعتُ به في ختمٍ أو مجلس ذِكْر خاص مع أحد المشايخ المذكورين وتذاكروا وتكلم مع حداثة سنِّه أجد لكلامه صولةً في القلوب، وتأثيراً في النفوس وهيبةً مقبولة ونفعاً يظهر أثره، وتنفعل له النفوس التي سمعته أيّاماً كثيرة بعقبه.

---

(١) «العقود الدرية» (ص: ٥ ـ ٦).

حتى كان مقاله بلسان حاله وحاله ظاهر في مقاله شهدتُ ذلك منه غير مرة.

قلت[1]: ثم لم يبرح شيخنا رحمه الله في ازدياد من العلوم، وملازمة الاشتغال والإشغال، وبث العلم ونشره والاجتهاد في سبل الخير حتى انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل والزهد والورع والشجاعة والكرم والتواضع والحلم والإنابة والجلالة والمهابة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسائر أنواع الجهاد، مع الصدق والعفة والصيانة وحسن القصد والإخلاص والابتهال إلى الله وكثرة الخوف منه وكثرة المراقبة له وشدة التمسك بالأثر والدعاء إلى الله وحسن الأخلاق ونفع الخلق والإحسان إليهم والصبر على من آذاه والصفح عنه والدعاء له وسائر أنواع الخير.

وكان رحمه الله سيفاً مسلولاً على المخالفين وشجىً في حلوق أهل الأهواء المبتدعين وإماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين وكان بحراً لا تكدره الدلاء وحبراً يقتدي به الأخيار الألباء، طَنَّت بذكره الأمصار وضَنَّت بمثله الأعصار.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج[2]: ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه[3]. اهـ.

---

(١) أي: الحافظ ابن عبد الهادي.

(٢) سيأتي التعريف به.

(٣) «العقود الدرية» (ص: ٤ ـ ٧).

[ابن تيمية يعاهد ربه في صباه أن لا يأخذ على القرآن أجرا]

قال الحافظ البزار: حدثني من أثِقُ به عن شيخه الذي علّمه القرآن المجيد. قال: قال لي أبوه وهو صبي - يعني الشيخ -: أحب إليك توصيه وتعِدُه بأنّك إنْ لم تنقطع عن القراءة والتلقين، أدفعُ إليك كل شهرٍ أربعين درهماً.

قال: ودفع إليَّ أربعين درهماً.

وقال: أعطِه إيّاها فإنّه صغيرٌ وربّما يفرحُ بها فيزدادُ حِرصُه في الاشتغالِ بحفظِ القرآنِ ودَرْسِه. وقُلْ له: لك في كلِّ شهرٍ مثلها فامتنع من قبولها.

وقال: يا سيِّدي إنِّي عاهدتُ الله تعالى أن لا آخذَ على القرآن أجراً، ولم يأخذها فرأيتُ أنّ هذا لا يقعُ من صبيٍّ إلاّ لما فيه من العناية.

قال البزار: وصدق شيخُه فإنّ عناية الله هي التي أوصلَتهُ إلى ما وصلَ من كلِّ خيرٍ من صغره إلى كِبره، ولقد اتّفق كلُّ من رآه - خصوصاً من أطال ملازمته - أنّه ما رأى مثله في الزُّهدِ في الدنيا، حتى لقد صارَ ذلكَ مشهوراً. بحيث قد استقرّ في قلبِ القريبِ والبعيد مِن كلِّ مَنْ سمع بِصفاته على وجهها.

بل لو سُئِل عامِيّ مِن أهل بلدٍ بعيدة عن الشيخ مَنْ كان أزهدَ أهل هذا العصر وأكملهم في رفض فضولِ الدنيا وأحرصهم على طلَبِ الآخرة، لقالَ: ما سمعتُ بمثلِ ابن تيميّة. وما اشتهر له في ذلك إلاّ لمبالغته فيه، مع تصحيحِ النيّة[1]. اهـ.

---

(١) «الأعلام العلية» (ص: ٢٧ ـ ٢٨).

[أصبح ابن تيمية من كبار العلماء في حياة شيوخه]

وقال الشيخ علم الدين[1]: رأيت في إجازة لابن الشهرزوري الموصلي[2]، خطّ الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وقد كتب تحته شمس الدين الذهبي:

هذا خطُّ شيخنا الإمام، شيخ الإسلام، فرد الزمان، بحر العلوم، تقي الدين، مولده عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة.

وقرأ القرآن والفقه، وناظر واستدل، وهو دون البلوغ وبرع في العلم والتفسير، وأفتى ودرس وله نحو العشرين سنة. وصنف التصانيف، وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه، وله من المصنفات الكبار التي سارت بها الركبان، ولعلّ تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر.

وفسّر كتاب الله تعالى مدة سنتين من صدره أيام الجمع، وكان يتوقد ذكاء، وسماعاته من الحديث كثيرة وشيوخه أكثر من مائتي شيخ ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى.

وحفظه للحديث ورجاله وصحته وسقمه فما يلحق فيه.

وأمّا نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين ـ فضلاً عن المذاهب الأربعة ـ فليس له فيها نظير.

وأمّا معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا أعلم له فيه نظيراً.

---

(١) البرزالي، يأتي التعريف به.

(٢) أبو عمرو شيخ الإسلام عثمان بن عبد الرحمن بن موسى الشهرزوري الموصلي الشافعي (ت ٦٤٣). «البداية والنهاية» (١٣ / ١٧٩ ـ ١٨٠) «سير أعلام النبلاء» (٢٣ / ١٤٠ ـ ١٤٤).

ويدري جملة صالحة من اللغة وعربيته قوية جداً.

ومعرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب.

وأما شجاعته وجهاده وإقدامه فأمر يتجاوز الوصف ويفوق النعت. وهو أحد الأجواد الأسخياء الذين يضرب بهم المثل. وفيه زهد وقناعة باليسير في المأكل والملبس[1]. اهـ.

* * *

[قيامه بوظائف التدريس بعد وفاة والده وتعليق درس شيخ الإسلام بالسكرية بخط تاج الدين الفزاري وحضور العلماء مجلسه وإطنابهم في الثناء عليه وله إحدى وعشرون سنة]

قال الحافظ أبو عبدالله الذهبي[2]: وكان الشيخ تاج الدين الفزاري يبالغ في تعظيم الشيخ تقيِّ الدين، بحيث أنّه علّق بخطه درسه بالسكرية. اهـ.

وهٰذا الدرس كان بعد موت والد الشيخ تقيِّ الدين في يوم الاثنين ثاني المحرم من سنة ثلاث وثمانين وستمائة بدار الحديث السكرية التي بالقصاعين داخل دمشق، وبها كان سكن الشيخ تقيِّ الدين ووالده من قبل.

وحضر هذا الدرس قاضي القضاة بهاء الدين يوسف بن القاضي محيي الدين أبي الفضل يحيى بن الزكي، وشيخ الإسلام تاج الدين أبو محمد عبد الرحمٰن بن إبراهيم الفزاري المذكور، والشيخ زين الدين أبو حفص عمر بن

---

(١) «العقود» (ص: ٢٢ ـ ٢٣).

(٢) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الشيخ الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبي حافظ الشام، «أعيان العصر» (٣/ ١٥٥٦ ـ ١٥٦٢) و«الدرر الكامنة» (٣/ ٣٣٦ ـ ٣٣٨).

مكي عبدالصمد بن المرحِّل وكيل بيت المال، والد صدر الدين ابن الوكيل الشافعيّون، وشيخ الحنابلة العلامة زين الدين أبو البركات ابن المنجا التّنوخي[1]، وآخرون.

وكان درسه حافلاً، كتبه تاج الدين الفزاري بخطه كما ذكره الذهبي وغيره لكثرة فوائده، وأطنب الحاضرون في شكره، وكان إذ ذاكَ عُمر الشيخ تقيّ الدين ابن تيميّة نحو إحدى وعشرين سنة[2]. اهـ.

[تفسيره للقرآن بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة سنين متطاولة]

قال الحافظ ابن كثير: جلس الشيخ تقي الدين أيضاً يوم الجمعة عاشر صفر[3] في الجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على منبر قد هيئَ له لتفسير القرآن العزيز، فابتدأ من أوله في تفسيره.

وكان يجتمع عنده الخلق الكثير والجم الغفير من كثرة ما كان يورد من العلوم المتنوعة المحررة مع الديانة والزهادة والعبادة. سارت بذكره الركبان في سائر الأقاليم والبلدان واستمر على ذلك مدة سنين متطاولة[4]. اهـ.

قال الإمام الذهبي[5]: ثم جلس عقب ذلك مكان والده بالجامع على منبر أيام الجمع لتفسير القرآن العظيم، وشرع من أول القرآن فكان يورد من

---

(١) تقدمت ترجمة سائر الأعلام.
(٢) «الرد الوافر على مَن زعم بأن من سمَّى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر» للحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي (ص: ١٥٤ ـ ١٥٥).
(٣) (٦٨٣هـ).
(٤) «البداية والنهاية» (١٣ / ٣٢١).
(٥) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢ / ٣٨٨).

حفظه في المجلس نحو كراسين أو أكثر، وبقي يفسر في سورة نوح عدة سنين أيام الجمع. اهـ.

[جملة ثناءات عظيمة على شيخ الإسلام]

حكى الذهبي عن الشيخ[1]: أن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد قال له ـ عند اجتماعه به وسماعه لكلامه ـ: ما كنت أظن أن الله بقي يخلق مثلك[2].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: كان الحافظ أبو الحجاج المزي يبالغ في تعظيم الشيخ والثناء عليه، حتى كان يقول: لم يُر مثله منذ أربعمائة سنة.

[قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي: حدثنا عنه[3] غير واحد من الشيوخ فأنبؤونا عنه: أنه قال عن شيخ الإسلام أبي العباس ابن تيمية: ما رأيتُ مثله، ولا رأى هو مثلَ نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ولا أتبع لهما منه][4].

وبلغني من طريق صحيح عن ابن الزملكاني: أنه سئل عن الشيخ؟ فقال: لم ير من خمسمائة سنة، أو أربعمائة سنة ـ الشك من الناقل. وغالب ظنه: أنه قال: من خمسمائة ـ أحفظ منه.

وكذلك كان أخوه الشيخ شرف الدين يبالغ في تعظيمه جداً، وكذلك المشايخ العارفون، كالقدوة أبي عبدالله محمد بن قوام. ويحكى عنه أنه كان يقول: ما أسلمت معارفنا إلا على يد ابن تيمية.

---

(١) ابن تيمية، «الذيل» (٢ / ٣٩٢ ـ ٣٩٣).
(٢) مضى التعليق على هذه العبارة وما فيها من استشكال في المقدّمة.
(٣) أي: الحافظ المزي.
(٤) «الرد الوافر» (ص: ٢٣٠).

والشيخ عماد الدين الواسطي كان يعظمه جداً، وتتلمذ له، مع أنه كان أسن منه وكان يقول: قد شارف مقام الأئمة الكبار ويناسب قيامه في بعض الأمور قيام الصديقين.

وكتب رسالة[1] إلى خواص أصحاب الشيخ يوصيهم بتعظيمه واحترامه، ويعرفهم حقوقه، ويذكر فيها: أنه طاف أعيان بلاد الإسلام، ولم ير فيها مثل الشيخ علماً وعملاً، وحالاً وخلقاً واتباعاً، وكرماً وحلماً في حق نفسه وقياماً في حق الله تعالى عند انتهاك حرماته وأقسم على ذلك بالله ثلاث مرات.

ثم قال: أصدق الناس عقداً، وأصحهم علماً وعزماً، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه، وأسخاهم كفاً وأكملهم اتباعاً لنبيه محمد ﷺ، ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلى النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، بحيث يشهد القلب الصحيح: أن هذا هو الاتباع حقيقة. اهـ.

وقال الشيخ إبراهيم الرَّقِّي[2]: الشيخ تقي الدين يؤخذ عنه، ويُقلّد في العلوم، فإن طال عمره ملأ الأرض عِلْماً، وهو على الحق ولا بد ما يعاديه الناس فإنه وارث علم النبوة.

وقال قاضي القضاة أبو عبدالله بن الحريري[3]: إن لم يكن ابن تيمية

---

(١) عنوانها «التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار» وهي موجودة بكاملها في «العقود الدرية»، ومطبوعة مفردة أيضاً.

(٢) الإمام إبراهيم بن أحمد بن محمد، أبو إسحاق الرَّقِّي (ت ٧٠٣)، سمع منه الذهبي والبرزالي وغيرهما، «الدرر الكامنة» (١ / ١٤).

(٣) الإمام قاضي قضاة مصر والشام محمد بن عثمان بن أبي الحسن الأنصاري الحنفي (ت=

شيخ الإسلام فمن هو؟[١] اهـ.

وقال **العلامة ابن الوردي**[٢]، في رحلته ـ لمّا ذكر علماء دمشق ـ: وتركت التَعَصُّبَ والحَمِيَّة، وحضرتُ مجالسَ ابن تيمية، فإذا هو بيت القصيدة، وأول الخَريْدة[٣]، علماء زمانه فَلَكٌ هُوَ قُطْبه، وجسمٌ هو قلبُه، يزيد عليهم زيادة الشمس على البدر، والبحر على القَطر، بحثت بين يديه يوماً فأصبت المعنى، فكناني وقبل بين عيني اليمنى، فقلت:

إنَّ ابـــن تيميـــة فـــي كُـــلِّ العلـــوم أَوْحـــدُ
أحيَيْـــتَ ديـــنَ أحمـــد وشـــرعـــه يـــا أحمـــدُ[٤] اهـ

وقال **الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي**: حكى لي بعض الأصحاب عنه[٥]، أنه سئل عن الشيخ تقي الدين ابن تيمية فقال:

هو شيخ الإسلام على الإطلاق.

ولم يزل أعيان علماء الإسلام ممن عاصره ومن جاء من بعده يعظمونه ويعترفون له بعلو الشأن في العلم والورع والزهد[٦]. اهـ.

= ٧٢٨)، «الدرر الكامنة» (٤/ ٣٩ ـ ٤٠).

(١) «الكواكب الدرية» (ص: ٥٦).

(٢) ستأتي ترجمته.

(٣) اللؤلؤة قبل ثقبها، والبكر من النساء. «لسان» (٣/ ١٦٢).

(٤) «الشهادة الزكية» (ص: ٣٠)، ولا حصر لثناء العلماء الكبار على شيخ الإسلام في القديم والحديث، وانظر «الرد الوافر» للحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي، و«بحوث الندوة العالمية عن شيخ الإسلام ابن تيمية وأعماله الخالدة المنعقدة في الهند ١٤٠٨ هـ».

(٥) أي: الإمام المحدث الفقيه زين الدين قاضي المسلمين مفتي الطالبين أبو حفص عمر بن سعيد القرشي (ت ٧٩٢)، «النجوم الزاهرة» (١٢/ ٢٠).

(٦) «الرد الوافر» (ص: ٢١٢ ـ ٢١٤).

[شيخ الإسلام إمام لا يلحق غباره في كل شيء]

قال شيخ الإسلام علم الدين البرزالي[1] في «معجم شيوخه»: أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني، الشيخ تقي الدين أبو العباس الإمام المجمع على فضله ونبله ودينه، قرأ الفقه وبرع فيه والعربية والأصول، ومهر في علمي التفسير والحديث. وكان إماماً لا يلحق غباره في كل شيء، وبلغ رتبة الاجتهاد واجتمعت فيه شروط المجتهدين.

وكان إذا ذكر التفسير بُهت الناس من كثرة محفوظه وحسن إيراده وإعطائه كل قول ما يستحقه من الترجيح والتضعيف والإبطال، وخوضه في كل علم كان الحاضرون يقضون منه العجب، هذا مع انقطاعه إلى الزهد والعبادة والاشتغال بالله تعالى والتجرد من أسباب الدنيا، ودعاء الخلق إلى الله تعالى.

وكان يجلس في صبيحة كل جمعة على الناس يفسر القرآن العظيم فانتفع بمجلسه وبركة دعائه وطهارة أنفاسه وصدق نيته، وصفاء ظاهره وباطنه، وموافقة قوله لعمله، وأناب إلى الله خلق كثير. وجرى على طريقة واحدة من اختيار الفقر والتقلل من الدنيا رحمه الله تعالى، وردَّ ما يُفتح به عليه[2]. اهـ.

---

(١) ستأتي ترجمته.
(٢) «العقود» (ص: ١٢ ـ ١٣).

[شيخ الإسلام رباني الأمة وفريد الزمان ورأس في العلم وصاحب معضلات المسلمين!]

قال الحافظ الذهبي: كان آية في الذكاء وسرعة الإدراك رأساً في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف بحراً في النقليات. هو في زمانه فريد عصره علماً وزهداً وشجاعة وسخاء وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر وكثرة تصانيف.

وقرأ وحصل، وبرع في الحديث والفقه وتأهل للتدريس والفتوى وهو ابن سبع عشرة سنة. وتقدم في علم التفسير والأصول وجميع علوم الإسلام، أصولها وفروعها ودقها وجلها سوى علم القراءات.

فإن ذكر التفسير فهو حامل لوائه، وإن عُدَّ الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا وسرد وأُبلسوا واستغنى وأفلسوا وإن سُمِّي المتكلمون فهو فردهم وإليه مرجعهم.

وإن لاح ابن سينا[1] يَقْدُم الفلاسفة فلَّهم وتيسهم وهتك أستارهم وكشف عوراهم.

وله يد طولى في معرفة العربية والصرف واللغة.

وهو أعظم من أن يصفه كلمي، أو ينبه على شأوه قلمي فإن سيرته

---

(١) قال الإمام الذهبي: هو العلامة الشهير الفيلسوف أبو علي، الحسين بن عبد الله بن الحسن بن سينا، وهو رأس الفلاسفة الإسلامية، لم يأت بعد الفارابي مثله، فالحمد لله على الكتاب والسُّنَّة وقد كفرّه الغزالي في كتاب «المنقذ من الضلال» وكفر الفارابي (ت ٤٢٨). اهـ. انظر «السِّير» (١٧ / ٥٣١ ـ ٥٣٧)، وقد تتبع شيخ الإسلام سقطاته وضلالاته في كتابه «درء تعارض العقل والنقل».

وعلومه ومعارفه ومحنه وتنقلاته تحتمل أن ترصع في مجلدتين.

وهو بشر من البشر له ذنوب فالله تعالى يغفر له ويسكنه أعلى جنته؛ فإنه كان رباني الأمة وفريد الزمان وحامل لواء الشريعة وصاحب معضلات المسلمين، وكان رأساً في العلم يبالغ في إطراء قيامه في الحق والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبالغة ما رأيتها ولا شاهدتها من أحد ولا لحظتها من فقيه.

[كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث]

وقال في مكان آخر[1] ـ ذكر فيه ترجمة طويلة للشيخ قبل وفاة الشيخ بدهر طويل ـ:

وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث وبالعالي والنازل وبالصحيح والسقيم مع حفظه لمتونه الذي انفرد به فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ولا يقاربه.

وهو عجب في استحضاره، واستخراج الحجج منه وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند بحيث يصدق عليه أن يقال: «كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث» ولكن الإحاطة لله. غير أنه يغترف من بحر، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي.

وأما التفسير فمسلم إليه، وله في استحضار الآيات من القرآن ـ وقت إقامة الدليل بها على المسألة ـ قوة عجيبة.

وإذا رآه المقرئ تحير فيه ولفرط إمامته في التفسير وعظمة اطلاعه

---

(١) في «تاريخه الكبير» كما ذكره الحافظ ابن رجب في «الذيل» (٤ / ٣٩١).

يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين، ويوهي أقوالاً عديدة وينصر قولاً واحداً موافقاً لما دل عليه القرآن والحديث.

[بيان مقدار كتابته في اليوم والليلة وتفرده بكثرة التصنيف وقوته في الحرب]

وقال ـ الذهبي ـ أيضاً: ويكتب في اليوم والليل من التفسير أو من الفقه أو من الأصولين أو من الرد على الفلاسفة والأوائل نحواً من أربعة كراريس أو أزيد، وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدة وله في غير مسألة مصنف مفرد في مجلد.

وللشيخ رحمه الله من المصنفات والفتاوى والقواعد والأجوبة والرسائل وغير ذلك من الفوائد ما لا ينضبط.

ولا أعلم أحداً من متقدمي الأمة ولا متأخريها جمع مثل ما جمع ولا صنف نحو ما صنف، ولا قريباً من ذلك مع أن أكثر تصانيفه إنما أملاها من حفظه، وكثير منها صنفه في الحبس وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب[1]. اهـ.

قال ابن القيم[2]: وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سننه وكلامه وإقدامه وكتابه أمراً عجيباً؛ فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمراً عظيماً.

---

(١) انظر «العقود الدرية» (ص: ٢٣ ـ ٢٦).

(٢) «الوابل الصيب» (ص: ٧٢).



[بروزه في سائر العلوم على أبناء جنسه]

قال الشيخ الحافظ فتح الدين أبو الفتح بن سيد الناس اليعمري المصري[١] في شيخ الإسلام:

فألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكان يستوعب السنن والآثار حفظاً، إذا تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالنحل والملل لم ير أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من درايته، برز في كل فن على أبناء جنسه ولم ترَ عينٌ من رآه مثلَه، ولا رأت عينه مثل نفسه.

كان يتكلم في التفسير فيحضر مجلسه الجم الغفير، ويردون من بحر علمه العذب النمير، ويرتعون من ربيع فضله في روضة وغدير، إلى أن دب إليه من أهل بلده داء الحسد، وألَّب أهل النظر منهم على ما ينتقد عليه في حنبليته من أمور المعتقد، فحفظوا عنه في ذلك كلاماً، أوسعوه بسببه ملاماً، وفوقوا لتبديعه سهاماً، وزعموا أنه خالف طريقهم، وفرق فريقهم، فنازعهم ونازعوه، وقاطع بعضهم وقاطعوه.

ثم نازع طائفة أخرى ينتسبون من الفقر إلى طريقة، ويزعمون أنهم على أدق باطن منها وأجلى حقيقة، فكشف تلك الطرائق، وذكر لها ـ على ما زعم ـ بوائق، فآضت إلى الطائفة الأولى من منازعيه، واستعانت بذوي الضغن عليه من مقاطعيه، فوصلوا بالأمراء أمره، وأعمل كل منهم في كفره فكره، فكتبوا محاضر، وألَّبوا الرويبضة للسعي بها بين الأكابر، وسعوا في نقله إلى حضرة المملكة بالديار المصرية، فنقل وأودع السجن ساعة حضوره

(١) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٧٨) و«شذرات الذهب» (٨ / ١٨٩ ـ ١٩٠).

واعتقل، وعقدوا لإراقة دمه مجالس، وحشدوا لذلك قوماً من عمار الزوايا وسكان المدارس، من محامل في المنازعة مخاتل بالمخادعة، ومن مجاهر بالتكفير مبارز بالمقاطعة، يسومونه ريب المنون، ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[1] وليس المجاهر بكفره، بأسوأ حالاً من المخاتل وقد دبت إليه عقارب مكره، فرد الله كيد كلٍّ في نحره، فنجاه على يد من اصطفاه، والله غالب على أمره.

ثم لم يخل بعد ذلك من فتنة بعد فتنة، ولم ينتقل طول عمره من محنة إلا إلى محنة، إلى أن فوض أمره لبعض القضاة فقلد ما تقلد من اعتقاله، ولم يزل بمحبسه ذلك إلى حين ذهابه إلى رحمة الله تعالى وانتقاله، وإلى الله ترجع الأمور، وهو المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وكان يومه مشهوداً ضاقت بجنازته الطريق، وانتابها المسلمون من كل فج عميق، يتبركون بمشهده يوم تقوم الأشهاد، ويتمسكون بشرجعه[2] حتى كسروا تلك الأعواد، وذلك في ليلة العشرين من ذي القعدة سنة (٧٢٨) ثمان وعشرون وسبعمائة بقلعة دمشق المحروسة[3]. اهـ.

[الحافظ البزار يصف دروس شيخ الإسلام]

قال الحافظ البزّار: وأمّا دروسه فقد كنت في حال إقامتي بدمشق لا أفوِّتها، وكان لا يهيِّئ شيئاً من العلم ليلقيه ويورده، بل يجلس بعد أن يصلي ركعتين، فيحمد الله ويثني عليه ويصلي على رسوله ـ ﷺ ـ على صفة مستحسنة مستغربة لم أسمعها من غيره.

---

(١) سورة القصص: الآية ٦٩.

(٢) أي: نعشه.

(٣) «العقود الدرية» (ص: ٩ ـ ١٢).

ثم يشرع فيفتح الله عليه إيراد علومٍ وغوامض ولطائف ودقائق وفنون ونقول واستدلالات بآيات وأحاديث وأقوال العلماء ونصر بعضها وتبيين صحته وتزييف بعضها، وإيضاح حجّته واستشهاد بأشعار العرب ـ وربّما ذكر اسم ناظمها ـ وهو مع ذلك يجري كما يجري السيل، ويفيض كما يفيضُ البحر.

ويصير منذ يتكلم إلى أن يفرغ كالغائب عن الحاضرين مُغمِضاً عينيه وذلك كله مع عدم فكرة فيه ورَويّة من غير تعجرف ولا توقف ولا لحن. بل فيضٌ إلهيّ حتى يبهر كل سامعٍ وناظر فلا يزال كذلك إلى أن يصمت، ولٰكن أراه حينئذٍ كأنه قد صار بحضرة من شغله عن غيره، ويقع عليه إذ ذاك من المهابة ما يرعد القلوب ويحيِّر الأبصار والعقول.

وكان لا يذكر رسول الله ـ ﷺ ـ قط إلاّ ويصلي ويسلم، ولا والله ما رأيت أحداً أشد تعظيماً لرسول الله ﷺ، ولا أحرص على اتباعه ونصر ما جاء به منه حتى كان إذا أورد شيئاً من حديثه في مسألة ويرى أنه لم ينسخه شيءٌ غيره من حديثه يعمل به، ويقضي ويُفتي بمقتضاه، ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائناً من كان.

وقال رضي الله عنه: كلُّ قائلٍ إنّما يحتج لقوله لا به إلاّ الله ورسوله.

وكان إذا فرغ من درسه يفتح عينيه ويُقبل على الناس بوجهٍ طلق بشيش وخلق دمث كأنه قد لقيهم حينئذ، وربّما اعتذر إلى بعضهم من التقصير في المقال مع ذلك الحال.

ولقد كان درسه الذي يورده حينئذ قدر عدة كراريس، وهذا الذي

ذكرته من أحوالِ دروسه أمرٌ مشهود يوافقني كل حاضريها وهم بحمد الله خلقٌ كثير لم يُحصَر عددهم، علماء ورؤساء وفضلاء من القرّاء والمحدثين والفقهاء والأُدباء وغيرهم من عوامٍّ المسلمين[1].

[العلامة الصفدي يصف دروس شيخ الإسلام وواسع علمه]

قال العلامة صلاح الدين الصفدي[2]: رأيته مرات «بمدرسة القصاعين»[3] و«بالحنبلية»[4] جُوّا «باب الفراديس».

وكان إذا تكلّم أغمض عيْنيه وازدحمت العبارة على لسانه فرأيت العجب العَجيب والحبر الذي ما لَه مُشاكل في فنونه ولا ضريب، والعالم الذي أخذ من كلٍّ شيء بنصيب، سهمه للأغراض مُصيب، والمناظر الذي إذا جال في حومة الجدال رُمي الخصوم من مباحثه باليوم العصيب:

وعاينتُ بدراً لا يَرى البدرُ مِثلَهُ   وخاطبتُ بَحراً لا يرَى العِبْرَ عائمُهُ[5] اهـ

وقال في «أعيان العصر»[6]: وأول ما اجتمعت أنا به كان في سنة ثمان عشرة أو سبعة عشرة[7] وهو بمدرسته في «القصاعين» بدمشق المحروسة، وسألته مسألة مشكلة في التفسير ومسألة مشكلة في الإعراب ومسألة مشكلة

---

(١) «الأعلام العليّة» (ص: ١٥ ـ ١٧).

(٢) «الوافي بالوفيات» (٧ / ١٩).

(٣) تقدم التعريف بها.

(٤) تقدم التعريف بها.

(٥) البيت للمتنبي يمدح سيف الدولة العدوي: «شرح العكْبَري» (٣ / ٣٤٠). ورواية الديوان: فأبصرتُ . . . والعِبر: الشاطئ.

(٦) «أعيان العصر وأعوان النصر» (١ / ١٣٨ ـ ١٣٩).

(٧) أي: من المئة السابعة.

ـ في الممكن والواجب[1] ـ وقد ذكرت له ذلك في ترجمته في تاريخي الكبير[2].

ثم اجتمعت به بعد ذلك مرات وحضرت دروسه في «الحنبلية» فكنت أرى منه عجباً من عجائب البر والبحر ونوعاً فرداً وشكلاً غريباً وكان كثيراً ما ينشد قول ابن صُرَّدُرّ:

تمــوت النفــوس بــأوصــابهــا ... ولــم تشــكُ عــوَّادهــا مــا بهــا
ومــا أنصفــتْ مُهجــةٌ تشتكــي ... أذاهــا إلــى غيــر أحبــابهــا

وينشد أيضاً[3]:

ومن لم يُقَدْ ويُدَسَّ في خيشومه ... رَهَجُ الخميسِ فلن يقودَ خميسا

[شيخ الإسلام يحرض العلامة الصفدي على ملازمته لينتفع به]

وفي «تاريخه الكبير»[4] قال بعد إيراده الأسئلة المتقدمة على شيخ الإسلام في «مدرسته بالقصاعين» وإجابته بما يشفي الغليل:

قال: ثم اجتمعت به بعد ذلك مرات عديدة، وكان إذا رآني قال: إيش حسن الإرادات، إيش حسن الأجوبة، إيش حسن الشكوك؟ أنا أعلم أنك مثل القدر التي تغلي تقول: بق بق بق، أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها، لازمني تنتفع.

---

(١) قال الصفدي: وعند سؤالي هذا عدل بي من الجواب إلى الشكر، وقال: هذا ذهن جيد ولو لازمتني سنة لانتفعت.

(٢) «الوافي بالوفيات» (٧/ ٢٠ ـ ٢١).

(٣) البيت لأبي تمام يمدح أبا المغيث الرافقي. والخيشوم: الأنف، والرهج: الغبار، والخميس: الجيش.

(٤) «الوافي بالوفيات» (٧/ ٢١ ـ ٢٢).

وكنت أحضر دروسه ويقع لي في أثناء كلامه فوائد لم أسمعها من غيره ولا وقفت عليه في كتاب رحمه الله.

وعلى الجملة فما رأيت مثله في اطلاعه وحافظته ولقد صَدَّق ما سمعنا به عن الحفاظ الأول وكانت همته علية إلى الغاية لأنه كثيراً كان ينشد ـ وذكر الأبيات المتقدمة ـ.

[صفة مجلس التفسير ومقدار وقته]

قال الحافظ البزار: كان إذا قُرئ في مجلسه آيات من القرآن العظيم يشرع في تفسيرها، فينقضي المجلس بجملته، والدرس بزمنه، وهو في تفسير بعض آية منها، وكان مجلسه في وقت مقدّر بقدر ربع النهار، يفعل ذلك بديهة من غير أن يكون له قارئ معين يقرأ له شيئاً معيّناً يبيِّنه ليستعدّ لتفسيره، بل كان من حضر يقرأ ما تيسّر، ويأخذ هو في القوْل على تفسيره.

وكان غالباً لا يقطع إلاّ ويفهم السامعون أنه لولا مُضِيّ الزمن المعتاد لأورد أشياء أُخر في معنى ما هو فيه من التفسير، لكن يقطع نظراً في مصالح الحاضرين.

فلقد أملى في تفسير ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مجلّداً كبيراً، وفي قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ نحو خمس وثلاثين كراسة، ولقد بلغني أنّه شرع في جمع تفسير لو أتمّه لبلغ خمسين مجلداً.

[سعة اطلاعه وغزارة علومه]

وقال: وأمّا معرفته وبصره بسنّة رسول الله ـ ﷺ ـ، وأقواله وأفعاله، وقضاياه، ووقائعه، وغزواته، وسراياه، وبعوثه، وما خصّه الله تعالى من كراماته، ومعجزاته، ومعرفته بصحيح المنقول عنه، وسقيمه، والمنقول عن الصحابة رضي الله عنهم، في أقوالهم، وأفعالهم، وقضاياهم،

وفتاويهم، وأحوالهم، وأحوال مجاهداتهم في دين الله، وما خصّوا به من بين الأمّة، فإنه كان ـ رضي الله عنه ـ من أضبط الناس لذلك، وأعرفهم فيه، وأسرعهم استحضاراً لما يريده منه، فإنّه قلّ أن ذكر حديثاً في مصنّف أو فتوى، أو استشهد به، أو استدل به إلاّ وعزاه في أي دواوين الإسلام هو ومن أيِّ قسمٍ من الصحيح أو الحسن أو غيرهما وذكر اسم راويه من الصحابة.

وقلّ أن سُئِل عن أثر إلاّ وبيّن في الحال حاله وحال أثره وذكره.

[شيخ الإسلام يحال بينه وبين كتبه ويصنف المصنفات من حافظته]

وقال: ومن أعجب الأشياء في ذلك أنه في محنته الأولى في مصر لمّا أخذ وسجن، وحيل بينه وبين كتبه، صنّف عدّة كتب صغاراً وكباراً، وذكر فيها ما احتاج إلى ذكره من الأحاديث، والآثار وأقوال العلماء، وأسماء المحدِّثين والمؤلِّفين، ومؤلَّفاتهم، وعزا كلّ شيء من ذلك إلى ناقليه وقائليه بأسمائهم!! وذكر أسماء الكتب التي ذلك فيها، وفي أيِّ موضع هو منها، كل ذلك بديهة من حفظه!! لأنّه لم يكن عنده حينئذٍ كتاب يطالعه، ونقبت، واعتبرت، فلم يوجد فيها بحمد الله خلل ولا تغيّر، ومن جملتها كتاب «الصارم المسلول على شاتم الرسول». وهٰذا من الفضل الذي خصّه الله تعالى به.

[استحضاره العلوم بين عينيه]

كان إذا سُئِل عن شيء من ذلك كأنّ جميع المنقول عن الرسول ـ ﷺ ـ وأصحابه والعلماء فيه، من الأوّلين والآخرين متصور مسطور بإزائه، يقولُ منه ما شاء، ويذر ما شاء، وهٰذا قد اتّفق عليه كل من رآه أو وقف على شيء من علمه ممّن لا يغلط عقله الجهل والهوى.

[قصة معارضته اسم رجل من سند حديث ذكره القارئ بسرعة]

قال الحافظ البزار: أمّا معرفته بصحيح المنقول وسقيمه فإنّه في ذلك من الجبال التي لا يُرتقى ذروتها، ولا ينال سنامها، قلّ أن ذكر له قول إلا وقد أحاط علمه بمبتكره، وذاكره وناقله، وآثره أو راويه إلا وقد عرف حاله من جرحٍ وتعديل، بإجمالٍ وتفصيل.

حكى من يوثَق بنقله أنّه كان يوماً بمجلس ومحدث يقرأ عليه بعض الكتب الحديثيّة، وكان سريع القراءة، فعارضه الشيخ في اسم رجلٍ من سند حديثٍ قد ذكره القارئ بسرعة.

فذكر الشيخ أنّ اسمه فلان بخلاف ما قرأ فاعتبروه فوجدوه كما قال الشيخ، فانظر إلى هذا الإدراك السريع، والتنبيه الدقيق العجيب، ولا يقدر على مثله إلاّ من اشتدّت معرفته وقويَ ضبطه.

[حسن استنباطه المعاني من الألفاظ النبوية والآيات القرآنية]

كان إذا ذكر آية أو حديثاً وبيّن معانيه وما أُريد به أُعجب العالم الفطن من حسن استنباطه، ويدهشه ما سمعه أو وقف عليه منه، ولقد سُئِل يوماً عن الحديث[1]: «لعَنَ اللهُ المحلِّلَ والمحلَّلَ لهُ» فلم يزل يورِد فيه وعليه حتى بلغ كلامه فيه مجلداً كبيراً، وقلّ أن كان يُذكر له حديث أو حكم فيشاء أن يتكلم عليه يومه أجمع إلا فعل، أو يقرأ بحضرته آية من كتاب الله تعالى ويشرع في تفسيرها إلا وقطع المجلس كله فيها[2]. اهـ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٧٦) وغيره، وصححه الألباني رحمه الله، انظر «الإرواء» (رقم ١٨٩٧).

(٢) «الأعلام العلية» (ص: ١٧ ـ ١٨) مختصراً.

[كثرة مؤلفاته وفتاويه وانتشارها في سائر الأمصار]

وأمّا مؤلفاته ومصنّفاته فإنها أكثر من أن أقدِر على إحصائها، أو يحضرني جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه غالباً أحد لأنها كثيرة جداً كباراً وصغاراً، وهي منتشرة في البلدان، فقلّ بلد نزلته إلّا ورأيت فيه من تصانيفه!!!

وأمّا فتاويه ونصوصه وأجوبته على المسائل فهي أكثر من أن أقدر على إحصائها، لكن دُوِّن بمصر منها على أبواب الفقه سبعة عشر مجلداً، وهٰذا ظاهرٌ مشهور، وجمع أصحابه أكثر من أربعين ألف مسألة.

وقلّ أن وقعت واقعة وسُئِل عنها إلا وأجاب فيها بديهة بما بهر واشتهر، وصار ذلك الجواب كالمصنّف الذي يحتاج فيه غيره إلى زمنٍ طويل ومطالعة كتب، وقد لا يقدر مع ذلك على إبراز مثله[1]. اهـ.

[تعذر إحصاء ما كتب شيخ الإسلام من المصنفات وخرق العادة في حفظ كتبه]

قال الشيخ أبو عبد الله[2]: لو أراد الشيخ تقي الدين ـ رحمه الله ـ أو غيره حصرها ـ يعني مؤلفات الشيخ ـ لما قدروا، لأنّه مازال يكتب، وقد منّ الله عليه بسرعة الكتابة، ويكتب من حفظه من غير نقل.

وأخبرني غير واحد أنّه كتب مجلداً لطيفاً في يوم، وكتب غير مرة أربعين ورقة في جلسة وأكثر. وأحصيتُ ما كتبه وبيّضه في يوم فكان ثمان كراريس في مسألة من أشكلِ المسائل. وكان يكتب على سؤالٍ واحد مجلداً.

---

(١) «الأعلام العلية» (ص: ١٢ ـ ١٥) مختصراً.

(٢) ابن رُشَيِّق المغربي.

وأمّا جواب يكتب فيه خمسين ورقة، وستين، وأربعين، وعشرين فكثير.

وكان يكتب الجواب فإن حضر من يُبيِّضه وإلاّ أخذ السائل خطّهُ وذهب.

ويكتب قواعد كثيرة في فنونٍ من العلم: في الأصول والفروع، والتفسير وغير ذلك، فإنْ وجد مَن نقله من خطِّه وإلا لم يشتهر ولم يُعرف، وربّما أخذه بعض أصحابه فلا يقدر على نقله ولا يرده إليه فيذهب.

وكان كثيراً ما يقول: قد كتبت في كذا، وفي كذا.

ويُسأل عن الشيء فيقول: قد كتبت في هذا فلا يدري أين هو؟ فيلتفت إلى أصحابه ويقول: ردوا خطِّي وأظهروه لينقل؛ فمِن حرصهم عليه لا يردونه ومن عجزهم لا ينقلونه. فيذهب، ولا يعرف اسمه.

فلهذه الأسباب ولغيرها تعذّر إحصاء ما كتبه وما صنّفه، وما كفى هذا إلا أنه لمّا حُبِس تفرّق أتباعه وتفرّقت كتبه، وخوّفوا أصحابه من أن يُظهروا كتبه، ذهب كل أحدٍ بما عنده وأخفاه، ولم يُظهروا كتبه فبقي هذا يهرب بما عنده وهذا يبيعه أو يهبه، وهذا يخفيه ويودعه، حتى أنّ منهُم مَنْ تُسرَق كتبه أو تُجحَد فلا يستطيع أن يطلبها ولا يقدر على تخليصها.

فبدون هذا تتمزق الكتب والتصانيف ولولا أن الله تعالى لطف وأعان ومنّ وأنعم، وجرت العادة في حفظ أعيان كتبه وتصانيفه لما أمكن لأحدٍ أن يجمعها.

ولقد رأيت من خرق العادة في حفظ كتبه وجمعها وإصلاح ما فسد منها، وردِّ ما ذهب منها ما لو ذكرته لكان عجباً، يعلم به كلُّ مُنصِف أنّ لله

عنايةً به وبكلامه، لأنه يذبُّ عن سنّة نبيِّه ـ ﷺ ـ تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين[1].

[كان الشيخ إذا أعيته المسائل استعان بالله ولجأ إليه وسأل ربه الفهم]

قال الإمام ابن القيم: شهدت شيخ الإسلام قدس الله روحه، إذا أعيته المسائل واستصعبت عليه، فرَّ منها إلى التوبة والاستغفار والاستغاثة بالله واللّجأ إليه، واستنزال الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته، فقلَّما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مداً، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ[2]. اهـ.

قال الحافظ ابن عبد الهادي[3]: وكان رحمه الله يقول: «ربّما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم. وأقول: يا معلّم آدم وإبراهيم علمني.

وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرِّغ وجهي في التراب وأسأل الله تعالى وأقول: يا معلِّم إبراهيم فهمني»، ويذكر قصة معاذ ابن جبل وقوله لمالك بن يخامر لمّا بكى عند موته، وقال: «إني لا أبكي على دنيا كنت أصيبها منك، ولٰكن أبكي على العلم والإيمان اللذَين كنت أتعلمهما منك».

فقال: «إن العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما، فاطلب

---

(١) «العقود الدرية» (ص: ٦٤ ـ ٦٦).
(٢) «أعلام الموقعين» (٤ / ١٧٢).
(٣) «العقود الدرية» (٢٦ ـ ٢٨).

العلم عند أربعة فإن أعياك العلم عند هؤلاء فليس هو في الأرض، فاطلبه من معلم إبراهيم». اهـ.

قال ابن القيم: حقيق بالمفتي أن يكثر الدعاء بالحديث الصحيح[1]: «اللهم رَبَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

وكان شيخنا كثير الدعاء بذلك، وكان إذا أَشكلت عليه المسائل يقول: يا معلم إبراهيم علمني ويكثر الاستعانة بذلك اقتداء بمعاذ بن جبل رضي الله عنه[2]. اهـ.

[رسالة من ابن رشيق لابن تيمية وهو في السجن يسأله كتابة التفسير كاملاً وجواب الرسالة]

قال الشيخ أبو عبد الله بن رشيق ـ وكان من أخصّ أصحاب شيخنا وأكثرهم كتابةً لكلامه وحرصاً على جمعه ـ: كتب الشيخ ـ رحمه الله ـ نقول السلف مجردة عن الاستدلال على جميع القرآن، وكتب في أوله قطعة كبيرة بالاستدلال. ورأيت له سوراً وآيات يفسرها ويقول في بعضها: كتبته للتذكر، ونحو ذلك.

ثمّ لمّا حبس في آخر عمره كتبت له أن يكتب على جميع القرآن تفسيراً مرتباً على السور، فكتب يقول: إنّ القرآن فيه ما هو بيِّنٌ بنفسه، وفيه ما قد بيّنه المفسرون في غير كتاب، ولٰكن بعض الآيات أَشكل تفسيرها على

(١) رواه «مسلم» (٧٧٠)، وغيره.
(٢) «أعلام الموقعين» (٤ / ٢٥٧).

جماعة من العلماء، فربّما يطالع الإنسان عليها عدة كتب ولا يتبيّن له تفسيرها، وربما كتب المصنف الواحد في آية تفسيراً ويفسر غيرها بنظيره.

فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل، لأنه أهم من غيره.

وإذا تبيّن معنى آية تبيّن معاني نظائرها.

وقال: قد فتح الله عليّ في هذه المرة من معاني القرآن، ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن أو نحو هذا.

وأرسل إلينا شيئاً يسيراً مما كتبه في هذا الحبس.

وبقي شيء كثير في مسألة الحكم عند الحكام لما أخرجوا كتبه من عنده.

وتوفي وهي عندهم إلى هذا الوقت نحو أربع عشرة رزمة.

[تأليفه كتاب الرد على المنطقيين في قعدة بين الظهر والعصر]

قال شيخ الإسلام: فإني كنت دائماً أعلم أنّ المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكيّ ولا ينتفع به البليد، ولٰكن كنت أحسب أن قضاياه صادقة لما رأينا من صدق كثير منها ثم تبيّن لي فيما بعد خطأ طائفة من قضاياه وكتبت في ذلك شيئاً.

ولمّا كنت بالإسكندريّة اجتمع لي من رأيته يعظم المتفلسفة بالتهويل والتقليد، فذكرت له بعض ما يستحقونه من التجهيل والتضليل.

واقتضى ذلك أني كتبت في قعدة بين الظهر والعصر من الكلام على المنطق ما علقته في تلك الساعة[1].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٩/ ٨٢).

[شيخ الإسلام أعلم بالمذاهب من أصحابها ويجالسونه للاستفادة منه]

قال العلّامة كمال الدين بن الزَّملكاني[1]: كان إذا سُئِل عن فنّ من العلم ظنّ الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أنّ أحداً لا يعرفه مثله. وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك.

ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه ـ ولا تكلم في علمٍ من العلوم سواء أكان من علوم الشرع أم غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه ـ وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين.

ووقعت مسألة فرعية في قسمة جرى فيها اختلاف بين المفتين في العصر. فكتب فيها مجلدة كبيرة. وكذلك وقعت مسألة في حد من الحدود. فكتب فيها مجلدة كبيرة ولم يخرج في كل واحدة عن المسألة، ولا طول بتخليط الكلام والدخول في شيء والخروج من شيء.

وأتى في كل واحدة بما لم يكن يجري في الأوهام والخواطر، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها[2].

[كشفه عوار المتكلمين وبيان زيفهم]

قال الحافظ أبو حفص بن عمر البزار في «المناقب»[3]: حدّثني غير واحدٍ من العلماء والفضلاء والنبلاء، المعتنين بالخوضِ في أقاويل المتكلمين لإصابة الصواب، وتمييز القشر من اللباب؛ أنّ كلاً منهم لم يزل

---

(١) يأتي التعريف به.
(٢) «العقود الدرية» (ص: ٧ ـ ٨).
(٣) (ص: ١٩ ـ ٢١).

حائراً في تجارب أقوال الأُصوليين ومعقولاتهم وأنّه لم يستقر في قلبه منها قول، ولم يبن له من مضمونها حق، بل رآها كلها موقعة في الحيرة والتضليل، وجلُّها مذعن بتكافي الأدلة والتعليل، وأنه كان خائفاً على نفسه من الوقوعِ بسببها في التشكيك والتعطيل، حتى مَنّ الله تعالى عليه بمطالعة مؤلفات هذا الإمام، أحمد ابن تيميّة شيخ الإسلام، ممّا أورده من النقليّات والعقليّات في هذا النظام، فما هو إلاّ أن وقف عليها وفهمها، فرآها موافقة للعقل السليم وعلمها، حتى انجلى ما كان قد غشيه من أقوال المتكلمين من الظلام، وزال عنه ما خاف أن يقع فيه من الشك وظفر بالمرام[1].

«فائدة»

قال شمس الدين محمد بن عبد الله الهكّاري[2]: فائدة: وجدت من خط الشيخ تقي الدين ابن تيمية رضي الله عنه، وهي نظمه في ظهر مجلد «شرح قواطع الأدلة» للنيسابوري:

يا منطق اليونان ما أفسده ... وعن طريق الحق ما أبعده

ولسبيل الغي ما أطلبه ... وعن سبيل الرشد ما أهربه

وبقضايا الإفك ما أحذقه ... وفي خلاف الصدق ما أصدقه

وفي قضاياه فما أكذبه ... وفي انتقاض الحكم ما أعجبه

---

(١) انظر أنموذجاً من هؤلاء العلماء وإخباره عن نفسه في طلب الحق الذي يوافق الفطرة فلم يجد إلا الضلال عن الحق حتى وقف على مباحث إمام الدنيا. . . . في «العقود الدرية» (٥٠٢ـ ٥٠٧).

(٢) شمس الدين محمد بن عبد الله بن أحمد الهكّاري ثم الصَّلْتي الشافعي (ت ٧٨٦). انظر «إنباء الغمر» (٢ / ١٧٦)، و«شذرات الذهب» (٨ / ٥٠٣).

وإن تقـل مـا فيـه مـا أظهـره ولصـريـح العقـل مـا أذهبـه

وهذا رحمه الله كتبه قديماً في حال شبابه، وأما في هذا الوقت فقد كتب على المنطق مجلدات في رد قواعدهم في الحد والبرهان والقياس[1]. اهـ.

وفي «الفتاوى الكبرى»[2]: وقال أبو المعالي في «إرشاده» المشهور الذي هو زبور المستأخرين من أتباعه كما أن «الغرر وتصفح الأدلة» لأبي الحسين زبور المستأخرين من المعتزلة وكما أن «الإشارات» لابن سينا زبور المستأخرين من الفلاسفة تقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون. اهـ.

فائدة

[السر في إكثار شيخ الإسلام تصنيفه في الأصول]

قال الحافظ البزار: ولقد أكثر ـ رضي الله عنه ـ التصنيف في الأُصول فضلاً عن غيرها من بقيّة العلوم، فسألته عن سبب ذلك، والتمست منه تأليف نصٍّ في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته، ليكون عمدة في الإفتاء، فقال لي ما معناه: الفروع أمرها قريب، ومن قلّد المسلم فيها من العلماء جاز له العمل بقوله ما لم يتيقّن خطأه.

وأمّا الأصول فإنّي رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء، كالمتفلسفة والباطنيّة والملاحدة، والقائلين بوحدة الوجود، والدهريّة والقدريّة والنصيريّة والجهميّة والحلوليّة والمعطلة والمجسّمة والمشبّهة

---

(١) انظر مقدمة «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم (١ / ٦٣ ـ ٦٤).

(٢) (٥ / ١٨٧).

والروانديّة والكلابيّة والسليميّة، وغيرهم من أهل البدع، قد تجاذبوا فيها بأزمّة الضلال، وبان لي أن كثيراً منهم إنّما قصد إبطال الشريعة المقدّسة المحمّديّة، الظاهرة على كل دين العليّة، وأنّ جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قلّ أن سمعت أو رأيت مُعرِضاً عن الكتاب والسنّة مقبلاً على مقالاتهم إلا وقد تزندق، أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده، فلمّا رأيت الأمر على ذلك بان لي أنه يجب على كلٍّ من يقدِر على دفع شبههم وأباطيلهم، وقطع حجتهم وأضاليلهم، أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم، ويزيّف دلائلهم، ذبّاً عن الملّة الحنيفيّة والسنة الصحيحة الجليّة، ولا والله ما رأيت فيهم أحداً ممّن صنّف في هذا الشأن وادّعى علوَّ المقام، إلّا وقد ساعده بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام، وسبب ذلك إعراضه عن الحق الواضح المبين، وعن ما جاءت به الرسل الكرام عن ربّ العالمين، واتباعه طرق الفلسفة في الاصطلاحات التي سمّوها بزعمهم حكميّات وعقليّات، وإنّما هي جهالات وضلالات.

وكونه التزمها معرضاً عن غيرها أصلاً ورأساً، فغلبت عليه حتى غطّت على عقله السليم، فتخبط فيها خبط عشواء، ولم يفرّق بين الحق والباطل، وإلّا فالله أعظم لطفاً بعباده، أن لا يجعل لهم عقلاً يقبل الحق ويثبته، ويُبطل الباطل وينفيه، لٰكن عدم التوفيق وغلبة الهوى أوقع من أوقع في الضلال، وقد جعل الله تعالى العقل السليم من الشوائب ميزاناً يزن به العبد الواردات، فيفرِّق به بين ما هو من قبيل الحق وما هو من قبيل الباطل، ولم يبعث الله الرسل إلّا إلى ذوي العقل، ولم يقع التكليف إلا مع وجوده، فكيف يقال إنّه مخالفٌ لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن الله تعالى؟! هذا باطلٌ قطعاً، يشهد له كل عقلٍ سليم، لٰكن ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

قال الشيخ الإمام قدس الله روحه: هذا ونحوه هو الذي أوجب أني صرفت جُلَّ همي إلى الأصول، وألزمني أن أوردتُ مقالاتهم وأجبت عنها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة النقليّة والعقليّة. اهـ.

[محاربته للتقليد وإحياؤه فقه الدليل]

قال الإمام ابن القيم: سمعت شيخ الإسلام يقول: حضرت مجلساً فيه القضاة وغيرهم، فجرت حكومة حكم فيها أحدهم بقول زُفَر[1].

فقلت له: ما هذه الحكومة؟

فقال: هذا حكم الله.

فقلت له: صار قول زُفَر هو حكم الله الذي حكم به وألزم به الأمة؟!

قل: هذا حُكم زُفَر، ولا تقل: هذا حكم الله، أو نحو هذا من الكلام[2]. اهـ.

[رجوع العالم إلى الحق لا يقدح في علمه ولا دينه]

وقال أيضاً: سمعت شيخنا رحمه الله تعالى يقول: حضرت عقد مجلس عند نائب السلطان في وَقف أفتى فيه قاضي البلد بجوابين مختلفين، فقرأ جوابه الموافق للحق، فأخرج بعض الحاضرين جوابه الأول.

وقال: هذا جوابك بضد هذا فكيف تكتب جوابين متناقضين في واقعة واحدة؟ فوجم الحاكم.

فقلت: هذا من علمه ودينه أفتى أولاً بشيء، ثم تبين له الصواب

---

(١) الإمام زُفَر بن الهذيل بن قيس العِنْبَرِيُّ البَصْرِيُّ صاحب أبي حنفية (ت ١٥٨).

(٢) «أعلام الموقعين» (٤ / ١٧٦).

فرجع إليه، كما يفتي إمامه بقول ثم يتبين له خلافه فيرجع إليه، ولا يقدح ذلك في علمه ولا دينه، وكذلك سائر الأئمة. فسُرَّ القاضي بذلك وسُرِّي عنه[1]. اهـ.

[ابن تيمية يبهت الحاضرين ببحث أصولي «بالرواحية»]

قال ابن كثير: وفي يوم الأربعاء ثاني عشر شوّال[2] درس الشيخ شمس الدين بن الأصبهاني[3] «بالرواحيّة»[4] بعد ذهاب ابن الزملكاني[5] إلى حلب. وحضر عنده القضاة والأعيان وكان فيهم شيخ الإسلام ابن تيميّة.

وجرى يومئذٍ بحثٌ في العام إذا خُصّ، وفي الاستثناء بعد النفي، ووقع انتشار وطال الكلام في ذلك المجلس، وتكلم الشيخ تقي الدين كلاماً أبهت الحاضرين[6]. اهـ.

[حادثة في أوائل عمر ابن تيمية حدثت له مع أهل الزهد والعبادة والإرادة]

قال شيخ الإسلام: كنت في أوائل عمري حضرت مع جماعة من أهل الزهد والعبادة والإرادة، فكانوا من خيار أهل هذه الطبقة، فبتنا في مكان

---

(١) المرجع السابق (٤ / ٢٣٢ ـ ٢٣٣).

(٢) (سنة ٧٢٥هـ).

(٣) يأتي التعريف به.

(٤) أنشأها زكي الدين أبو القاسم هبة الله بن محمد الأنصاري المعروف بابن رواحة (ت ٦٣٢هـ). وهي شرقي مسجد ابن عروة الذي هو بالجامع الأموي ولصيقه. انظر «منادمة الأطلال» (ص: ١٠٠).

(٥) يأتي التعريف به.

(٦) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٢٢).

وأرادوا أن يقيموا سماعاً وأن أحضر معهم، فامتنعت من ذلك، فجعلوا لي مكاناً منفرداً قعدت فيه، فلما سمعوا وحصل الوجد والحال صار الشيخ الكبير يهتف بي في حال وجده ويقول: يا فلان، قد جاءك نصيب عظيم تعال خذ نصيبك، فقلت في نفسي ـ ثم أظهرته لهم لما اجتمعنا ـ: أنتم في حلٍّ من هذا النصيب، فكل نصيب لا يأتي على طريق محمد بن عبدالله فإني لا آكل منه شيئاً.

وتبين لبعض من كان فيهم ممن له معرفة وعلم أنه كان معهم الشياطين وكان فيهم من هو سكران بالخمر.

والذي قلته معناه أن هذا النصيب وهذه العطية والموهبة والحال سببها غير شرعي، ليس هو طاعة لله ورسوله، ولا شرعها الرسول، فهو مثل من يقول: تعال اشرب معنا الخمر ونحن نعطيك هذا المال، أو عظّم هذا الصنم ونحن نوليك هذه الولاية، ونحو ذلك[1]. اهـ.

[إسلام يهودي على يدي شيخ الإسلام ولا يزال صغيراً في المكتب]

قال الحافظ البزار[2]: أخبرني من أثق به عن من حدثه؛ أن الشيخ رضي الله عنه في حال صغره، كان إذا أراد المضي إلى المكتب يعترضه يهودي كان منزله في طريقه بمسائل يسأله عنها، لما كان يلوح عليه من الذكاء والفطنة، وكان يجيبه عنها سريعاً حتى تعجب منه، ثم إنه صار كلما اجتاز به يخبره بأشياء مما يدل على بطلان ما هو عليه، فلم يلبث أن أسلم وحسن إسلامه، وكان ذلك ببركة الشيخ على صغر سنه. اهـ.

---

(١) «الرسائل والمسائل» (٥/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠).

(٢) «الأعلام العلية» (ص: ٩).



[إسلام ديان اليهود على يد ابن تيمية]

قال الحافظ ابن كثير[(١)] في ترجمة: الحكيم الفاضل البارع بهاء الدين عبدالسيد ابن المهذب إسحق بن يحيى الطبيب الكحال[(٢)] المتشرف بالإسلام ثم قرأ القرآن جميعه لأنه أسلم على بصيرة، وأسلم على يديه خلق كثير من قومه وغيرهم[(٣)]، وكان مباركاً على نفسه وعليهم.

وكان قبل ذلك ديان اليهود فهداه الله تعالى، وتوفي يوم الأحد سادس جمادى الآخرة، ودفن من يومه بسفح قاسيون.

أسلم على يدي شيخ الإسلام ابن تيمية لما بين له بطلان دينهم وما هم عليه وما بدلوه من كتابهم وحرفوه من الكلم عن مواضعه رحمه الله. اهـ.

[إسلام نصراني على يد ابن تيمية وتلمذته على يديه]

قال الحافظ ابن حجر في ترجمة: إبراهيم بن داود بن عبد الله الآمدي[(٤)] ثم الدمشقي برهان الدين نزيل القاهرة مات أبوه وهو صغير على دين النصرانية، فحمله وصيه الشيخ عبدالله الدمشقي، وأحضره مجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية، فأسلم على يده وصحبه، ثم صحب أصحابه

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤ / ٧٧ ـ ٧٨).

(٢) (ت ٧١٥هـ) وقال عنه شيخ الإسلام: عبد السيد الذي كان قاضي اليهود ثم أسلم وكان من أصدق الناس، ومن خيار المسلمين وأحسنهم إسلاماً. اهـ. «مجموع الفتاوى» (١٣ / ١٨٧).

(٣) وقد أسلم أولاده كلهم، وانظر صفة إكرام نائب السلطنة لهم، «البداية والنهاية» (١٤ / ٢٠ ـ ٢١).

(٤) (ت ٧٩٧هـ).

وأخذ عنهم.

قرأت عليه عدة أجزاء قلت له مرة [حال القراءة][1]: أخبركم رضي الله عنكم وعن والديكم! فنظر إليَّ منكراً، وقال: ما كانا على الإسلام، وكان ممتحناً بحب ابن تيمية، ونسخ غالب تصانيفه بخطه، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر برياضة وتؤدة، ويناظر مسائل ابن تيمية من غير مماراة[2]. اهـ مختصراً.

[حكاية: قال الكذاب: هذه في ألف كتاب]

قال الحافِظُ ابن ناصر الدين الدِّمشقي: ولمّا قدِمَ شيخنا شيخ الإسلامِ البُلقيني[3] ـ رحمه الله ـ دمشق مع السلطان الملِك الظّاهِرِ أبي سعيدٍ[4]، وألقى الدروسَ بمحرابِ الحنفيّة من جامعِ دمشق، ذكر في بعضِ دروسه مسألة لم يرها لغيره، فاستطرد ـ وحكى فيما ذكره لي بعضُ مَن كان حاضراً من الأئمة ـ قال: سمعته يقول:

كانَ شيخ الإسلامِ ابن تيْميّة مَرّةً يُلقي درساً، فذكر مسألةً قال عنها: هذه مسألةٌ ليست في كتاب.

فقالَ بعضُ من كان يُناوِئه ولم يُسمِّه: هذهِ في ألفِ كتاب. فكانَ شيخُ

---

(١) الزيادة من «إنباء الغمر بأنباء العمر» (٣/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥).
(٢) «الدرر الكامنة» (١ / ٢٥ ـ ٢٦)، وانظر «إنباء الغمر» (٣ / ٢٥٤ ـ ٢٥٥)، و«المجمع المؤسس» (١ / ٢٠٦ ـ ٢٠٧)، وفي المرجع الأخير: «وصحب تلاميذه، كابن القيم وابن عبد الهادي».
(٣) الإمام شيخ الإسلام مجتهد العصر نادرة الوقت فقيه الدنيا أبو حفص عمر بن رسلان البُلقيني إمام الأئمة وعالم الأمة (ت ٨٠٥)، انظر «الرد الوافر» (ص: ٢٠٤).
(٤) هو الملك طَطَر الظاهري الشركسي.

الإسلام ابن تيميّة إذا عُرِضَت تلك المسألة في دروسه يقول: هذه ليست في كتاب.

ثمَّ يقول: وقال الكذاب: هذه في ألفِ كتاب[1]. اهـ.

[جواب مسكت لشيخ الإسلام]

قال خادم شيخ الإسلام «إبراهيم الغياني»[2]: وجاء إنسان إلى الشيخ يوماً بخبز يابس فقال: يا سيِّدي قد جِبت هذا من سماط الخليل على اسمك.

فقال له: ما لي به حاجة، أنا حاجتي إلى الدين الذي كان عليه الخليل ومتابعة ملة الخليل الذي أمر الله أمة محمّد بمتابعتها، ما لي حاجة بهذا الخبز، والخليل ما عمل هذا، ولا أمر بهذا العدس، ولا كان يُطعم ويضيف غير اللحم، قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]. وأمّا العدس فإنه شهوة اليهود، وقد سُئِل عبد الله بن المبارك ـ رضي الله عنه ـ فقيل له: جاء حديث: «أنّ العدس قدّسه سبعون نبيّاً»، فقال: لا، ولا نصف نبيّ. اهـ.

[توبة أحد نفاة العلو على يد شيخ الإسلام]

قال شيخ الإسلام: النفاة لعلو الله إذا حزب أحدهم شدةٌ وجَّه قلبه إلى العلو يدعو الله.

ولقد كان عندي من هؤلاء النافين لهذا من هو من مشايخهم وهو يطلب مني حاجة، وأنا أخاطبه في هذا المذهب كأني غير منكر له، وأخرت

---

(١) «الرد الوافر» (ص: ٢٠٥).

(٢) «ناحية من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص: ١٤ ـ ١٥).

قضاء حاجته حتى ضاق صدره، فرفع طرفه ورأسه إلى السماء، وقال: يا الله!

فقلت له: أنت محقق، لمن ترفع طرفك ورأسك؟! وهل فوق عندك أحد؟!

فقال: أَستغفر الله، ورجع عن ذلك لما تبين له أن اعتقاده يخالف فطرته، ثم بينت له فساد هذا القول، فتاب من ذلك ورجع إلى قول المسلمين المستقر في فطرهم[1]. اهـ.

[ما يبغض ابنُ تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى]

قال الحافظ ابن ناصر الدين: حكى بعض من لقيته من الشيوخ العلماء أنه حضر مرة مع قاضي القضاة أبي البقاء شيخ الشافعيّة[2] درساً ألقاه «بالمدرسة الرواحيّة»[3]؛ وهي داخل باب الفراديس من دمشق، فجاءَه جماعة من «طائفة القلندرية»[4] يسألونه، فأمر لهم بشيء؛ وكان إذ ذاك

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٦ / ٣٤٣ ـ ٣٤٤).

(٢) الإمام العلامة قاضي القضاة بهاء الدين، علم المناظرين، أحد المتبحرين، أبو البقاء محمد بن عبد البرِّ السُّبكي الشافعي (ت ٧٠٢) «الرد الوافر» (ص: ٩٧).

(٣) تقدم التعريف بها.

(٤) القَلَنْدرية: نسبة إلى قلندر يوسف أندلسي هاجر إلى المشرق وقد ظهرت هذه الطريقة لأول مرة في دمشق سنة ٦١٠هـ وأتباعها يحلقون لحاهم ولا يأخذون بشعائر الدين، ومات قلندر في دمياط في مصر. اهـ مختصراً. «الكشف عن حقيقة الصوفية» (ص: ٣٥٧) وانظر «منادمة الأطلال» (ص: ٣١٠ ـ ٣١١).

وقد سئل شيخ الإسلام عن «القلندرية» فقال: أكثرهم كافرون بالله ورسوله، لا يرون وجوب الصلاة والصيام ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق، بل كثير منهم أكفر من اليهود والنصارى، وهم ليسوا من أهل الملة، ولا من أهل الذمة وقد يكون فيهم من هو مسلم لكن مبتدع ضال أو فاسق فاجر. انظر «مجموع الفتاوى» =

حاكماً بدمشق على القضاء بها، ثم جاءه طائفة أخرى من «الحيدرية»[1] وهو يتوضأ على بركة المدرسة المذكورة، فسألوه فأمر لهم بشيء.

ثم جاء فصلى ركعتين.

ثم قال: رحم الله ابن تيميّة كان يكره هؤلاء الطوائف على بدعهم.

قال: فلمّا قال ذلك، ذكرتُ له كلام الناس في ابن تيميّة.

فقال لي ـ وكان ثمّ جماعة حضروا قد تخلفوا بعد الدرس يشتغلون عليه ـ: والله يا فلان ما يبغض ابن تيميّة إلاّ جاهلٌ أو صاحب هوىً، فالجاهل لا يدري ما يقول، وصاحبُ الهوى يصدُّه هواه عن الحق بعد معرفته به.

قال: فأعجبني ذلك منه وقبّلتُ يده وقلت له: جزاك الله خيراً[2]. اهـ.

[شمس الدين الأصبهاني يترك الطلبة واشتغالهم عليه ويتردد إلى مجالس ابن تيمية]

قال الحافظ ابن كثير في ترجمة الشيخ شمس الدين محمود الأصبهاني: وفي خامس صفر منها[3] قدم إلى دمشق الشيخ شمس الدين محمود الأصبهاني[4] بعد مرجعه من الحج وزيارة القدس الشريف وهو

= (٣٥ / ١٦٣ ـ ١٦٦).

(١) طائفة من طوائف الصوفية الضالة المبتدعة.

(٢) «الرد الوافر» (ص: ٩٨ ـ ٩٩).

(٣) (سنة ٧٢٥هـ).

(٤) العلامة شمس الدين أبو الثناء الأصبهاني محمود بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر بن=

رجل فاضل له مصنفات منها: «شرح مختصر ابن الحاجب» «وشرح التجريد» وغير ذلك، ثم إنه «شرح الحاجبية» أيضاً وجمع له تفسيراً بعد صيرورته إلى مصر.

ولما قدم إلى دمشق أُكرم واشتغل عليه الطلبة، وكان حظياً عند القاضي جلال الدين القزويني[1]، ثم إنه ترك الكل وصار يتردد إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية وسمع عليه من مصنفاته ورده على أهل الكلام ولازمه مدة، فلما مات الشيخ تقي الدين تحول إلى مصر وجمع التفسير[2]. اهـ.

[رجوع العلامة ابن قيم الجوزية عن بعض ما كان يقول به بعد اتصاله بابن تيمية رحمه الله]

قال الحافظ ابن كثير في «تاريخه»[3]: الشيخ الإمام العلاّمة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي إمام الجوزية وابن قيِّمها،

= علي (ت ٧٤٩)، سمع كلامه الشيخ تقي الدين ابن تيمية فبالغ في تعظيمه.
قال مرة: اسكتوا حتى نسمع كلام هذا الفاضل الذي ما دخل البلاد مثله. اهـ. انظر «الدرر الكامنة» (٤ / ٣٢٧ ـ ٣٢٨). و«طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (٣ / ٧١ ـ ٧٢).

(١) هو محمد بن عبد الرحمن بن عمر قاضي القضاة جلال الدين القزويني (ت ٧٣٩) انظر «طبقات الشافعية الكبرى» (٥ / ٩٠ ـ ٩١) و«رفع الإصر عن قضاة مصر» (ص: ٣٦٦ ـ ٣٦٩).

(٢) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٢١).

(٣) «البداية والنهاية» (١٤ / ٢٤٦ ـ ٢٤٧)، قال الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة» (١ / ٥٨): ومن نوادره ـ أي ابن القيم ـ أنه وقع بينه وبين عماد الدين ابن كثير منازعة في تدريس الناس.
فقال له ابن كثير: أنت تكرهني لأنني أشعري.
فقال له: لو كان من رأسك إلى قدمك شعر ما صدقك الناس في قولك إنك أشعري وشيخك ابن تيمية.

ولد في سنة إحدى وتسعين وستمائة وسمع الحديث واشتغل بالعلم وبرع في علومٍ متعددة لا سيّما علم التفسير والحديث والأصلين.

ولما عاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة اثنتي عشر وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ فأخذ عنه علماً جماً مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريداً في بابه في فنونٍ كثيرة، مع كثرة الطلب ليلاً ونهاراً وكثرة الابتهال. اهـ مختصراً.

قال الذهبي: تفقه بشيخ الإسلام تقي الدين ابن تيميّة وكان من عيون أصحابه وأفتى ودرس وناظر وصنّف وأفاد وحدّث عن شيخه التعبير وغيره ومصنفاته سائرة مشهورة[1].

قال في «البدر الطالع»[2]: برع في جميع العلوم وفاق الأقران واشتهر في الآفاق وتبحر في معرفة مذاهب السلف وغلب عليه حب ابن تيميّة حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك.

وهو الذي نشر علمه بما صنّفه من التصانيف الحسنة المقبولة واعتقل مع ابن تيميّة وأهين وطيف به على جمل مضروباً بالدرة، فلمّا مات ابن تيميّة أُفرج عنه وامتحن محنة أخرى بسبب فتاوى ابن تيميّة وكان ينال من علماء عصره وينالون منه.

وبالجملة فهو أحد من قام بنشر السنة وجعلها بينه وبين الآراء المحدثة أعظم جنة، فرحمه الله وجزاه عن المسلمين خيراً، توفي سنة ٧٥١هـ. اهـ مختصراً.

---

(١) «ذيول العبر» (٤/ ١٥٥).

(٢) «البدر الطالع» (٢/ ١٤٣ ـ ١٤٥).

قال العلاّمة بكر بن عبدالله أبو زيد[1]: ذكر ابن القيّم ـ رحمه الله تعالى ـ في النونيّة بعض ما يقوله الأشاعرة وغيرهم في الصفات من التأويلات، وبعض ما في كتب النفاة من الطامات، وبين ضررهم على الدين ومناهضتهم لنصوص الكتاب والسنة.

ثم عقد فصلاً أعلن فيه أنّه قد وقع في بعض تلك المهالك حتى أتاح له الإله من أزال عنه تلك الأوهام وأخذه بيده إلى طريق الحق والسلام؛ وهو شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ رحمه الله ـ.

وفي إعلانه لتوبته على يديه يقول[2]:

يا قوم والله العظيم نصيحةً ... من مشفق وأخٍ لكم مِعوان

جرّبتُ هذا كلَّه ووقعتُ في ... تلك الشِّباكِ وكنت ذا طيران

حتى أتاح ليَ الإلٰهُ بفضله ... مَن ليس تجزيه يدي ولساني

فتى أتى من أرض حرّانٍ فيا ... أهلاً بمن قد جاء من حرّان

فالله يجزيه الذي هو أهله ... من جنّة المأوى مع الرضوان

أخَذَتْ يداه يدي وسار فلم يرم ... حتى أراني مطلع الإيمان

ورأيت أعلام المدينة حولها ... نزل الهدى وعساكر القرآن

ورأيت آثاراً عظيماً شأنها ... محجوبة عن زمرة العميان

ووردْتُ كأس الماء أبيض صافياً ... حصباؤه كلآلىء التيجان

(١) ابن قيم الجوزية وآثاره (ص: ٧٩ ـ ٨٠).
(٢) «القصيدة النونية» (ص: ١٠٦ ـ ١٠٧)، وانظر شرح هذه الأبيات للدكتور محمد خليل هراس في «شرحه للقصيدة النونية».

ورأيـت أكـوابـاً هنـاك كثيـرة		مثـل النجـوم لـواردٍ ظمـآن
ورأيت حول الكوثر الصافي الذي		لا زال يشخـب فيـه ميـزابـان
ميـزان سنّتـه وقـول إلٰهـه		وهمـا مـدى الأيـام لا ينيـان
والنـاس لا يـردونـه إلّا مـنَ الـ		آلاف أفـراد ذوو إيمـان
وردوا عِـذابَ مناهـل أكـرِم بهـا		ووردتـمُ أنتـم عـذاب هـوان

[المسلمون تيميون]

قال الإمام أبو العباس ابن حجي: أنشدنا الشيخ الإمام العالمي البارع الحافظ الأديب الأوحد، بقية السلف، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الكريم الطرابلسي ابن الموصلي الشافعي من لفظه لنفسه:

إن كانَ إثباتُ الصفاتِ جميعها		مـن غيـر كيـف مـوجبـاً لـومـي
وأصيـرُ تيميـاً بـذلـك عنـدكـم		فـالمسلمـون جَمِيعُهـم تَيِمـي[1]

[كبير كتاب الحساب يقول: والله تعلمت اليوم منه ما لا كنت أعلمه]

قال العلاّمة الصَّفدي: أخبرني المؤلى علاءُ الدين علي ابن الآمدي ـ وهو من كِبارِ كتّاب الحساب ـ، قال: دخلتُ يوماً إليه أنا والشّمس النفيس؛ عامِلُ بيْتِ المال، ولم يكُن في وقته أَكتَبُ منه.

فأخذَ الشيخ تقيُّ الدين يسألُه عن الارتفاع، وعمّا بين الفذلكة واستقرار الجملة من الأبواب، وعن الفذلكة الثانية وخصمها، وعن أعمال الاستحقاق، وعن الختم والتوالي وما يُطلَب من العامِل، وهو يجيبه عن البعـضِ ويسكـتُ عن البعض، ويسأله عن تعليلِ ذلك إلى أن أوضح له

---

(١) «الرد الوافر» (ص: ١٣٦).

ذلك وعلَّله.

قال: فلمّا خرجنا من عنده، قال لي النّفيس: واللَّه تعلّمتُ اليومَ منه ما لا كنتُ أعلَمُه[1].

[الطبيب يحذر ابن تيمية من التكلم في العلم والفكر فيه والتوجه والذكر وشيخ الإسلام يفند مزاعمه]

قال الإمام ابن القيِّم: سمعت شيخنا أبا العبّاس ابن تيميّة رحمه الله يقول وقد عَرَضَ له بعض الألم، فقال له الطبيب: أضَرُّ ما عليك الكلامُ في العلم والفكرُ فيه والتوجّه والذِّكر. فقال: ألستم تزعمونَ أنّ النّفس إذا قويت وفرحت أوجبَ فرحها لها قوّةً تُعين بها الطبيعة على دفعِ العارِض ـ فإنّهُ عدوها ـ فإذا قويَت عليه قهرَتهُ؟!

فقال له الطبيب: بلى.

فقال: إذا اشتغلتْ نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم، وظَفِرت بما يشكل عليها منه فرحت به وقوِيت، فأوجبَ ذلكَ دفعَ العارِض[2]. اهـ.

[إجازة ابن تيمية أولاد صاحب سبتة وهو في المعتقل]

وفي «التاريخ الكبير» للحافظ الذهبي[3]: ولما كان معتقلاً بالإسكندرية التمس منه صاحب سبتة أن يجيز لأولاده، فكتب لهم في ذلك نحواً من ستمائة سطر، منها سبعة أحاديث بأسانيدها والكلام على صحتها ومعانيها، وبحث وعمل ما إذا نظر فيه المحدث خضع له في صناعة

(١) «الوافي بالوفيات» (٧ / ٢٠).
(٢) «مفتاح دار السعادة» (١ / ٢٥٠)، وانظر «روضة المحبين» (ص: ١٠٧).
(٣) «الذيل على طبقات الحنابلة» (٢ / ٣٩١).

الحديث[1]، وذكر أسانيده في عدة كتب ونبّه على العوالي عمل ذلك كله من حفظه من غير أن يكون عنده ثبت أو من يراجعه، ولقد كان عجيباً في معرفة علم الحديث.

[بيان تعبد شيخ الإسلام وذكر عبادته الليلية والنهارية]

قال الحافظ البزار: أما تعبده رضي الله عنه فإنه قل أن يسمع بمثله، لأنه كان قد قطع جل وقته وزمانه فيه، حتى أنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله تعالى، وما يراد له، لا من أهل ولا من مال.

فكان في ليله منفرداً عن الناس كلهم خالياً بربه عز وجل، ضارعاً مواظباً على تلاوة القرآن العظيم، مكرراً لأنواع التعبدات الليلية والنهارية.

وكان إذا ذهب الليل وحضر مع الناس، بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنتها

---

(١) وفي «العقود الدرية» (ص: ١٧): بحيث يعجز أن يعمل بعضه أكبر محدث. اهـ.
وقال الكتاني في «فهرس الفهارس» (١ / ٢٧٥): وهو أول من كتب على الاستجازة الكبيرة المعروفة بالألفية، التي هي بخط المحدث أبي عبد الله محمد بن يحيى بن سعيد المقدسي، التي سأل فيها الإجازة من مشايخ العصر لأكثر من ألف إنسان مؤرخة بسنة (٧٢١).
وللمترجم إجازة أيضاً كتبها لأهل غرناطة، وإجازة لأهل أصبهان، وإجازة لبعض أهل تبريز.
وخرج أمين الدين الواني لابن تيمية جزءاً عن كبار شيوخه، الذين سمع منم ذكوراً وإناثاً، وحدث به الشيخ تقي الدين فسمعه منه جماعة، فيه أربعون حديثاً عن أكابر شيوخه وعواليهم سنة (٧١٧)، وهو مطبوع.
وخرج لابن تيمية أيضاً الحافظ الفخر أبو بكر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن البعلبكي الدمشقي جزءاً في مروياته العالية، وانتقى ابن تيمية جزءاً فيه مائة حديث من صحيح البخاري، مشتملة على الثلاثيات الإسناد، وموافقات وإبدال، وعوالي وغير ذلك. اهـ.

قبل إتيانه إليهم.

وكان إذا أحرم بالصلاة يكاد يخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام، فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى يميل يمنة ويسرة.

وكان إذا قرأ يمد قراءته مداً كما صح[١] في قراءة رسول الله ﷺ، وكان ركوعه وسجوده وانتصابه عنهما من أكمل ما ورد في صلاة الفرض، وكان يخفف جلوسه للتشهد الأول خفة شديدة ويجهر بالتسليمة الأولى حتى يسمع كل من حضر، فإذا فرغ من الصلاة أثنى على الله عز وجل هو ومن حضر بما ورد من قوله: «اللهم أنت السلام ومنك السلام...»[٢] الحديث. ثم يقبل على الجماعة، ثم يأتي بالتهليلات الواردات حينئذ، ثم يسبح الله ويحمده ويكبر ثلاثاً وثلاثين، ويختم المائة بالتهليل كما ورد، وكذا الجماعة، ثم يدعو الله تعالى له وللمسلمين أجناس ما ورد.

وكان غالب دعائه: اللهم انصرنا ولا تنصر علينا، وامكر لنا ولا تمكر علينا، واهدنا ويسر الهدى إلينا، اللهم اجعلنا لك شاكرين، لك ذاكرين، لك أواهين، لك مُخبتين، إليك راهبين، لك مطيعين، ربنا تقبل توبتنا، واغسل حوبتنا، وثبت حُجَجَنا، واهد قلوبنا، واسلل سخيمة صدورنا، يفتتحه ويختمه بالصلاة على النبي ﷺ.

ثم يشرع في الذكر، وكان قد عُرفت عادته؛ لا يكلمه أحد بغير ضرورة بعد صلاة الفجر، فلا يزال في الذكر يسمع نفسه، وربما يَسمَعُ ذكره مَن إلى جانبه، مع كونه في خلال ذلك يكثر من تقليب بصره نحو السماء،

---

(١) انظر «صفة صلاة النبي ﷺ» للألباني (ص: ٩٦).

(٢) أخرجه «مسلم» (٥٩١) وغيره.

هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس، ويزول وقت النهي عن الصلاة.

وكنت مدة إقامتي بدمشق ملازمه جلَّ النهار وكثيراً من الليل، وكان يدنيني منه حتى يجلسني إلى جانبه، وكنت أسمع ما يتلو وما يذكر حينئذ، فرأيته يقرأ الفاتحة ويكررها، ويقطع ذلك الوقت كلَّه أعني من الفجر إلى ارتفاع الشمس في تكرير تلاوتها، ففكرتُ في ذلك لِمَ قد لزم من هذه السورة دون غيرها؟ فبان لي والله أعلم أنّ قصده بذلك أن يجمع بتلاوتها حينئذ بين ما ورد في الأحاديث وذكره العلماء من أنّه هل يستحب حينئذٍ تقديم الأذكار الواردة على تلاوة القرآن أو العكس؟ فرأى ـ رضي الله عنه ـ أنّ في الفاتحة وتكرارها حينئذ جمعاً بين القولين، وتحصيلاً للفضيلتين، وهذا من قوة فطنته وثاقب بصيرته.

ثم إنه كان يركع.

فإذا أراد سماع حديث في مكان آخر سارع إليه من فوره مع أنّ من يصحبه قلّ أن يراه أحد ممّن له بصيرة إلاّ وانكبّ على يديه يقبلهما، حتى أنه كان إذا رآه أرباب المعايش يتخبطون من حوانيتهم للسلام عليه والتبرك به! وهو مع هذا يعطي كلاً منهم نصيباً وافراً من السلام وغيره، وإن رأى منكراً في طريقه أزاله، أو سمع بجنازة سارع إلى الصلاة عليها، أو تأسف على فواتها، وربما ذهب إلى قبر صاحبها بعد فراغه من سماع الحديث فصلى عليه، ثم يرد إلى مسجده فلا يزال تارة في إفتاء الناس، وتارة في قضاء حوائجهم، حتى يصلي الظهر مع الجماعة، ثم كذلك بقية يومه.

وكان مجلسه عاماً للكبير والصغير، والجليل والحقير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، وقد وسع على كل من يرِد عليه من الناس، يرى كل منهم في نفسه أنّه لم يكرم أحداً بقدره.

ثم يصلي المغرب، ثم يتطوع، بما يسره الله تعالى، ثم أقرأ عليه من مؤلفاته أو غيرها فيفيدنا بالطرائف، ويمدنا باللطائف حتى يصلي العشاء ثم بعدها كما كنا وكان من الإقبال على العلوم، إلى أن يذهب هوي من الليل طويل، وهو في خلال ذلك كله في النهار والليل، لا يزال يذكر الله تعالى ويوحده ويستغفره.

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يرفع طرفه إلى السماء لا يكاد يفتر من ذلك كأنّه يرى شيئاً يثبته بنظره، فكان هذا دأبه مدة إقامتي بحضرته، فسبحان الله ما أقصر ما كانت، يا ليتها كانت طالت! ولا والله ما مرّ على عمري إلى الآن زمان كان أحبّ إليّ من ذلك الحين، ولا رأيتني في وقتٍ أحسن حالاً مني حينئذ، وما كان إلاّ ببركة الشيخ ـ رضي الله عنه ـ.

وكان في كل أسبوع يعود المرضى خصوصاً الذين في المارستان[1].

وأخبرني غير واحد ممّن لا يشك في عدالته، أنّ جميع زمن الشيخ ينقضي على ما رأيته، فأي عبادة وجهاد أفضل من ذلك؟! فسبحان الموفق من يشاء لما يشاء. اهـ.

[منزلة الذكر عند شيخ الإسلام]

قال الإمام ابن القيّم[2]: وسمعته قدس الله تعالى روحه يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟

وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي ولو

---

(١) أي: المستشفى.

(٢) «الوابل الصيّب» (ص: ٣٩ ـ ٤٠).

لم أتغدّ الغداء سقطت قوتي أو كلاماً قريباً من هذا.

وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلّا بنيّة إجمام نفسي وإراحتها لأستعدّ بتلك الراحة لذكرٍ آخر، أو كلاماً هٰذا معناه. اهـ.

قال الإمام القرشي في «تاريخ حوادث الزمان»[1] كان كثير الذكر والصوم والصلاة والعبادة، ومن ذكره كان دائماً يقول: «يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، لا إله إلا أنت يا ذا الجلال والإكرام» ثم يشخص إلى السماء حتى يغيب بكليته، وكان من غرائب الزمان وعجائبه. اهـ.

[فقره وتذلله لربه وتبرؤه من الحول والقوة]

قال الإمام ابن القيّم: ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره[2].

وكان يقول كثيراً: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا فيّ شيء.

وكان كثيراً ما يتمثّل بهذا البيت:

أنــا المُكَــدّى وابــن المُكَــدّى وهٰكــذا كــان أبــي وجــدِّي

[رد شيخ الإسلام إذا أثني عليه]

وكان إذا أُثنيَ عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أُجدِّد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاماً جيِّداً.[3] اهـ.

---

(١) (٢/ ٣٠٩).

(٢) في تذلُّلِهِ وانكساره وفقره بين يديِ الله تعالى.

(٣) «مدارج السالكين» (١ / ٥٦٢).

[حكاية كانت في بداية أمره]

قال الإمام ابن القيّم[1]: حدّثني بعض أقارب شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ رحمه الله ـ [تقي الدين بن شُقير].

قال: كان في بداية [عُنْفُوان] أمره: يخرج أحياناً إلى الصحراء يخلو عن الناس لقوّة ما يرد عليه.

فتبعته يوماً [خرج إلى البريَّة بكرةً] فلمّا أصحر[2] وانفرد عن الناس بحيث لا يراه أحد] تنفّس الصعداء ثم جعل يتمثل بقول الشاعر ـ وهو لمجنون ليلى من قصيدته الطويلة[3]:

وأخرج من بين البيوتِ لعلني أحدِّث عنك النفس بالسرِّ خالياً اهـ

قال: وكان يتمثل كثيراً:

عَوى الذئبُ فاستأنست بالذئبِ إذ عوى وصوَّت إنسان فكِدتُ أطيرُ اهـ[4]

قال الشيخ الصالح المقرىء الفقيه العالم، مجد الدين إبراهيم بن أسعد بن حمزة ابن القلانسي الشافعي (ت ٧٦٥) سمعت شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رضي الله عنه يقول:

من لي بمثل سيرك المدلل تمشي رويداً وتجي في الأول[5]

---

(١) «مدارج السالكين» (٣ / ٦٢). الزيادات من «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» (ص: ٣٢٨ـ٣٢٩) و(ص: ٤٨٩).

(٢) أي: نزل الصحراء.

(٣) وهي في ديوانه (ص:١٢٩ ـ ١٣٤) ط دار القلم.

(٤) البيت للأُحَيْمِر السعدي (ت ١٧٠هـ)، انظر «الرد الوافر» (ص: ١٢٦).

(٥) المرجع السابق (ص: ١٥٣).

[جنة شيخ الإسلام في صدره]

قال الإمام ابن القيِّم[1]: سمعت شيخ الإسلام ابن تيميّة قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنّة[2] مَنْ لم يدخلها لا يدخل جنّة الآخرة.

وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رُحت فهي معي لا تفارقني، إنّ حبسي خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة. اهـ.

وله:

إن للـــه علينـــا أنْعُمـــاً   يعجِـز الحصْـرُ عـن العَـدِّ لهـا

فلـــه الحمـــد علـــى أنعمـــه   ولـه الحمـد على الشكـر لهـا[3]

[شيوخك عبيد ابن تيمية فما بالك تحط عليه؟!]

قال الإمام الشوكاني[4] في ترجمته للإمام العلامة الحافظ محدث حلب سبط ابن العجمي أبي الوفاء إبراهيم بن محمد خليل الحلبي (ت ٨٤١) [إنه] لما دخل التقي الحصني[5] حلب بلغني أنه لم يتوجه لزيارته لكونه كان ينكر على لابسي الأثواب النفيسة وعلى المتقشفين فما وسع

---

(١) «الوابل الصيب» (ص: ٤٤).

(٢) جنة المعرفة به تعالى والعمل بطاعته والفرح بذكره سبحانه وتعالى.

(٣) «العقود الدرية» (ص: ٣٧٦).

(٤) «البدر الطالع» (١ / ٣٠) و«شذرات الذهب» (٩ / ٣٤٦ ـ ٣٤٧).

(٥) أبو بكر محمد بن عبد المؤمن بن حريز العلوي الحصني ثم الدمشقي الشافعي المعروف بالتقي الحصني (ت ٨٢٩هـ) وكان يحط على ابن تيمية ويبالغ في ذلك، «إنباء الغمر» (٨ / ١١٠ ـ ١١١)، و«الضوء اللامع» (١١ / ٨١)، و«شذرات الذهب» (٩ / ٢٧٣ ـ ٢٧٥).

المترجَم له إلا المجيء إليه فوجده نائماً في «المدرسة الشريفية»[1] فجلس حتى انتبه ثم سلم عليه.

فقال له: لعلك التقي الحصني، ثم سأله عن شيوخه فسماهم، فقال له: إن شيوخك الذين سميتهم عبيد ابن تيمية أو عبيد من أخذ عنه، فما بالك تحط أنت عليه!

فما وسع التقي إلا أن أخذ نعله وانصرف ولم يجسر يَرُدُّ عليه. اهـ.

[حلُّه لغز الأديب الرشيد الفارقي في أبيات على وزن اللغز]

قال الشيخ علم الدين البرزالي في «معجم شيوخه»: كان قد نظم شيئاً يسيراً في صغره، وكتب عنه إذ ذاك، ثم إنه ترك ذلك وأعرض عنه وسُئِل عن مسألة القدر بنظم[2]، فأجاب فيها بنظم، وقد قُرِىء عليه وسمع منه.

وحلّ لغز الرشيد الفارقي بأبياتٍ تشتمل على نحو مائة بيت على وزن اللغز، وذلك في حياةِ والده رحمه الله تعالى، وله نحو العشرين من العمر وكان حلّهُ في أسرعِ وقت.

قال الحافظ ابن عبد الهادي[3]: هذا اللُّغز الذي أشار إليه الشيخ علم الدين نظمه الشيخ الإمام العلاّمة رشيد الدين أبو حفص عمر بن إسماعيل ابن مسعود الفارقي[4] في اسم أَلْغَزَهُ، بوصف أبرزه، في لفظٍ أَوْجزه، لفهمٍ أعجزه:

---

(١) «المدرسة الشريفية الشافعية» مجهولة الواقف وكذلك المكان، انظر «منادمة الأطلال» (ص: ١٠٩)، و«الدارس» (١ / ٣١٦).

(٢) سيأتي ذكرها.

(٣) «العقود الدرية» (ص: ١٣ ـ ٢١).

(٤) (ت ٦٨٩هـ)، انظر «شذرات الذهب» (٧ / ٧١٥).

مـا اسـمٌ ثـلاثـيُّ الحـروفِ فثلثُـهُ مثلٌ له، والثلثُ ضِعفُ جميعِهِ

والثلثُ الاخَرُ جوهرٌ حلّت به الـ أعراضُ جمعاً، فاعجبوا لبديعِهِ

وهــو المثلَّــث جـذرُهُ مثـلٌ لـه وإذا يُـربَّـع بـانَ فـي تـربيعِـهِ

. . . إلى آخر الأبيات.

فأجاب العبد الفقير إلى ربه أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، حلاً لمعضله، وفصلاً لمجمله، وفتحاً لمقفله، وشرحاً لمشكله:

يـا عـالمـاً قـد فـاق أهـل زمـانـه بفنــونــه وبيــانــه وبــديعِــهِ

وغـدا لأعـلامِ العلـومِ منـارهـم يهـدي الهُـداةُ إلـى منير ربوعِهِ

وأجـادَ نظمـاً عقـد جيـدِ عقيلـةٍ من دُرٍّ بحرِ العلم في ترصيعِهِ

. . . إلى آخر الأبيات.

فلمّا وقف الشيخ رشيد الدين على هذا الجواب، كتب إلى مُنشِئه الشيخ تقي الدين ابن تيميّة ـ رضي الله عنه ـ:

أحســن فـي حـلِّ المسمّـى ومـا سمــى ولٰكــن جــاء بــالمثــل

وجــاوز الجــوزاء بــالنطــق، والشِّعــرى: بشعــرٍ رائــقٍ جَــزْل

جلَّــت معــانيــه، فشكــراً لــه مُصَحَّــف والحــلُّ كــالحــل

أحمــد، وزن الفعــل فيــه، وفــي التُّقــى وزن القــول والفعــل

كــأنّمــا أحــرفُــه مثلــث تُملــى عليــه، وهــو يستملــي

وحُــقَّ بــالفخــر فتــىً جَــدُّه المجــدُ وقــد بــوركَ فــي النَّسـل

فسهّــل اللــه لمَــن فــي اسمــه العــدلُ، مكــافــآت علــى الفضــل

فنظر والد الشيخ تقي الدين ابن تيميّة بعد ذلك في اللغز، وحلّه في لفظةٍ أخرى. ونظم في ذلك قصيدة[1].

[مسألة في القدر
ونظمه جوابها في بحر أبيات السؤال]

قال الحافظ البزّار: أخبرني الشيخ الصالح تاج الدين محمد المعروف بابن الدوري، أنه حضر مجلس الشيخ ـ رضي الله عنه ـ وقد سأله يهودي[2] عن مسألةٍ في القدر قد نظمها شعراً في ثمانية أبيات.

فلمّا وقف عليها: فكر لحظةً يسيرة وأنشأ يكتب جوابها، وجعل يكتب ونحن نظن أنه يكتب نثراً.

فلمّا فرغ من تأمّله من حضر من أصحابه وإذا هو نَظْمٌ في بحر أبيات السؤال، وقافيتها تقرب من مائة وأربعة وثمانين بيتاً[3].

---

(١) انظر جواب الأديب الفارقي لوالد الشيخ في «العقود الدرية» (ص: ٢٢).

(٢) إن قائل هذه الأبيات لم يكن يهودياً، وإنما هو: محمد بن أبي بكر ابن السكاكيني، عملها على لسان ذمي، عن مسألة القدر، ليمتحن بها علماء زمنه، فلما بلغت شيخ الإسلام أجاب عليها، ومطلع أبيات السكاكيني:

أيا علماء الدين ذمي دينكم ... تحير دُلّوه بأوضح حجَّةِ

ومطلع أبيات ابن تيمية:

سؤالك يا هذا سؤال معاندٍ ... مخاصمِ رَبِّ الخلق باري البريةِ. اهـ

حاشية الأستاذ الشاويش على «الأعلام العلية» (ص: ٢٨).

(٣) في «البداية والنهاية» (١٤ / ١٠٤): وله سؤال في الخبر أجاب به الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وَكَلَّ فيه عنه غيره، وظهر له بعد موته كتاب فيه انتصار لليهود وأهل الأديان الفاسدة. (ت ٧٢١).

قال الإمام الشوكاني في «البدر الطالع» (١ / ٧١): فوقف ابن تيمية على هذه الأبيات فثنى إحدى رجليه على الأخرى وأجاب في مجلسه قبل أن يقوم بمائة وتسعة عشر بيتاً.

وقد أبرز فيها من العلوم ما لو شرح بشرح لجاء شرحه مجلدين كبيرين[1]، هذا من جملة بواهره[2]. اهـ.

[ندرة غلطه]

قال ابن ناصر الدين: وقال شيخنا[3] أيضاً فيما ذكره من أوهامٍ يسيرة وقعت للشيخ تقي الدين؛ قال فيما وجدته بخطِّه:

وحسبُ شيخنا مع اتِّساعه في كل العلوم إلى الغاية والنهاية سمعاً وعقلاً نقلاً وبحثاً أنْ يكون نادِرَ الغلط؛ كما كان أخوه أبو محمد ابن تيميّة[4] فيما بلغني عنه يقول:

أخي نادِر الغلط.

وكان أبو محمّد من النّاقدين حديثاً وفقهاً وعربيّة[5]. اهـ.

[سرعة حضور جوابه]

قال العلاّمة الصفدي[6]: حكى لي عنه الشيخ شمس الدين ابن قيّم

---

(١) وقد شرح هذا النظم الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي شرحاً متوسطاً أسماه «الدرة البهية شرح القصيدة التائيّة في حل المشكلة القدرية».

(٢) «الأعلام العلية» (ص: ١٥).

(٣) الإمام الزاهد العابد العلامة النبيل المحدث الأصيل الحافظ الكبير المسند الكثير، عمدة الحفاظ شيخ المحدثين شمس الدين محمد بن عبد الله بن أحمد بن محب الدين السعدي المقدسي المعروف بابن المحب الحافظ الحنبلي (ت ٧٨٨هـ)، انظر «الرد الوافر» (ص: ٩٥)، و«إنباء الغمر» (٢ / ٢٤٤).

(٤) تقدم التعريف به.

(٥) «الرد الوافر» (ص: ٩٦).

(٦) «الوافي بالوفيات» (٧ / ١٧).

الجوزيّة قال: كان صغيراً عند بني المنجا فبحث معهم فادّعوْا شيئاً أنكره فأحضروا النّقل.

فلمّا وقف عليه ألقى المجلّدَ مِن يده غيْظاً.

فقالوا لهُ: ما أنتَ إلّا جريءٌ! ترمي المجلّد من يدكَ وهو كتابُ علم؟!

فقال سريعاً: أيُّما خير أنا أو موسى؟

فقالوا: موسى.

فقال: أيُّما خير هذا الكتاب أو ألواحُ الجوهر التي كان فيها العَشرُ كلمات؟

قالوا: الألواح.

فقال: إنّ موسى لمّا غضب ألقى الألواحَ من يده، أو كما قال.

[بعض فقهاء الحنفية

يجيء ابن تيمية مستشيراً بالانتقال عن مذهبه]

قال الإمام ابن القيّم: سمعتُ شيخنا يقول: جاءَني بعض الفقهاء من الحنفيّة فقال: أستشيرك في أمر. قلت: ما هو؟ قال: أريد أن أنتقل عن مذهبي. قلت له: ولم؟ قال: لأني أرى الأحاديث الصحيحة كثيراً تخالفه، واستشرت في هذا بعض أئمة أصحاب الشافعي فقال لي: لو رجعت عن مذهبك لم يرتفع ذلك من المذهب، وقد تقررت المذاهب ورجوعك غير مفيد، وأشار عليّ بعض مشايخ التصوُّف بالافتقار إلى الله والتضرع إليه، وسؤال الهداية لما يحبُّه ويرضاه، فماذا تشير به أنت عليّ؟

قال: فقلت له: اجعل المذهب ثلاثة أقسام، قسم الحق فيه ظاهر بين

موافق للكتاب والسنة، فاقضِ به وأَفتِ به طيِّب النفس منشرح الصدر، وقسم مرجوح ومخالفه معه الدليل، فلا تُفْتِ به ولا تحكم به وادفعه عنك، وقسم من مسائل الاجتهاد التي الأدلة فيها متجاذبة، فإن شئت أن تفتي به وإن شئت أن تدفعه عنك. فقال: جزاك الله خيراً، أو كما قال[1]. اهـ.

[الحافظ الفقيه ابن دقيق العيد يقول بعد اجتماعه بابن تيمية: ما كنت أظن الله تعالى بقي يخلق مثلك]

قال الحافظ ابن ناصر الدين: لمّا قدم التّتار - خذلهم الله تعالى - سنة سبعمائة إلى أطراف البلاد الشاميّة، وكانت العساكر المصريّة قد خرجت لقتالهم ثم قوِيَ عليهم المطر وشدة البرد فرجعوا متوجّهين إلى مصر.

فبلغ ذلك الشيخ تقي الدين ابن تيميّة فركب على البريد من دمشق وساق ليلحق السلطان قبل دخوله إلى مصر فسبقه الجيش ودخل إلى القاهرة.

فدخلها الشيخ تقي الدين ابن تيميّة في اليوم الثامن من خروجه من دمشق وكان دخوله مع دخول بعض العساكر إلى القاهرة يوم الاثنين حادي عشر جمادى الأولى سنة سبعمائة.

فاجتمع بالشيخ أعيان البلد ومنهم تقيّ الدين بن دقيق العيد، فسمع كلام الشيخ تقي الدين ابن تيميّة، وقال له بعد سماع كلامه: ما كنتُ أظنّ أن الله تعالى بقي يخلق مثلك.

---

(١) «إعلام الموقعين» (٤ / ٢٣٦ - ٢٣٧).

وسئل الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد بعد انقضاء ذلك المجلس عن الشيخ تقي الدين ابن تيميّة، فقال: هو رجل حُفَظَة، فقيل له: فهلّا تكلمت معه؟

فقال: هذا رجلٌ يحب الكلام، وأنا أحبُّ السكوت.

وقال الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد أيضاً: لمّا اجتمعت بابن تيميّة رأيت رجلاً العلوم كلها بين عينيه يأخذ منها ما يريد ويدع ما يريد[1]. اهـ.

[ثناء العلامة الصفدي على شيخ الإسلام ابن تيمية]

قال العلامة الصفدي في ختام ترجمته لشيخ الإسلام في «أعيان العصر»[2]: كان الشيخ تقي الدين ابن تيميّة أحد الثلاثة الذين عاصرتهم ولم يكن في الزمان مثلهم، بل ولا قبلهم من مئة سنة وهم: الشيخ تقي الدين ابن تيمية، والشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد، وشيخنا العلامة تقي الدين السبكي. وقلت في ذلك:

ثلاثة ليس لهم رابعٌ ... فلا تكُن من ذاك في شكٍّ
وكلهم منتسب للتقى ... يقصر عنهم وصفُ مَن يحكي
فإن تشأ قلت: ابن تيميّة ... وابن دقيق العيد والسبكي[3]

(١) «الرد الوافر» (ص: ١١٠ ـ ١١١).
(٢) «أعيان العصر» (١ / ١٤٧).
(٣) ستأتي ترجمتهم.

[شيخ الإسلام من العلماء العزّاب][1]

عزوبة شيخ الإسلام ابن تيمية وعدم تسريه أمرٌ مشهور معروف لم يختلف فيه أحد البتة.

وقد قال الحافظ الذهبي والحافظ ابن رجب الحنبلي[2] والعلامة ابن الوردي[3] وغيرهم كثير: «لم يتزوج ولا تسرى».

قال الذهبي في «معجمه المختصر»[4]: كان إماماً متبحراً في علوم الديانة صحيح الذهن سريع الإدراك، سيال الفهم، كثير المحاسن، موصوفاً بفرط الشجاعة والكرم فارغاً عن شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه.

---

(١) من العلماء العزاب أيضاً وهم كثير:
* الحافظ القدوة الزاهد شيخ الكوفة وشيخ أصحاب الكتب الستة هناد بن السَّرِي التيمي الدارمي المحدث (ت ٢٤٣هـ).
* الإمام المجتهد أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الحجة المفسر المحدث الفقيه الأصولي المؤرخ.... المجتهد المطلق (ت ٣١٠هـ).
* الحافظ العلامة شيخ الأدب النحوي المفسر الأديب الراوية الإمام أبو بكر بن الأنباري محمد بن القاسم بن محمد (ت ٣٢٨هـ).
* الإمام الحافظ الأوحد القدوة الفقيه المحدث شيخ الإسلام علم الأولياء محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النواوي الدمشقي (ت ٦٧٦هـ).
وانظر مزيداً من هؤلاء الأعلام العزّاب وطرفاً من حياتهم وسِرِّ عزوبة هؤلاء العلماء الكبار والحكم الشرعي في عدم الزواج في كتاب «العلماء العُزاب الذين آثروا العلم على الزواج» للشيخ عبد الفتاح أبي غدة.

(٢) «الذيل على طبقات الحنابلة» (٢ / ٣٦٥).

(٣) «تتمة المختصر في أخبار البشر» (٢ / ٢٧٩).

(٤) (ص: ٢٦).

[بيان مثال صفة ابن تيمية]

قال الحافظ السخاوي «بسنده» عن الشمس ابن الديري قال: سمعت علاء الدين البسطامي ببيت المقدس يقول، وقد سأله: هل رأيت الشيخ تقي الدين ابن تيميّة؟

فقال: نعم.

قلت: فكيف كانت صفته؟

فقال: هل رأيت قبة الصخرة؟

فقلت: نعم.

قال: كان كقبة الصخرة مُلِئَ كتباً ولها لسان ينطق[1].

[جواب العلامة شمس الدين الموصلي لما كتبه الرافضي ابن المطهر إلى ابن تيمية]

قال الإمام أبو العبّاس ابن حجي[2]: كتب ابن المطهر الرافضي[3] إلى

(١) «مقدمة الجامع لسيرة شيخ الإسلام» (ص: ك)، وانظر «الجواهر الدرية» (١ / ١١١).

(٢) سيأتي التعريف به.

(٣) هو شيخ الرافضة ابن المطهر جمال الدين أبو منصور حسن بن يوسف بن مطهر الحلبي العراقي الشيعي، وله تصانيف كثيرة وكان رافضياً خبيثاً على مذهب القوم، ولابن تيمية عليه ردٌّ في أربعة مجلدات وكان يسميه ابن المُنَجّس يعني عكس شهرته كونه كان يعرف بابن المطهر.
وأيضاً كان شيخ الإسلام يقول عن كتابه الذي أسماه «منهاج الكرامة في معرفة الإمامة»: هو خليق بأن يسمى كتاب الندامة. انظر «النجوم الزاهرة» (٩ / ٢٦٧) و«منهاج السنة النبوية» (١ / ٨). =

الشيخ تقيّ الدين ابن تيميّة [لما وصل إليه كتاب ابن تيميّة في الرد عليه. . . أبياتاً أولها][1]:

لو كنتَ تَعْلَمُ كلَّ ما عَلِمَ الورى ... طُرّاً لَصِرْتَ صَدِيقَ كُلِّ العَالِمِ

لكِنْ جَهِلْتَ فَقُلْتَ إنَّ جَميع مَنْ ... يَهْوى خِلافَ هَواكَ لَيْسَ بِعالِمِ

قال: فأجابه شيخنا شمس الدين الموصلي[2] [على لسان ابن تيمية]، وسمعته من لفظه، في الخميس خامس عشر ذي القعدة، سنة سبعين وسبعمائة بقاعة دار الحديث الأشرفية، قال:

يا مَنْ يُمَوِّهُ في السُّؤال مُسَفْسِطاً ... إنَّ الَّـذي أَلْـزَمْـتَ لَيـس بِـلازِمِ

هٰـذا رَسـولُ اللَّـهِ يَعْلَـمُ كُـلَّ مـا ... عَلِموا وقَدْ عَاداهُ جُلُّ العَالَمِ[3]

= وقال الحافظ ابن كثير: وله كتاب «منهاج الاستقامة في إثبات الإمامة» خبط فيه في المعقول والمنقول ولم يدر كيف يتوجه إذ خرج عن الاستقامة.

وقد انتدب في الرد عليه الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية في مجلدات أتى فيها بما يبهر العقول من الأشياء المليحة الحسنة وهو كتاب حافل. ولد ابن المطهر الذي لم تطهر خلائقه ولم يتطهر من دنس الرفض (٦٤٨ ـ ٧٢٦). اهـ. «البداية والنهاية» (١٤ / ١٢٩ ـ ١٣٠).

(١) الزيادات من «الدرر الكامنة» (٢ / ٧١).

(٢) هو الإمام الحافظ بقية السلف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبدالكريم الطرابلسي ابن الموصلي الشافعي (ت ٧٧٤) «شذرات الذهب» (٨ / ٤٠٦).

(٣) «الرد الوافر» (ص: ١٣٦ ـ ١٣٧).



[إنكاره على فخر الدين الرازي]

قال الإمام بدر الدين القرافي[1]: قال المقري[2]: وقد سمعت أنا عليهما وناظرا تقي الدين ابن تيمية وظهرا عليه!! وكان ذلك من أسباب محنته وكانت له مقالات شنيعة من أمر حدوث النزول[3] على ظاهره، وقوله فيه: كنزولي هذا.

قلت: وهذه الزيادة لم تثبت عنه ـ أعني قوله: كنزولي ـ وكان شديد الإنكار على الإمام فخر الدين[4].

حدثني شيخنا العلامة أبو عبد الله الآيلي أن عبد الله بن أبي إبراهيم الزموري أخبره أنه سمع ابن تيمية ينشد لنفسه:

محصل[5] في أصول الدين حاصله   من بعد تحصيله علم بلا دين
أصل الضلالة والإفك المبين فما   فيه فأكثره وحي الشياطين

---

(١) في ترجمة ابني الإمام عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله أبي زيد، وأخيه أبي موسى عيسى العلمين التلمسانيين، وعلميها الشامخين ت أبو زيد ٧٤٣هـ. «توشيح الديباج» (ص: ١٤٤).

(٢) في «التعريف بابن الخطيب».

(٣) «حديث النزول» أخرجه البخاري (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨) وغيرهما، وانظر شرحه لشيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٥ / ٣٢١ ـ ٥٨٥) فقد أزال الشبه والإشكال، وأبان الهدى من الضلال.

(٤) محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت ٦٠٦).

(٥) كتاب «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين»، قال الذهبي: وقد بدَت منه في تواليفه بلايا وعظائم وسِحرٌ وانحرافات عن السُّنّة، والله يعفو عنه، فإنه توفّي على طريقة حميدة والله يتولى السرائر. اهـ. انظر «السِّير» للذهبي (٢١ / ٥٠١) وللشيخ تصانيف في الرد عليه.

قال: وكان في يده قضيب فقال: والله لو رأيته لضربته بهذا القضيب هكذا؛ ثم رفعه ووضعه[1]. اهـ.

[إنكار ابن تيمية على المتنبي]

قال المتنبي المشهور أحمد بن الحسين بن عبد الصمد أبو الطيب الجعفي الشاعر المعروف بالمتنبي (٣٠٦ ـ ٣٥٤):

يا مَن ألوذُ به فيما أؤَمِّلُه ... ومَن أعوذ به ممّا أُحاذِرُه

لا يجْبُرُ النّاسُ عَظْماً أنت كاسِرُه ... ولا يَهيضونَ عَظْماً أنْتَ جابِرُه

قال الحافظ ابن كثير: وقد بلغني عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة ـ رحمه الله ـ أنّه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة في مخلوق. ويقول: إنّما يصلح هذا لجناب الله سبحانه وتعالى.

وأخبرني العلاّمة شمس الدين بن القيم ـ رحمه الله ـ أنّه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين البيتين في السجود، أدعو الله بما تضمناه من الذل والخضوع[2]. اهـ.

[رفضه منصب قضاء القضاة ومشيخة الشيوخ]

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي[3]: وقد عرض عليه قضاء القضاة قبل التسعين ومشيخة الشيوخ فلم يقبل شيئاً من ذلك. قرأت ذلك بخطه.

---

(١) «توشيح الديباج وحلية الابتهاج» للإمام بدر الدين القرافي (ت ٩٤٦) (ص: ١٤٥).

(٢) «البداية والنهاية» (١١ / ٢٧٥).

(٣) «الذيل على طبقات الحنابلة» (٤ / ٣٩٠).



[تقريع شيخ الإسلام للزنديق ناصر الدين الهيتي قبل ضرب عنقه على ما كان يصدر منه]

قال الحافظ ابن كثير: وفي يوم الثلاثاء حادي عشرين ربيع الأول[1] بكرة ضربت عنق ناصر بن الشرف أبي الفضل بن إسماعيل بن الهيتي بسوق الخيل على كفره واستهانته واستهتاره بآيات الله وصحبته الزنادقة كالنجم ابن خلكان والشمس محمد الباجريقي، وابن المعمار البغدادي وكلٌّ منهم فيه انحلال وزندقة مشهور بها بين الناس.

قال الشيخ علم الدين البرزالي: وربما زاد هذا المذكور المضروب العنق عليهم بالكفر والتلاعب بدين الإسلام والاستهانة بالنبوة والقرآن، قال: وحضر قتله العلماء والأكابر وأعيان الدولة، قال: وكان هذا الرجل في أول أمره قد حفظ التنبيه وكان يقرأ في الختم بصوت حسن وعنده نباهة وفهم وكان منزلاً في المدارس والترب ثم إنه انسلخ من ذلك جميعه وكان قتله عزاً للإسلام وذلاً للزنادقة وأهل البدع.

قلت: وقد شهدت قتله، وكان شيخنا العلاّمة أبو العباس ابن تيمية حاضراً يومئذٍ وقد أتاه وقرعه على ما كان يصدر منه قبل قتله ثم ضربت عنقه وأنا شاهدٌ ذلك[2]. اهـ.

[شيخ الإسلام ينكر ويقوم على غير واحد ادعى النبوة في زمانه]

قال شيخ الإسلام[3]: فإن أحد هؤلاء إن أمكنه أن يدعي[4] الإلهية أو

---

(١) (سنة ٧٢٦هـ).

(٢) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٢٧).

(٣) «الرد على ابن سبعين وأهل الوحدة» (ص: ٣٩١ ـ ٣٩٢).

(٤) «كأحمد بن قسي الأندلسي» و«ابن عربي» و«ابن سبعين» وقد فعلوا!!! وغيرهم كثير.

النبوة ولو بعبارة غريبة لا يُنَفِّرُ الناس فعل، حتى كان في زماننا غير واحد ممن اجتمع بي وأنكرت عليه، وجرى لنا في القيام عليهم فصول[1]، ممن يدعي الرسالة ظاناً أن هذا يُسَلّم له إذا لم تسلم له النبوة، فيدعون الرسالة، فإذا جاء من يخاف منه من العلماء ادّعى أحدهم الإرسال العام الكوني كإرسال الرياح وإرسال الشياطين، وتارة يدعي إرسال الرسل كقصة صاحب «يس» أي في فترة «صاحب يس». وقد وضح للعالم أن الرسالة التي وصف بها الأنبياء ممنوعة، إذ هي أخص من النبوة، وعلم أن النبوة بعد محمد منفية بقوله: «إن الله ختم بي النبوة والرسالة». وأما الإرسال الثاني فلا يكون مع مشافهة الرسول إلا في حياته وأما بعد موته فتبليغ القرآن والإيمان والسنة أمر مشترك. اهـ.

[إنكاره على الأحمدية طريقتهم وظهوره عليهم]

وقال الحافظ ابن كثير: وفي يوم السبت تاسع جمادى الأولى[2] حضر جماعة كثيرة من الفقراء الأحمدية[3] إلى نائب السلطنة بالقصر الأبلق، وحضر الشيخ تقي الدين ابن تيمية، فسألوا من نائب السلطنة بحضرة الأمراء أن يكف الشيخ تقي الدين إنكاره عليهم وأن يسلم لهم حالهم.

فقال لهم الشيخ: هذا ما يمكن، ولا بد لكل أحد أن يدخل تحت

---

(١) مثل أتباع ابن هود.

(٢) (سنة ٧٠٥هـ).

(٣) نسبة إلى أحمد بن علي بن محمد بن أبي بكر البدوي المعروف بأحمد البدوي. ولد سنة ٥١٦ بفاس بالمغرب وتوفي بطنطا في سنة ٦٧٥هـ. انظر «التصوف في ميزان البحث والتحقيق» لعبد القادر السندي (ص: ١٣٤ ـ ١٧٢).

الكتاب والسنة قولاً وفعلاً، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه. فأرادوا أن يفعلوا شيئاً من أحوالهم الشيطانية التي يتعاطونها في سماعاتهم.

فقال الشيخ: تلك أحوال شيطانية باطلة، وأكثر أحوالهم من باب الحيل والبهتان، ومن أراد منهم أن يدخل النار فليدخل أولاً إلى الحمام وليغسل جسده غسلاً جيداً ويدلكه بالخل والأشنان، ثم يدخل بعد ذلك إلى النار إن كان صادقاً، ولو فرض أن أحداً من أهل البدع دخل النار بعد أن يغتسل فإن ذلك لا يدل على صلاحه ولا على كرامته، بل حاله من أحوال الدجاجلة المخالفة للشريعة، إذا كان صاحبها على السنة، فما الظن بخلاف ذلك؟!

فابتدر شيخ المنيبع[1] الشيخ صالح وقال: نحن أحوالنا إنما تنفق عند التتر ليست تنفق عند الشرع فضبط الحاضرون عليه تلك الكلمة وكثر الإنكار عليهم من كل أحد، ثم اتفق الحال على أنهم يخلعون الأطواق الحديد من رقابهم، وأن من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه. وصنف الشيخ جزءاً في طريقة الأحمدية وبين فيه أحوالهم ومسالكهم وتخيلاتهم، وما في طريقتهم من مقبول ومردود بالكتاب، وأظهر الله السنة على يديه وأخمد بدعتهم، ولله الحمد والمنة[2]. اهـ.

[شيخ الإسلام يتحدى بعض الأحمدية]

قال العلامة الصفدي: حكي لي أنه جاء إليه بعض الأحمدية، وقال ما يقولونه على العادة في دخول التنور من بعد ثلاثة أيام من وقود النار فيه.

---

(١) هو الشيخ صالح الأحمدي الرفاعي (ت ٧٠٧)، انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٤٩).

(٢) «البداية والنهاية» (١٤ / ٣٨)، وسيأتي ذكر أحداث هذا المجلس بتوسع يذكره شيخ الإسلام ابن تيمية انظر (ص: ٢١٥ ـ ٢٥٠).

فقال له: أنا ما أكلّفك ذلك ولكن دعني أضع هذه الطوّافة في ذقنك، فجزع ذلك الفقير وأبلس[1].

[لا عقل ولا قران]

سمع ابن تيمية صوفياً يقرأ (فخر عليهم السقف من تحتهم)! فضربه وقال: لا عقل ولا قرآن! لأن العقل يدل على أن السقف فوق، والقرآن فيه ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦][2]. اهـ.

[تعزيره إبراهيم القطان واستتابته]

قال الحافظ ابن كثير: وفي رجب[3] أحضر إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية شيخ كان يلبس دلقاً كبيراً متسعاً جداً، ويسمى المجاهد إبراهيم القطان، فأمر الشيخ بتقطيع ذلك الدلق، فتناهبه الناس من كل جانب وقطعوه حتى لم يدعوا فيه شيئاً، وأمر بحلق رأسه وكان ذا شعر، وقلّم أظفاره وكانوا طوالاً جداً، وحف شاربه المسبل على فمه المخالف للسنة، واستتابه من كلام الفحش وأكل ما يغير العقل من الحشيشة وما لا يجوز من المحرمات وغيرها.

[استتابته البلاسي من مقارفة المحرمات]

وبعده استحضر الشيخ محمد الخباز البلاسي، فاستتابه أيضاً عن أكل المحرمات ومخالطة أهل الذمة، وكتب عليه مكتوباً أن لا يتكلم في تعبير المنامات ولا في غيرها بما لا علم له به.

---

(١) «الوافي بالوفيات» (٧/ ١٨).

(٢) «إطلالة على ساحل ابن تيمية» (ص: ١١٣).

(٣) (سنة ٧٠٤هـ).

[قطعه هو وجماعته صخرة تزار وينذر لها]

وفي هذا الشهر بعينه راح الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مسجد النارنج، وأمر أصحابه ومعهم حجارون بقطع صخرة كانت بنهر قلوط تزار وينذر لها، فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً.

[حسدهم لشيخ الإسلام وإبراز العداوة له بسبب إقامته الحدود]

وبهذا وأمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة، وكذلك بكلامه بابن عربي وأتباعه، فحسد على ذلك وعودي، ومع هذا لم تأخذه في الله لومة لائم ولا بالى، ولم يصلوا إليه بمكروه، وأكثر ما نالوا منه الحبس، مع أنه لم ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام ولم يتوجه لهم عليه ما يشين، وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه كما سيأتي، وإلى الله إياب الخلق وعليه حسابهم[1]. اهـ.

[شيخ الإسلام يعزر إبراهيم «القميني» ثم يتوبه]

قال الحافظ ابن كثير[2]: إبراهيم الموله الذي يُقال له «القميني» لإقامته بالقمامين خارج باب شرقي، وربمّا كاشف بعض العوام، ومع هذا لم يكن من أهل الصلاة.

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤ / ٣٦). وقد ثار هؤلاء الحسدة على شيخ الإسلام أكثر من مرة بسبب إقامته الحدود وشكوه إلى السلطان. قال الحافظ ابن كثير (١٤ / ٢٠): وفي هذا الشهر(شهر شوال من سنة ٧٠١هـ) ثار جماعة من الحسدة على الشيخ تقي الدين ابن تيمية وشكوا منه أنه يقيم الحدود ويعزر ويحلق رؤوس الصبيان، وتكلم هو أيضاً فيمن يشكو منه ذلك وبيَّن خطأهم، ثم سكنت الأمور. اهـ.

(٢) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٢٣).

وقد استتابه الشيخ تقي الدين ابن تيميّة وضربه على ترك الصلوات ومخالطة القاذورات، وجمع الرجال والنساء حوله في الأماكن النجسة[1].

توفِّي كهلاً في هٰذا الشهر[2]. اهـ.

[نظم لابن تيمية على لسان الفقراء]

قال العلامة الصفدي[3]: ومن نظم الشيخ تقي الدين على لسان الفقراء المجردين وغيرهم:

والله ما فقرنا اختيار ... وإنما فقرنا اضطرارُ

جماعة كلنا كسالى ... وأكلنا ما له عيار

تسمع منا إذا اجتمعنا ... حقيقة كلها فشار

[تفرد شيخ الإسلام بتكسيره الأحجار والأصنام المعتقد فيها والمتبرك بها والمَزورة من الناس والمنذور لها وتفرده بذلك دون غيره من العلماء الذين كانوا قبله وفي زمانه]

قال خادم شيخ الإسلام إبراهيم بن أحمد الغياني[4]: أمّا بعد فهذا

---

(١) وانظر ترجمة الشيخ إبراهيم الشاغوري والشيخ يوسف القميني فإنهما كانا لا يصليان ولا يصومان ولا يتقيان النجاسة وهما من أهل الكشف والأحوال!! «المصدر السابق» (١٣ / ٣١٥).

(٢) (سنة ٧٢٥هـ من شهر محرم).

(٣) «أعيان العصر وأعوان النصر» (١ / ١٤٢).

(٤) «ناحية من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» لخادمه الغياني (ص: ٦ ـ ١٤) باختصار.

فصل فيما قام به الشيخ الإمام العلاّمة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العبّاس أحمد ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ وتفرد به دون غيره من العلماء ـ رضي الله عنهم ـ الذين كانوا قبله وفي زمانه، وذلك بتكسير الأحجار التي كان الناس يزورونها ويتبركون بها ويقبّلونها وينذرون لها النذور ويلطخونها بالخلوق ويطلبون عندها قضاء حاجاتهم ويعتقدون أنّ فيها ـ أو لها ـ سِرّاً، وأنّ من تعرّض لها بسوء بقالٍ أو فعالٍ أصابته في نفسه آفة من الآفات!!!

فشرع الشيخ يعيب تلك الأحجار وينهى الناس عن إتيانها، أو أن يُفعل عندها شيء ممّا ذكر، أو أن يحسن بها الظنّ ـ إلى أن قال ـ:

[كسره العمود المخلق واستجابة الله للإمام النووي في هدم هذا الصنم]

بلغ الشيخ أنّ جميع ما ذكر من البدع يتعمّدها الناس عند العمود المخلّق الذي داخل «الباب الصغير» الذي عند «درب النافدانيين»، فشدّ عليه وقام واستخار الله في الخروج إلى كسره.

فحدّثني أخوه الشيخ الإمام القدوة شرف الدين عبد الله ابن تيميّة[1]، قال: فخرجنا لكسره، فسمع الناس أنّ الشيخ يخرج لكسر العمود المخلّق، فاجتمع معنا خلق كثير.

قال: فلمّا خرجنا نحوه وشاع في البلدان: ابن تيميّة طالع ليكسرَ العمود المخلّق صاح الشيطان في البلد وضجّت الناس بأقوال مختلفة، هذا يقول: «ما بقيت عين الفيجة تطلع» وهذا يقول: «ما ينزل المطر ولا يثمر شجر» وهذا يقول: «ما بقي ابن تيمية يُفلح بعد أن تعرّض لهذا»، وكل من

---

(١) سيأتي التعريف به.

يقول شيئاً غير هذا.

قال الشيخ شرف الدين: فما وصلنا إلى عنده إلا وقد رجع عنّا غالب الناس، خشية أن ينالهم منه في أنفسهم آفة من الآفات، أو ينقطع بسبب كسره بعض الخيرات.

قال: فتقدّمنا إليه وصحنا على الحجّارين: «دونكم هذا الصنم»، فما جسر أحد منهم يتقدّم إليه.

قال: فأخذت أنا والشيخ المعاول منهم وضربنا فيه وقلنا: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء: ٨١].

وقلنا: إن أصاب أحداً منه شيء نكون نحن فداه، وتابعنا الناس فيه بالضرب حتى كسرناه، فوجدنا خلفه صنمين حجارة مجسّدة مصوّرة، طول كل صنم نحو شبر ونصف.

وقال الشيخ شرف الدين: قال الشيخ النووي[1]: «اللهم أقِم لدينك، رجلاً يكسر العمود المخلّق ويخرب القبر الذي في جيرون».

فهذا من كرامات الشيخ محيي الدين (أي النووي)، فكسرناه ولله الحمد وما أصاب الناس من ذلك إلاّ الخير، والحمد لله وحده.

[كسره البلاطة السوداء المتبرك بها]

بلغ الشيخ أنّ في المسجد الذي خلف «قبة اللحم» في «العلافين» ويُعرَف باسم «مسجد الكف» بلاطة سوداء، وقد شاع بين الناس أنّ إنساناً

(١) هو الإمام الحافظ الفقيه المحدث علم الأولياء محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي (ت ٦٧٦هـ) «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٤ / ١٤٧)، «طبقات الشافعية الكبرى» (٤ / ٤٧١).

من قديم الزمان رأى في منامه النبيّ ﷺ وحدّثه بأمور. فقال: يا رسول الله إن حدّثت الناس بالذي حدثتني لا يصدقونني، فقال له: هذا كفّي اليمين في هذه البلاطة دليلاً على صدقك، وحطّ كفّه فيها. فغاص، فبقي فيها موضع كف وخمس أصابع، وانعكف الناس عليه ـ كما ذكر ـ بالنذر له والتبرك به والاستسقاء.

فبلغ ذلك الشيخ فطلع إليها ومعه جماعته، وأخوه الشيخ شرف الدين، فسمعته غير مرة يحدث يقول: لمّا نظرتُ إليها قلت: هذا الكفّ منحوت مصنوع مكذوب، فإنّ النّحات جاء يعمله كفّ يمين فعمله كف شمال، فبقي معكوساً؛ يجيء الخِنصِر موضع الإبهام، والإبهام موضع الخنصر، فكسرها وما بقي لها ذكر ولا أثر، ولله الحمد.

[كسره صخرة عظيمة يتبرك بها في مسجد النارنج]

وكانت صخرة كبيرة عظيمة في وسط محراب «مسجد النارنج»، فيتوجه المصلّي إليه ضرورة، وعليها ستر أسود مرخى ودرابزين حولها، وقد استفاض بين الناس أنّه حُطّ عليها رأس الحسين عليه السلام فانشقّت له، وأنها متى انشقّت كلها قامت القيامة، ولها في كل سنة يوم عاشوراء عيدٌ يجتمع فيه الناس ويبقون في ذلك اليوم وفي غيره من الأيام يتبركون بها ويقبلونها، وينذرون لها النذور ويلطخونها بالخلوق ويدعون عندها.

فبلغ ذلك الشيخ، فطلب الحجّارين من القلعة وخرج إليها ومعه شرف الدين في جماعةٍ كبيرة، فأول شيء عمله قلع الدّرابزين من حولها ونتش الستر عنها ورماه، وصاح على الحجّارين: «دِهّ عليه!» فتأخروا عنها.

فتقدم هو وأخوه شرف الدين وضربها بنعله، وقال: «إنْ أصاب أحداً

منها شيء أصابنا نحن قبله». فتقدّم إليها عند ذلك الحجارون وحفروا عليها، فإذا هي رأس عمود كبير قد حفر له ونزل في ذلك المكان، فكسروه وحملوه على أربع عشرة بهيمة وأحرقوه كلساً.

[صنم يعظم ويستسقى به يكسره شرف الدين ابن تيمية]

كان تحت الطاحون التي قبلي «مسجد النارنج» في الماء عند فرّاش الطاحون صنم حجر يعظم ويستسقى به، فكان بعض الناس يكون عنده مولود صغير وقد طال به المرض، فيأتون به حتى يغطسوه عند الصنم في الماء ويشفى، ويحطون عند الصنم خبزاً وحلوى وغير ذلك.

فخرج إليه الشيخ شرف الدين أخو الشيخ تقي الدين فكسره وخلص أولاد الناس منه، وكان عمود في حارة الفرما يقال له: (العمود المغلق) وكان حاله كما ذكر، وأراح الناس منه. اهـ.

[كسره موضع القدم المكذوب]

قال خادم الشيخ الغياني: وكان مع أناس حجّارين حجر رخام وقد قمعوه بقصدير، وفي وسط الحجر أثر قدم، دائرين به في البلاد، ويدخلون به على بيوت الكبراء والسعداء وفي الأسواق، ويقولون لهم: هذا موضع قدم نبيِّكم فيبقى الناس يقبّلونه ويتبركون به ويعطونهم الأموال لأجل ذلك.

فأمسكهم الشيخ فكسر ذلك الحجر، وتهارب أصحابه من قدّام الشيخ مخافة أن يضرّهم.

[كسر الأنصاب المعظمة والشهيرة بدمشق بيدي شيخ الإسلام وحزبه]

قال العلاّمة ابن القيّم: وقد كان بدمشق كثير من هذه الأنصاب فيسّر

الله سبحانه كسرها على يد شيخ الإسلام وحزب الله الموحدين، كالعمود المخلق، والنصب الذي كان بمسجد النارنج عند المصلّى يعبده الجهال، والنصب الذي كان تحت الطاحون الذي عند مقابر النصارى، ينتابه الناس للتبرك به. وكان صورة صنم في القلُّوط ينذُرون له ويتبركون به، وقطع الله سبحانه النصب الذي كان عند الرحبة يسرج عنده ويتبرك به المشركون. وكان عموداً طويلاً على رأسه حجر كالكرة. وعند مسجد درب الحجر نُصب قد بُني عليه مسجد صغير يعبده المشركون يسّر الله كسره[1]. اهـ.

[شيخ الإسلام يرسل الشريف الخشاب إلى «صيدنايا» لإزالة منكر عظيم]

قال ابن كثير: السيد الشريف عماد الدين الخشاب[2] كان رجلاً شهماً كثير العبادة والمحبة للسنة وأهلها، ممن واظب الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله وانتفع به وكان من جملة أنصاره وأعوانه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو الذي بعثه إلى «صيدنايا»[3] مع بعض القسيسين فلوث يده بالعذرة[4] وضرب اللحمة التي يعظمونها هنالك وأهانها غاية الإهانة لقوة إيمانه وشجاعته رحمه الله وإيانا[5]. اهـ مختصراً.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١ / ٢١٢).

(٢) إسماعيل بن ناهض بن أبي الوحش بن حاتم الدمشقي الخشاب (ت ٧٤٤هـ). انظر «الدرر الكامنة» (١ / ٣٨٢).

(٣) صَيْدنَايَا: بلد من أعمال دمشق مشهور بكثرة الكروم «معجم البلدان» (٥ / ٢١٣).

(٤) الغائط.

(٥) «البداية والنهاية» (١٤ / ٢٢٠).

[كشفه حال بني عبيد]

قال خادم شيخ الإسلام[1]: سمعتُ الشيخ يحكي غير مرة في مجالسه يقول: زرت يوماً المارستان[2] المنصوري فجاء إليَّ أناس فقالوا لي: تصدّق وزر المارستان العَتيق. فرحتُ معهم أزوره.

فقالوا لي: ألا تزور قبور الخلفاء؟ ـ يعنون بني عبيد ـ[3] فرُحت معهم إلى قبورهم فوجدتُ قبورهم إلى القطب الشمالي.

فتكلم عليهم وعلى مذاهبهم. فقال الحاضرون: نحن نعتقد أنّ هؤلاء قوم صالحون لأنّا إذا مغلت[4] عندنا الخيل نجيء بها إلى قبور هؤلاء فتبرأ، فلولا أنهم صالحون ما برأت الدواب من المغل عند قبورهم.

فقلت: وهو أيضاً حجة على صحة ما أقوله فيهم، فإنّ المغل من بَرْد يحصل للدوابّ، فإذا جيء بها إلى قبور اليهود والنصارى في الشام وإلى قبور المنافقين كالقرامطة والإسماعيليّة والنصيرية فإنّ الدواب إذا سمعت أصوات المعذّبين في قبورهم تفزع فيحصل لها حرارة تذهب بالمغل الذي حصل لها.

وكان النبي ـ ﷺ ـ يوماً راكباً على بغلته فحادت حتى كادت تلقيه عن ظهرها، فقالوا: ما شأنها يا رسول الله؟ فقال: إنها سمعت أصوات يهود تعذّب في قبورها، وقال: إنّهم ليعذبون في قبورهم عذاباً تسمعه

---

(١) الغياني.

(٢) أي المستشفى وانظر «المارستان المنصوري» في الخطط للمقريزي (٢ / ٤٠٦ ـ ٤٠٨).

(٣) انظر «سير أعلام النبلاء» (١٥ / ١٤١ ـ ١٥١) و«تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص: ٦ ـ ٨).

(٤) المغل: وجع يأخذها في بطونها.

البهائم[1]. فما يروح أصحاب الدوابّ بها إلى قبر الشافعي ولا إلى قبر أشهب[2] فإنّ عند قبورهم تنزل الرحمة[3]. اهـ.

[ابن تيمية ومراعاته فقه الأولويات]

قال العلامة ابن قيّم الجوزيّة[4]: سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيميّة قدس الله روحه ونور ضريحه يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم مَنْ كان معي، فأنكرت عليه.

وقلت له: إنّما حرّم الله الخمر لأنها تصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدُّهم الخمر عن قتل النفوس وسبيِ الذريّة وأخذ الأموال، فدعهم.

قال شيخ الإسلام في «الاستقامة» (٢ / ١٦٥ ـ ١٦٦): وأما الكفار فزوال عقل الكافر خير له وللمسلمين أما له: فلأنه لا يصده عن ذكر الله وعن الصلاة، بل يصده عن الكفر والفسق. وأما للمسلمين: فلأن السكر يوقع بينهم العداوة والبغضاء، فيكون ذلك خيراً للمؤمنين، وليس هذا إباحة للخمر والسكر، ولكنه دفع لشر الشرين بأدناهما. ولهذا كنت آمر أصحابنا أن لا يمنعوا الخمر عن أعداء المسلمين من التتار والكرج ونحوهم وأقول: إذا شربوا لم يصدهم ذلك عن ذكر الله وعن الصلاة بل عن الكفر والفساد في الأرض، ثم إنه يوقع بينهم العداوة والبغضاء، وذلك مصلحة

---

(١) انظر «صحيح مسلم» (٢٨٦٧)، و«مسند أحمد» (٦/ ٣٦٢).

(٢) أشهب بن عبد العزيز بن داود بن إبراهيم أبو عمرو القيسي العامري مفتي مصر (ت ٢٠٤هـ) و«السِّير» (٩ / ٥٠٠).

(٣) «ناحية من حياة شيخ الإسلام» (ص: ٢١ ـ ٢٢).

(٤) «إعلام الموقعين» (٣ / ١٦).

للمسلمين، فصحوهم شر من سكرهم، فلا خير في إعانتهم على الصحو بل قد يستحب ـ أو يَجِب ـ دفع شر هؤلاء بما يمكن من سكر وغيره، فهذا في حق الكفار. اهـ.

[نصيحة ابن تيمية لابن القيم بعدم الدلالة على مفت أو مذهب]

قال الإمام ابن القيم: في دلالة العالم المستفتي على غيره وهو موضع خطر جداً، فلينظر الرجل ما يحدث من ذلك فإنه متسبب بدلالته إمّا إلى الكذب على الله ورسوله في أحكامه، أو القول عليه بلا علم، فهو معين على الإثم والعدوان، وإما معين على البر والتقوى، فلينظر الإنسان إلى مَنْ يدل عليه وليتق الله ربّه.

كان شيخنا قَدّس الله روحه شديد التجنب لذلك، ودللتُ مرة بحضرته على مُفتٍ أو مذهب فانتهرني وقال: مالك وله؟! دَعْه. ففهمت من كلامه: إنّك لتبوء بما عساه يحصل له من الإثم ولمن أفتاه[1]. اهـ.

[الادعاء عند نائب السلطنة على ابن تيمية بوديعة عنده]

قال ابن القيم: سمعت شيخنا العلامة ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: كنّا عند نائب السلطنة، وأنا إلى جانبه، فادّعى بعض الحاضرين: أن له قِبَلي وديعة، وسأل إجلاسي معه وإحلافي.

فقلت لقاضي المالكية ـ وكان حاضراً ـ: أتسوغ هذه الدعوى وتسمع؟! فقال: لا.

فقال: فما مذهبك في ذلك؟ قال: تعزير المدّعي.

---

(١) «إعلام الموقعين» (٤ / ٢٠٧).

قلت: فالحكم بمذهبك. فأقيم المدعي وأخرج[1]. اهـ.

[ابن تيمية وأبو حيان الأندلسي]

قال القاضي الفاضل أبو العباس أحمد بن أبي المفضل يحيى بن فضل الله العمري[2]:

ولما سافر ابن تيمية على البريد إلى مصر سنة سبعمائة نزل عند عمي شرف الدين رحمه الله[3]، وحض أهل مصر على الجهاد في سبيل الله، وأغلظ في القول للسلطان والأمراء.

ثم رتب له في مدة مقامه بالقاهرة في كلّ يوم دينار ومخفية[4] وجاءته بقجة قماش فلم يقبل من ذلك شيئاً.

قال: وحضر عنده شيخنا أبو حيان[5]، وكان علامة وقته في النحو فقال: ما رأت عيناي مثل ابن تيمية، ثم مدحه أبو حيان على البديهة في المجلس:

لمّا أتينا تقي الدين لاح لنا ... داعٍ إلى الله فردٌ ما له وَزَرُ

---

(١) «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية» (ص: ١١٣).

(٢) (ت ٧٤٩هـ) انظر «الدرر الكامنة» (١ / ٣٣١ ـ ٣٣٣) و«شذرات الذهب» (٨ / ٢٧٣ ـ ٢٧٤).

(٣) القاضي الأثير شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله (ت ٧١٧هـ) «ذيول العبر» (٤ / ٤٧).

(٤) شيء مخفي يدوم إكراماً له. انظر حاشية الأستاذ الشاويش على «الرد الوافر» (ص: ١١٩).

(٥) الإمام العلامة علم القراء أستاذ النحاة والأدباء جمال المفسرين أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي (ت ٧٤٥هـ) انظر «الرد الوافر» (ص: ١١٨)، و«الدرر الكامنة» (٤ / ٣٠٢ ـ ٣١٠).

على مُحَيّاه مِنْ سِيما الأُلى صَحِبوا　　خَيْـر البـريـة نُـورٌ دونـه القَمَـرُ

حَبْـرٌ تسـربـل منـه دهـره حِبَـراً　　بحر تقاذف من أمواجه الدُّررُ

قام ابن تيمية في نَصْر شِرْعَتنا　　مقـام سيـد تَيْـم إذ عَصَـت مُضَـرُ

فـأظهـر الحـقَّ إذ آثـارُه دَرَسَـتْ　　وأخمد الشرّ إذ طارت له شَرَرُ[1]

كنّا نحدث عن حبر يجيء فها　　أنت الإمام الذي قد كان يُنْتَظَرُ

قال: ثم دار بينهما كلام في ذكر سيبويه[2]، فقال ابن تيمية فيه كلاماً نافره عليه أبو حيان وقطعه بسببه، ثم عاد من أكثر الناس ذماً له واتخذه له ذنباً لا يغفر. اهـ.

قال الشيخ زين الدين بن رجب الحنبلي في كتابه «الطبقات»[3] عن هذه الأبيات قال: ويقال إن أبا حيان لم يقل أبياتاً خيراً منها ولا أفحل. اهـ.

وهذه القصة ذكرها الحافظ العلامة أبو الفداء إسماعيل بن كثير في «تاريخه»: وهي أن أبا حيان تكلم مع الشيخ تقي الدين في مسألة في النحو فقطعه ابن تيمية فيها وألزمه الحجة، فذكر أبو حيان كلام سيبويه فقال ابن تيمية: يفشر سيبويه! أسيبويه نبي النحو أرسله الله به حتى يكون معصوماً؟!

---

(١) قال الحافظ ابن ناصر الدين: . . . ووجدتها أيضاً بخط الحافظ أبي عبد الله الذهبي لكن البيت الخامس منها:

فـأظهـر الحـق إذ آثـاره دُرُسٌ　　وأخمـد الشـر إذ طـارت بـه الشـرر

وباقي الأبيات سواء.

(٢) إمامُ النَّحو، حجة العرب، أبو بِشْر، عمرو بن عثمان بن قَنبَر الفارسيُّ ثم البصري (ت ١٨٠هـ) انظر «السِّير» (٨ / ٣٥١ ـ ٣٥٢).

(٣) (٤ / ٣٩٢).

سيبويه أخطأ في القرآن في ثمانين موضعاً لا تفهمها أنت ولا هو.

هذا الكلام أو نحوه على ما سمعته من جماعة أخبروا به عن هذه الواقعة.

وقد كان ابن تيمية لا تأخذه في الحق لومة لائم، وليس عنده مداهنة، وكان مادحه وذامه عنده في الحق سواء. اهـ.

قال الحافظ ابن ناصر الدين: لكن بعد موت الشيخ تقي الدين رحمة الله عليه رثاه بعض المصريين بقصيدة[١] وعرضها على أبي حيان، فسمعها منه وأقره عليها[٢]. اهـ.

[شيخ الإسلام يحرض العلامة المراغي بقوله: ألا تكون مثلي؟]

سأل الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير العالم العابد الزاهد كمال الدين أبا حفص عمر بن إلياس بن يونس المراغي[٣] عن الشيخ تقي الدين ابن تيميّة:

فقال: هو عندي رجلٌ كبير القدر، وعالمٌ مجتهد شجاع، صاحب حقٍّ، كثيرُ الرد على هؤلاء الحلوليّة والاتحادية والإنِّية[٤]، واجتمعت به

---

(١) وهي في «العقود الدرية» (ص: ٤٨١ ـ ٤٨٦) وعدتها ستة وستون بيتاً. وفي «الرد الوافر» (ص: ١٢٢): وناظم هذه القصيدة يقال له بدر الدين بن عز الدين المغيثي ـ رحمه الله تعالى ـ وأراه محمد بن عبد العزيز بن كمال الدين عبد الرحيم المارديني الصفار.

(٢) «الرد الوافر» (ص: ١١٩ ـ ١٢١).

(٣) قال ابن كثير في ترجمته: هو شيخ حسن المنظر، ظاهر الوضاءة، عليه سيماء العبادة، ولديه علم وتحقيق. «المصدر السابق» (ص: ٢١٥).

(٤) الأفراد الذين يقولون عن أنفسهم (أنا الله) أو (ما في الجبة إلا الله) أو(أنا هو، وهو أنا) وهذا كثير في كلام المتصوفة... حاشية الأستاذ الشاويش على «الرد الوافر» (ص: ٢١٦).

مراراً وشكرته على ذلك، وكان أهلُ هذا المذهب الخبيث يخافون منه كثيراً، وكان يقول لي: ألا تكون مثلي؟ فأقول له: لا أستطيع[1]. اهـ.

[أفعال ابن تيمية كلها من السنة]

قال الإمام الصفدي[2]: وحكي لي عنه أيضاً، قال: سأله فلان ـ أُنسيته ـ فقال: أنت تزعم أن أفعالك كلها من السُّنة! فهذا الذي تفعله بالناس من عرك آذانهم من أين جاء هذا في السنة؟ فقال: حديث ابن عباس في «الصحيحين»[3]:

قال: صليت خلف رسول الله ﷺ ليلاً، فكنت إذا أغفيت أخذ بأذني، أو كما قال.

[تحريره قِبلة مسجد «تنكز» بعد تردد القضاة والعلماء فيها]

وفي «التاريخ لابن كثير» (١٤ / ٨٣): وفي صفر[4] شُرع في عمارة الجامع[5] الذي أنشأه ملك الأمراء تنكز[6] نائب الشام ظاهر «باب النصر» تجاه حكر السماق على نهر بانياس بدمشق وتردد القضاة والعلماء في تحرير قبلته، فاستقر الحال في أمرها على ما قاله الشيخ تقي الدين ابن تيمية. اهـ.

---

(١) «الرد الوافر» (ص: ٢١٥ ـ ٢١٦).

(٢) «الوافي بالوفيات» (٧ / ١٧).

(٣) أخرجه البخاري (١١٩٨) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٧٦٣)، وغيرهما.

(٤) (سنة ٧١٦هـ).

(٥) ويسمى «جامع تنكز» انظر «منادمة الأطلال» (ص: ٦٨ و٣٦٩ ـ ٣٧٠).

(٦) الأمير الكبير المهيب سيف الدين أبو سعيد تنكز نائب السلطنة بالشام (ت ٧٤١هـ). انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٢٠٠) و«الدرر الكامنة» (١ / ٥٢٠ ـ ٥٢٨).

[إفتاء ابن تيمية ولاة الأمور بقتل مفطر في رمضان]

قال شيخ الإسلام: أفتيت ولاة الأمور في شهر رمضان سنة أربع وسبعمائة بقتل من أمسك في سوق المسلمين وهو سكران، وقد شرب الخمر مع بعض أهلِ الذمة، وهو مجتاز بشقة لحم يذهب بها إلى ندمائه.

وكنت أفتيهم قبل هذا بأنّه يعاقب عقوبتين: عقوبة على الشرب، وعقوبة على الفطر في رمضان.

فقالوا: ما مقدار التعزير؟

فقلت: هذا يختلف باختلاف الذنب وحال المذنب وحال الناس، وتوقفت عن القتل، فكبر هذا على الأمراء والناس، حتى خفت أنّه إن لم يقتل ينحل نظام الإسلام لجراءة الناس على انتهاك المحارم في نهار رمضان، فأفتيت بقتله، فقتل.

ثم ظهر فيما بعد أنه كان يهودياً وأنه أظهر الإسلام[1]. اهـ.

[رجوعه عن بعض أحكام المناسك التي كان فيها مقلداً]

قال شيخ الإسلام: ذكر طائفة من المصنفين في المناسك: استحباب زيارة مساجد مكة وما حولها، وكنت قديماً قد كتبتها في منسك كتبته قبل أن أحج في أول عمري لبعض الشيوخ، جمعته من كلام العلماء، ثم تبين لي أن هذا كله من البدع[2] التي لا أصل لها في الشريعة، وأن السابقين الأولين

(١) «الاختيارات» (ص: ٣٠٣).

(٢) انظر صوراً أخرى من رجوع شيخ الإسلام إلى الحق، في مقدمة كتاب «رفع الأستار لأدلة القائلين بفناء النار» للأمير الصنعاني، تحقيق العلامة الألباني (ص: ٢٥ ـ ٢٩).

من المهاجرين والأنصار لم يفعلوا شيئاً من ذلك وأن أئمة العلم والهدى ينهون عن ذلك. . .[1]. اهـ.

[حج شيخ الإسلام وذكر أحداث معان... ومعاناتهم]

قال الحافظ ابن كثير: وكان ممن حج في هذه السنة[2] الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله.

وكان أميرهم الباسطي، ونالهم في معان[3] ريح شديدة جداً، مات بسببها جماعة، وحملت الريح جمالاً عن أماكنها، وطارت العمائم عن الرؤوس واشتغل كل أحد بنفسه[4].

[جواب على إنكار]

قال الإمام ابن القيم: أنكر بعض المقلدين على شيخ الإسلام في تدريسه بمدرسة ابن الحنبلي وهي وقفٌ على الحنابلة، والمجتهد ليس منهم.

فقال: إنّما أتناول ما أتناوله منها على معرفتي بمذهب أحمد، لا على تقليدي له[5]. اهـ.

---

(١) انظر تتمة الكلام وبيان بدعية زيارة هاتيك المساجد في كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية (ص: ٤٢٩ وما بعدها)، وانظر «منسك شيخ الإسلام» في «مجموع الفتاوى» (٢٦ / ٩٨ ـ ١٥٩).

(٢) (سنة ٦٩٢هـ).

(٣) تقع «معان» في جنوب «الأردن» وتبعد عن عاصمتها «عمان» (٢٢٠ كم).

(٤) «البداية والنهاية» (١٣ / ٣٥٢).

(٥) «إعلام الموقعين» (٢ / ٢٢٢ ـ ٢٢٣).

[شيخ الإسلام يعارض فتوى بجواز عدم تمييز لباس أهل الذمة وتغييرهم الفتوى في قوالب عدة وابن تيمية يقول: هي المسألة بعينها، وذهابه إلى السلطان منكراً ذلك فيوافق السلطان على إبقائهم على ما هم عليه بعد كلام عجيب معه]

وفي «مجموع الفتاوى» (٢٨ / ٦٥٨): ما تقول السادة العلماء في قوم من أهل الذمة ألزموا بلباس غير لباسهم المعتاد، وزي غير زيهم المألوف، وذلك أن السلطان ألزمهم بتغيير عمائمهم، وأن تكون خلاف عمائم المسلمين، فحصل بذلك ضرر عظيم في الطرقات والفلوات، وتجرأ عليهم بسببه السفهاء والرعاع، وآذوهم غاية الأذى، وطمع بذلك في إهانتهم والتعدي عليهم.

فهل يسوغ للإمام ردهم إلى زيهم الأول، وإعادتهم إلى ما كانوا عليه، مع حصول التميز بعلامة يعرفون بها؟ وهل ذلك مخالف للشرع أم لا؟

قال ابن القيم: فأجابهم من مُنع التوفيق، وصُد عن الطريق، بجواز ذلك، وأن للإمام إعادتهم إلى ما كانوا عليه.

قال شيخنا: فجاءتني الفتوى. فقلت: لا تجوز إعادتهم ويجب إبقاؤهم على الزي الذي يتميزون به عن المسلمين. فذهبوا، ثم غيروا الفتيا، ثم جاؤوا بها في قالب آخر. فقلت: لا تجوز إعادتهم. فذهبوا ثم أتوا بها في قالب آخر. فقلت: هي المسألة المعينة وإن خرجت في عدة قوالب.

قال ابن القيم: ثم ذهب شيخ الإسلام إلى السلطان، وتكلم عنده

بكلام عجب منه الحاضرون، فأطبق القوم على إبقائهم. ولله الحمد والمنة. اهـ.

[شفاعة ابن تيمية لجماعة لدى قطلوبك الظالم لتحصيل حقوقهم]

قال العلامة الصَّفدي: وحُكي لي عنه[1] أنّه كانَ قد شكى إليه إنسانٌ أو جماعةٌ مِن قطلوبَك الكبير[2]، وكان المذكورُ فيه جبروتٌ على أَخذ أموالِ النّـاس واغتصابها ـ وحكـاياتـه في ذلك مشهورة ـ فقام يمشي إليه فلمّا دخل إليه وتكلم معه في ذلك. قال له قطلوبك: أنا الذي أُريد أجيء إليك لأنك رجلٌ عالم زاهد؛ يعرِّضُ بقولهم: إذا كانَ الأميرُ ببابِ الفقير فنعمَ الأميرُ ونِعمَ الفقير، فقالَ له ـ ابن تيميّة ـ: لا تعمل عليَّ دركَواناتك[3]، موسـى كـان خيراً منّـي، وفرعـون كان شرّاً منك، وكان موسى كلَّ يومٍ يجيءُ إلى بابِ فِرعوْن مرّاتٍ في كـلِّ يوم ويعرضُ عليه الإيمان، أو كما قيل[4]. اهـ.

وفي «الدرر الكامنة»: فقال له قطلوبك: إذا رأيتَ الأمير ببابِ الفقير فنعمَ الأمير ونِعم الفقير، وإذا رأيْتَ الفقير ببابِ الأمير فبِئس الأمير وبِئسَ الفقير.

فقال له ابن تيميّة: كانَ فِرعوْن أنحسَ منك وموسى خيراً مني، وكان يأتي إلى بابه كلَّ يومٍ يأمره بالإيمان، وأنا آمرُكَ أن تَدفعَ لهٰذا حقّه.

---

(١) أي: ابن تيمية.

(٢) «قطلوبك المنصوري الكبير» كان من مماليك المنصور وكان ظالماً لا يدفع لأحد ثمن ما يشتريه منه إلا بعسر وحيل (ت ٧١٦هـ)، «الدرر الكامنة» (٣/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣).

(٣) أي: خداعك وحيلتك.

(٤) «الوافي بالوفيات» (٧/ ١٧).

فلم يسَعْه إلاّ امتثالُ أمرِه، ووفّى الرجلَ حقّه[1]. اهـ.

[موقفه عند سماعه موت أكبر أعدائه]

قال الإمام ابن القيّم: وما رأيته يدعو على أحدٍ منهم[2]، وكان يدعو لهم.

وجئت يوماً مبشِّراً له بموت أكبر أعدائه وأشدِّهم عداوة وأذىً له، فنهرني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزَّاهم. وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه[3].

[رؤيا شيخ الإسلام النبي ﷺ في المنام]

قال الإمام ابن القيّم: قال شيخنا: كان يُشكِل عليّ أحياناً حالُ من أُصلي عليه الجنائز؛ هل هو مؤمنٌ أو منافق؟

فرأيت رسول الله ﷺ في المنام، فسألته عن مسائل عديدة منها هذه المسألة، فقال: يا أحمد؛ الشّرْط الشّرْط، أو قال: علق الدعاء بالشرط[4].

[معالجته للمصروع]

قال الإمامُ ابن القيّم: وشاهدتُ شيخنا يُرسِلُ إلى المصروعِ مَنْ يخاطِبُ الرُّوح التي فيه. ويقولُ: قال لك الشيخ: اخرجي فإنّ هذا لا يحلُّ

(١) «الدرر الكامنة» (٣/ ٢٥٣).

(٢) من أعدائه وخصومه.

(٣) «المدارج» (٢/ ٣٤٥).

(٤) «إعلام الموقعين» (٣/ ٣٩٩).

لكِ. فيفيق المصروع[1].

ورُبَّما خاطبها بنفسه، ورُبَّما كانت الرُّوح ماردة فيُخرجُها بالضَّرب، فيفيق المصروعُ ولا يُحِسُّ بألم، وقد شاهدنا نحنُ وغيرنا من ذلِك مِراراً.

وكان كثيراً ما يقرأُ في أُذُنِ المصروعِ، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

[اخرجي طاعة لله ورسوله]

قال ابن القيم: وحدّثني أنّه قرأها مرّةً في أُذُنِ المصروع[2]، فقالت الروحُ: نعم، ومَدَّ بها صوْتَه.

قال: فأخذتُ له العصا وضرَبْتُه بها في عُروقِ عُنقِه حتى كلَّت يداي من الضَّرب، ولم يشُك الحاضرون أنه يموتُ لذلك الضَّرب، ففي أثناءِ الضربِ قالت: أنا أُحبُّه.

فقلت لها: هو لا يُحبُّك.

قالت: أنا أُريدُ أنْ أَحُجَّ به.

فقلتُ لها: هو لا يريدُ أن يحجَّ معكِ.

---

(١) انظر ما كتبه العلامة الألباني ـ رحمه الله ـ حول الطريقة النبوية لإخراج الجان من جسد المصروع، ورده على من أنكر دخوله في بدن الإنسان، وفوائد أخرى، في السلسلة الصحيحة، تحت حديث رقم (٢٩١٨).

(٢) قال شيخ الإسلام: . . . فكيف إذا علم بالدلائل الكثيرة أن الجن قد تصرع الإنس كما قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: إن الأطباء يقولون: إن الجني لا يدخل بدن الإنسان، فقال: يا بني يكذبون، هذا يتكلم على لسانه.
وهذا أمر قد باشرناه نحن وغيرنا غير مرة، ولنا في ذلك من العلوم الحسيات رؤية وسماعاً ما لا يمكن معه الشك، «الصفدية» (١/ ١٨٠ ـ ١٨١).

فقالت: أنا أدعُه كرامةً لك.

قال: قلت: لا، ولٰكن طاعةً لله ولرسوله.

قالت: فأنا أخرجُه منه.

قال: فقعد المصروعُ يلتفِتُ يميناً وشِمالاً.

وقال: ما جاءَ بي إلى حضرةِ الشيخ؟!

قالوا له: وهٰذا الضّربُ كلُّه؟

فقال: وعلى أيِّ شيء يضربني الشيخ ولم أُذنِب؟! ولم يشعر بأنّه وقعَ به ضربٌ البتة.

[السور التي كان يعالج بها]

وكان يُعالج بآيةِ الكُرسي، وكان يأمُر بكثرةِ قراءتها المصروعَ ومَنْ يُعالجه بها، وبقراءة المعوذتين.

[شفاء كثير من المرضى على يديه]

قالَ العلاّمةُ ابن الوَردي: وكَم عوفِيَ مِن «الصَرَعِ الجِنِّي» إنسانٌ بمجردِ تهديده للجنِّي، وجرت له في ذلك فصولٌ، ولم يفعل أكثرَ من أنْ يتلو آياتٍ ويقول: إنْ لم تنقطع عن هٰذا المصروع وإلاّ عملنا مع حكمِ الشرع، وإلاّ عملنا معك ما يُرضي اللّه ورسُوله[1].

قال الإمام ابن مفلح المقدسي: كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يكتب[2] على جبينه: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ

(١) «زاد المعاد» (٤ / ٦٨ ـ ٦٩).

(٢) كل أحد يؤخذ من قوله ويُرَد إلا النبي ﷺ.

﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ [هود: ٤٤]. وسمعته يقول: كتبتها لغير واحد فبرأ[١]. اهـ.

[محاربته أرواحاً شيطانية ظهرت له بقراءة آيات السكينة]

قال ابن القيم[٢]: كان شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ رحمه الله ـ إذا اشتدّت عليه الأمور قرأ آيات السكينة[٣].

وسمعته يقول في واقعة عظيمة جرت له في مرضه تعجز العقول عن حملها؛ من محاربة أرواح شيطانية ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوة، قال: فلمّا اشتدّ عليّ الأمر قلت لأقاربي ومَن حوْلي: اقرؤوا آيات السكينة.

قال: ثمّ أقلع عني ذلك الحال، وجلستُ وما بي قلَبة.

قال ابن القيِّم: وقد جربت أنا أيضاً قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه، فرأيت لها تأثيراً عظيماً في سكونه وطمأنينته.

[تكرار معالجته للمصروع بالضرب]

قال شيخ الإسلام: ولهذا قد يحتاج في إبراء المصروع، ودفع الجن عنه إلى الضرب[٤]، فيضرب ضرباً كثيراً جداً، والضرب إنما يقع على الجني ولا يحس به المصروع، حتى يفيق المصروع ويخبر أنه لم يحس

---

(١) «الآداب الشرعية» (٣/ ١١١)، وانظر «زاد المعاد» (٤/ ٢٩٢).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥).

(٣) وهي في ستة مواضع في كتاب الله تعالى:
١ـ سورة البقرة الآية (٢٤٨).
٢ـ سورة التوبة الآية (٢٧، ٤١).
٣ـ سورة الفتح الآية (٤، ١٨، ٢٦).

(٤) قال الألباني في علاج المصروع بالضرب: هذا مما لم ينزل الله به سلطاناً. اهـ. «الصحيحة» رقم (٢٩١٨).

بشيء من ذلك ولا يؤثر في بدنه، ويكون قد ضرب بعصا قوية على رجليه نحو ثلاثمائة أو أربعمائة ضربة وأكثر وأقل، بحيث لو كان على الإنسي لقتله، وإنما هو على الجني، والجني يصيح ويصرخ ويحدّث الحاضرين بأمور متعددة.

كما قد فعلنا نحن هذا وجربناه مرات كثيرة يطول وصفها بحضرة خلق كثيرين[1]. اهـ.

[تعليل الشهاب الملكاوي بيعه «شرح صحيح مسلم» وشراءه «الرد على النصارى»]

قال الحافظ ابن ناصر الدين: حدّثنا الإمام العلاّمة قاضي القضاة أبو حفص عمر بن موسى بن الحسين بن محمد بن عيسى المخزومي الشافعي بثغر بلناس من ساحل بحر الشام، قال: كنت حاضراً عند الشيخ شهاب الدين الملكاوي[2] فأتى إليه شهاب الدين أحمد الحلبي، الساكن بدار الحديث الأشرفية بدمشق، فقال: ذكر بعض الناس اليوم شيئاً وشقّ عليَّ، فقال: الشيخ شهاب الدين الملكاوي باع نسخة «شرح صحيح مسلم» للنّووي واشترى «كتاب الرد على النصارى» للشيخ تقي الدين ابن تيميّة.

فقال الملكاوي في جواب ذلك: إنّ عندي من «شرح مسلم» نسختين بعتُ إحداهما واشتريت كتاب «الرد». ولو لم يكن عندي من «شرح مسلم» نسخة لم يكن بعيب لأن ما في «شرح مسلم» أعرفه، وما في كتاب «الرد

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٦٠).

(٢) الإمام العلامة أقضى القضاة شهاب الدين مفتي المسلمين مفيد الطالبين أبو العباس أحمد ابن طرخان الملكاوي الشافعي (ت ٨٠٣).

على النصاري» أنا محتاج إليه[١].

[شراء شيخ الإسلام كتب الكيمياء وغسلها في الحال]

قال الحافظ ابن حجر: علي بن الحسن بن عبد الله بن الجابي الخطيب بجامع جراح، كان مشهوراً بحسن تأدية الخطابة، فصيح التلاوة، وكان قد أغري بالكيمياء وحصل فيها كتباً كثيرة جداً، وكان يزعم أنها صحت معه[٢].

قال ابن الجزري: كان صاحبي، وكان يعرف الكيمياء معرفة تامة. ولما مات توجه الشيخ تقي الدين ابن تيمية فاشترى[٣] منها جملة وغسلها في الحال، وقال: هذه الكتب كان الناس يضلون بها وتضيّع أموالهم، فافتديتهم بما بذلته في ثمنها، ومات ابن الجابي في سابع عشر ربيع الآخر في سنة (٧٠١) بعد أن عذب بأيدي التتار في دخول دمشق وعاش بعد ذلك متألماً إلى أن مات[٤]. اهـ.

[محاققة شيخ الإسلام اليهود الخيابرة وكشفه زيف كتابهم وكذبهم وإلزامه إياهم بالجزية]

قال الحافظ ابن كثير في «تاريخه»[٥]: وفي هذا الشهر[٦] عقد مجلس

---

(١) «الرد الوافر» (ص: ١٤٠ ـ ١٤١).
(٢) وسيأتي ذكر مناظرة شيخ الإسلام له وظهوره عليه بالحجة والبرهان انظر (ص: ٢٥٣).
(٣) قال الصفدي في «أعيان العصر» (٣ / ١١٣٨): اشترى منها كتباً بألف درهم جميعها في الكيمياء ورمى بها في وقته في بركة وغسلها. اهـ.
(٤) «الدرر الكامنة» (٣ / ٣٩)، وانظر «بطلان الكيمياء» لشيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٢٩ / ٣٦٨ ـ ٣٩١).
(٥) «البداية والنهاية» (١٤ / ٢٠).
(٦) شوال سنة ٧٠١هـ.

لليهود الخيابرة وألزموا بأداء الجزية أسوة أمثالهم من اليهود، فأحضروا كتاباً معهم يزعمون أنه من رسول الله ـ ﷺ ـ بوضع الجزية عنهم، فلما وقف عليه الفقهاء تبينوا أنه مكذوب مفتعل لما فيه من الألفاظ الركيكة والتواريخ المحبطة واللحن الفاحش.

وحاققهم عليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وبيّن لهم خطأهم وكذبهم، وأنه مزور مكذوب[1]، فأنابوا إلى أداء الجزية وخافوا من أن تستعاد منهم الشؤون الماضية. اهـ.

قال الإمام ابن القيم: وأحضر هذا الكتاب بين يدي شيخ الإسلام وحوله اليهود يزفونه ويجلونه، وقد غشي بالحرير والديباج، فلما فتحه وتأمله بصق عليه، وقال: هذا كذب من عدة أوجه وذكرها. فقاموا من عنده بالذل والصغار[2]. اهـ.

[كاتب مصنفات ابن تيمية (ت ٧٤٩)]

قال ابن كثير: الشيخ عبد الله بن رُشَيِّق المغربي، كاتب مصنفات شيخنا العلامة ابن تيمية، كان أبصر بخط الشيخ منه، إذا عزب شيء منه على الشيخ استخرجه أبو عبد الله هذا.

وكان سريع الكتابة، لا بأس به، ديناً عابداً، كثير التلاوة، حسن الصلاة. له عيال وعليه ديون رحمه الله وغفر له آمين[3]. اهـ.

---

(١) وقد نقض كتابهم هذا وبين زيفه شيخ الإسلام من عشرة وجوه انظرها في «أحكام أهل الذمة» (١ / ٧ ـ ٨ و٥٣ ـ ٥٤) و«المنار المنيف» (ص ١٠٢ ـ ١٠٥).

(٢) «المنار المنيف» (ص ١٠٥).

(٣) «البداية والنهاية» (١٤ / ٢٤١).

قال الحافظ ابن عبد الهادي[1]: وكان من أخص أصحاب شيخنا وأكثرهم كتابة لكلامه وحرصاً على جمعه. اهـ.

[مناظرته ثلاثة رهبان في قاعة الترسيم وإقامة الحجة عليهم]

قال خادم شيخ الإسلام[2]: لمّا كان الشيخ في قاعة الترسيم[3] دخل إلى عنده ثلاثة رهبان من الصعيد فناظرهم وأقام عليهم الحجّة بأنّهم كفّار، وما هم على الدين الذي كان عليه إبراهيم والمسيح.

فقالوا له: نحن نعمل مثل ما تعملون، أنتم تقولون بالسيِّدة نفيسة ونحن نقول بالسيِّدة مريم، وقد أجمعنا نحن وأنتم على أنّ المسيح ومريم أفضل من الحسين ومن نفيسة، وأنتم تستغيثون بالصالحين الذين قبلكم ونحن كذلك.

فقال لهم: وإنّ من فعل ذلك ففيه شبهةٌ منكم وهذا ما هو دين إبراهيم الذي كان عليه، فإنّ الدين الذي كان إبراهيم عليه: أن لا نعبد إلاّ الله وحده لا شريك له ولا ندَّ له ولا صاحبة له ولا ولد له ولا نشرك معه ملكاً ولا شمساً ولا قمراً ولا كوكباً ولا نشرك معه نبيّاً من الأنبياء ولا صالحاً، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾، وإنّ الأمور التي لا

---

(١) «العقود الدرية» (ص: ٢٧)، وقد أرسل الإمام شهاب الدين بن مري (٧٢٨هـ) رسالة إلى تلاميذ ابن تيمية يحرضهم على جمع ما كتب شيخ الإسلام وتفريغ ابن رُشَيِّق المغربي لتلك المهمة ودفع ما يريد لقاء تفريغه لهذه المهمة قال: لأنه قد بقي في فنه فريداً ولا يقوم مقامه غيره من سائر الجماعة على الإطلاق .... انظر «الجامع» (ص: ٩٧ - ١٠٤).

(٢) هو الشيخ إبراهيم بن أحمد الغياني.

(٣) وهي السجنة الرابعة بمصر لشيخ الإسلام لمدة تزيد على الشهرين. انظر تفصيلها (ص: ٣٣٠) من هذا الكتاب.

يقدر عليها غير الله لا تطلب من غيره.

مثل إنزال المطر وإنبات النبات وتفريج الكربات، والهدى من الضلالات وغفران الذنوب، فإنّه لا يقدر أحد من جميع الخلق على ذلك ولا يقدِر عليه إلا الله، والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ نؤمن بهم ونعظّمهم ونوقّرهم ونتبعهم ونصدّقهم في جميع ما جاؤوا به ونطيعهم كما قال نوح وصالح وهود وشعيب: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾. فجعلوا العبادة والتقوى لله وحده والطاعة لهم فإنّ طاعتهم من طاعة الله.

فلو كفر أحدٌ بنبيٍّ من الأنبياء وآمن بالجميع ما نفعه إيمانه حتى يؤمن بذلك النبيّ، وكذلك لو آمن بجميع الكتب وكذّب بكتاب كان كافراً حتى يؤمن بذلك الكتاب وكذلك الملائكة واليوم الآخر.

فلمّا سمعوا ذلك منه قالوا: الدين الذي ذكرته خيرٌ من الدين الذي نحن وهؤلاء عليه ثم انصرفوا من عنده[1]. اهـ.

[من عقائد شيوخ الضلال]

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة: خاطبني مرة شيخ من شيوخ هؤلاء الضلال لمّا قدم التتار آخر قدماتهم وكنت أحرض الناس على جهادهم.

فقال لي هذا الشيخ: أقاتل الله.

فقلت له: هؤلاء التتار هم الله! وهم من شر الخلق، هؤلاء إنّما هم عباد الله خارجون عن دين الله، وإن قُدِّر أنهم كما يقولون فالذي يقاتلهم

---

(١) «ناحية من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص: ٢٣ ـ ٢٤)، وانظر «مجموع الفتاوى» (١ / ٣٧٠ ـ ٣٧١).

هو الله ويكون الله يقاتل الله! وقول هذا الشيخ لازم لهذا وأمثاله[1].

[مجريات اجتماع العلامة ابن الوردي بشيخ الإسلام ابن تيمية]

قال العلامة ابن الوردي[2]: كنت اجتمعت به رحمه الله تعالى بدمشق سنة خمس عشرة وسبعمائة «بمسجده بالقصاعين»[3]، وبحثت بين يديه في فقه وتفسير ونحو فأعجبه كلامي وقبَّل وجهي وأني لأرجو بركة ذلك.

وحكى لي عن واقعته المشهورة[4] في جبل كسروان وسهرت عنده ليلة فرأيت من فتوته ومروءته ومحبته لأهل العلم ولا سيما الغرباء منهم أمراً كثيراً..

وصليت خلفه التراويح في رمضان فرأيت على قراءته خشوعاً ورأيت على صلاته رقة حاشية تأخذ بمجامع القلوب[5].

قال: ورثيته أنا بمرثية على حرف الطاء؛ فشاعت واشتهرت وطلبها مني الفضلاء والعلماء من البلاد، مطلعها:

عثا في عرضه قومٌ سلاطُ ... لهم من نثْر جوهره التقاطُ

---

(١) «الرد على البكري».

(٢) زين الدين عمر بن مظفر بن محمد بن أبي الفوارس بن الوردي الشافعي (ت ٧٤٩)، كان إماماً بارعاً في اللغة والفقه والنحو والأدب مُفنناً في العلم ونظمه في الذروة العليا والطبقة القصوى وله فضائل مشهورة. اهـ. «شذرات الذهب» (٨/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦) وفي «طبقات الشافعية الكبرى» (٥/ ٤٢٧ ـ ٤٢٩): وشعره أحلى من السكر المكرر وأغلى قيمة من الجوهر.

(٣) سيأتي التعريف به.

(٤) سيأتي ذكرها مفصلاً.

(٥) «تتمة المختصر في أخبار البشر» (٢/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦).

تقـي الـدِّيـن أحمـد خيـرُ حَبـرٍ حـروف المعضـلات بـه تُخـاطُ

وفيها:

قضـى نحبـاً وليـس لـه قـريـنٌ ولا لنظيـــره لُـــفَّ القِمـــاطُ

فتـىً فـي علمـه أضحـى فـريـداً وحـلُّ المشكـلات بـه يُنـاطُ

وفيها:

هـمُ حسـدوه لمـا لـم ينـالـوا مناقبـه فقـد مكـروا وشـاطـوا

وكـانـوا عـن طـرائقـه كُسـالـى ولكـنْ فـي أذاه لهـم نشـاطُ

وحَبْسُ الدُّرِّ في الأصداف فخرٌ وعنـد الشيـخ بـالسِّجـن اغتبـاطُ

ومنها:

ويـا فـرح اليهـود بمـا فعلتـم فـإن الضـد يعجبـه الخبـاطُ

ألـم يـكُ فيكـمُ رجـلٌ رشيـد يـرى سَجْـن الإمـام فيُستشـاطُ

وهي سبعة وعشرين بيتاً. اهـ.

[الوشاية إلى سلطان البلاد بسعي شيخ الإسلام لأخذ الملك]

قالَ الحافِظُ البزّار: أخبرني مَنْ لا أتَّهم أنّ الشيخ ـ رضي الله عنه ـ حين وُشِيَ به إلى السُّلطان المعظّمِ الملك النَّاصِر لدين الله[1]، وأحضره بين يديه، قال من جملةِ كلامه: إنّني أُخبِرتُ أنّك قد أطاعك الناس وأن في نفسِكَ أخْذَ المُلك.

---

(١) الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون بن عبد الله الصالحي (ت ٧٣٩هـ).

فلم يكترِث به، بل قال له بنفس مطمئنَّةٍ وقلبٍ ثابتٍ وصوتٍ عالٍ سمعه كثيرٌ ممّن حضر: أنا أفعلُ ذلكَ؟ واللّهِ إنّ ملكك وملكَ المغولِ لا يُساوي عندي فَلسيْن. فتبسّم السلطان لذلك وأجابه في مُقابلتِه بما أوقع الله له في قلبه من الهيْبَةِ العظيمة: إنّك والله لصادق وإنّ الذي وشا بِكَ[1] إليّ كاذبٌ[2]. اهـ.

[إعجاب ابن دقيق العيد باستنباط ابن تيمية من آيتين وتعجبه من مواجهته للسلطان]

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: سافر الشيخ مرة على البريد إلى الديار المصريّة يستنفر السلطان[3] عند مجيء التتر سنة من السنين وتلا عليهم آيات الجهاد.

وقال: إنْ تخلّيْتم عن الشام ونصرة أهله والذبِّ عنهم، فإنّ الله تعالى يقيم لهم مَنْ ينصرهم غيركم ويستبدل بكم سواكم.

وتلا قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٣٩].

وبلغ ذلك الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد[4] ـ وكان هو القاضي

---

(١) لكن نجح سعي الوشاة في النيل منه إلى أن توفي مسجوناً تقييداً لحركته وخوفاً على ملكهم الزائل منه، كما سيأتي تفصيله.

(٢) «الأعلام العلية» (ص: ٤٥).

(٣) الملك الناصر الآنف ذكره.

(٤) محمد بن علي بن وهب تقي الدين القاضي المجتهد (ت ٦٦٧هـ)، وسيأتي مزيدٌ من ترجمته وثنائه الباهر على شيخ الإسلام.

حينئذ ـ فاستحسن ذلك وأعجبه هذا الاستنباط وتعجب من مواجهة الشيخ للسلطان بمثل هذا الكلام[1]. اهـ.

[إنكار بعض المتفقهة إفتاء ابن تيمية بالفطر في رمضان للتقوي على جهاد العدو وإطاحته بشبهتهم]

قال الإمام ابن القيِّم: أَجاز شيخنا ابن تيمية الفطر للتقوِّي على جهاد العدو وفعله وأفتى به لمّا نازل العدو دمشق في رمضان[2].

فأنكر عليه بعض المتفقهين، وقال: ليس هذا بسفر طويل.

فقال الشيخ: هذا فطر للتقوِّي على جهاد العدو، وهو أولى من الفطر للسفر يومين سفراً مباحاً أو معصية، والمسلمون إذا قاتلوا عدوَّهم وهم صيام لم يمكنهم النكاية فيهم، وربّما أضعفهم الصوم عن القتال، فاستباح العدو بيضة الإسلام.

وهل يشك فقيهٌ أنّ الفِطر ههنا أولى من فِطر المسافر؟! وقد أمرهم النبيّ ـ ﷺ ـ في غزوة الفتح بالإفطار ليتقووا على عدوهم، فعلّل ذلك للقوة على العدو لا للسفر، والله أعلم[3]. اهـ.

وفي «التاريخ لابن كثير» (١٤ / ٢٧): وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم وأفطر هو أيضاً، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليعلمهم أن إفطارهم ليتقووا على القتال أفضل فيأكل الناس، وكان يتأول في الشاميين قوله ﷺ: «إنكم ملاقو العدو غداً،

---

(١) «الذيل على طبقات الحنابلة» (٢ / ٣٩٥ ـ ٣٩٦).

(٢) (سنة ٧٠٢هـ) في «وقعة شقحب»، وكان هو بطلها بلا منازع.

(٣) «بدائع الفوائد» (٤ / ٤٥).

والفطر أقوى لكم»[1].

فعزم عليهم في الفطر عام الفتح، كما في حديث أبي سعيد الخدري.

اهـ.

[تلاوة آية تجعل ابن تيمية يدرس بعد امتناعه عن الدرس]

قال الحافظ ابن عبد الهادي: في يوم الجمعة[2] صلى الشيخ في «جامع الحاكم»[3]، وجلس فاجتمع إليه خلق عظيم.

وسأله بعضهم أن يتكلم بشيء يسمعونه منه، فلم يجبهم إلى ذلك، بل كان يبتسم وينظر يمنة ويسرة.

فقال له رجل: قال الله في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

فنهض الشيخ قائماً، وابتدأ بخطبة الحاجة[4]، خطبة ابن مسعود رضي الله عنه، ثم استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ

---

(١) أخرجه «مسلم» (١١٢٠)، بلفظ: «إنكم مُصَبِّحو عدوكم...»، وغيره.

(٢) من شهر ذي الحجة (سنة ٧٠٧هـ) وذلك بعد خروجه من الجب ـ السجن ـ على يد الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى ملك العرب وقد دخل الأمير إلى مصر وحضر إلى الجب وأخرجه بعد أن استأذن في ذلك. وسيأتي تفصيل ذلك.

(٣) في القاهرة، أسسه العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معدّ، ثم أكمله ابنه الحاكم بأمر الله فعرف به، انظر «الخطط» (٢ / ٢٧٧).

(٤) رواه «مسلم» (٨٦٨)، وغيره.

﴿عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وتكلم على تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وفي معنى العبادة، والاستعانة، إلى أن أذن مؤذن العصر[1]. اهـ.

[من أقوال شيخ الإسلام وهو في السجن]

قال الإمام ابن القيم: وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكرَ هذه النعمة، أو قال: ما جزيْتهم على ما تسبّبوا لي فيه من الخير.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: «اللّهمّ أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»، ما شاء الله.

وقال لي مرة: المحبوس مَنْ حُبِسَ قلبه عن ربّه تعالى والمأسور من أسرَهُ هواه.

ولما دخل القلعة وصار داخل أسوارها، نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهيّة والنعيم بل ضدهما، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيْشاً وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً وأسرّهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنّا إذا اشتدّ بنا الخوف وساءت منّا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه

---

(١) «العقود الدرية» (ص: ٢٥٥).

فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً وقوّةً ويقيناً وطمأنينة.

فسبحان مَن أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها[1].

[الفقيه أبو بكر التركي يرد هجاء ابن الوكيل لابن تيمية ويفند زعمه]

قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي: الشيخ المحدث العالم الفقيه الأديب النبيه نجم الدين أبو الفضل إسحاق بن أبي بكر بن ألمى بن أُطز التركي[2]:

أجاب الصدر ابن الوكيل المرحّل[3] حين هجا شيخ الإسلام بقصيدة

---

(١) «الوابل الصيّب» (ص: ٤٤ ـ ٤٥).

(٢) ولد (سنة ٦٧٠) وبقي إلى حدود (سنة ٧٢٩)، ولم تتحقق سنة وفاته. انظر «شذرات الذهب» (٨ / ١٥٧). وفي «أعيان العصر» (١ / ١٥٧)، وقال الذهبي: أخذت عنه، وهو من أقراني. اهـ.

(٣) قال الحافظ ابن كثير: العلامة أبو عبد اللّه محمد بن الشيخ الإمام مفتي المسلمين زين الدين عمر بن مكي بن عبد الصمد المعروف بابن المرَحَّل وبابن الوكيل شيخ الشافعية في زمانه (ت ٧١٦هـ).
وقد كان مسرفاً على نفسه قد ألقى جلباب الحياء فيما يتعاطاه من القاذورات والفواحش، وكان ينصب العداوة للشيخ ابن تيمية ويناظره في كثير من المحافل والمجالس، وكان يعترف للشيخ تقي الدين بالعلوم الباهرة ويثني عليه، ولكنه كان يجاحف عن مذهبه وناحيته وهواه، وينافح عن طائفته.
وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يثني عليه وعلى علومه وفضائله ويشهد له بالإسلام إذا قيل له عن أفعاله وأعماله القبيحة، كان يقول: كان مخلطاً على نفسه متبعاً مراد الشيطان منه، يميل إلى الشهوة والمحاضرة، ولم يكن كما يقول فيه بعض أصحابه ممن يحسده=

وزعم أنه لمّا خرج من دمشق في محنته الأولى أمطرت السماء:

مَـنْ مُبلـغ عنـي الخبيـث مقـالـةً ... كـالسيـف أَقْصِـم ظهـره بفـرَنْـدهِ
أزعمت إذ غاب الإمام همى الغما ... م كذبت بل بكت السماء لفقده
أوَ ما ترى شمس الضّحى في مأتَم ... والجـوّ قـد لبس الحِـداد لبعـده
فلَيَـدخُلَـنَّ لأرض مصـر إمـامنـا ... بسكينـة حُفَّـتْ بـه مـن عنـده
وليـرجعـنّ إلـى دمشـق مـؤيـداً ... حقّـاً كمـا عـاد الحسـام لغمـده
وترى بعينك مايسوؤك من علاً ... يفنى الزمان، ولا نفاد لمجده
أَظللـت مـن حمـق بـه متشبهـاً ... أين الثعالب في الثرّى من أسده؟
مَخضتكما أيدي الزمان، فكنت كالزبد الجُفاء. وكان خالص زُبده
فاستر معايبك التي سارت بها الركـ ... ـبان في غَـوْر الـوجـود ونجـده
فكفـاك مَقْتـاً أن تكـون محـاربـاً ... لـولـيّ رب العـالميـن وعبـده

تمت، وهي عشرة أبيات[1].

[منع ابن تيمية أخاه الدعاء على كبار أعدائه وخصومه وإرشاده إلى الدعاء لهم بالهداية]

لما جيء بابن تيمية إلى مصر عقد له ثاني يوم وصوله ـ وهو ثاني عشرين رمضان سنة خمس وسبعمائة ـ مجلس بالقلعة وادُّعِي عليه عند ابن

= ويتكلم فيه هذا أو ما هو في معناه. اهـ. مختصراً «البداية والنهاية» (١٤ / ٨٢ ـ ٨٣).
ولما بلغ شيخ الإسلام وفاته قال: «أحسن اللّه عزاء المسلمين فيك يا صدر الدين». اهـ. «أعيان العصر» (٤ / ١٨٠٥).

(١) «العقود الدرية» (ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥).

مخلوف قاضي المالكية أنه يقول: إن الله تكلم بالقرآن بحرف وصوت، وأنه على العرش بذاته، وأنه يشار إليه بالإشارة الحسية.

وقال المدعي: أطلب تعزيره على ذلك التعزير البليغ ـ يشير إلى القتل على مذهب مالك ـ؛ ـ وقد منع من الكلام والبحث وأقيمت ضده الشهادات وحبس الشيخ وأخواه معه ـ كما سيأتي تفصيله.

ويقال: إن أخاه الشيخ شرف الدين ابتهل ودعا الله عليهم في حال خروجهم فمنعه الشيخ، وقال له: بل قل: اللهم هب لهم نوراً يهتدون به إلى الحق[1].

[رؤيا ابن القيم شيخه ابن تيمية قبل وفاته]

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي[2]: وكان قد رأى[3] قبل موته بمدة الشيخ تقي الدين رحمه الله في النوم، وسأله عن منزلته؟ فأشار إلى علوها فوق الأكابر، ثم قال له: وأنت كدت تلحق بنا، ولكن أنت الآن في طبقة ابن خزيمة[4] رحمه الله. اهـ.

[الأمير الكبير قراسنقر المنصوري نائب دمشق يكتب إلى ابن تيمية كتاباً يتشوق فيه إليه]

قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي: الأمير الكبير شمس الدِّين

---

(١) «الذيل» (٢/ ٣٩٧) باختصار.

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٥٠ ـ ٤٥١).

(٣) الحافظ ابن القيم، من عيون أصحاب ابن تيمية (ت ٧٥١هـ)، ولم يخرج من سجن القلعة الذي توفي فيه شيخه إلا بعد وفاته، وقد تقدمت ترجمته.

(٤) إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي (ت ٣١١هـ)، انظر «البداية والنهاية» (١١/ ١٦٠).

قرّاسُنقر بن عبد الله المنصوري، الذي ولاّه السلطان الملك الناصر محمد ابن المنصور قلاوون نيابته بدمشق في العشرين من شوّال سنة تسع وسبعمائة، وكان نائباً بحلب، ثم خشي من السلطان أن يمسكه فهرب[1]، وتوفي بمراغة في السنة التي[2] توفي فيها الشيخ تقيّ الدين.

كتب إلى الشيخ تقيّ الدين ابن تيميّة كتاباً يتشوق فيه إليه، قال الحافظ أبو محمد القاسم ابن البرزالي، فيما وجدته بخطّه:

من كتاب الأمير شمس الدين قُرّاسنقر المنصوري، إلى الشيخ تقي الدين: ضاعف الله بركات الجناب العالي، السيدي الإمامي العالمي العاملي العلاّمي، الشيخ القدومي الزّاهدي العابدي الخاشعي العارفي الحافظي التقوي، شيخ الإسلام، قطب الأنام، سيِّد العلماء، أوحد الصلحاء، حجة الأئمة، قدوة الأُمة، مفتي المسلمين شيخ المذاهب، إمام الفرق ناصر السنة، آخر المجتهدين، مُذكر الملوك والسلاطين، ورفع درجته في عِلِّيِّين، وأناله منازل الأبرار المتقين، ونفع ببركته ودعواته الإسلام والمسلمين.

المملوك يخدم بسلام أرق من النسيم، ويبث شوقاً عنده منه المقعد المقيم، ويتأسف على حرمانه مشاهدة ذلك المُحيَّا الوسيم، ومفاكهته التي هي من الفوز العظيم.

وينهي أنه لم يزل في سائر أوقاته متطلِّعاً إلى أخباره، مترقِّباً ما يرد من سوانحه وأوطاره، راجياً من الله تعالى أن لا يخليه من دعواته، وأن يمده

---

(١) (سنة ٧١١هـ)، وانظر «الدرر الكامنة» (٣ / ٢٤٦ ـ ٢٤٧).

(٢) (سنة ٧٢٨هـ).

بيمنه وبركاته، ويمتِّعه والإسلام كافّة بطول بقائه وحياته ـ وغير ذلك ـ فإنّ المملوك كلما بلغه بلاغة الجناب العالي وزواجره ونواهيه في طاعة الله، وأوامره وقيامه في مصالح الإسلام واجتهاده وجهاده في الله حق جهاده رافع يده بالأدعية المباركة بطول بقائه وأن يمدّه بمعونته وألطافه، في صباحه ومسائه، فإنه ضاعف الله بركاته قد أحيا سنن هذه الملّة، وكان ممّن وصف في قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢].

وهذا بعض الكتاب المشار إليه فيما تقدّم. والله سبحانه وتعالى أعلم[١]. اهـ.

[إبرار قسم ابن مُرّي[٢] في حفظ كتب شيخ الإسلام][٣]

قال ابن مري: ووالله إن شاء الله ليقيمن الله سبحانه لِنَصْرِ هذا الكلام ونشره وتدوينه وتفهمه واستخراج مقاصده واستحسان عجائبه وغرائبه رجالاً هم إلى الآن في أصلاب أبائهم.

وهذه هي سنة الحياة الجارية في عباده وبلاده والذي وقع من هذه الأمور في الكون لا يحصي عَدَدَه غير الله تعالى[٤]. اهـ.

---

(١) «الرد الوافر» (ص: ٢٢٢ ـ ٢٢٣).

(٢) الشيخ أحمد بن محمد بن مُرِّي الحنبلي (ت بعد ٧٢٨هـ).

(٣) قطعة من رسالة وجهها شهاب الدين ابن مري الحنبلي بعد وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية إلى تلاميذه يحثهم على جمع ما كتب شيخ الإسلام وصنفه ومقابلتها وتكثير النسخ وإشاعتها واغتنام حياة من بقي من عيون أصحابه كالحافظ المزي وابن القيم لهذه المهمة والعناية بشأن ابن رشيق المالكي وتفريغه لهذا الشأن لأنه أدرى الناس بكلام شيخ الإسلام وبخطه ومصنفاته.

(٤) «الجامع» (ص: ١٠٢).

[شيخ الإسلام يرفض هدية السلطان ومرتبا يوميا]

قال الشهاب ابن فضل الله[1]: لما قدم ابن تيمية على البريد إلى القاهرة في سنة سبع مئة نزل عند عمي شرف الدين، وحضّ أهل المملكة على الجهاد.

فأغلظ القول للسلطان والأمراء ورتَّبوا له في مقر إقامته كل يوم ديناراً ومخفقة[2] طعام فلم يقبل شيئاً من ذلك، وأرسل له السلطان بقجة قماش. فردها[3]. اهـ.

(قال إسلام العبادي: وقد تقدم من كلام الحافظ ابن كثير ثناء نائب دمشق الأفرم لما ورد كتاب ابن تيمية من مصر في اليوم الثامن والعشرين من ذي الحجة سنة ٧٠٦هـ فقرىء على الناس فجعل يشكر الشيخ ويثني عليه وعلى علمه وديانته وشجاعته وزهده).

وقال: ما رأيت مثله. وإذا هو كتاب مشتمل على ما هو عليه في السجن من التوجه إلى الله وأنه لم يقبل من أحد شيئاً لا من النفقات السلطانية ولا من الكسوة ولا من الإدرارات ولا غيرها ولا تدنس بشيء من ذلك[4]. اهـ.

---

(١) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله بن مجلّى القرشي العمري الشافعي القاضي الكبير الإمام الأديب البارع (ت ٧٤٩هـ). «شذرات الذهب» (٨ / ٢٧٣ _ ٢٧٤) و«البداية والنهاية» (١٤ / ٢٤٠ _ ٢٤١).

(٢) سفرة طعام. انظر حاشية «الرد الوافر» للشاويش (ص: ١١٩).

(٣) «الدرر الكامنة» (١ / ١٥٢).

(٤) «البداية والنهاية» (١٤ / ٤٥).

[رده تعالى كيدهم ومكرهم بشيخ الإسلام وعقوبتهم جزاء وفاقا]

قال الحافظ ابن عبد الهادي: اجتمع جماعة معروفون بدمشق وضربوا مشورة في حق الشيخ فقال أحدهم: ينفى، فنُفي القائل.

وقال آخر: يُقطع لسانه، فقُطع لسان القائل.

وقال آخر: يُعزّر، فعزِّر القائل.

وقال آخر: يُحبَس، فحبِسَ القائل.

أخبرني بذلك مَن حضر هذه المشورة وهو كارِهٌ لها.

واجتمع جماعة آخرون بمصر وقاموا في هذه القضيّة[1] قياماً عظيماً واجتمعوا بالسلطان وأجمعوا أمرهم على قتل الشيخ.

فلم يوافقهم السلطان على ذلك وأرضى خاطرهم بالأمر بحبسه[2]. اهـ.

[ثناء الحافظ الذهبي على ابن تيمية: «لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله..» وتنويهه بعلو منزلة شيخ الإسلام وتفرده بالإمامة والتجديد في العلم والعمل]

قال ابن عبد الهادي: قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي في أثناء كلامه في ترجمة الشيخ رحمه الله: وله الآن عدة سنين لا يُفتي بمذهب مُعيّن، بل بما قام عليه الدليل عنده.

ولقد نصر السُّنة المحضة، والطريقة السلفيّة واحتج لها ببراهين،

---

(١) انظر تفاصيل هذه المؤامرة (ص: ٣٠٩، وما بعدها) من هذا الكتاب.

(٢) «الكواكب الدرية» (ص: ١٤٨ ـ ١٤٩).

ومقدمات وأمور لم يُسبقْ إليها.

وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وهابوا وجسر هو عليها حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام، قياماً لا مزيد عليه وبدّعوه، وناظروه وكابروه، وهو ثابتٌ لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المرّ الذي أدّاه إليه اجتهاده، وحِدّة ذهنه وسَعة دائرته في السنن والأقوال.

مع ما اشتهر عنه من الورع وكمال الفكرة، وسرعة الإدراك، والخوف من الله والتعظيم لحرمات الله.

فجرى بينه وبينهم حَمَلات حربيّة ووقائع شاميّة ومصريّة وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة فينجيه الله، فإنه دائم الابتهال كثير الاستغاثة قوي التوكل ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يدمنها بكيفيّة وجمعية.

وله من الطرف الآخر مُحبُّون من العلماء، والصلحاء ومن الجند والأمراء ومن التجار والكبراء، وسائر العامة تحبه لأنه منتصب لنفعهم ليلاً ونهاراً بلسانه وقلمه.

وأمّا شجاعته فبها تضرب الأمثال، وببعضها يتشبه أكابر الأبطال.

فلقد أقامه الله في نوبة غازان، والتقى أعباء الأمر بنفسه، وقام وقعد وطلع وخرج، واجتمع بالملك مرتين وبقطلوشاه وببولاي، وكان قبجق يتعجب من إقدامه وجرأته على المغول.

وله حِدّة قوية تعتريه في البحث حتى كأنه ليث حرب، وهو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، ولا والله ما رأى هو مثل نفسه في العلم.

قال ابن عبد الهادي: ما فعله الشيخ رحمه الله في نوبة غازان من

جميع أنواع الجهاد وسائر أنواع الخير: من إنفاق الأموال، وإطعام الطعام، ودفن الموتى وغير ذلك معروف مشهور[1]. اهـ.

[ابن تيمية يخرج الحافظ المزي من السجن والأمير يحبس جماعة من أصحاب ابن الوكيل لإيذائهم بعض جماعة ابن تيمية]

قال الحافظ ابن عبد الهادي: كانَ الحافِظُ جمال الدين المِزي[2] يقرأُ «صحيح البخاري» لأجل الاستسقاء[3].

فقرأ يوم الاثنين الثاني والعشرين من رجب[4] في أثناءِ ذلك فصلاً في الردِّ على الجهميّة وأنّ اللّه فوق العرش من كتاب «أفعال العباد» تأليف البخاري[5] تحت النّسر[6].

فغضب لذلك بعض الفقهاء الحاضرين وقالوا: نحن المقصودون بهٰذا، ورفعوا الأمر إلى قاضي القُضاةِ الشافعيّ[7] فطلبه ورسَمَ بحبسه.

---

(١) «العقود الدرية» (١١٦ ـ ١١٨).

(٢) شيخ الإسلام حافظ الإسلام، محدث الأعلام، الحبر النبيل، أستاذ أئمة الجرح والتعديل، شيخ المحدثين جمال الدين أبو الحجاج المزي يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف الكلبي القضاعي الدمشقي (ت ٧٤٢)، انظر «العلو» للذهبي (ص: ٢٢٩) و«طبقات الشافعية الكبرى» (٥ / ٤٤٠ ـ ٤٦٠).

(٣) انظر «إصلاح المساجد من البدع والعوائد» لعلامة الشام جمال الدين القاسمي تحقيق الألباني (ص: ٢٢١ ـ ٢٢٤).

(٤) (سنة ٧٠٥هـ).

(٥) الإمام المشهور.

(٦) قبة النسر «البداية والنهاية» (٩ / ١٥٤).

(٧) قاضي القضاة بالشام نجم الدين بن صَصْرَى (ت ٧٢٣هـ) كما ذكره ابن كثير في «تاريخه» (١٤ / ٣٩)، وقال عنه: وكان عدو الشيخ، وانظر ترجمته في المرجع السابق (١٤ / ١١٠)، و«شذرات الذهب» (٨ / ١٠٧ ـ ١٠٨).

فبلغَ ذلك الشيخ تقي الدين[1]، فتألّم له وأخرجهُ من الحبس بيده، وخرج إلى القصر إلى «ملك الأمراء» وتخاصم هو والقاضي هناك وأثنى على الشيخ جمال الدين، وغضب القاضي وانزعج.

وقال: لئن لم يُرَدّ إلى حبسي عزلتُ نفسي فأرضاهُ ملكُ الأمراء بأنْ أعادَ الشيخ جمال الدين إلى حبسه، فاعتقله بالقوصية أيّاماً.

وذكر الشيخ تقيُّ الدين للنّائِبِ[2] ما وقع في غيبته[3] في حقِّ بعضِ أصحابه من الأذى، فرسمَ بحبسِ جماعةٍ من أصحابِ ابن الوكيلِ وأمرَ فنودِيَ في البلدِ: إنّه مَنْ تكلّم في العقائِد حلّ دمُه ومالُه، ونهب داره وحانوته. وقصدَ بذلك تسكين الفِتن والشرّ[4]. اهـ.

[تزوير كتاب على شيخ الإسلام بمناصحة التتر وقطع يد الكاتب بأمر نائب السلطنة]

قال الحافظ ابن كثير: وفي جمادى الأولى[5] وقع بيد نائب

---

(١) وفي «نهاية الأرب للنويري»: فبلغ ابن تيمية الخبر فقام حافياً وتبعه أصحابه. عن «الجامع» (ص: ١٢٠).

(٢) الأفرم نائب الشام.

(٣) وكان قد خرج للصيد وغاب نحو جمعة ثم حضر.

(٤) «العقود الدرية» (ص: ٢٠٤ ـ ٢٠٥)، وانظر «البداية والنهاية» (١٤/ ٣٩).

(٥) (سنة ٧٠٢ هـ)، هذا ودأب شيخ الإسلام رص الصفوف وشحذ الهمم وإعلاؤها وإقامة الحلقات التحريضية على القتال يدور كل ليلة على أسوار القلعة المستعصية على التتار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط ورسائله السرية لعلم الدين أرجواش بالثبات وعدم تسليم القلعة وبها حجر واحد أو عين تطرف وثبات هذه القلعة وصمودها كان مفتاح النصر وهزيمة التتر سنة ٧٠٢ هـ كما سيأتي تفصيله.
هذه صورة واحدة من صور جهاد هذا العلامة الكبير. وانظر «البداية والنهاية» (١٤ / =

السلطنة[١] كتاب مزوَّر فيه أن الشيخ تقي الدين ابن تيمية والقاضي شمس الدين بن الحريري[٢] وجماعة من الأمراء والخواص الذين بباب السلطنة يناصحون التتر ويكاتبونهم، ويريدون تولية قبجق[٣] على الشام وأن الشيخ كمال الدين بن الزملكاني[٤] يعلمهم بأحوال الأمير جمال الدين الأفرم[٥]، وكذلك كمال الدين بن العطار[٦].

فلما وقف عليه نائب السلطنة عرف أن هذا مفتعل ففحص عن واضعه فإذا هو فقير كان مجاوراً بالبيت الذي كان مجاور محراب الصحابة، يقال له اليعفوري[٧]، وآخر معه يقال له أحمد القباري[٨]، وكانا معروفين في الشر والفضول، ووجد معهما مسودة هذا الكتاب.

فتحقق نائب السلطنة ذلك فعزرا تعزيراً عنيفاً ثم وُسِّطا بعد ذلك.

= ٢٣). ولكن هذا مكر الحاسدين وإفك المفترين ووسم المثبطين وغيرة القاعدين العاطلين ورسم المخبرين وما هي إلا محاولة لثني هذا الإمام عن تحرير الأمة وصد كيد المعتدين وعودها إلى رب العالمين.

(١) الأمير جمال الدين الأفرم.

(٢) قاضي القضاة شمس الدين ابن الحريري أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي عمرو عثمان بن أبي الحسن بن عبد الوهاب الأنصاري الحنفي (ت ٧٢٨هـ)، كان يقول: إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن؟ «البداية والنهاية» (١٤ / ١٤٧).

(٣) ستأتي ترجمته.

(٤) تقدمت ترجمته.

(٥) نائب السلطنة بالشام.

(٦) هو أحمد بن محمود الإمام الأديب الكاتب البليغ الناظم الناثر كمال الدين أبو العباس ابن أبي الفتح الشيباني الدمشقي المعروف بابن العطار «أعيان العصر» (١ / ٢٢٩ ـ ٢٣٠) (ت ٧٠٢هـ).

(٧) هو الشيخ محمد اليعفوري فقير مشهور.

(٨) هو الشيخ أحمد القباري الإسكندري.

وقطعت يد الكاتب الذي كتب لهما هذا الكتاب وهو التاج المناديلي[1]. اهـ.

[كتاب الشيخ إلى والدته وإلى أخيه وغيرهما]

وقد وقفت[2] على عدة كتب بخط الشيخ، بعثها من مصر إلى والدته، وإلى أخيه لأمه: بدر الدين[3]، وإلى غيرهما[4].

منها كتاب إلى والدته يقول فيه:

من أحمد ابن تيمية إلى الوالدة السعيدة[5]، أقرّ الله عينها بنعمه وأسبغ عليها جزيل كرمه، وجعلها من خير إمائه وخدمه.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إلٰه إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شيء قدير، ونسأله أن يصلي على خاتم النبيِّين وإمام المتقين محمدٍ عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

كتابي إليكم عن نعمٍ من الله عظيمة، ومِنن كريمة وآلاءٍ جسيمة نشكر الله عليها، ونسأله المزيدَ من فضله ونِعَم الله كلَّما جاءت في نموٍّ وازدياد

---

(١) عبد الرحمن بن موسى بن عمر تاج الدين الناسخ عرف بابن المناديلي. انظر «أعيان العصر» (٢ / ٩٦١ ـ ٩٦٢).

(٢) الحافظ ابن عبد الهادي.

(٣) مضت ترجمته وسيأتي ذكر طرف من رسائله إليه.

(٤) ذكر ابن عبد الهادي بعضاً منها وانظر «رسائل من السجن» «لابن تيمية» جمعها الأستاذ المفكر محمد العبدة.

(٥) ستُّ النعم بنت عبد الرحمن بن علي بن عبدوس الحرانية (ت ٧١٧هـ) وقد مضت ترجمتها.

وأياديه جلّت عن التعداد.

وتعلمون أنّ مُقامنا الساعة في هذه البلاد، إنّما هو لأمورٍ ضروريّة متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم، ولٰكن الغائب عذره معه، وأنتم لو اطّلعتم على باطن الأمور فإنكم ـ ولله الحمد ـ ما تختارون الساعة إلا ذلك، ولم نعزم على المقام والاستيطان شهراً واحداً، بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم، وادعوا لنا بالخِيرَة، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا ولكم وللمسلمين ما فيه الخِيرَة في خيرٍ وعافية.

ومع هذا فقد فتح الله من أبوابِ الخير والرحمة، والهداية والبركة ما لم يكن يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال، ونحن في كل وقتٍ مهمومون بالسفر، مستخيرون الله سبحانه وتعالى، فلا يظنّ الظانّ أنّا نؤثر على قربكم شيئاً من أمور الدنيا قط، بل ولا نؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه، ولٰكن ثمّ أمور كبار نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

والمطلوب كثرة الدعاء بالخيرة فإنّ الله يعلم ولا نعلم ويقدر ولا نقدر وهو علاّم الغيوب وقد قال ـ ﷺ ـ: «من سعادة ابن آدم استخارته الله، ورضاه بما يقسم الله له، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله، وسخطه بما يقسم الله له»[1].

والتاجر يكون مسافراً فيخاف ضياع بعض ماله، فيحتاج أن يقيم حتى

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٥١)، وأحمد (١٤٤٧)، وغيرهما، وضعفه الألباني، انظر «الضعيفة» (رقم ١٩٠٦).

يستوفيه وما نحن فيه أمرٌ يَجِلُّ عن الوصف، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كثيراً كثيراً. وعلى سائر من في البيت من الكبار والصغار وسائر الجيران والأهل والأصحاب واحداً واحداً.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً[1]. اهـ.

[ابن تيمية ينشد عمر بن صدقة البلالي شعراً وهما قيد الاعتقال في سجن القلعة]

قال الحافظ ابن حجر في ترجمة «عمر بن عمران بن صدقة البلالي» ولد سنة (٦٨٥ هـ وتوفي سنة ٧٥٤هـ):

جرت له قصة مع ملك التتار، وذلك أنه اتّهمه بمكاتبة المصريين بأخبارهم فألقاه إلى الكلاب ومعه آخر فأكلت الكلابُ رفيقه ولم تُؤذه وكان في تلك الحالة ملازماً للذكر. فعَظُمَ في أعينهم وأكرموه وأقام معهم مدة يجاهد الرافضة والمبتدعة.

ثم قدم دمشق واتفقت له كائنة فسجن بقلعة دمشق حين كان الشيخ ابن تيميّة بها وأقام بعده خمس سنين ثم أُطلِق.

وذكر أنّ ابن تيميّة أنشده وهما في الاعتقال:

لا تفكرن وثق بالله أنّ له ... ألطاف دقّت عن الأذهان والفطنِ
يأتيك من لطفه ما ليس تعرفه ... حتى تظن الذي قد كان لم يكنِ[2]

---

(١) «العقود الدرية» (٢٥٧ ـ ٢٥٩).

(٢) «الدرر الكامنة» (٣ / ١٨١).

[استحسان الشوكاني إصرار ابن تيمية عدم إجابة الدعوى]

قال في «البدر الطالع» (١ / ٦٧): عقد مجلس في ثاني عشرينه[1] بعد صلاة الجمعة فادعي على ابن تيمية عند المالكي.

فقال: هذا عدوي، ولم يجب عن الدعوى، فكرر عليه فأصر.

فحكم المالكي بحبسه، فأقيم من المجلس وحبس في برج، ثم بلغ المالكي أن الناس يترددون إليه.

فقال: يجب التضييق عليه إن لم يقتل، وإلا فقد ثبت كفره، فنقلوه ليلة عيد الفطر إلى الجب[2].

ولقد أحسن المترجَم له رحمه الله بالتصميم على عدم الإجابة عند ذلك القاضي الجريء الجاهل الغبي، ولو وقعت منه الإجابة لم يبعد الحكم بإراقة دم هذا الإمام الذي سمح الزمان به، وهو بمثله بخيل.

ولا سيما هذا القاضي من المالكية الذي يقال له ابن مخلوف فإنه من شياطينهم المتجرئين على سفك دماء المسلمين[3] بمجرد أكاذيب وكلمات ليس المراد بها ما يحملونها عليه، وناهيك بقوله إن هذا الإمام قد استحق القتل وثبت لديه كفره ولا يساوي شعرة من شعراته بل لا يصلح لأن يكون شسعاً لنعله وما زال هذا القاضي الشيطان يتطلب الفرص التي يتوصل بها إلى إراقة دم هذا الإمام، فحجبه الله عنه وحال بينه وبينه،

---

(١) من شهر رمضان، (سنة ٧٠٥هـ).

(٢) سيأتي بيان ذلك المجلس مفصلاً.

(٣) انظر صورة أخرى من قوّة أحكامه وخصوصاً على العلماء الذين يخالفون بآرائهم وتفكيرهم ما عليه العامة وما عليه الفقهاء في «ابن تيمية» لأبي زهرة (ص: ٤٨)، و«البداية والنهاية» (١٤ / ١٩).

والحمد لله رب العالمين.

[جواب يبين استمرار ابن تيمية في السجن إلى حين وفاته]

قال الحافظ ابن حجر: في ترجمة «الفقيه الشافعي علي بن إسماعيل ابن يوسف القونوني» (ت ٧٢٩ هـ) وكان يعظم الشيخ تقي الدين ابن تيمية ويذب عنه مع مخالفته له في أشياء وتخطئته له[١]. ويقال: إن الناصر قال له: إذا وصلت إلى دمشق قل للنائب: يفرج عن ابن تيمية. فقال: يا خوند لأي معنى سجن؟

قال: لأجل الفتاوى.

قال: فإن كان رجع عنها أفرجنا عنه. فيقال: كان هذا الجواب سبباً في استمرار الشيخ ابن تيمية في السجن إلى أن مات لأنه كان لا يتصور رجوعه[٢]. اهـ.

[ابن تيمية يطلق أسرى المسلمين والنصارى واليهود عند اجتماعه بقازان وأمرائه]

قال شيخ الإسلام: ولمّا قدم مقدم المغول «غازان» وأتباعه إلى دمشق وكان قد انتسب إلى الإسلام لٰكن لم يرضَ الله ورسوله والمؤمنون بما فعلوه حيث لم يلتزموا دين الله.

وقد اجتمعتُ به وبأمرائه وجرى لي معهم فصولٌ يطول شرحها، لابُدّ

(١) فيما التبس عليه وزعمه!

(٢) «الدرر الكامنة» (٣ / ٢٦ ـ ٢٧)، وانظر «أعيان العصر» للصلاح الصفدي (٣ / ١١١٤).

أن تكون قد بلغت الملك[1]، فأذلّه الله وجنوده لنا حتى بقينا نضربهم بأيدينا ونصرخ فيهم بأصواتنا. وكان معهم صاحب «سيس» مثل أصغر غلام يكون.

حتى كان بعض المؤذنين الذين معنا يصرخ وعليه ويشتمه وهو لا يجترىء أن يجاوبه ـ إلى أن قال ـ ومع هذا فإنا كنا نعامل أهل ملتكم بالإحسان إليهم، والذب عنهم.

وقد عرف النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى وأطلقهم «غازان» و«قطلوشاه»، وخاطبتُ بولاي فيهم فسمح بإطلاق المسلمين.

قال لي: لٰكن معنا نصارى أخذناهم من القدس فهؤلاء لا يُطلقون.

فقلت له: بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمّتنا. فإنّا نفكهم ولا ندع أسيراً لا مِن أهل الملّة ولا مِن أهل الذمة. وأطلقنا من النصارى مَن شاء الله فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله[2]. اهـ.

[مدح الإمام الطوفي شيخ الإسلام وذم أعدائه]

وامتدحه[3] الشيخ الإمام نجم الدين سليمان بن عبد القوي[4] بقصيدة منها:

---

(١) أي المخاطب وهو الملك سرجوان النصراني.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨ / ٦١٧ ـ ٦١٨) من الرسالة القبرصية.

(٣) (سنة ٧٠٧هـ).

(٤) هو نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم بن سعيد الطوفي الصَّرصَري ثم البغدادي الحنبلي الأصولي المتفنن (ت ٧١٦هـ).

فاصبر ففي الصبر ما يغنيك عن حيلٍ ... وكلٌّ صعب إذا صابرته هانا
ولستَ تعدِمُ من خطب رُميتَ به ... إحدى اثنتين، فأيقن ذاك إيقانا:
تمحيص ذنبٍ لتلقى الله خالصةً ... أو امتحانا تزداد به قربانا
يا سعد إنا لنرجو أن تكون لنا ... سعداً، ومرعاك للورَّادِ سعدانا
وأن يَضُرَّ بك الرحمٰنُ طائفةً ... ولَّتْ، وينفع من بالوُدِّ والانا
يا أهل تيميّة العالين مرتبة ... ومنصباً فرع الأفلاك تبيانا
جواهر الكون أنتم، غير أنكمُ ... في معشر أُشربوا في العقل نقصانا
لا يعرفون لكم فضلاً ولو عقلوا ... لصيّروا لكم الأجفان أوطانا
يا مَن حوى من علوم الخلق ما قَصُرت ... عنه الأوائل مُذ كانوا إلى الآنا
إن تُبْتَلَى بلئام الناس يرفعهم ... دهر عليك لأهل الفضل قد خانا!
إني لأقسم، والإسلام معتقدي ... وإنني من ذوي الإيمان: أيمانا
لم ألق قبلك إنساناً أُسرُّ به ... فلا برحت لعين المجد إنسانا

في أبيات كثيرة غير هذه، يمدح فيها الشيخ ويذم أعدائه[١].

[استجابة ونفوذ دعوته على ابن الزملكاني]

قال الحافظ ابن كثير في ترجمة الشيخ كمال الدين بن الزملكاني شيخ الشافعيّة بالشام وغيرها: انتهت إليه رياسة المذهب تدريساً وإفتاءً ومناظرةً. (ت ٧٢٧هـ).

قال: . . . ثم طُلِبَ إلى الديار المصريّة ليولي «الشامية» دار السنة

---

(١) «العقود الدرية» (ص: ٢٥٤ ـ ٢٥٥).

النبوية فعاجلتْه المنيّة قبل وصوله إليها، فمرض وهو سائر على البريد تسعة أيام ثم عقب المرض بحراق الحمام فقبضهُ هادم اللّذات وحالَ بينه وبين سائر الشهوات والإرادات والأعمال بالنيّات، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأةٍ يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه.

وكان من نيّته الخبيثة إذا رجع إلى الشام متولِّياً أن يؤذي شيخ الإسلام ابن تيميّة. فدعا عليه فلم يبلغ أمله ومُراده، فتوفي بمدينة بلبيس وحمل إلى القاهرة ودفن بالقرافة جوار قبة الشافعي تغمدهما الله برحمته[1]. اهـ مختصراً.

[طريقة ابن تيمية المفيدة في جواب الأسئلة الحكمية]

قال الإمام ابن قيّم الجوزيّة: ولقد شاهدتُ من شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ قدّس الله روحه ـ في ذلك أمراً عجيباً، كان إذا سُئل عن مسألةٍ حُكميّة ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة إذا قدر، ومأخذ الخلاف وترجيح القول الراجح. وذكر متعلّقات المسألة التي ربّما تكون أنفع للسائل من مسألته.

فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللّوازم أعظم من فرحه بمسألته. وهذه فتاويه ـ رحمه الله ـ بين الناس فمن أحبّ الوقوف عليها رأى ذلك.

[السجنة الأولى لشيخ الإسلام سنة ٦٩٣هـ بسبب واقعة عساف النصراني]

قال ابن كثير: كان هذا الرجل من أهل السويداء[2] قد شهد عليه

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٣٧) باختصار، وانظر «شذرات الذهب» (٨ / ١٤٠).

(٢) السُوَيْداء: تصغير سوداء موضع على ليلتين من المدينة على طريق الشام. والسويداء =

جماعة أنه سب النبي ﷺ وقد استجار عساف هذا بابن أحمد بن حجي أمير آل علي، فاجتمع الشيخ تقي الدين ابن تيمية، والشيخ زين الدين الفارقي[1] شيخ دار الحديث، فدخلا على الأمير عز الدين أيبك الحموي نائب السلطنة فكلماه في أمره فأجابهما إلى ذلك، وأرسل ليحضره فخرجا من عنده ومعهما خلق كثير من الناس.

فرأى الناس عسافاً حين قدم ومعه رجل من العرب فسبوه وشتموه فقال ذلك الرجل البدوي: هو خير منكم ـ يعني النصراني ـ فرجمهما الناس بالحجارة وأصابت عسافاً ووقعت خبطة قوية فأرسل النائب فطلب الشيخين ابن تيمية والفارقي فضربهما بين يديه ورسم عليهما في العذراوية.

وقدم النصراني فأسلم وعقد مجلس بسببه وأثبت بينه وبين الشهود عداوة فحقن دمه، ثم استدعى بالشيخين فأرضاهما وأطلقهما ولحق النصراني بعد ذلك ببلاد الحجاز فاتفق قتله قريباً من مدينة رسول الله ـ ﷺ ـ قتله ابن أخيه هنالك.

وصنف الشيخ تقي الدين بن تيمية في هذه الواقعة كتابه «الصارم المسلول على ساب الرسول»[2]،[3].

= بلدة مشهورة في ديار مضر قرب حران وأهلها نصارى أو في الغالب. والسويداء أيضاً قرية بحوران من نواحي دمشق. اهـ مختصراً «معجم البلدان» (٥ / ٩٦).

(١) عبد الله بن مروان بن عبد الله بن فهر بن الحسن، أبو محمد الفارضي شيخ الشافعية (٦٣٣ ـ ٧٠٣) وانظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٣٢) و«الدرر الكامنة» (٢ / ٣٠٤).

(٢) وهو مطبوع مشهور ومتداول. قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٣ / ٢٧٧): وأنا قد صنفت كتاباً كبيراً سميته «الصارم المسلول على شاتم الرسول» وذكرت في هذه المسألة ما لم أعرف أحداً سبق إليه.

(٣) «البداية والنهاية» (١٣ / ٣٥٥)، وانظر «تاريخ ابن الجزري» (١ / ٢٠٢ ـ ٢٠٤) و«عيون=



[من نظم شيخ الإسلام في آخر عمره]

قال الإمام ابن القيّم: بعث إليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنـا الفقيـر إلـى ربِّ البـريّـاتِ ... أنا المسيكين في مجموع حالاتي
أنا الظّلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن يأتِنا من عنده يأتي
لا أستطيع لنفسي جَلْبَ منفعةٍ ... ولا عن النفس لي دفع المضرّات
وليس لي دونه مولىً يدبِّرني ... ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتي
إلاّ بـإذنٍ مـن الـرحمٰـن خـالقنـا ... إلى الشفيع كما قد جاء في الآياتِ
ولسـت أملـك شيئـاً دونـه أبـداً ... ولا شريك أنا في بعض ذرّات
ولا ظهيـر لـه كـي يستعيـن بـه ... كمـا يكـون لأربـاب الـولايـات
والفقرُ لي وصف ذاتٍ لازمٌ أبداً ... كما الغِنى أبداً وصفٌ له ذاتي
وهذه الحالُ حالُ الخلق أجمعهم ... وكلُّهـم عنـده عبـدٌ لـه آتـي
فمن بغى مطلباً من غير خالقه ... فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي
والحمد لله مِلءَ الكون أجمعه ... ما كان منه وما من بعد قد يأتي
ثمّ الصلاة على المختار من مُضَرٍ ... خيرِ البريّة من ماضٍ ومن آتي(١)

= التواريخ» حوادث سنة (٦٩٣هـ) و«رفع الإصر» (ص: ١٢٦).

(١) «مدارج السالكين» (١ / ٥٦٢ ـ ٥٦٣)، وقال في «العقود» عند ذكر هذه الأبيات: وقد وجد بخط الشيخ أبيات قالها بالقلعة ثم ذكرها، والبيت الأخير من زيادات «العقود» (ص: ٣٧٥).

[معاتبة الحافظ الذهبي قاضي القضاة السبكي بشأن الشيخ]

كتب الحافظ أبو عبد الله الذهبي فيما اشتهر إلى الشيخ تقي الدين السبكي[1] يعاتبه على ما صدر. فكتب الجواب يعتذر عن تلك الحادثات، ومن بعضه ما أشار إليه الشيخ زين الدين ابن رجب في كتابه «الطبقات»[2] فقال:

وممّا وُجِد في كتاب كتبه العلامة قاضي القضاة أبو الحسن السبكي، إلى الحافظ أبي عبد الله الذهبي في أمر الشيخ تقي الدين:

أما قول سيّدي في الشيخ، فالمملوك يتحقق كبر قدره، وزخارة بحره، وتوسُّعه في العلوم الشرعيّة والعقليّة، وفرط ذكائه واجتهاده، وبلوغه في كلٍّ من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف.

والمملوك يقول ذلك دائماً، وقدره في نفسي أعظم من ذلك وأجلّ مع ما جمع اللّه له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه، لا لغرض سواه، وجريه علىٰ سنن السلف، وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان[3].

---

(١) الإمام العلامة قاضي القضاة بهاء الدين علم المناظرين أحد المتبحرين أبو البقاء محمد ابن عبد البرِّ السبكي الشافعي (ت ٧٧٧)، «الرد الوافر» (ص: ٩٧)، وانظر «إنباء الغمر» (١ / ١٨٣ ـ ١٨٥).

(٢) (٢ / ٣٩٢ ـ ٣٩٣).

(٣) «الرد الوافر» (ص: ١٠٠).

[قاضي العساكر يسترجع كتب الشيخ التي صودرت منه في سجنه الأخير من قلعة الجبل ويعطيها أخاه زين الدين عبد الرحمن بن تيمية]

قال ابن كثير: استدعىٰ الفخري[1] القاضي الشافعي[2] وألح عليه في إحضار الكتب في سلة الحكم التي كانت أخذت من عند الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه اللّٰه من القلعة المنصورة في أيام جلال الدين القزويني[3]، فأحضرها القاضي بعد جهد ومدافعة، وخاف على نفسه منه، فقبضها منه الفخري بالقصر وأذن له في الانصراف من عنده، وهو متغضب عليه وربما همَّ بعزله لممانعته إياها، وربما قال قائل: هذه فيها كلام يتعلق بمسألة الزيارة.

فقال الفخري: كان الشيخ أعلم باللّٰه وبرسوله منكم، واستبشر الفخري بإحضارها إليه واستدعى بأخي الشيخ زين الدين عبد الرحمن، وبالشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن قيم الجوزية وكان له سعي مشكور فيها، فهنأهما بإحضاره الكتب، وبيَّت الكتب تلك الليلة في خزانته للتبرك!! وصلىٰ به الشيخ زين الدين أخو الشيخ صلاة المغرب بالقصر، وأكرمه الفخري إكراماً زائداً لمحبته الشيخ رحمه اللّٰه[4].

---

(١) الفخري: قاضي العساكر المنصورة فخر الدين بن الصائغ وقد فرح التيميون بولايته وذلك لأنه من أخص من صحب شيخ الإسلام رحمه الله قديماً، وأخذ عنه فوائد كثيرة وعلوماً. اهـ. انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٢٠٩).

(٢) القاضي تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي الشافعي (ت ٧٥٦) وكان ذلك الاستدعاء (في شهر رجب سنة ٧٤٢).

(٣) قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الشافعي (ت ٧٤٠).

(٤) «البداية والنهاية» المرجع السابق.

[العلامة برهان الدين الفزاري يقول عن ابن تيمية:
والله عنده من الفضائل ما لا عند أحمد بن حنبل]

قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي(١): ووجدتُ بخط الإمام أبي محمد عبد الله بن أحمد ابن المحب المقدسي(٢) ما صورته:

قال الإمام بدر الدين محمد بن علاء الدين بن غانم(٣)، ومن خطه نقلت: اجتمعت بالشيخ برهان الدين(٤) ـ رحمه الله تعالى ـ يوم وفاة الشيخ تقيّ الدين ـ رحمه الله تعالى ـ على مصطبة باب «المدرسة الباذرائية»(٥). وعزّيْته فيه فوجدته متأسفاً عليه كثير الألم لموته.

وإذا بشخصٍ من الطلبة قد حضر، فقال له: يا سيِّدي لا تحضر الدرسَ اليوم حتى نحضر في خدمتك، فغضب غضباً شديداً وانزعج

---

(١) «الرد الوافر» (ص: ١٥٥ ـ ١٥٦).

(٢) هو العالم الإمام العابد الناسك عبد الله بن المحب المقدسي (ت٧٣٧هـ)، وقد تقدمت ترجمته، وانظر «البداية والنهاية» (١٤ / ١٨٩).

(٣) الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن علي بن محمد بن سليمان بن غانم الدمشقي الشافعي (ت ٧٤٠)، انظر «الرد الوافر» (ص: ١٠٦) و«المعجم المختصر» للذهبي (ص: ١٦٧)، و«الدرر الكامنة» (٤ / ٨٤ ـ ٨٥).

(٤) قال ابن كثير: شيخنا العلامة برهان الدين الفزاري، هو الشيخ الإمام العالم شيخ المذهب وعَلَمه ومفيد أهله شيخ الإسلام مفتي الفرق بقية السلف إبراهيم بن شيخ الشافعية تاج الدين عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفَزَاري المصري الأصل الشافعي بل شافعي الشام ت ٧٩٩هـ انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ١٥١ ـ ١٥٢) و«شذرات الذهب» (٨/ ١٥٤).

(٥) نسبة إلى واقفها العلامة نجم الدين أبي محمد عبد الله بن أبي الوفاء بن عمر بن الحسن ابن عبد الله بن عثمان البذرائي البغدادي (ت ٦٥٥هـ)، انظر «منادمة الأطلال» (ص: ٨٧ ـ ٨٩).

انزعاجاً كثيراً وقام لوقته ودخل بيته وانصرف ذلك الرجل، وأنا جالسٌ مَوْضعي على المصطبة متألماً لانزعاجه، وإذا به قد علم برواحِ ذلك الرجل وجلوسي مكاني بعده فطلبني فدخلتُ فوجدته على حاله في الانزعاج.

وقال لي: ما تبصر هذا الحال؟! يموت أقل من يكون من الفقهاء فتبطل الدروس لأجله، ويموت مثل هذا الرجل العظيم ولا تبطل الدروس لأجله؟! والله عنده من الفضائل ما لا عند أحمد بن حنبل.

هذا كان صاحبي من الصِّغر ويجتمع بوالدي[١]. وكان والدي يحب والده[٢] وأهله ويتردد إلى والده، وعندما درس ولده بعد وفاة والده حضر والدي عنده الدرس وكتب درسه[٣] وأثنى على درسه وعلى فضائله من ذلك الزمان.

هٰذا صورة ما حكاه لي الشيخ برهان الدين ـ رحمه الله ـ ذلك اليوم.

قال الحافظ ابن ناصر الدين: انتهى ما وجدته بخط الإمام أبي محمد ابن المحب ـ رحمه الله تعالى ـ. اهـ.

---

(١) هو الإمام العلامة العالم شيخ الشافعية في زمانه حاز قصب السبق دون أقرانه الشيخ تاج الدين عبد الرحمن بن سباع بن ضياء الدين أبو أحمد الفزاري (ت ٦٩٠هـ) انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٣٤٤)، و«طبقات الشافعية الكبرى» (٤ / ٣٢٨ ـ ٣٢٩).

(٢) هو الإمام العالم شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام العلامة مجد الدين عبد الله بن عبد الله بن أبي القاسم ابن تيمية الحراني (ت ٦٨٢هـ)، وقد مضت ترجمته.

(٣) كان درسه «بدار الحديث السكرية»، وكان عمره آنذاك اثنين وعشرين عاماً وحضره جهابذة من العلماء وأطنبوا في مدحه وشكره لحداثة سنه وصغره ومن جملتهم شيخ الشافعية تاج الدين الفزاري الذي كتب درسه، انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٣٢٠ ـ ٣٢١).

قال الحافظ ابن ناصر الدين: أخبرني الشيخ الصالح العالم أمين الدين أبو عبد الله محمد ابن المرحوم الشيخ جمال الدين الصائغ الأنصاري الشافعي، أدام الله بركته، عن شيخه العلامة القرشي أحد مشايخ الشام ـ توفي سنة اثنين وتسعين وسبعمائة ـ: أنه قال: بلغني ممن أثق به أن ابن الفركاح، قال عن الشيخ تقي الدين المشار إليه:

والله لقد حوى علوماً لم يحوها إمامه.

هذا كلام ابن الفركاح مع عداوته له[1]. اهـ.

* * *

(١) «الرد الوافر» (ص: ٢١٤).

الفصل الثاني

في بعض مآثر شيخ الإسلام ابن تيمية الحميدة

- ورعه.
- زهده.
- إيثاره.
- كرمه.
- لباسه.
- تواضعه.
- كراماته.
- فراسته.
- شجاعته.



[ورع شيخ الإسلام]

كان رضي الله عنه في الغاية التي ينتهى إليها في الورع، لأن الله تعالى أجراه مدة عمره كلها عليه، فإنه ما خالط الناس في بيع ولا شراء ولا معاملة، ولا تجارة ولا مشاركة ولا زراعة ولا عمارة ولا كان ناظراً مباشراً لمال وقف، ولم يكن يقبل جراية ولا حِلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر، ولا كان مدَّخِراً ديناراً ولا درهماً ولا متاعاً ولا طعاماً.

وإنما كانت بضاعتُه مدة حياته وميراثه بعد وفاته رضي الله عنه العلم اقتداءً بسيد المرسلين وخاتم النبيين محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين فإنه قال: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورَّثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظٍّ وافرٍ»[1].

وكان ينبه العاقل بحسن الملاطفة ودقيق المخاطبة ليختار لنفسه طريقتهم ويسلك سبيلهم وإن كان دونها من الطريق من اتخاذ المباحات جائزاً[2]، لكن العاقل يدله عقله على طلب الأعلى.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) وغيره، وهو في «صحيح الترغيب» (رقم ٦٧).

(٢) قال ابن القيم: قال لي يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ في شيء من المباح: هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة. أو نحو هذا من الكلام. اهـ «المدارج» (٢ / ٢٧).

[زهده في الدنيا ومتاعها]

ولقد اتفق كلُّ من رآه ـ خصوصاً من أطال ملازمته ـ؛ أنّه ما رأى مثله في الزهد في الدنيا، حتى لقد صار مشهوراً بحيث قد استقرّ في قلب القريب والبعيد من كل من سمع بصفاته على وجهها.

بل لو سُئِلَ عامي من أهل بلد بعيدة عن الشيخ: من كان أزهد أهل هذا العصر وأكملهم في رفض فضول الدنيا وأحرصهم على طلب الآخرة؟ لقال: ما سمعت بمثل ابن تيميّة. وما اشتهر له ذلك إلا لمبالغته فيه، مع تصحيح النيّة. ولم يسمع أنه رغب في زوجة حسناء ولا سرية حوراء ولا دار قوراء ولا مماليك جَوارٍ ولا بساتين ولا عقار ولا شد على دينار ولا درهم ولا رغب في دواب ونَعَم ولا ثياب ناعمة فاخرة ولا حشم، ولا زاحم في طلب الرئاسات ولا رُئي ساعياً في تحصيل المباحات مع أن الملوك والأمراء والتجار والكبراء كانوا طوع أمره خاضعين لقوله وفعله وادِّينَ أن يتقربوا إلى قلبه مهما أمكنهم مظهرين لإجلاله أو أن يؤهل كلاً منهم في بذل ماله. اهـ مختصراً[1].

[تأويل الحافظ البزار رؤياه لشيخ الإسلام وبيان زهده في مأكله]

قال الحافظ البزّار: ومن العجب أني كنت قد رأيته قبل لُقِيِّه بمدة فيما يرى النائم ونحن جلوسٌ نأكل الطعام على صفةٍ معيّنة، فحال لُقيتي له ودخولي عليه وجدته يأكل مثل ذلك الطعام على نحو من الصفة التي رأيت، فأجلسني وأكلنا جميعاً كما رأيت في المنام.

وأخبرني غير واحد أنّه ما رآه ولا سمع أنّه طلب طعاماً قط، ولا

---

(١) «الأعلام العلية» (ص: ٢٧ ـ ٢٨).

عشاءاً ولا غداءً ولو بقي مهما بقي لشدّة اشتغاله بما هو فيه من العلم والعمل، بل كان يُؤتى بالطعام وربّما يُترك عنده فيبقي زماناً حتى يلتفت إليه، وإذا أكل أكل شيئاً يسيراً.

قال: وما رأيْناه يذكر شيئاً من ملاذ الدنيا ونعيمها، ولا كان يخوض في شيءٍ من حديثها، ولا يسأل عن شيءٍ من معيشتها، بل جعل همّه وحديثه في طلب الآخرة وما يقرِّب إلى الله تعالى[1]. اهـ.

وكان الشيخ رحمه الله قليل تناول الطعام والشراب، وينشد كثيراً:

لها أحاديثُ من ذِكْراكَ تَشْغَلُها عن الشرابِ وتُلْهِيها عن الزَّادِ[2]

وكان إذا دُعي أكل ما يكسرُ نهمتَه قبل ذهابه، ولعله تبع في من مضى مِن السلف. وقد ذكر ابن عبد البرَّ عن علي رضي الله عنه أنه كان إذا دعي إلى طعام أكل شيئاً قبل أن يأتيه، ويقول: قبيحٌ بالرجل أن يظهر نهمته في طعام غيره، وهذا والله أعلم يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال[3]. اهـ.

قال العلامة الصفدي: حُكي لي عنه؛ أن والدته طبخت يوماً قرعية ولم تذقها أولاً، وكانت مُرّة، فلمّا ذاقتها تركتها على حالها، فطلع إليها وقال: هل عندك ما آكل؟

قالت: لا. إلا أنني طبختُ قرعاً كان مُراً.

فقال: أين هو؟ فأرته المكان الذي فيه تلك القرعية. فأحضرها وقعد

---

(١) «الأعلام العلية» (ص: ٣٣).
(٢) «الآداب الشرعية» لابن مفلح الحنبلي (٢ / ٤٩٨).
(٣) المرجع السابق (٣ / ٣٥١).

أَكَلَها إلى أن شبع وما أنكر شيئاً منها. أو كما قيل[1]. اهـ.

[ذكر إيثار شيخ الإسلام مع فقره]

قال الحافظ البزّار[2]: كان رضي الله عنه مع شدة تركه للدنيا ورفضه لها وفقره فيها وتقلله منها مؤثراً بما عساه يجده منها قليلاً كان أو كثيراً، جليلاً أو حقيراً، لا يحتقر القليل فيمنعه ذلك عن التصدق به ولا الكثير فيصرفه النظر إليه عن الإسعاف به، قد كان يتصدّق حتى إذا لم يجد شيئاً نزع بعض ثيابه المحتاج إليه فيصل به الفقير.

وكان يستفضل من قوته القليل الرغيف والرغيفين فيؤثر بذلك على نفسه، وربّما خبّأها في كمِّه ويمضي ونحن معه لسماع الحديث، فيراه بعضنا وقد دفعه إلى الفقير مستخفياً يحرص أن لا يراه أحد.

وكان إذا وردَ عليه فقير وآثر المقام عنده يؤثره عند الأكل بأكثر من قوته الذي جُعل برسمه.

[قلة أكله إيثاراً لضيوفه]

حدثني الشيخ الصالح العارف زين الدين علي الواسطي[3] ما معناه: أنّه أقام بحضرة الشيخ مدة طويلة، قال: فكان قوتنا في غالبه أنه كان في بكرة النهار يأتيني ومعه قرص قدره نصف رطل بالعراقي، فيكسره بيده لُقَماً فنأكل منه أنا وهو جميعاً، ثم يرفع يده قَبْلي ولا يرفع باقي القرص من بين يدي حتى أشبع، بحيث أني لا أحتاج إلى الطعام إلى الليل، وكنت أرى

---

(١) «الوافي بالوفيات» (٧ / ١٦ ـ ١٧).
(٢) «الأعلام العلية» (ص: ٢٩ ـ ٣٠)، وانظر «زاد المعاد» (١ / ٤٠٧).
(٣) (ت ٧٣٣) انظر «الدرر الكامنة» (٣ / ٣٧).

ذلك من بركة الشيخ.

ثم يبقى له ولي بعد العشاء الآخرة حتى يفرُغ من جميع عوائده التي يفيد الناس بها في كل يوم من أصناف القُرب، فيؤتى بعشائنا فيأكل معي هو لقيمات ثم يؤثرني بالباقي، وكنت أسأله أن يزيد على أكله فلا يفعل، حتى أني كنت في نفسي أتوجّع له من قِلة أكله، وكان هذا دأبنا في غالب مدة إقامتي عنده وما رأيت نفسي أغنى منها في تلك المدة، ولا رأيتني أجمع هماً مني فيها.

[كان شيخ الإسلام من الأجواد الكبار
وأصحاب البرّ والصّلات والعطيات الزائدة]

قال الحافظ ابن فضل الله العمري[١]: كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، فيهب ذلك بأجمعه ويضعه عند أهل الحاجة في موضعه، لا يأخذ منه شيئاً إلا ليهبه، ولا يحفظه إلا ليُذهبه.

وقال في موضع آخر: كان يجيئه من المال في كل سنة ما لا يكاد يُحصى، فينفقه جميعه آلافاً ومئين، لا يلتمس منه درهماً، ولا ينفقه في حاجته[٢]. اهـ.

وفي «الأعلام العلية»[٣]: وحكى غير واحد ما اشتهر عنه من كثرة الإيثار، وتفقد المحتاجين والغرباء ورقيقي الحال، من الفقهاء والقراء

---

(١) مضى التعريف به.
(٢) «الكواكب الدرية» (ص: ٨٦).
(٣) (ص: ٣٠).

واجتهاده في مصالحهم وصِلاتهم ومساعدته لهم، ولكل أحد من العامة والخاصة ممن يمكنه فعل الخير معه، وإسداء المعروف إليه بقوله وفعله ووجهه وجاهه. اهـ.

[كرم شيخ الإسلام]

قال في «مراقي الجنان بالسخاء وقضاء حوائج الإخوان»[1]: ومنهم[2] شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية: كان من الأجواد الكبار، وله العطايا الوافرة والصِّلاتُ الكثيرة، ولم يكن للدنيا عنده قدرٌ بالكلية، على أنه كان يجود بثيابه، وكان يعتمُّ بالثوب الخام، فلا يزال يفرِّق الخِرَقَ حتى لا يبقى منه شيء، وأمره في ذلك مشهور وحكاياته كثيرةٌ جداً، وكل ذلك مع فقره وضيق يده. اهـ.

وفي «الأعلام العلية»: كان رضي الله عنه مجبولاً على الكرم لا يتطبعه ولا يتصنعه بل هو له سجية، وقد ذكرتُ فيما تقدم أنه ما شدَّ على دينار ولا درهم قطٌّ بل كان مهما قدر على شيء من ذلك يجود به كلّه، وكان لا يردّ من يسأله شيئاً يقدر عليه؛ من دراهم ولا دنانير ولا ثياب ولا كتب ولا غير ذلك.

بل ربّما كان يسأله بعض الفقراء أشياء من النفقة، فإن كان حينئذ متعذراً لا يدعه يذهب بلا شيء، بل كان يعمد إلى شيء من لباسه فيدفعه إليه، وكان ذلك المشهور عند الناس من حاله.

حدثني الشيخ العالم الفاضل المقري أبو محمد عبد الله ابن الشيخ

---

(١) (ص: ٣٠٦)، للإمام يوسف بن حسن بن عبد الهادي المقدسي (ت ٩٠٩).

(٢) أي: من الأجواد الذين ذكرهم المؤلف من هذه الأمة.

الصالح المقري أحمد بن سعيد قال: كنت يوما جالسا بحضرة شيخ الإسلام ابن تيميّة رضي الله عنه، فجاء إنسان فسلّم عليه، فرآه الشيخ محتاجاً إلى ما يعتم به، فنزع الشيخ عمامته من غير أن يسأله الرجل ذلك، فقطعها نصفين، واعتمّ بنصفها ودفع النصف الآخر إلى ذلك الرجل، ولم يحتشم للحاضرين عنده.

قال الحافظ البزار: وربّما توهم بعض من يحتاج إلى التفهيم أنّ هذا الفعل من الشيخ فيه إضاعة المال، ونوع من التبذل الذي يشين المروءة، وليس الأمر كذلك، فإنّه لم يكن عنده حينئذ معلوم غير ثيابه، ورأى أن قطع غير العمامة من بقيّة لباسه يفسده، ولا يحصل به المقصود، ولم يكن عليه ولا عنده حينئذ ثوب صحيح لا يحتاج إليه حتى يدفعه إليه، فسارع إلى قطع ما يستغنى ببعضه عن كله فيما وضع له، ـ وهو العمامة ـ، فنفع أخاه المسلم وسدّ حاجته حينئذ ببعضها، واستغنى هو بباقيها، وهذا من أكمل التصرف الصالح، والرشد التام، والجود المذكور المشهور، والإيثار بالميسور.

وأمّا التبذل الذي فيه نوع إسقاط المروءة فليس من هذا القبيل في شيء، بل هذا من المبالغة في التواضع، وعدم رؤية النفس في محل الاحتشام، ورفض إرادة المرء تعظيم نفسه بحضرة الحاضرين، وهذه خصال محمودة شرعاً وعقلاً.

وقد روي مثل ذلك عن سيِّد الأنام وأكمل الخلق مروءة وعقلاً وعلماً؛ محمد المصطفى ـ ﷺ ـ: أنّه لبس يوماً شملة سوداء لها حواشٍ بيض وخرج إلى المسجد، وجماعة من المسلمين حضور، فرآه إنسان فقال: يا رسول الله، أعطني هذه الشملة! وكان ـ ﷺ ـ لا يمنع سائلاً

يسأله، فنزعها ـ ﷺ ـ عن كريمه المكرم ودفعها إلى ذلك الرجل، وطفق الناس يلومون ذلك الرجل على ما فعل، وكوْنه سأل النبي ـ ﷺ ـ وكان محتاجاً إلى لبسه، وقد علم أنه لا يمنع شيئاً يسأله، فقال الرجل معتذراً إليهم: إني لم أطلبها لألبسها، ولكن لأجعلها لي كفناً عند موتي. قال الراوي: فأمسكها عنده حتى كانت كفنه[1]، وهذا حديث مشهور قد رواه غير واحد من الحفاظ والنقلة، وهو من أوضح الدليل على ما قلناه، بل أبلغ في الجود والتواضع، وكسر النفس وكرم الأخلاق.

وحدثني من أثق به: أنّ الشيخ ـ رضي الله عنه ـ كان مارّاً يوماً في بعض الأزقة، فدعا له بعض الفقراء، وعرف الشيخ حاجته ولم يكن مع الشيخ ما يعطيه، فنزع ثوباً من على جلده ودفعه إليه وقال: بعه بما تيسّر وأنفقه. واعتذر إليه من كونه لم يحضر عنده شيء من النفقة.

وهذا أيضاً من المبالغة في عدم اكتراثه بغير ما يقرِّب إلى الله تعالى، وجوده بالميسور كائناً ما كان، وهذا من أبلغ إخلاص العمل لله سبحانه، فسبحان الموفق من شاء لمن شاء.

[كتبه ونفعه الناس بها]

وحدّثني من أثق به أيضاً: أنّ الشيخ ـ رضي الله عنه ـ كان لا يرد أحداً يسأله شيئاً كَتَبه، بل يأمره أن يأخذ هو بنفسه ما شاء منها.

وأخبرني أنه جاءه يوماً إنسان فسأله كتاباً ينتفع به، فأمره يأخذ هو بنفسه ما شاء منها.

---

(١) أخرجه البخاري في عدة مواضع منها: (١٢٧٧)، وغيره.

[شيخ الإسلام لا يرد سائلاً]

وأخبرني أنّه جاءَه يوماً إنسان فسأله كتاباً ينتفع به، فأمره يأخذ كتاباً يختاره، فرأى ذلك الرجل بين كتب الشيخ مصحفاً قد اشتراه بدراهم كثيرة فأخذه ومضى، فلام بعض الجماعة الشيخ في ذلك، فقال: يحسن بي أن أمنعه بعد ما سأله؟! دعه فلينتفع به.

[لا ينبغي أن يمنع العلم ممن يطلبه]

وكان الشيخ ـ رضي الله عنه ـ ينكر إنكاراً شديداً على مَن ينال شيئاً من كتب العلم التي يملكها ويمنعها من السائل، ويقول: ما ينبغي أن يُمنَع العلم ممّن يطلبه.

ومن كرمه أنه لا ينظر مع ذلك إلى جهة الملك والتموُّل، وهذا القدر من كرمه يغني المقتدي. اهـ كلام الحافظ البزار.

[تحري شيخ الإسلام الصدقة بين يدي الصلاة والدعاء]

قال ابن القيم: كان يتحرى التصدُّقَ بين يدي الصلاةِ والدعاء ما أمكنَه، لأنّه إذا استحبَّت[1] الصدقة بين يدي المناجاة للنبي[2] ـ ﷺ ـ فاستحبابها بين يدي مناجاة الله عند الصلوات والدعاء أولى[3]. اهـ.

---

(١) «نسخ وجوب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ لم يبطل حكمه بالكلية؛ بل نسخ وجوبه وبقي استحبابه والندب إليه، وما علم من تنبيهه وإشارته، وهو أنه إذا استحبت الصدقة بين يدي مناجاة المخلوق فاستحبابها بين يدي مناجاة الله عند الصلوات والدعاء أولى». قاله ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (٢ / ٣٣).

(٢) [سورة المجادلة: ١٢ ـ ١٣].

(٣) «زاد المعاد».

وقال[1]: ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية يفعله ويتحراه ما أمكنه، وفاوضته فيه فذكر لي هذا التنبيه والإشارة. اهـ.

[صفة هيئته ولباسه]

قال الحافظ البزار: كان رضي الله عنه متوسِّطاً في لباسه وهيئته، لا يلبس فاخر الثياب بحيث يرمق ويمدّ النظر إليه فيها، ولا أطماراً ولا غليظة تُشهِر حال لابسها ويُميَّز من عامّة الناس بصفة خاصة يراه الناس فيها من عالمٍ وعابد.

بل كان لباسه[2] وهيئته كغالب الناس ومتوسطيهم، ولم يكن يَلزم نوعاً واحداً من اللباس فلا يلبَس غيره، بل كان يلبس ما اتّفق وحصل ويأكل ما حضر.

وكانت بذاذة الإيمان عليه ظاهرة، لا يُرى متصنِّعاً في عمامة ولا لباسٍ ولا مشية ولا قيام ولا جلوس، ولا يتهيّأ لأحدٍ يلقاه ولا لمن يرِد عليه من بلَدٍ.

إلى أن قال: وهٰكذا كان في لباسه لم يُسمَع أنه أمر أن يتخذ له ثوب بعينه، بل كان أهله يأتونه بلباسه وقت علمهم باحتياجه إلى بدل ثيابه التي عليه، وربّما بقيت عليه مدة حتى تتسخ، ولا يأمر بغسلها حتى يكون أهله هم الذين يسألونه ذلك.

وأخبر أخوه الذي كان ينظر في مصالحه الدنيويّة: أنّ هذا حاله في طعامه وشرابه ولباسه، وما يحتاج إليه ممّا لا بدّ منه من أمور الدنيا.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢ / ٣٣).

(٢) انظر (ص: ٨).

قال الحافظ البزار: وما رأيتُ أحداً كان أشدّ تعظيماً للشيخ من أخيه هذا، يعني القائم بأوده[1]. اهـ.

[عجيب تواضع شيخ الإسلام مع الناس]

وقال: وأما تواضعه: فما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره مثله في ذلك، كان يتواضع للكبير والصغير، والجليل والحقير، والغني الصالح والفقير، وكان يدني الفقير الصالح ويكرمه، ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلى، زيادة على مثله من الأغنياء، حتى إنه ربما خدمه بنفسه، وأعانه بحمل حاجته جبراً لقلبه، وتقرُّباً بذلك إلى ربِّه.

[تواضع شيخ الإسلام مع المستفتين والسائلين]

وكان لا يسأم ممن يستفتيه أو يسأله[2]، بل يقبل عليه ببشاشة وجه، ولين عريكة، ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه كبيراً كان أو صغيراً، رجلاً أو امرأة، حراً أو عبداً، عالماً أو عامياً، حاضراً أو بادياً، ولا يجبهه ولا يحرجه، ولا ينفره بكلام يوحشه، بل يجيبه ويفهمه، ويعرفه الخطأ من الصواب بلطف وانبساط.

وكان يلزم التواضع في حضوره مع الناس ومغيبه عنهم، في قيامه وقعوده، ومشيه ومجلسه، ومجلس غيره. اهـ.

وفي «الدرر الكامنة»[3] قال الطوفي: سمعته يقول: من سألني

---

(١) «الأعلام العلية» (ص: ٣٢ ـ ٣٤) مختصراً.

(٢) وفي هذا رد على من يصورون شخصية شيخ الإسلام بأنها شخصية صعبة، عصبية المزاج وأنه شديد وفيه حدة إلى غير ذلك من هذيانهم الذي جعله بعضهم من المسلمات، ولو خبروه لعرفوا أنه ضد ذلك كله.

(٣) نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوي الطوفي (ت ٧١٦هـ) وقد تقدمت ترجمته.

مستفيداً حققت له، ومن سألني متعنتاً ناقضته فلا يلبث أن ينقطع فأكفى مؤنته[1]. اهـ.

[وصف الحافظ البزار تواضع شيخ الإسلام معه]

قال الحافظ البزار[2]: ولقد بالغ معي حال إقامتي بحضرته في التواضع والإكرام، حتى إنّه لا يذكرني باسمي بل يُلَقِّبُنِي بأحسن الألقاب، ويُظهر لي خصوصاً بين أصحابي من الإكرام والتبجيل والإدناء منه، بحيث لا يتركني أجلس إلاّ إلى جنبه، قصيراً كان مجلسه أو طويلاً، خاصّاً أو عامّاً، ولازمني في حال قراءتي «صحيح البخاري». وكان قصدي قراءته على رواية منفرداً، لاستصْغاري نفسي عن القراءة هناك بمحضر من الناس، ولقصدي تعجيل فراغي منه انتهازاً للفرصة، وخوفاً على فوات ذلك الشيخ الراوي، لكونه تفرد بروايته سماعاً على أصحاب أبي الوقت السجزي، فلمّا سمع الشيخ بذلك ألزمني قراءته بمجمع كثير من الناس، رجالاً ونساءاً وصبياناً، وقال: ما ينبغي إلا على صفة يكون نفعها متعدياً إلى المسلمين، فجرأني بحيث حصل لي مرادي وفوقه من تحصيل قراءتي له في عشرين مجلساً متوالية لم يتخللها سوى الجمعة.

ولازمني فيها وحضر القراءة كلها، يضبطها بنسخة كانت بيده هي أصل ابن ناصر الحافظ، يعارض بها نسخة القراءة، وكانت أصل الشيخ المسمع.

وأظهر لي من حسن الأخلاق والمبالغة في التواضع بحيث أنّه كان إذا

---

(١) (١ / ١٥٣).

(٢) «الأعلام العلية» (ص: ٣١ ـ ٣٢).

خرجنا من منزله لقصد القراءة يحمل هو بنفسه النسخة ولا يدع أحداً منّا يحملها عنه، وكنت أعتذر إليه من ذلك خوفاً من سوء الأدب، فيقول: لو حملته على رأسي لكان ينبغي، ألا أحمل ما فيه كلام رسول الله ﷺ؟!

[تركه صدور المجالس وتواضعه البالغ مع الآخرين]

قال: وكان يجلس تحت الكرسي ويدع صدر المجالس، حتى إني لأستحي من مجلسه هناك، وأعجب من شدة تواضعه ومبالغته في إكرامي بما لا أستحق، ورفعي عليه في المجلس، ولولا قراءتي أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ وعِظَم حرمتها لما كان ينبغي لي ذلك، وكان هذا حاله في التواضع والتنازل والإكرام لكل من يرد عليه أو يصطحبه أو يلقاه، حتى إنّ كل من لقيه يحكي عنه من المبالغة في التواضع نحواً ممّا حكيته وأكثر من ذلك، فسبحان من وفقه وأعطاه، وأجراه على خلال الخير وحباه.

[في ذكر بعض كرامات[1] شيخ الإسلام وفراسته]

قال الحافظ البزار: أخبرني غير واحد من الثقات ببعض ما شاهده من كراماته، وأنا أذكر بعضها على سبيل الاختصار، وأبدأ من ذلك ببعض ما شاهدته.

---

(١) «الكرامة» هي: أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة ولا هو مقدمة. يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعته مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح، علم بها ذلك العبد الصالح أو لم يعلم. «لوامع الأنوار» (للسفاريني ٢ / ٣٩٢)، وانظر كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام فإنه قيم نفيس، وفيه يقول: «وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة». اهـ. «مجموع الفتاوى» (١١ / ٢٩٨) وسيأتي تعريف الفراسة، عند ذكر وقائع فراسته.

[شيخ الإسلام يفصل منازعة بعض الفضلاء بعدة مسائل]

فمنها: أنني جرى بيني وبين بعض الفضلاء منازعة في عدة مسائل، وطال كلامنا فيها، وجعلنا نقطع الكلام في كل مسألة بأنا نرجع إلى الشيخ وما يرجحه من القول فيها.

ثم إن الشيخ رضي الله عنه حضر، فلما هممنا بسؤاله عن ذلك سبقنا هو وشرع يذكر لنا مسألة مسألة كما كنا فيه، وجعل يذكر غالب ما أوردناه في كل مسألة، ويذكر أقوال العلماء ثم يرجح منها ما يرجحه الدليل، حتى أتى على آخر ما أردنا أن نسأله عنه، وبين لنا ما قصدنا أن نستعمله منه.

فبقيت أنا وصاحبي ومن حضرنا أولاً مبهوتين متعجبين مما كاشفنا به وأظهره الله عليه مما كان في خواطرنا.

وكنت في خلال الأيام التي صحبته فيها إذا بحث مسألة يخطرُ لي إيراد فما يستتم خاطري به حتى يشرع فيورده ويذكر الجواب عنه من عدة وجوه.

[شيخ الإسلام يكرم المقرىء الحريمي]

وحدثني الشيخ الصالح المقرىء أحمد الحريمي؛ أنه سافر إلى دمشق، قال: فاتفق أني لما قدمتها لم يكن معي شيء من النفقة البتة، وأنا لا أعرف أحداً من أهلها، فجعلت أمشي في زقاق منها كالحائر، فإذا بشيخٍ قد أقبل نحوي مسرعاً فسلَّم وهشَّ في وجهي ووضع في يدي صرة فيها دراهم صالحة.

وقال لي: أنفق هذه الآن وأَخل خاطرك مما أنت فيه، فإن الله لا يضيعك. ثم ردَّ على أثره كأنه ما جاء إلا من أجلي فدعوت له وفرحت بذلك.

وقلت لبعض من رأيته من الناس: من هذا الشيخ؟

فقال: وكأنك لا تعرفه! هذا ابن تيمية، لي مدة طويلة لم أره اجتاز بهذا الدرب.

وكان جلُّ قصدي من سفري إلى دمشق لقاءه. فتحققت أن الله أظهره علي وعلى حالي، فما احتجت بعدها لأحد مدة إقامتي بدمشق، بل فتح الله علي من حيث لم أحتسب، واستدللت فيما بعد عليه، وقصدت زيارته والسلام عليه، فكان يكرمني ويسأل عن حالي، فأحمد الله تعالى إليه.

[شيخ الإسلام يرسل أصحابه لإغاثة العالم المقرى تقي الدين]

وحدثني الشيخ العالم المقرئ تقي الدين عبد الله بن الشيخ الصالح المقرئ أحمد بن سعيد، قال: سافرت إلى مصر حين كان الشيخ مقيماً بها، فاتفق أني قدمتها ليلاً وأنا مثقلٌ مريض، فنزلت في بعض الأمكنة فلم ألبث أن سمعت من ينادي باسمي وكنيتي، فأجبته وأنا ضعيف، فدخل إلي جماعة من أصحاب الشيخ ممن كنت قد اجتمعت ببعضهم في دمشق، فقلت: كيف عرفتم بقدومي وأنا قدمت هذه الساعة؟

فذكروا أن الشيخ أخبرنا بأنك قدمت وأنت مريض، وأمرنا أن نسرع بنقلك، وما رأينا أحداً جاءه ولا أخبر بشيء، فعلمت أن ذلك من كرامات الشيخ رضي الله عنه.

[يرقيه شيخ الإسلام وتجيء العافية]

وحدثني أيضاً قال: مرضت بدمشق إذ كنت بها مرضةً شديدة منعتني من الجلوس، فلم أشعر إلا والشيخ عند رأسي وأنا مثقل بالحمى والمرض، فدعا لي، وقال: جاءت العافية.

فما هو إلا أن فارقني وجاءت العافية وشفيت من وقتي.

[لحوم العلماء مسمومة]

وحدثني أيضاً قال: كنت قد استكتبت شعراً لبعض من انحرف عن الحق في الشيخ قد ينقصه فيه، وكان سبب قوله ذلك الشعر أنه نسب إلى قائله شعر وكلام يدل على الرفض، فأخذ الرجل وأُثبت ذلك عليه في وجهه عند حاكم من حكام الشرع المطهر، فأمر به فشُهّر حاله بين الناس، فتوهم أن الذي كان سبباً في ذلك الشيخ، فحمله ذلك على أن قال فيه ذلك الشعر، وبقي عندي.

وكنت ربما أورد بعضه في بعض الأحيان، فوقعت في عدة أشياء من المكروه والخوف متواترة، ولولا لطف الله تعالى بي فيها لأتت على نفسي، فنظرت: من أين دُهِيت؟ فلم أرَ من ذلك سبباً إلا إيرادي لبعض ذلك الشعر.

فعاهدت الله أن لا أتفوه بشيء منه، فزال عني أكثر ما كنت فيه من المكاره وبقي بعضه وكان ذلك الشعر، فحرقته وغسلته، حتى لم يبق له أثر، واستغفرت الله تعالى من ذلك، فأذهب الله عني جميع ما كنت فيه من المكروه والخوف، وأبدلني الله به عكسه، ولم أزل بعد ذلك في خير وعافية.

ورأيت ذلك حالاً من أحوال الشيخ ومن كرامته على الله .

[تفقده ابن عماد الدين المقري بدراهم يرتفق بها]

وحدثني أيضاً قال: أخبرني الشيخ ابن عماد الدين المقري المطرز قال: قدمت على الشيخ ومعي حينئذ نفقة، فسلمت عليه، فرد علي ورحب بي وأدناني، ولم يسألني هل معك نفقة أم لا، فلما كان بعد أيام وقد نفدت نفقتي أردت أن أخرج من مجلسه بعد أن صليت مع الناس وراءه فمنعني واستجلسني دونه .

فلما خلا المجلس دفع إلي جملة دراهم وقال: أنت الآن بغير نفقة فارتفق بهذا. فعجبت من ذلك، وعلمت أن الله كشفه على حالي؛ أولاً لما كان معي نفقة، وآخراً لما نفدت واحتجت إلى نفقة .

[عظيم تفاؤله في هزيمة المغل والشام ترجف بأهلها خوفا منهم]

وحدثني من لا أتهمه: أن الشيخ رضي الله عنه حين نزل المغل بالشام لأخذ دمشق وغيرها رجف أهلها وخافوا خوفاً شديداً، وجاء إليه جماعة منهم وسألوه الدعاء للمسلمين، فتوجه إلى الله وقال: أبشروا فإن الله يأتيكم بالنصر في اليوم الفلاني بعد ثالثة، حتى تروا الرؤوس معبأة بعضها فوق بعض .

قال الذي حدثني: فوالذي نفسي بيده ـ أو كما حلف ـ ما مضى إلا ثلاث مذ قوله حتى رأينا رؤوسهم كما قال الشيخ؛ على ظاهر دمشق معبأة بعضها فوق بعض .

[رقياه لشاب مريض فيشفى سريعاً وتتوبيه على يده ويرجعه لأهله بنفقة]

وحدثني الشيخ الصالح الورع عثمان بن أحمد بن عيسى النساج، أن الشيخ رضي الله عنه كان يعود المرضى بالمارستان[1] بدمشق في كل يوم. فجاء يوماً على عادته فعادهم، فوصل إلى شاب منهم فدعا له، فشفي سريعاً.

وجاء إلى الشيخ يقصد السلام عليه، فلما رآه هش له وأدناه، ثم دفع إليه نفقة وقال: قد شفاك الله، عاهِد الله أن تعجل الرجوع إلى بلدك، أيجوز أن تترك زوجتك وبنات لك أربعاً ضيعة وتقيم ها هنا؟

فقبل يديه وقال: يا سيدي أنا تائب إلى الله على يديك.

قال الشاب: وعجبت مما كاشفني به، وكنت قد تركتهم بلا نفقة، ولم يكن قد عرف بحالي أحد من أهل دمشق.

[﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[2].[3]]

وحدثني من أثق به: أن الشيخ رضي الله عنه أخبر عن بعض القضاة[4]؛ أنه مضى متوجهاً إلى مصر المحروسة ليقلد القضاء، وأنه سمعه يقول: حال ما أصل إلى البلد قاضياً أحكم بقتل فلان؛ رجل معين من

---

(١) أي: المستشفى.

(٢) سورة الأنفال: (٣٠).

(٣) «الأعلام العلية» (ص: ٣٤ـ٣٩).

(٤) هو الشيخ كمال الدين محمد بن علي الزملكاني (ت ٧٢٧هـ) من أشد المتعصبين على شيخ الإسلام، وسيأتي بيان ذلك.

فضلاء أهل العلم والدين، وقد أجمع الناس على علمه وزهده وورعه[1]، ولكن حصل في قلب القاضي منه من الشحناء والعداوة ما صوَّب له الحكم بقتله.

فعظم ذلك على من سمعه خوفاً من وقوع ما عزم عليه من القتل بمثل هذا الرجل الصالح، وحذراً على القاضي أن يُوقِعه الهوى والشيطان في ذلك، فيلقى الله متلبساً بدم حرام، وفتك بمسلم معصوم الدم بيقين، وكرهوا وقوع مثل ذلك لما فيه من عظيم المفاسد.

فأُبلِغَ رضي الله عنه هذا الخبر بصفته فقال: إنَّ الله لا يمكنه مما قصد، ولا يصل إلى مصر حياً، فبقي بين القاضي وبين مصر قدر يسير وأدركه الموت، فمات قبل وصولها، كما أجرى الله تعالى على لسان الشيخ رضي الله عنه.

قال الحافظ البزار: وكرامات الشيخ رحمه الله كثيرة جداً، لا يليق بهذا المختصر أكثر من ذكر هذا القدر منها.

[من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب[2]]

ومن أظهر كراماته أنه ما سمع بأحد عاداه أو غض منه إلا وابتلي بعدة بلايا غالبها بدينه، وهذا ظاهر مشهور لا يحتاج فيه إلى شرح صفته[3]. اهـ.

---

(١) يعني شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) هذا من قول النبي ﷺ أخرجه البخارى (١١ / ٣٤٠ ـ فتح) وغيره.

(٣) «الأعلام العلية» (ص: ٣٤ ـ ٣٩) تحقيق الشيخ إسماعيل الأنصاري.

[تبجيل زين الدين ابن تيمية أخاه شيخ الإسلام لعظيم دينه وعلمه وجهاده]

وقال الحافظ البزار[1] في شقيق شيخ الإسلام[2]: وكان يجلس بحضرته كأنّ على رأسه الطير، وكان يهابه كما يهاب سلطاناً وكنا نعجب منه في ذلك ونقول: من العرفِ والعادة أنّ أهل الرجل لا يحتشمونه كالأجانب. بل يكون انبساطهم معه فضلاً عن الأجنبي، ونحن نراك مع الشيخ كتلميذٍ مبالغٍ في احتشامه واحترامه.

فيقول: إني أرى منه أشياء لا يراها غيري[3] أوجبت عليّ أن أكون معه كما ترونْ.

وكان يُسأل عن ذلك فلا يذكر منه شيئاً لما يعلم من عدم إيثار الشيخ لذلك.

[ذكر وقائع فراسة[4] شيخ الإسلام تستدعي سفرا ضخما]

قال ابن القيم: لقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أموراً عجيبة، وما لم أشاهده منه أعظم وأعظم، ووقائع فراسته تستدعي سفراً ضخماً.

أخبر أصحابه بدخول التتار الشام سنة تسع وتسعين وستمائة، وأن

---

(١) عمّن أخبره وحدثه بهذا وهم غير واحد، «الأعلام» (ص: ٣٤).

(٢) هو الإمام زين الدين عبد الرحمن بن عبد الحليم ابن تيمية شيخ الإسلام (ت ٧٤٧هـ).

(٣) لكثرة عبادته الليلية والنهارية ومما يراه من كرامات تحدث أمامه للشيخ رحمه الله.

(٤) الفراسة نوعان: أحدهما: ما يوقعه الله تعالى في قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحَدْس. والثاني: نوع يُتعلم بالدلائل والتجارب والخلق والأخلاق فتُعرف به أحوال الناس. «النهاية».

جيوش المسلمين تُكْسَر، وأن دمشق لا يكون بها قتل عامٌّ، ولا سبيٌ عامٌّ، وأن كَلَب الجيش وحدته في الأموال، وهذا قبل أن يهمّ التتار بحركة.

ثم أخبر الناس والأمراء سنة اثنتين وسبعمائة، لما تحرك التتار وقصدوا الشام؛ أن الدائرة والهزيمة عليهم وأن الظفر والنصر للمسلمين.

وأقسم على ذلك أكثر من سبعين يميناً.

فيقال له: قل إن شاء الله!

فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً.

وسمعته يقول ذلك، قال: فلما أكثروا عليَّ، قلت: لا تكثروا، كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ: أنهم مهزومون في هذه الكرة، وأن النصر لجيوش الإسلام.

قال: وأطعمت بعض الأمراء والعسكر حلاوة النصر قبل خروجهم إلى لقاء العدو.

قال ابن القيم: وكانت فراسته الجزئية في خلال هاتين الواقعتين مثل المطر.

[سعيهم لسجنه أو نفيه أو قتله[1] وعظيم رجاء شيخ الإسلام ربّه أنه ناصره على أعدائه وقد كان]

ولما طلب إلى الديار المصرية وأريد قتله ـ بعدما أنضجت له القدور وقلبت له الأمور ـ اجتمع أصحابه لوداعه، وقالوا: قد تواترت الكتب بأن القوم عاملون على قتلك! فقال: والله لا يصلون إلى ذلك أبداً.

---

(١) سيأتي ذكر هذه المحاولة مفصلاً.

قالوا: أفتحبس؟

قال: نعم، ويطول حبسي، ثم أخرج وأتكلم بالسنة على رؤوس الناس.

قال ابن القيم: سمعته يقول ذلك.

[عدو شيخ الإسلام يصبح السلطان وابن تيمية يقول: هذه بداية ذله ومفارقة عزه ويسجد شكراً لربه]

ولما تولى عدوه ـ الملقب بالجاشنكير[1] ـ المُلْكَ أخبروه بذلك، وقالوا: الآن بلغ مراده منك.

فسجد لله شكراً وأطال.

فقيل له: ما سبب هذه السجدة؟

فقال: هذا بداية ذله ومفارقة عزه من الآن وقرب زوال أمره.

فقيل: متى هذا؟

فقال: لا تربط خيول الجند على القرط حتى تُقلب دولته، فوقع الأمر مثلما أخبر به.

قال ابن القيم: سمعت ذلك منه.

[توسمه في وجوه أصحابه]

وقال مرة[2]: يدخل عليَّ أصحابي وغيرهم فأرى في وجوههم وأعينهم أموراً لا أذكرها لهم.

---

(١) يأتي التعريف به.

(٢) أي: لابن القيم.

فقلت له أو غيري: لو أخبرتهم؟

فقال: أتريدون أن أكون مُعرّفاً كمعرِّف الولاة.

وقلت له يوماً: لو عاملتنا بذلك لكان أدعى إلى الاستقامة والصلاح.

فقال: لا تصبرون معي على ذلك جمعة؛ أو قال: شهراً.

[تأكيد ابن القيم كثرة وقائع فراسته]

وأخبرني غير مرة بأمور باطنة تختص بي مما عزمت عليه ولم ينطق به لساني.

وأخبرني ببعض حوادث كبار تجري في المستقبل ولم يعين أوقاتها، وقد رأيت بعضها وأنا أنتظر بقيتها.

وما شاهد كبار أصحابه من ذلك أضعاف أضعاف ما شاهدته، والله أعلم[1].

[في ذكر قوة قلبه وشجاعته]

قال الحافظ البزار: كان رضي الله عنه من أشجع الناس وأقواهم قلباً ما رأيت أحداً أثبت جأشاً منه، ولا أعظم عناءً في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لومة لائم.

[شيخ الإسلام يحرض على الثبات في المعركة ويعدهم النصر]

وأخبر غير واحد: أنّ الشيخ ـ رضي الله عنه ـ كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتهم وقطب ثباتهم إن رأى من بعضهم هلعاً أو رقة أو جبانة شجعه وثبته وبشره ووعده بالنصر والظفر

---

(١) «مدارج السالكين» (٢ / ٥١٠ ـ ٥١١).

والغنيمة، وبين له فضل الجهاد والمجاهدين، وأنزل الله عليهم السكينة.

[تكبير شيخ الإسلام في المعركة ينكأ العدو]

وكان إذا ركب الخيل يتحنّك، ويجول في العدو كأعظم الشجعان، ويقوم كأثبت الفرسان، ويكبر تكبيراً أنكى في العدو من كثير من الفتك بهم، ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت.

[مشاركته وهو شاب في فتح عكا]

وحدّثوا أنهم رأوا منه في فتح عكة أموراً من الشجاعة يعجز الواصف عن وصفها؛ قالوا: لقد كان السبب في تملك المسلمين إيّاها بفعله ومشورته وحسن نظره.

[لقاء شيخ الإسلام السلطان غازان وحقنه دماء المسلمين]

ولمّا ظهر السلطان غازان على دمشق المحروسة، جاءَه ملك الكُرْج وبذل له أموالاً جزيلة على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق، ووصل الخبر إلى الشيخ فقام من فوره وشجّع المسلمين ورغبهم في الشهادة، ووعدهم على قيامهم النصر والظفر والأمن وزوال الخوف، فانتُدِبَ منهم رجال من وجوههم وكبرائهم وذوي أحلامهم، فخرجوا معه إلى حضرة السلطان غازان، فلمّا رآهم السلطان قال: من هؤلاء؟! فقيل: هم رؤساء دمشق، فأذن لهم، فحضروا بين يديه، فتقدم الشيخ ـ رضي الله عنه ـ أولاً، فلمّا رآه أوقع الله له في قلبه هيبةً عظيمة ـ رضي الله عنه ـ حتى أدناه وأجلسه، وأخذ الشيخ في الكلام معه أولاً في عكس رأيه عن تسليط المخذول ملك الكُرْج على المسلمين وضمن له أموالاً، وأخبره بحرمة دماء المسلمين، وذكّره ووعظه، فأجابه إلى ذلك طائعاً، وحُقِنَتْ بسببه دماء المسلمين، وحُمِيَتْ ذراريهم، وصين حريمهم.

[شيخ الإسلام يخلص غالب أسارى المسلمين وقازان يعجب بشخصية ابن تيمية ويعرض عليه إعمار حران وتنصيبه أميراً هناك]

وحدثني من أثق به عن الشيخ كمال الدين ابن المنجا[1] ـ قدّس الله روحه ـ قال: كنت حاضراً مع الشيخ حينئذ، فجعل (يعني الشيخ) يحدث السلطان[2] بقول الله ورسوله في العدل ويرفع صوته على السلطان، حتى جثا على ركبتيه وجعل يقرب منه في أثناء حديثه، حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكلّيته، مُصغٍ لما يقول، شاخص إليه، لا يعرِض عنه، وإن السلطان من شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة سأل من يخصه من أهل حضرته: من هذا الشيخ؟ وقال ما معناه: إني لم أرَ مثله، ولا أثبت قلباً منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقياداً مني لأحد منه، فأُخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل.

وسأله: إن أحببت أن أُعمِّر لك بلد آبائك حرّان وتنتقل إليه ويكون برسمك[3]؟ فقال: لا والله لا أرغب عن مهاجَر إبراهيم وأستبدل به غيره، فخرج من بين يديه مكرماً معززاً، قد صنع الله له بما طوى عليه نيّته الصالحة من بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين، فبلغه ما أراده، وكان ذلك أيضاً سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردهم على أهلهم، وحفظ حريمهم، وهذا من أعظم الشجاعة والثبات وقوة الجأش.

---

(١) هو الشيخ محمد بن عثمان بن المنجا التنوخي الدمشقي (٦٣٠ ـ ٧٠١). انظر حاشية الأستاذ الشاويش على «الأعلام العلية» ط٢ (ص: ٧٢).

(٢) السلطان غازان.

(٣) أي: أن تكون أميراً عليها.

[شيخ الإسلام يرد وشاية قلب الحكم ويقول للملك الناصر:

والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلسين]

وأخبرني مَن لا أتهم: أنّ الشيخ ـ رضي الله عنه ـ حين وُشيَ به إلى السلطان المعظم الملك الناصر لدين الله، وأحضره بين يديه؛ قال من جملة كلامه: إنني أخبرتُ أنّك قد أطاعك الناس، وأنّ في نفسك أخذ الملك! فلم يكترث به، بل قال له بنفسٍ مطمئنّة وقلبٍ ثابت وصوتٍ عالٍ سمعه كثير ممّن حضر: أنا أفعل ذلك؟! والله إنّ ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلسين. فتبسم السلطان لذلك وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة والعظمة: إنك والله لصادق، وإن الذي وشا بك إليّ كاذب.

[ذكره سبب الخوف من البشر]

وكان يقول: لن يخاف الرجلُ غير الله إلا لمرض في قلبه، فإن رجلاً شكى إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال: لو صححت لم تخف أحداً. أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك[1]. اهـ.

[شجاعة شيخ الإسلام العلمية]

قال الحافظ البزار: وتراه في جميع مؤلفاته إذا صحّ الحديث عنده يأخذ به، ويعمل بمقتضاه، ويقدِّمه على قوْلِ كل قائل، من عالمٍ ومجتهد، وإذا نظر المنصف إليه بعين العدل يراه واقفاً مع الكتابِ والسنّة لا يُميله عنهما قول أحد، كائناً من كان، ولا يراقب في الأخذ بعلومهما أحداً، ولا

---

(١) «الأعلام العلية» (ص: ٤٣ ـ ٤٥) تحقيق الشيخ إسماعيل الأنصاري.

يخاف في ذلك أميراً ولا سلطاناً، ولا سوطاً ولا سيفاً، ولا يرجع عنهما لقول أحد، وهو متمسِّك بالعروة الوثقى، واليد العليا وعاملٌ بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[1].

وبقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾[2].

وما سمعنا أنه اشتهر عن أحد منذ دهرٍ طويل ما اشتهر عنه، من كثرة متابعته للكتاب والسنّة، والإمعان في تتبع معانيهما والعمل بمقتضاهما.

ولهذا لا يرى في مسألة أقوال العلماء إلا وقد أفتى بأبلغها موافقةً للكتاب والسنة، وتحرِّي الأخذ بأقومها من جهة المعقول والمنقول.

[شيخ الإسلام حجة في عصره لأهله]

ولمّا منّ الله عليه بذلك، جعله حجةً في عصره لأهله، حتى إن أهل البلد البعيدة عنه كانوا يرسلون إليه بالاستفتاء عن وقائعهم، ويعوِّلون عليه في كشف ما التبس عليهم حكمه، فيشفي غليلهم بأجوبته المسددة، ويبرهن على الحق من أقوال العلماء المتعددة[3]. اهـ.

* * *

(١) سورة النساء: (٥٩).

(٢) سورة الشورى: (١٠).

(٣) «الاعلام العلية» (ص: ٤٩).



الفصل الثالث

وقعة قازان سنة ٦٩٩هـ
أحداث ما بعد قازان سنة ٧٠٠هـ
أوائل شقحب سنة ٧٠٢هـ
معركة شقحب سنة ٧٠٢هـ



[غزو التتار بلاد الشام]

قال الحافظ ابن كثير: وفيها كانت وقعة قازان[1] وذلك أن هذه السنة استهلت والخليفة[2]، والسلطان[3]، هما المذكوران في التي قبلها[4]،

---

(١) غزا التتار بلاد الشام ثلاث مرات: الأولى: في سنة ٦٥٨ بقيادة هولاكو وكان وثنياً واحتل حران، وبسببها هاجر بعدها أكثر أهلها ـ على دفعات ـ ومنهم آل تيمية إلى دمشق سنة ٦٦٦.
والثانية: ٦٩٩ ـ ٧٠٢ بقيادة غازان وهو مسلم.
والثالثة: ٨٠٣ بقيادة تيمورلنك وكان ينتمي إلى الإسلام.
وقد خفف الله في الثانية عن دمشق الكثير من البلاء، لمواقف شيخ الإسلام ابن تيمية، وشجاعة حافظ القلعة الأمير علم الدين المنصوري المعروف باسم «أرجواش» الذي كان محباً لابن تيمية، وكانت بينهما مراسلات سرية أثناء الحصار. اهـ. (حاشية الرد الوافر بقلم الأستاذ زهير الشاويش ص: ٧٢).

(٢) أمير المؤمنين الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن المسترشد بالله الهاشمي العباسي البغدادي المصري بويع بالخلافة بالدولة الظاهرية في أول سنة إحدى وستين وستمائة، فاستكمل أربعين سنة في الخلافة، وتوفي ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة، وكان قد عهد بالخلافة إلى ولده أبي الربيع سليمان. اهـ. «البداية والنهاية» (١٤ / ٢١)، وانظر «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٤٧).

(٣) السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين مملوك السلطان الملك المنصور قلاوون. «أعيان العصر» (٣/ ١٤٨٠)، وانظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٣) و«العبر» (٣/ ٣٩٣).

(٤) سنة ٦٩٨.

ونائب مصر سلار[1]، ونائب الشام آقوش الأفرم[2]، وسائر الحكام هم المذكورون في التي قبلها[3]، وقد تواترت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام وقد خاف الناس من ذلك خوفاً شديداً، وجفل الناس من بلاد حلب وحماة، وبلغ كري[4] الخيل من حماة إلى دمشق نحو المائتي درهم.

فلما كان يوم الثلاثاء، ثاني المحرم، ضربت البشائر بسبب خروج السلطان من مصر قاصداً الشام، فلما كان يوم الجمعة، ثامن ربيع الأول، دخل السلطان إلى دمشق، في مطر شديد، ووحل كثير، ومع هذا خرج الناس لتلقيه، وكان قد أقام بغزة[5] قريباً من شهرين، وذلك لما بلغه قدوم التتار إلى الشام، فتهيأ لذلك وجاء فدخل دمشق فنزل بالطارمة، وزينت له البلد، وكثرت له الأدعية، وكان وقتاً شديداً، وحالاً صعباً، وامتلأ البلد من الجافلين النازحين عن بلادهم.

وجلس الأعسر[6] وزير الدولة، وطالب العمال واقترضوا أموال الأيتام وأموال الأسرى؛ لأجل تقوية الجيش.

وخرج السلطان بالجيش من دمشق يوم الأحد سابع عشر ربيع الأول

---

(١) سلار: الأمير سيف الدين، التتري، المنصوري الصالحي. «أعيان العصر» (٢ / ٧٧٦) وانظر «الدرر الكامنة» (٢ / ١٧٩).

(٢) آقُوش الأمير جمال الدين الأفرم نائب دمشق، توفي بعد (٧٢٠). «أعيان العصر» (١ / ٣٤٠ _ ٣٤٧).

(٣) سنة ثمان وتسعين وستمائة، وانظرهم في «البداية والنهاية» (١٤ / ٣) و(١٣ / ٣٥٨).

(٤) كري الخيل: أجرتها للانتقال والسفر.

(٥) غزة: مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان. اهـ. «معجم البلدان» (٦ / ٣٨٨).

(٦) الأمير الكبير الوزير شمس الدين سُنْقُر المنصوري الأعسر. «العبر» (٤ / ٢١).

ولم يتخلف أحد من الجيوش.

وخرج معهم خلق كثير من المتطوعة، وأخذ الناس في الدعاء والقنوت في الصلوات بالجامع وغيره، وتضرعوا واستغاثوا وابتهلوا إلى الله بالأدعية.

[وقعة قازان]

لما وصل السلطان إلى وادي الخزندار عند وادي سَلَمْيَة[1]، فالتقى التتر هناك يوم الأربعاء السابع والعشرين من ربيع الأول[2] فالتقوا معهم،

---

(١) سَلَمْيَة: بليدة بناحية البرية من أعمال حماة.

(٢) كان الملتقى في وادي الخازندار في الساعة الخامسة من نهار الأربعاء المذكور وتصادما وقد كلّت خيول السلطان وعساكره من السَّوق، والتحم القتال بين الفريقين، وحملت ميسرة المسلمين عليهم فكسرتهم أقبح كسرة، وقتلوا منهم جماعة كثيرة نحو خمسة آلاف أو أكثر، ولم يقتل من المسلمين إلا اليسير.
ثم حملت القلب أيضاً حملة هائلة وصدمت العدو أعظم صدمة، وثبت كل من الفريقين ثباتاً عظيماً، ثم حصل تخاذل في عسكر الإسلام بعضهم في بعض بلاء من اللّه تعالى، فانهزمت ميمنة السلطان بعد أن كان لاح لهم النصر! فلا قوة إلا باللّه.
ولما انهزمت الميمنة انهزم أيضاً من كان وراء السناجق السلطانية من غير قتال، وألقى اللّه تعالى الهزيمة عليهم فانهزم جميع عساكر الإسلام بعد النصر، وساق السلطان في طائفة يسيرة من أمرائه ومدبري مملكته إلى نحو بعلبك وتركوا جميع الأثقال ملقاة، فبقيت العدد والسلاح والغنائم والأثقال ملأت تلك الأراضي حتى بقيت الرماح في الطرق كأنها القصب لا ينظر إليها أحد، ورمى الجند خوذهم عن رؤوسهم وجواشنهم وسلاحهم تخفيفاً عن الخيل لتنجيهم بأنفسهم وقصدوا الجميع دمشق. وكان أكثر من وصل إلى دمشق من المنهزمين من طريق بعلبك، ولما بلغ أهل دمشق وغيرها كسرة السلطان، عظم الضجيج والبكاء وخرجت المخدرات حاسرات لا يعرفن أين يذهبن والأطفال بأيديهن، وصار كل واحد في شغل عن صاحبه، إلى أن ورد عليهم الخبر أن ملك التتار قازان مسلم وأن غالب جيشه على ملة الإسلام، وأنهم لم يتبعوا المنهزمين، =

فكسر المسلمين وولى السلطان هارباً فإنا لله وإنا إليه راجعون، وقتل جماعة من الأمراء[1]، وغيرهم من العوام خلق كثير، وفقد في المعركة قاضي قضاة الحنفية[2]، وقد صبروا وأبلوا بلاء حسناً، ولكن كان أمر الله قدراً مقدوراً، فولى المسلمون لا يلوي أحد على أحد، ثم كانت العاقبة بعد ذلك للمتقين، غير أنه رجعت العساكر على أعقابها للديار المصرية، واجتاز كثير منهم على دمشق[3]، وأهل دمشق في خوف شديد على أنفسهم، وأهليهم، وأموالهم، ثم إنهم استكانوا واستسلموا للقضاء والقدر، وماذا يجدي الحذر إذا نزل القدر؟!

= وبعد انفصال الوقعة لم يقتلوا أحداً ممن وجدوه، وإنما يأخذون سلاحه ومركوبه ويطلقونه، فسكن بذلك روع أهل دمشق قليلاً. اهـ. «النجوم الزاهرة» (٨ / ١٢٢) وانظر «العبر في خبر من عبر» (٣ / ٦٩٩).

(١) منهم، الأمير عز الدين أَيْدَمُر العزي، والأمير سيف الدين أيدمر الشمسي القشاش، والأمير أَوْلَيا بن قَرَمان، والأمير عز الدين أَيبك الأُستادار، والأمير جمال الدين آقوش الشمسي الحاجب، والأمير صلاح الدين بن الكامل... انظر «النجوم الزاهرة» (٨ / ٢٠٤ ـ ٢٠٦).

(٢) حسام الدين قاضي القضاة الحسن بن أحمد بن أنو شروان الرازي ثم الرومي الحنفي، انظر «أعيان العصر» (٢ / ٥٧٤) و«العبر» (٣ / ٣٩٨).

(٣) وأما السلطان الملك الناصر وعساكره فإنه سار هو بخواصه بعد الوقعة إلى جهة الكسوة، وأما العساكر المصرية والشامية، فلا يمكن أن يعبر عن حالهم، فإنه كان أكبر الأمراء يرى وهو وحده، وقد عجز عن الهرب، ليس معه من يقوم بخدمته، وهو مسرع في السير خائف، متوجه إلى جهة الكسوة لا يلوي على أحد قد دخل قلوبهم الرعب والخوف، تشتمهم العامة وتوبخهم، بسبب الهزيمة من التتار، وكونهم كانوا قبل ذلك يحكمون في الناس، ويتعاظمون عليهم.
وقد صار أحدهم الآن أضعف من الهزيل، وأمعنوا العامة في ذلك وهم لا يلتفتون إلى قولهم، ولا ينتقمون من أحد منهم. اهـ. «النجوم الزاهرة» (٨ / ١٢٤).

ورجع السلطان في طائفة من الجيش، على ناحية بعلبك[1]، والبقاع[2]، وأبواب دمشق مغلقة، والقلعة محصنة، والغلاء شديد، والحال ضيق، وفرج الله قريب. وقد هرب جماعة من أعيان البلد وغيرهم، إلى مصر، كالقاضي إمام الدين الشافعي، وقاضي المالكية الزواوي، وتاج الدين الشيرازي، وعلم الدين الصوابي والي البر، وجمال الدين بن النحاس والي المدينة، والمحتسب وغيرهم من التجار والعوام، وبقي البلد شاغراً ليس فيهم حاكم سوى نائب القلعة[3].

وفي ليلة الأحد ثاني ربيع الأول، كسر المحبوسون بحبس باب الصغير الحبس، وخرجوا منه على حمية، وتفرقوا في البلد، وكانوا قريباً من مائتي رجل، فنهبوا ما قدروا عليه، وجاءوا إلى باب الجابية فكسروا

---

(١) بعلبك: مدينة سورية تقع على أكمة منخفضة في السفح الشرقي لجبل لبنان على بعد ٦٥ كيلو متراً في الشمال الغربي من مدينة دمشق فتحها [المسلمون] في عهد الخليفة عمر بقيادة أبي عبيدة سنة ١٦ هـ ، ٦٣٧م، ولها شهرة عظيمة في التاريخ الإسلامي. اهـ مختصراً من «حاشية النجوم» (٨/ ٧٨).

(٢) قال ياقوت: البقاع: جمع بقعة. موقع يقال له بقاع كلب قريب من دمشق وهو أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق فيها قرى كثيرة ومياه غزيرة نميرة. «معجم البلدان» (٢ / ٣٧١).

(٣) قال الحافظ ابن كثير: الأمير الكبير المرابط، المجاهد، علم الدين، أرجواش بن عبد الله المنصوري، نائب القلعة بالشام، كان ذا هيبة وهمة وشهامة وقصد صالح، قدر الله على يديه حفظ معقل المسلمين لما ملكت التتار الشام أيام قازان، وعصت عليهم القلعة، ومنعها الله منهم على يدي هذا الرجل.
فإنه التزم أن لا يسلمها إليهم ما دام بها عين تطرف واقتدت بها بقية القلاع الشامية، وكانت وفاته بالقلعة ليلة السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٧٠١هـ، وأخرج منها ضحوة يوم السبت، فصلي عليه وحضر نائب السلطنة فمن دونه جنازته، ثم حمل إلى سفح قاسيون، ودفن بتربته رحمه الله. اهـ. «البداية والنهاية» (١٤ / ٢٢).

أقفال الباب البرّاني، وخرجوا منه إلى برِّ البلد، فتفرقوا حيث شاءوا، لا يقدر أحد على ردهم، وعاثت الحرافشة في ظاهر البلد، فكسروا أبواب البساتين، وقلعوا من الأبواب والشبابيك شيئاً كثيراً، وباعوا ذلك بأرخص الأثمان.

هذا وسلطان التتار[١] قد قصد دمشق بعد الوقعة، **فاجتمع أعيان البلد[٢]، والشيخ تقي الدين ابن تيمية في مشهد عليّ، واتفقوا على المسير إلى قازان، لتلقّيه وأخذ الأمان منه، لأهل دمشق.**

فتوجهوا يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر فاجتمعوا به عند النبك[٣].

وكلمه الشيخ تقي الدين كلاماً قوياً شديداً فيه مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين، ولله الحمد[٤].

قال ابن كثير في ترجمة البالسي: الشيخ الصالح العابد الناسك الورع

---

(١) ملك التتار قازان واسمه محمود ابن آرغون ابن أبغا، «البداية والنهاية» (١٤ / ٣٠)، وقد أسلم على يد شيخ الشيوخ صدر الدين إبراهيم ابن الشيخ سعد الدين بن حمويه الجويني، بوساطة نائبه توروز، وكان يوماً مشهوداً، «العبر» (٣ / ٣٨٥)، وقال ابن تغري بردي: غازان وقازان كلاهما اسم لملك التتار، «النجوم الزاهرة» (٨ / ١١٨) وصار يقال له السلطان محمود غازان «المرجع السابق» (٨ / ١٣١). وانظر «الدرر الكامنة» (٣ / ٢١٢).

(٢) حضر من الفقهاء: قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة، وهو يومئذ خطيب جامع أهل دمشق، والشيخ زين الدين الفارقي، والشيخ تقي الدين ابن تيمية، وقاضي قضاة دمشق نجم الدين بن صَصُرَّى، والصاحب فخر الدين الشيرجي، والقاضي عز الدين بن الزكي، والشيخ وجيه الدين بن المنجا، والشيخ محمد بن قوام البالسي، و........، وجماعة كثيرة من العدول والقراء. انظر «النجوم الزاهرة» (٨ / ١٢٣).

(٣) النبك: قرية مليحة بذات الذخائر بين حمص ودمشق. «معجم البلدان» (٨ / ٣٦٦).

(٤) انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٧ ـ ٨).

الزاهد القدوة بقية السلف وقدوة الخلف أبو عبد اللّه محمد ابن الشيخ الصالح عمر بن السيد القدوة الناسك الكبير العارف، أبي بكر بن قوام بن علي بن قوام البالسي[1].

وكان يوم قازان في جملة من كان مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية لما تكلم مع قازان، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازان وشجاعته وجرأته عليه.

وأنه قال لترجمانه قل للقان: أنت تزعم أنك مسلم ومعك مؤذنون وقاض وإمام وشيخ على ما بلغنا. فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا؟

وأبوك وجدك هولاكو كانا كافرين وما غزوا بلاد الإسلام.

بل عاهدوا قومنا وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت.

قال: وجرت له مع قازان وقطلوشاه وبولاي أمور ونوب قام ابن تيمية فيها كلها لله وقال الحق ولم يخش إلا اللّه عز وجل.

قال: وقرب إلى الجماعة طعاماً فأكلوا منه إلا ابن تيمية.

فقيل له: ألا تأكل؟

فقال: كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس؟!

قال: ثم إن قازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه:

«اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا وليكون الدين كله لك فانصره، وأيده وملكه العباد والبلاد، وإن كان إنما

---

(١) (ت ٧١٨).

قام رياء وسمعة وطلباً للدنيا ولتكون كلمته هي العليا، وليذل الإسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره».

قال: وقازان يؤمِّن على دعائه، ويرفع يديه.

قال: فجعلنا نجمع ثيابنا خوفاً من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله.

قال: فلما خرجنا من عنده قال له قاضي القضاة نجم الدين بن صَصْرَى وغيره: كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لا نصحبك من هنا.

فقال: وأنا والله لا أصحبكم.

قال: فانطلقنا عصبة وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه، فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان فأتوه يتبركون بدعائه، وهو سائر إلى دمشق وينظرون إليه.

قال: والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلثمائة فارس في ركابه، وكنت أنا من جملة من كان معه وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه، فخرج عليهم جماعة من التتر فشلحوهم عن آخرهم، قال الحافظ ابن كثير: وقد سمعت هذه الحكاية من جماعة غيره[1]. اهـ.

قال الحافظ البزار: وحدّثني من أثق به عن الشيخ كمال الدين بن المنجَّا قدس الله روحه قال: كنتُ حاضراً مع الشيخ حينئذٍ فجعل يعني الشيخ يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره، ويرفع صوته على السلطان حتى جثا على ركبتيه وجعل يقرب منه في أثناء حديثه، حتى لقد قرُبَ أن تلاصق ركبته ركبة السلطان.

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤ / ٩١ ـ ٩٢).

والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكليّته مصغ لما يقول شاخص إليه لا يُعرض عنه، وإنّ السلطان من شدّة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة، سأل من يخصُّه من أهل حضرته مَنْ هذا الشيخ؟

وقال ما معناه: إني لم أرَ مثله ولا أثبت قلباً منه ولا أوقع من حديثه في قلبي ولا رأيتني أعظم انقياداً مني لأحد منه، فأُخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل.

وسأله: إن أحببت أن أعمر لك بلد آبائك حرّان وتنتقل إليه ويكون برسمك؟

فقال: لا والله، لا أرغب عن مُهاجَر إبراهيم وأستبدل به غيره. فخرج من بين يديه مكرماً معزّزاً قد صنع الله له بما طوى عليه نيّته الصالحة من بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلغه ما أراده.

وكان ذلك أيضاً سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردّهم على أهلهم وحفظ حريمهم. وهذا من أعظم الشجاعة والثبات وقوة الجأش[1]. اهـ.

ودخل المسلمون ليلتئذ من جهة قازان فنزلوا «بالبدرانية»[2] وغلقت أبواب البلد سوى «باب توما»[3] وخطب الخطيب بالجامع يوم الجمعة ولم يذكر سلطاناً في خطبته.

---

(١) «الأعلام العلية» (ص: ٤٤ ـ ٤٥).

(٢) انظر «منادمة الأطلال» (ص: ١٥٣ ـ ١٥٤).

(٣) باب التوما: وهو من شمالي البلد، ينسب إلى عظيم من العظماء الروم اسمه توما، «منادمة الأطلال»(ص: ٤١) وانظر «منادمة الأطلال»(ص: ١٥٣) و(ص: ٣٢١).

وبعد الصلاة قدم الأمير إسماعيل ومعه جماعة من الرسل فنزلوا ببستان الظاهر عند الطرن وحضر الفرمان[1] بالأمان وطيف به في البلد.

وقرىء يوم السبت ثامن الشهر بمقصورة الخطابة، ونثر شيء من الذهب والفضة.

وفي ثاني يوم من المناداة بالأمان طلبت الخيول والسلاح والأموال المخبأة عند الناس من جهة الدولة، وجلس «ديوان الاستخلاص» إذ ذاك «بالمدرسة القيمرية»[2]، وفي يوم الاثنين عاشر الشهر قدم سيف الدين قبجق المنصوري[3] فنزل في الميدان واقترب جيش التتر وكثر العيث[4] في ظاهر البلد، وقتل جماعة وغلت الأسعار بالبلد جداً.

وأرسل قبجق إلى نائب القلعة ليسلمها إلى التتر فامتنع أرجواش من ذلك أشد الامتناع، فجمع له قبجق أعيان البلد فكلموه أيضاً فلم يجبهم إلى ذلك، وصمَّمَ على ترك تسليمها إليهم وبها عين تطرف[5].

---

(١) يعني مرسوماً من غازان بالأمان، ثم وقع بعد ذلك أمور يطول شرحها من أن قازان أرسل إلى أهل دمشق وعرفهم أنه يحب العدل والإحسان للرعية وإنصاف المظلوم من الظالم وأشياء من هذا النمط، فحصل للناس بذلك سكون وطمأنينة. اهـ. «النجوم الزاهرة» (٨ / ١٢٥).

(٢) «القيمرية الكبرى» أنشأها الأمير ناصر بن الحسين بن علي القيمري و«الصغرى» بناها سيف الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن يوسك القيمري. انظر «منادمة الأطلال» (ص: ١٤٠ ـ ١٤٣).

(٣) ولي نيابة دمشق في أيام لاجين ثم قفز إلى التتر خوفاً من لاجين ثم جاء مع التتر. وكان على يديه فرج المسلمين عام قازان ثم تنقلت به الأحوال إلى أن مات بحلب سنة ٧١٠هـ. «البداية والنهاية» (١٤ / ٣ و٦٢)، وانظر «العبر» (٤ / ٢٥).

(٤) العيث: الفساد.

(٥) دخل الأمير قبجق المنصوري الذي كان نائب دمشق، وهرب من الملك المنصور لاجين=

فإن الشيخ تقي الدين ابن تيمية أرسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك: لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام فإن الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزاً لأهل الشام التي لا تزال دار إيمان وسنة، حتى ينزل بها عيسى بن مريم.

وفي يوم دخول قبجق إلى دمشق دخل السلطان ونائبه سلار إلى مصر كما جاءت البطاقة بذلك إلى القلعة، ودقت البشائر بها فقوي جأش الناس بعض قوة ولكن الأمر كما يقال:

كيف السبيل إلى سعادَ ودونها قلـلُ الجبـال ودونهـنَّ حتـوفُ
الرِّجـلُ حـافيـةٌ ومـا لـيَ مـركـبٌ والكفُّ صِفرٌ والطريق مخوفُ

وفي يوم الجمعة رابع عشر ربيع الآخر خُطِبَ لقازان على منبر دمشق بحضور المغول بالمقصورة ودُعِيَ له[1] على السدة بعد الصلاة وقرىء عليها مرسوم بنيابة قبجق على الشام، وذهب إليه الأعيان فهنؤوه بذلك، فأظهر

= إلى غازان، ومعه رفقته الأمير بكتمر السّلاح دار، وغيره إلى دمشق وكلموا الأمير أرجواش المنصوري خُشداشهم نائب قلعة دمشق في تسليمها إلى غازان.
وقالوا له: دم المسلمين في عنقك إن لم تسلمها؟!
فأجابهم: دم المسلمين في أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم إلى غازان، وحسنتم له المجيء إلى دمشق وغيرها ثم وبخهم ولم يسلم قلعة دمشق وتهيأ للقتال والحصار، واستمر على حفظ القلعة ثم ترادفت قصّاد غازان إلى أرجواش هذا، وطال الكلام بينهم في تسليم القلعة فثبته الله ومنع ذلك بالكلية. اهـ. «النجوم الزاهرة» (٨ / ١٢٥) وانظر «العبر» (٣ / ٣٩٤).

(١) صورة الدعاء لقازان أن قال الخطيب: «مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان» «النجوم الزاهرة» (٨ / ١٢٥).

الكرامة وأنه في تعب عظيم مع التتر.

وفي يوم السبت النصف من ربيع الآخر شرعت التتار وصاحب سِيس[1] في نهب «الصالحية»[2] و«مسجد الأسدية» و«مسجد خاتون» و«دار الحديث الأشرفية» بها واحترق «جامع التوبة بالعقيبة»[3].

وكان هذا من جهة الكُرْج[4] والأرمن[5] من النصارى الذي هم مع التتار قبحهم الله. وسبوا من أهلها خلقاً كثيراً وجمعاً غفيراً، وجاء أكثر الناس إلى «رباط الحنابلة»[6] فاحتاطت به التتار فحماه منهم شيخ الشيوخ[7] المذكور، وأعطي في الساكن ماله صورة ثم أقحموا عليه فسبوا منه خلقاً كثيراً من بنات المشايخ وأولادهم فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نكب «دير الحنابلة»[8] في ثاني جمادى الأولى قتلوا خلقاً من

---

(١) سيس: عاصمة أرمينيا الصغرى «كليكلية» وكانت مدينة كبيرة ذات أسوار، وهي الآن بلدة في جنوب آسيا الصغرى. «حاشية النجوم» (٧ / ١٣٩)، وانظر «معجم البلدان» (٥ / ١٠٥).

(٢) «الصالحية»: قرية كبيرة ذات أسواق وجامع في لحف جبل قاسيون من غوطة دمشق. «معجم البلدان» (٥ / ١٧٦).

(٣) انظر التعريف بها جميعاً في «منادمة الأطلال».

(٤) الكُرْج: شعب جبلي يعيش في منطقة تقع شمال منطقة الأرمن، وقاعدة بلادهم تفليس، يتوزع في السفوح الجنوبية لجبال القوقاز. اهـ. «معركة شقحب» (ص: ١٠). د. محمد بن لطفي الصباغ.

(٥) الأرمن: شعب نصراني يعيش في منطقة جبلية وعرة بين تركيا وإيران اليوم. اهـ. «المرجع السابق».

(٦) من الربط المندثرة. انظر «منادمة الأطلال» (ص: ٢٩٥).

(٧) شيخ الشيوخ محمود بن علي الشيباني. «البداية والنهاية» (١٤ / ٩).

(٨) «دير الحنابلة»: بسفح قاسيون غربي المدرسة العمرية. «غوطة دمشق» (ص: ١٩٣).

الرجال وأسروا من النساء كثيراً، ونال قاضي القضاة تقي الدين أذى كثير، ويقال إنهم قتلوا من أهل الصالحية قريباً من أربعمائة، وأسروا نحواً من أربعة آلاف أسير، ونهبت كتب كثيرة من الرباط الناصري والضيائية، وخزانة ابن البزوري، وكانت تباع وهي مكتوب عليها الوقفية.

وفعلوا بالمزة مثل ما فعلوا بالصالحية، وكذلك بداريا وبغيرها، وتحصن الناس منهم في الجامع بداريا ففتحوه قسراً وقتلوا منهم خلقاً وسبوا نساءهم وأولادهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وخرج الشيخ ابن تيمية في جماعة من أصحابه، يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر إلى ملك التتر، وعاد بعد يومين، ولم يتفق اجتماعه به، حجبه عنه الوزير سعد الدين والرشيد مشير الدولة المسلماني ابن يهودي، والتزما له بقضاء الشغل.

وذكرا له أن التتر لم يحصل لكثير منهم شيء إلى الآن، ولا بد لهم من شيء، واشتهر بالبلد أن التتر يريدون دخول دمشق، فانزعج الناس لذلك، وخافوا خوفاً شديداً، وأرادوا الخروج منها، والهرب على وجوههم، وأين الفرار ولات حين مناص؟! وقد أخذ من البلد فوق العشرة آلاف فرس، ثم فرضت أموال كثيرة على البلد، موزعة على أهل الأسواق، كل سوق بحسبة من المال، فلا قوة إلا بالله.

وشرع التتار في عمل مجانيق بالجامع؛ ليرموا بها القلعة من صحن الجامع، وغلقت الأبواب، ونزل التتار في مشاهده يحرسون أخشاب المجانيق وينهبون ما حوله من الأسواق.

وأحرق أرجواش ما حول القلعة من الأبنية، كدار «الحديث

الأشرفية» وغير ذلك، إلى حد «العادلية الكبرى»[1] وأحرق «دار السعادة»[2]، لئلا يتمكنوا من محاصرة القلعة من أعاليها، ولزم الناس منازلهم، لئلا يسخروا في الخندق، وكانت الطرقات لا يرى بها أحد، إلا القليل، والجامع لا يصلي به إلا اليسير، ويوم الجمعة لا يتكامل فيه الصف الأول وما بعده إلا بجهد جهيد، ومن خرج من منزله في ضرورة، يخرج بثياب زيهم ثم يعود سريعاً، ويظن أنه لا يعود إلى أهله.

وأهل البلد قد أذاقهم اللّه لباس الجوع والخوف، بما كانوا يصنعون، فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

والمصادرات والتراسيم[3] والعقوبات، عمالة في أكابر أهل البلد ليلاً ونهاراً، حتى أخذ منهم شيء كثير من الأموال والأوقاف، كالجامع وغيره، ثم جاء مرسوم بصيانة الجامع وتوفير أوقافه وصرف ما كان يؤخذ بخزائن السلاح وإلى الحجاز وقرئ ذلك المرسوم بعد صلاة الجمعة بالجامع في تاسع عشر جمادى الأولى، وفي ذلك اليوم توجه السلطان قازان، وترك نوابه بالشام، في ستين ألف مقاتل، نحو بلاد العراق.

وجاء كتابه: إنا قد تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل، وفي عزمنا العود إليها، زمن الخريف، والدخول إلى الديار المصرية، وفتحها. وقد أعجزتهم القلعة أن يصلوا إلى حجر منها، وخرج سيف الدين قبجق لتوديع قطلوشاه[4] نائب قازان، وسار وراءه، وضربت البشائر بالقلعة،

---

(١) تقدم التعريف بها.

(٢) دار السعادة هي: دار الحكومة التي يقيم فيها الوالي أو الحاكم لإدارة شؤون الولاية أو المقاطعة. انظر «حاشية النجوم» (٩ / ٢٨).

(٣) الرّسم: مال تفرضه الدولة لقاء خدمة من قبلها.

(٤) قطلوشاه نائب قازان، وكان قاد جيش التتار في معركة شقحب وقتل بعد ذلك سنة =

فرحاً لرحيلهم، ولم تفتح القلعة.

وأرسل أرجواش ثاني يوم من خروج قبجق، القلعية إلى الجامع فكسروا أخشاب المنجنيقات المنصوبة به، وعادوا إلى القلعة سريعاً سالمين، واستصحبوا معهم جماعة ممن كانوا يلوذون بالتتر قهراً إلى القلعة، منهم الشريف القمي وهو شمس الدين محمد بن محمد بن أحمد بن أبي القاسم المرتضى العلوي، وجاءت الرسل من قبجق إلى دمشق، فنادوا بها: طيبوا نفوسكم، وافتحوا دكاكينكم، وتهيؤوا غداً لتلقي سلطان الشام سيف الدين قبجق، فخرج الناس إلى أماكنهم، فأشرفوا عليها، فرأوا ما بها من الفساد والدمار، وانفك رؤساء البلد من التراسيم، بعد ما ذاقوا شيئاً كثيراً.

قال الشيخ علم الدين البرزالي[1]: ذكر لي الشيخ وجيه الدين بن المنجا[2] أنه حمل إلى خزانة قازان ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم[3]، سوى ما تمحق[4] من التراسيم والبراطيل، وما أخذ غيره من الأمراء،

= ٧٠٧هـ. انظر «أعيان العصر» (٢ / ٦٦٦)، و«الدرر الكامنة» (٣ / ٢٥٤).

(١) تقدم التعريف به.

(٢) هو الشيخ محمد بن عثمان بن المُنَجَّا التنوخي الدمشقي (ت ٧٠١هـ).

(٣) وتم جبي المال وأخذه قازان وسافر من دمشق في يوم الجمعة ثاني عشر جمادى الأولى، بعد أن ولّى الأمير قبجق المنصوري نيابة الشام على عادته أولاً. وأقام الأمير قطلوشاه مقدم عساكر التتار بعد غازان بدمشق بجماعة كثيرة من التتار لأخذ ما بقي من الأموال ولحصار قلعة دمشق ودام على ذلك حتى سافر من دمشق ببقية التتار.
وخرج الأمير قبجق نائب الشام لتوديعه، ثم عاد يوم الخميس خامس عشرينه وانقطع أمر المغل من دمشق بعد أن قاسى أهلها شدائد وذهبت أموالهم. «النجوم الزاهرة» (٨ / ١٢٧).

(٤) محّق الشيء: أبطله.

والوزراء، وأن شيخ المشايخ[1] حصل له نحو من ستمائة ألف درهم، والأصيل بن النصير الطوسي مائة ألف، والصفي السخاوي ثمانون ألفاً، وعاد سيف الدين قبجق إلى دمشق يوم الخميس بعد الظهر، خامس عشرين جمادى الأولى، ومعه الألبكي[2] وجماعة، وبين يديه السيوف مسللة وعلى رأسه عصابة، فنزل بالقصر، ونودي بالبلد: نائبكم قبجق قد جاء فافتحوا دكاكينكم واعملوا معاشكم ولا يغرر أحد بنفسه هذا الزمان. والأسعار في غاية الغلاء والقلة، قد بلغت الغرارة[3] إلى أربعمائة، واللحم الرطل بنحو العشرة، والخبز كل رطل بدرهمين ونصف، والعشرة الدقيق بنحو الأربعين، والجبن الأوقية بدرهم، والبيض كل خمسة بدرهم، ثم فرج عنهم في أواخر الشهر. ولما كان في أواخر الشهر، نادى قبجق بالبلد، أن يخرج الناس إلى قراهم، وأمر جماعة، وانضاف إليه خلق من الأجناد، وكثرت الأراجيف على بابه، وعظم شأنه، ودقت البشائر بالقلعة، وعلى باب قبجق يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة.

وركب قبجق «بالعصائب» في البلد والشاويشية[4] بين يديه، وجهز نحواً من ألف فارس، نحو «خربة اللصوص»[5] ومشى مشي الملوك: في

---

(١) هو محمود بن علي الشيباني.

(٢) هو الأمير فارس الدين البكى الساقي فرّ مع الأمير قبجق إلى غازان وتزوج بأخته توفي سنة ٧٠٢هـ، انظر «النجوم الزاهرة» (٨/ ٢٠٤).

(٣) الغِرَارة: وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه. «المعجم الوسيط» (٢/ ٦٤٨).

(٤) الشاويشية: الذين يركبون في مقدمة موكب الملك أثناء سفره، «حاشية النجوم» (٧/ ١١).

(٥) خربة اللصوص: مكان بالشام.

الولايات، وتأمير الأمراء، والمراسيم العالية النافذة، وصار كما قال الشاعر:

يـــا لـــك مـــن قنبـــرة بمعمـــرِ

خـلا لـك الجـو فبيضـي واصفـري

ونقـــري مـــا شئـــت أن تنقـــري

ثم إنه ضمن الخمارات، ومواضع الزنا من الحانات وغيرها، وجعلت «دار ابن جرادة» خارج من «باب توما»[1] خمارة وحانة أيضاً، وصار له على كل ذلك في كل يوم ألف درهم، وهي التي دمرته، ومحقت آثاره، وأخذ أموالاً أخر من أوقاف المدارس وغيرها، ورجع بولاي[2] من جهة الأغوار، وقد عاث في الأرض فساداً، ونهب البلاد وخرب، ومعه طائفة من التتر كثيرة، وقد خربوا قرى كثيرة، وقتلوا من أهلها وسبوا خلقاً من أطفالها، وجبى لبولاي من دمشق أيضاً جباية أخرى.

وخرج طائفة من القلعة، فقتلوا طائفة من التتر ونهبوهم، وقتل جماعة من المسلمين في غضون ذلك، وأخذوا طائفة ممن كان يلوذ بالتتر.

ورسم قبجق لخطيب البلد، وجماعة من الأعيان، أن يدخلوا القلعة، فيتكلموا مع نائبها في المصالحة فدخلوا عليه يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الآخرة، فكلموه وبالغوا معه، فلم يجب إلى ذلك وقد أجاد، وأحسن، وأرجل في ذلك، بيض الله وجهه.

---

(١) سبق التعريف به.

(٢) بولاي: التتري أحد مقدمي التتار الذي حضروا مع غازان. انظر «أعيان العصر» (١ / ٤٩٨).

وفي ثامن رجب، طلب قبجق القضاة والأعيان، فحلفهم على المناصحة للدولة المحمودية ـ يعني قازان ـ فحلفوا له.

وفي هذا اليوم، خرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية، إلى «مخيم بولاي» فاجتمع به في فكاك من كان معه من أسارى المسلمين، فاستنقذ كثيراً منهم، من أيديهم، وأقام عنده ثلاثة أيام، ثم عاد ثم راح إليه جماعة من أعيان دمشق، ثم عادوا من عنده، فشُلِّحوا عند باب شرقي، وأخذ ثيابهم وعمائمهم، ورجعوا في شر حالة.

ثم بعث في طلبهم، فاختفى أكثرهم، وتغيبوا عنه، ونودي بالجامع، بعد الصلاة، ثالث رجب من جهة نائب القلعة، بأن العساكر المصرية قادمة إلى الشام، وفي عشية يوم السبت رحل بولاي وأصحابه من التتر، وانشمروا عن دمشق، وقد أراح الله منهم، وساروا من على «عقبة دمر»، فعاثوا في تلك النواحي فساداً، ولم يأت سابع الشهر وفي حواشي البلد منهم أحد، وقد أزاح الله عز وجل شرهم عن العباد والبلاد.

ونادى قبجق في الناس: قد أمنت الطرقات، ولم يبق بالشام من التتر أحد، وصلى قبجق يوم الجمعة عاشر رجب بالمقصورة، ومعه جماعة عليهم لأمة الحرب، من السيوف والقسي والتراكيش فيها النشاب، وأمنت البلاد وخرج الناس للفرحة في «غيض السفرجل» على عادتهم، فعاثت عليهم طائفة من التتر، فلما رأوهم رجعوا إلى البلد هاربين مسرعين.

ونهب بعض الناس بعضاً، ومنهم من ألقى نفسه في النهر، وإنما كانت هذه الطائفة مجتازين ليس لهم قرار، وتقلق قبجق من البلد، ثم إنه خرج منها في جماعة من رؤسائها وأعيانها منهم «عز الدين بن القلانسي» ليلتقوا الجيش المصري، وذلك أن جيش مصر خرج إلى الشام في تاسع

رجب وجاءت البريدية بذلك، وبقي البلد ليس به أحد.

ونادى أرجواش في البلد: احفظوا الأسوار، وأخرجوا ما كان عندكم من الأسلحة، ولا تهملوا الأسوار والأبواب، ولا يبيتن أحد إلا على السور، ومن بات في داره شنق، فاجتمع الناس على الأسوار[1] لحفظ البلاد.

وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوار، يحرض الناس على الصبر والقتال، ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط.

وفي يوم الجمعة سابع عشر رجب، أعيدت الخطبة بدمشق لصاحب مصر، ففرح الناس بذلك، وكان يخطب لقازان بدمشق وغيرها من بلاد الشام، مائة يوم سواء.

وفي بكرة يوم الجمعة المذكور، **دار الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله وأصحابه، على الخمارات والحانات، فكسروا آنية الخمور، وشققوا الظروف، وأراقوا الخمور، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش، ففرح الناس بذلك.**

ونودي يوم السبت ثامن عشر رجب، بأن تزين البلد لقدوم العساكر

---

(١) قال ابن بدران: من تأمل الآثار الموجودة بدمشق، علم يقيناً بأنها كانت في سابق أعوامها معقلاً حصيناً، وموطناً حربياً مهماً بالنسبة إلى الفن الحربي الذي كان في تلك الأيام، ومن وقف أمام أبوابها، ورأى سورها الذي كان محيطاً بها إحاطة السوار بالمعصم، والخندق المحيط به، تجلت له أبهة الجلال، وتصور تحصينها أيام كانت فيها محاصرة وهي تدافع عن حوزتها، وأسودها يحمون ذلك العرين، ويحنون لصلصلة السيوف، ويرتاحون للمعانها، ورأى سطور البطش والسطوة مرسومة على سورها وأبوابها. اهـ. «منادمة الأطلال» (ص: ٣٩).

المصرية، وفتح باب الفرج[1] مضافاً إلى باب النصر[2] يوم الأحد تاسع عشر رجب، ففرح الناس بذلك وانفرجوا لأنهم لم يكونوا يدخلون إلا من باب النصر، وقدم الجيش الشامي صحبة نائب دمشق جمال الدين آقوش الأفرم[3] يوم السبت عاشر شعبان.

وثاني يوم دخل بقية العساكر وفيهم الأميران شمس الدين قراسنقر[4] المنصوري وسيف الدين قطلبك[5] في تجمل، وفي يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء تكامل دخول العساكر بصحبة نائب مصر سيف الدين سلار وفي خدمته الملك العادل كَتْبُغَا[6] وسيف الدين الطراخي في تجمل باهر ونزلوا في المرج وكان السلطان قد خرج عازماً على المجيء فوصل إلى الصالحية، ثم عاد إلى مصر، ورفعت الستائر عن القلعة في ثالث رمضان.

وفي هذا اليوم[7] رجع سلار بالعساكر إلى مصر وانصرفت العساكر

---

(١) باب الفرج: هو الباب الموجود الآن بالقرب من القلعة في السوق التي يقال له الآن المناخلية المركب بعضه على نهر بردى الذي يتوصل منه إلى الدرب العمومي ـ المسمى الآن بشارع الملك فيصل ـ، «منادمة الأطلال» (ص: ٣٥).

(٢) باب النصر: وقف على باب دار العدل فتحه الملك الناصر بن أيوب للمدينة. «منادمة الأطلال» (ص: ٣٦).

(٣) تقدم التعريف به.

(٤) الأمير الكبير شمس الدين قراسنقر بن عبد الله المنصوري من كبار المماليك المنصورية وأجل أمرائهم توفي سنة ٧٢٨هـ.

(٥) سيف الدين قطلبك بن عبد الله المغربي الحاجب بالديار المصرية وكان مقرباً عند الملك الناصر ومن أعيان أمرائه.

(٦) هو كتبغا المغلي المنصوري زين الدين الملك العادل توفي سنة ٧٠٢هـ. انظر «الدرر الكامنة» (٣/ ٢٦٢ ـ ٢٦٤).

(٧) السبت الآخر من رمضان سنة ٦٩٩هـ.

الشامية إلى مواضعها وبلدانها، وفي شوال فيها عرفت جماعة ممن كان يلوذ بالتتر ويؤذي المسلمين وشنق منهم طائفة وسمّر آخرون وكحل بعضهم وقطعت ألسن وجرت أمور كثيرة.

[غزوة شيخ الإسلام الحراني]

وفي يوم الجمعة العشرين منه[1]، ركب نائب السلطنة جمال الدين آقوش الأفرم، في جيش دمشق، إلى جبال الجرد وكسروان، وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية ومعه خلق كثير من المتطوعة والحوارنة، لقتال أهل تلك الناحية، بسبب فساد نيتهم، وعقائدهم، وكفرهم، وضلالهم، وما كانوا عاملوا به العساكر لما كسرهم التتر، وهربوا حين اجتازوا ببلادهم [. فقد] وثبوا عليهم، ونهبوهم، وأخذوا أسلحتهم، وخيولهم وقتلوا كثيراً منهم.

فلما وصلوا إلى بلادهم، جاء رؤسائهم إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية، فاستتابهم وبين للكثير منهم الصواب، وحصل بذلك خير كثير وانتصار كبير، على أولئك المفسدين، والتزموا برد ما كانوا أخذوه من أموال الجيش، وقرر عليهم أموال كثيرة، يحملونها إلى بيت المال، واقطعت أراضيهم وضياعهم، ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند، ولا يلتزمون أحكام الملة، ولا يدينون دين الحق، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله.

وعاد نائب السلطنة يوم الأحد ثالث عشر ذي القعدة وتلقاه الناس بالشموع إلى طريق «بعلبك» وسط النهار.

---

(١) شهر شوال سنة ٦٩٩هـ.

[إقامة المعسكرات للتدريب على السلاح والتأهب لقتال العدو التتري]

وفي يوم الأربعاء سادس عشرِهِ نودي في البلد، أن يعلق الناس الأسلحة بالدكاكين، وأن يتعلم الناس الرمي، فعملت الأماجات[1] في أماكن كثيرة من البلد، وعلقت الأسلحة بالأسواق، ورسم قاضي القضاة[2] بعمل الأماجات في المدارس، وأن يتعلم الفقهاء الرمي ويستعدوا لقتال العدو إن حضر، وبالله المستعان.

[ورود الأخبار بقصد التتر بلاد الشام وعزمهم على دخول مصر]

وفي مستهل صفر ـ سنة سبعمائة ـ وردت الأخبار بقصد التتر بلاد الشام، وأنهم عازمون على دخول مصر، فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفاً على ضعفهم، وطاشت عقولهم وألبابهم، وشرع الناس في الهرب إلى بلاد مصر والكرك، والشوبك والحصون المنيعة.

فبلغت المحارة[3] إلى مصر خمسمائة، وبيع الجمل بألف، والحمار بخمسمائة، وبيعت الأمتعة والثياب والمغلات بأرخص الأثمان.

[تحريض ابن تيمية الناس على القتال وترغيبهم في إنفاق الأموال للذّب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم وإيجابه قتال التتار حتماً]

قال الحافظ ابن كثير: وجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية، في ثاني صفر بمجلسه في الجامع، وحرض الناس على القتال، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك.

ونهى عن الإسراع في الفرار، ورغب في إنفاق الأموال في الذب عن

---

(١) أماكن التدريب.

(٢) هو بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الدين بن جماعة الحموي الكناني.

(٣) أجرة الحمل.

المسلمين وبلادهم وأموالهم، وأن ما يُنفق في أجرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيراً، وأوجب جهاد التتر حتماً في هذه الكرة، وتابع المجالس في ذلك، ونودي في البلاد: لا يسافر أحد إلا بمرسوم وورقة، فتوقف الناس عن السير وسكن جأشهم وتحدث الناس بخروج السلطان من القاهرة بالعساكر ودقت البشائر لخروجه، لكن كان قد خرج جماعة من بيوتات دمشق كبيت ابن صَصْرَى وبيت ابن فضل الله وابن منجا وابن سويد وابن الزملكاني وابن جماعة.

وفي أول ربيع الآخر، قوي الإرجاف بأمر التتر، وجاء الخبر بأنهم قد وصلوا إلى البيرة[1] ونودي في البلد أن تخرج العامة مع العسكر، وجاء مرسوم النائب من المرج بذلك.

فاستعرضوا في أثناء الشهر، فعرض نحو خمسة آلاف من العامة بالعدة والأسلحة، على قدر طاقتهم، وقنت الخطيب ابن جماعة[2] في الصلوات كلها، واتبعه أئمة المساجد، وأشاع المرجفون بأن التتر قد وصلوا إلى حلب، وأن نائب حلب تقهقر إلى حماة، ونودي في البلد بتطييب قلوب الناس، وإقبالهم على معايشهم، وأن السلطان والعساكر واصلة، وأبطل ديوان المستخرج وأقيموا، ولكن كانوا قد استخرجوا أكثر مما أمروا به وبقيت بواقي على الناس الذين قد اختفوا، فعفي عما بقي، ولم يرد ما سلف، لا جرم أن عواقب هذه الأفعال خسر ونكر وأن أصحابها لا يفلحون.

---

(١) البيرة: بلد قرب سُمَيسَاط بين حلب والثغور الرُّومية، وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع. «معجم البلدان» (٢ / ٤١٣).

(٢) قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة، وقد مضت ترجمته.

ثم جاءت الأخبار بأن سلطان مصر رجع عائداً إلى مصر، بعد أن خرج منها قاصداً الشام، فكثر الخوف، واشتد الحال وكثرت الأمطار جداً، وصار بالطرقات من الأوحال والسيول ما يحول بين الماء وبين ما يريده من الانتشار في الأرض، والذهاب فيها، فإنا للّه وإنا إليه راجعون، وخرج كثير من الناس خفافاً وثقالاً يتحملون بأهليهم وأولادهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وجعلوا يحملون الصغار في الوحل الشديد والمشقة على الدواب والرقاب، وقد ضعفت الدواب من قلة العلف مع كثرة الأمطار والزلق والبرد الشديد والجوع وقلة الشيء فلا حول ولا قوة إلا بالله.

[خروج شيخ الإسلام ابن تيمية للقاء نائب الشام لتثبيتهم وتقوية جأشهم ووعدهم بالنصر على الأعداء]

واستهل جمادى الأولى، والناس على خُطة صعبة من الخوف، وتأخر السلطان واقترب العدوّ، وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى، في مستهل هذا الشهر، وكان يوم السبت إلى نائب الشام وعساكره في المرج، فثبتهم وقوى جأشهم، وطيب قلوبهم، ووعدهم بالنصر، والظفر على الأعداء، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠] وبات عند العسكر ليلة الأحد.

[خروج شيخ الإسلام ابن تيمية إلى مصر ولقاؤه الملك الناصر محمد بن قلاوون واستحثاثه على تجهيز العساكر إلى الشام]

ثم عاد إلى دمشق وقد سأله النائب والأمراء أن يركب على البريد إلى مصر يستحثُّ السلطان على المجيء، فساق وراء السلطان وكان السلطان قد وصل إلى الساحل، فلم يدركه إلا وقد دخل القاهرة، وتفارط الحال، ولكنه

استحثهم على تجهيز العساكر إلى الشام، إن كان لهم به حاجة، وقال لهم فيما قال: إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته، أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه، ويستغله في زمن الأمن، ولم يزل بهم حتى جردت العساكر إلى الشام[١].

ثم قال لهم: لو قُدِّر أنكم لستم حُكّام الشام ولا ملوكه، واستنصركم أهله، وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه، وسلاطينُه، وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم؟

وقوّى جأشهم وضَمِنَ لهم النصر هذه الكرة فخرجوا إلى الشام، فلما تواصلت العساكر إلى الشام، فرح الناس فرحاً شديداً، بعد أن كانوا قد يئسوا من أنفسهم، وأهليهم وأموالهم.

ثم قويت الأراجيف بوصول التتر، وتحقق عود السلطان إلى مصر، ونادى ابن النحاس متولي البلد في الناس: من قدر على السفر فلا يقعد بدمشق[٢]، فتصايح النساء والولدان، ورهق الناس ذلة عظيمة وخمدة،

---

(١) قال شيخ الإسلام: ثبت للشام وأهله مناقب بالكتاب والسنة وآثار العلماء، وهي أحد ما اعتمدته في تحضيضي للمسلمين على غزو التتار، وأمري لهم بلزوم دمشق، ونهيي لهم عن الفرار إلى مصر، واستدعائي للعسكر المصري إلى الشام، وتثبيت العسكر الشامي فيه، وقد جرت في ذلك فصول متعددة. اهـ من «مناقب الشام وأهله» (ص: ٧٣) لابن تيمية ـ تحقيق الألباني.

(٢) أشيع بدمشق عود السلطان إلى القاهرة فجفل غالب أهل دمشق منها، ونائب الشام لم يمنعهم بل يُحَسِّن لهم ذلك.

وقيل: إن والي دمشق، بقي يُجَفِّل الناس بنفسه وصار يمر بالأسواق ويقول: في أي شيء أنتم قعود؟!

ولما كان يوم السبت التاسع جمادى الأولى نادت المناداة بدمشق: من قعد فدمه في=

وزلزلوا زلزالاً شديداً، وغلقت الأسواق وتيقنوا أن لا ناصر لهم إلا اللّه عز وجل.

وأن نائب الشام لما كان فيه قوة مع السلطان عام أول، لم يقو على التقاء جيش التتر، فكيف به الآن وقد عزم على الهرب؟ ويقولون: ما بقي أهل دمشق إلا طعمة العدو، ودخل كثير من الناس إلى البراري والقفار والمغر بأهليهم من الكبار والصغار ونودي في الناس: من كانت نيته الجهاد فليلحق بالجيش، فقد اقترب وصول التتر، ولم يبق بدمشق من أكابرها إلا القليل، وسافر «ابن جماعة» و«الحريري» و«ابن صَصْرَى» و«ابن المُنَجَّا»[1] وقد سبقهم بيوتهم إلى مصر.

وجاءت الأخبار بوصول التتر إلى «سِرْمين»[2] وخرج الشيخ زين الدين الفارقي، والشيخ إبراهيم الرقي، وابن قوام، وشرف الدين ابن تيمية، وابن خبازة، إلى نائب السلطنة الأفرم.

فقووا عزمه على ملاقاة العدو، واجتمعوا بمهنا أمير العرب[3] فحرضوه على قتال العدو، فأجابهم بالسمع والطاعة، وقويت نياتهم على ذلك، وخرج طلب سلار من دمشق إلى ناحية «المرج»، واستعدوا للحرب والقتال بنيات صادقة.

= رقبته، ومن لم يقدر على السفر فليطلع إلى القلعة، فسافر في ذلك اليوم معظم الناس. «النجوم الزاهرة» (٨ / ١٣٢).

(١) تقدم التعريف بهم.

(٢) قال ياقوت: سرمين بليدة مشهورة من أعمال حلب. «معجم البلدان» (٨ / ١٣٢).

(٣) الأمير سلطان العرب حسام الدين مهنا بن عيسى، أمير العرب بالشام (ت ٧٣٥).



[رجوع شيخ الإسلام ابن تيمية من الديار المصرية وقد حثهم على الجهاد والخروج إلى دمشق]

قال الحافظ ابن كثير: ورجع الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في السابع والعشرين من جُمادى الأولى على البريد، وأقام بقلعة مصر ثمانية أيام، يحثهم على الجهاد، والخروج إلى العدو، وقد اجتمع بالسلطان والوزير وأعيان الدولة فأجابوه إلى الخروج.

وقد غلت الأسعار بدمشق جداً، حتى بيع خاروفان بخمسمائة درهم، واشتد الحال، ثم جاءت الأخبار بأن ملك التتار قد خاض الفرات، راجعاً عامه ذلك، لضعف جيشه، وقلة عددهم، فطابت النفوس لذلك، وسكن الناس، وعادوا إلى منازلهم، منشرحين آمنين مستبشرين[1].

ولما جاءت الأخبار بعدم وصول التتار إلى الشام في جمادى الآخرة[2]، تراجعت أنفس الناس إليهم، وعاد نائب السلطنة إلى دمشق،

---

(١) وأما قازان فإنه وصل إلى حلب ووصل عساكره إلى قرون حماة وإلى بلاد سرمين وسيَّر معظم جيشه إلى بلاد «أنطاكية» وغيرها، فنهبوا من الدواب والأغنام والأبقار ما جاوز حد الكثرة، وسبوا عالماً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان.
ثم أرسل الله تعالى على غازان وعساكره الأمطار والثلوج بحيث أنه أمطر عليهم واحد وأربعون يوماً، وقت مطر ووقت ثلج، فهلك منهم عالم كثير ورجع غازان بعساكره إلى بلادهم أقبح من المكسورين، وقد تلفت خيولهم وهلك أكثرها، وعجزهم الله تعالى وخذلهم وردهم خائبين عما كانوا عزموا عليه!! ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: ٢٥]. ووصل الخبر برجوعهم في جمادى الآخرة وقد خلت دمشق وجميع بلاد الشام من سكانها. «النجوم الزاهرة» (٨ / ١٣٢).

(٢) قال الألباني: وكتب شيخ الإسلام ـ رسالة كبيرة ـ، قارن فيها بين غزوة الخندق وموقف المسلمين تجاه التتار، وبشر الناس بالنصر. وكان الأمر كما قال؛ فاجتماع اليهود =

وكان مخيماً في المرج من مدة أربعة أشهر متتابعة، وهو من أعظم الرباط، وتراجع الناس إلى أوطانهم[1]. اهـ.

[أوائل وقعة شقحب]

قال الحافظ ابن كثير: وفي ثامن عشر[2] قدمت طائفة كبيرة من جيش المصريين فيهم الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، والأمير حسام الدين لاجين المعروف بالأستادار المنصوري، والأمير سيف الدين كراي المنصوري، ثم قدمت بعدهم طائفة أخرى فيهم بدر الدين أمير سلاح، وأيبك الخزندار[3]، فقويت القلوب واطمأن كثير من الناس، ولكن الناس في جفل عظيم من بلاد حلب وحماة وحمص[4] وتلك النواحي، وتقهقر الجيش الحلبي والحموي إلى حمص.

ثم خافوا أن يدهمهم التتر فجاؤوا فنزلوا «المرج» يوم الأحد خامس شعبان ووصل التتار إلى حمص وبعلبك[5] وعاثوا في تلك الأراضي فساداً، وقلق الناس قلقاً عظيماً، وخافوا خوفاً شديداً، واختبط البلد لتأخر قدوم

= والمشركين والمنافقين يوم الخندق، قابله اجتماع التتار من الخارج والنصارى والروافض من الداخل يوم حصارهم لدمشق، والرياح التي جاءت يوم الخندق قابلها ثلوج وأمطار فاقت المألوف والمعتاد، وكانت من أسباب رحيل التتار، ورحيل الأحزاب عن المدينة بعد مناوشات بسيطة، قابله رحيل التتار عن الشام هذه السنة بعد مناوشات بسيطة حول دمشق وحماة. اهـ. «مناقب الشام وأهله» لابن تيمية (ص: ٧٣)، وانظر الرسالة في «العقود الدرية» (ص: ١٢٠ ـ ١٧٥).

(١) انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٧ ـ ١٤).

(٢) من شهر شعبان سنة ٧٠٢هـ.

(٣) سبق التعريف بغالب الأعيان.

(٤) من مدن سوريا اليوم.

(٥) مضى التعريف بهما.

السلطان[1] ببقية الجيش، وقال الناس: لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لكثرتهم، وإنما سبيلهم أن يتأخروا عنهم مرحلة مرحلة، وتحدث الناس بالأراجيف فاجتمع الأمراء يوم الأحد المذكور بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو، وشجعوا أنفسهم، ونودي بالبلد أن لا يرحل أحد منه، فسكن الناس وجلس القضاة بالجامع وحلفوا جماعة من الفقهاء والعامة على القتال، **وتوجه الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم في «القُطَيْفة»[2] فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم.**

وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يحلف للأمراء والناس أنكم في هذه الكرّة منصورون، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله.

فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً.

وكان يتأول في ذلك أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾[3].

وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتر من أي قبيل هو فإنهم يُظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام، فإنّهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه.

فقال الشيخ تقي الدين: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على عليّ ومعاوية ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق

---

(١) السلطان محمد بن قلاوون.

(٢) بلدة على طريق القادم إلى دمشق من حمص، وهي على بعد ٤٠ كم من دمشق. «معركة شقحب» (ص: ٢٠).

(٣) سورة الحج: (٦٠).

بإقامة الحق من المسلمين ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة.

فتفطن العلماء والناس لذلك، وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني.

فتشجع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم ونياتهم ولله الحمد.

ولما كان الرابع والعشرين من شعبان خرجت العساكر الشامية فخيمت على الجسورة من ناحية الكسوة، ومعهم القضاة، فصار الناس فيهم فريقين، فريق يقولون: إنما ساروا ليختاروا موضعاً للقتال فإن المرج فيه مياه كثيرة فلا يستطيعون معها القتال. وقال فريق: إنما ساروا لتلك الجهة ليهربوا وليلحقوا بالسلطان. فلما كانت ليلة الخميس ساروا إلى ناحية الكسوة فقويت ظنون الناس في هربهم، وقد وصلت التتار إلى «قارة». وقيل إنهم وصلوا إلى «القطيفة»، فانزعج الناس لذلك شديداً ولم يبق حول القرى والحواضر أحد، وامتلأت القلعة والبلد وازدحمت المنازل والطرقات واضطرب الناس، وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية صبيحة يوم الخميس من الشهر المذكور من «باب النصر» بمشقة كبيرة، وصحبته جماعة ليشهد القتال بنفسه ومن معه، فظنوا أنه إنما خرج هارباً فحصل اللوم من بعض الناس، وقالوا: أنت منعتنا من الجفل وها أنت هارب من البلد؟ فلم يرد عليهم، وبقي البلد ليس فيه حاكم.

وجاس اللصوص والحرافيش[1] فيه وفي بساتين الناس يخربون

---

(١) الحرافيش: جمع حَرْفوش، وهو الجافي الغليظ المُتَهَيِّئ للشر والسافل من الناس، ومن معانيها: الفقراء والمتشردون والمتسولون. انظر «حاشية النجوم» (١٥ / ٩٧) و(٨ / ٨٨) و«القاموس المحيط».

وينتهبون ما قدروا عليه، ويقطعون المشمش قبل أوانه والباقلاء والقمح وسائر الخضروات، وحيل بين الناس وبين خبر الجيش وانقطعت الطريق إلى الكسوة وظهرت الوحشة على البلد والحواضر، وليس للناس شغل غير الصعود إلى المآذن ينظرون يميناً وشمالاً، وإلى ناحية الكسوة، فتارة يقولون: رأينا غبرة فيخافون أن تكون من التتر ويتعجبون من الجيش مع كثرتهم وجودة عدتهم وعددهم، أين ذهبوا؟ فلا يدرون ما فعل الله بهم، فانقطعت الآمال وألح الناس في الدعاء والابتهال وفي الصلوات وفي كل حال، وذلك يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان، وكان الناس في خوف ورعب لا يعبر عنه، لكن كان الفرج من ذلك قريباً، ولكن أكثرهم لا يفلحون كما جاء في حديث أبي رزين: «عجب ربك من قنوط عباده وقرب غِيَرِهِ ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب»[1].

فلما كان آخر هذا اليوم وصل الأمير فخر الدين إياس المرقبي أحد أمراء دمشق فبشر الناس بخبر، هو أن السلطان قد وصل وقت اجتمعت العساكر المصرية والشامية، وقد أرسلني أكشف هل طرق البلد أحد من التتر فوجد الأمر كما يحب لم يطرقها أحد منهم، وذلك أن التتار عرجوا من دمشق إلى ناحية العساكر المصرية ولم يشتغلوا بالبلد، وقد قالوا إن غَلبنا فإن البلد لنا، وإن غُلبنا فلا حاجة لنا به، ونودي بالبلد في تطييب الخواطر وأن السلطان قد وصل فاطمأن الناس وسكنت قلوبهم.

وأثبت الشهر ليلة الجمعة القاضي تقي الدين الحنبلي فإن السماء كانت مغيمة فعلقت القناديل وصليت التراويح واستبشر الناس بشهر رمضان وبركته وأصبح الناس يوم الجمعة في هم شديد وخوف أكيد، لأنهم لا

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨١) وأحمد (٤ / ١٢، ١٣) وغيرهما، وليراجع لفظه.

يعلمون ما خبر الناس، فبينما هم كذلك إذ جاء الأمير سيف الدين غرلو العادلي فاجتمع بنائب القلعة ثم عاد سريعاً إلى العسكر، ولم يدر أحد ما أخبر به، ووقع الناس في الأراجيف والخوض.

[صفة وقعة شقحب[1]]

قال الحافظ ابن كثير: أصبح الناس يوم السبت على ما كانوا عليه من الخوف وضيق الأمر فرأوا من المآذن سواداً وغبرة من ناحية العسكر والعدو[2]، فغلب على الظنون أن الوقعة في هذا اليوم فابتهلوا إلى الله عز وجل بالدعاء في المساجد والبلد، وطلع النساء والصغار على الأسطحة وكشفوا رؤوسهم وضج البلد ضجة عظيمة.

ووقع في ذلك الوقت مطر عظيم غزير، ثم سكن الناس، فلما كان بعد الظهر قرئت بطاقة بالجامع تتضمن أن في الساعة الثانية من نهار السبت هذا، اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان في مرج الصُّفر وفيها طلب الدعاء من الناس والأمر بحفظ القلعة، والتحرز على الأسوار فدعا الناس في المآذن والبلد وانقضى النهار وكان يوماً مزعجاً هائلاً.

وأصبح الناس يوم الأحد يتحدثون بكسر التتر، وخرج الناس إلى ناحية الكسوة فرجعوا ومعهم شيء من المكاسب، ومعهم رؤوس التتر، وصارت كسرة التتار تقوى وتتزايد قليلاً قليلاً حتى اتضحت جملة، ولكن

---

(١) شقحب: عين ماء حولها مرج جنوبي دمشق على يمين الذاهب إلى حوران بعد الكسوة. اهـ من «مناقب الشام وأهله» لابن تيمية ـ تحقيق الألباني (ص: ٨٧).

(٢) ثم ورد الخبر بوصول التتار في خمسين ألفاً مع قطلوشاه نائب غازان فلبس العسكر بأجمعه السلاح واتفقوا على قتال التتار بشقحب تحت جبل غباغب. اهـ. «النجوم الزاهرة» (٨/ ١٥٩).

الناس لما عندهم من شدة الخوف وكثرة التتر لا يصدقون، فلما كان بعد الظهر قرئ كتاب السلطان إلى متولي القلعة يخبر فيه باجتماع الجيش ظهر يوم السبت بشقحب وبالكسوة، ثم جاءت بطاقة بعد العصر من نائب السلطان جمال الدين آقوش الأفرم إلى نائب القلعة مضمونها أن الوقعة كانت من العصر يوم السبت إلى الساعة الثانية من يوم الأحد، وأن السيف كان يعمل في رقاب التتر ليلاً ونهاراً وأنهم هربوا وفروا واعتصموا بالجبال والتلال، وإنه لم يسلم منهم إلا القليل.

فأمسى الناس وقد استقرت خواطرهم وتباشروا لهذا الفتح العظيم والنصر المبارك ودقت البشائر بالقلعة من أول النهار المذكور ونودي بعد الظهر بإخراج الجفال[1] من القلعة لأجل نزول السلطان بها، وشرعوا في الخروج.

وفي يوم الاثنين رابع الشهر[2]، رجع الناس من الكسوة إلى دمشق فبشروا الناس بالنصر.

وفيه دخل الشيخ تقي الدين ابن تيمية البلد ومعه أصحابه من الجهاد ففرح الناس به ودعوا له وهنؤوه بما يسّر الله على يديه من الخير. وذلك أنه ندبه العسكر الشامي أن يسير إلى السلطان يستحثّه على السير إلى دمشق. فسار إليه فحثّه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر فجاء هو وإياه جميعاً.

فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال.

فقال له الشيخ: السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه ونحن من جيش

---

(١) الشاردون النافرون.

(٢) رمضان من سنة (٧٠٢هـ).

الشام لا نقف إلا معهم.

وحرّض السلطان على القتال وبشّره بالنصر، وجعل يحلف بالله الذي لا إلٰه إلا هو أنّكم منصورون عليهم في هذه المرّة.

فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله؟

فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً.

وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم وأفطر هو أيضاً، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليعلمهم أن إفطارهم ليتقووا على القتال أفضل فيأكل الناس، وكان يتأول في الشاميين قوله ﷺ: «إنكم ملاقوا العدو غداً والفطر أقوى لكم». فعزم عليهم في الفطر عام الفتح كما في حديث أبي سعيد الخدري[1].

وكان الخليفة أبو الربيع سليمان في صحبة السلطان، ولما اصطفت العساكر والتحم القتال ثبت السلطان ثباتاً عظيماً وأمر بجواده فقيد حتى لا يهرب، وبايع الله تعالى في ذلك الموقف، وجرت خطوب عظيمة، وقتل جماعة من سادات الأمراء يومئذ، منهم الأمير حسام الدين لاجين الرومي أستاذ دار السلطان، وثمانية من الأمراء المقدمين معه، وصلاح الدين ابن الملك السعيد الكامل بن السعيد بن الصالح إسماعيل، وخلق من كبار الأمراء، ثم نزل النصر على المسلمين قريب العصر يومئذ واستظهر المسلمون عليهم، ولله الحمد والمنة.

فلما جاء الليل لجأ التتر إلى اقتحام التلول والجبال والآكام، فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الهرب، ويرمونهم عن قوس واحدة إلى وقت

---

(١) أخرجه مسلم (١١٢٠) وغيره.

الفجر، فقتلوا منهم ما لا يعلم عدده إلا الله عز وجل، وجعلوا يجيئون بهم في الحبال فتضرب أعناقهم، ثم اقتحم منهم جماعة الهزيمة فنجا منهم قليل، ثم كانوا يتساقطون في الأودية والمهالك، ثم بعد ذلك غرق منهم جماعة في الفرات بسبب الظلام، وكشف الله بذلك عن المسلمين غمة عظيمة شديدة، ولله الحمد والمنة.

ودخل السلطان إلى دمشق يوم الثلاثاء، خامس رمضان وبين يديه الخليفة، وزينت البلد وفرح كل واحد من أهل الجمعة والسبت والأحد، فنزل السلطان في القصر الأبلق والميدان، ثم تحول إلى القلعة يوم الخميس وصلى بها الجمعة وخلع على نواب البلاد وأمرهم بالرجوع إلى بلادهم واستقرت الخواطر، وذهب اليأس وطابت قلوب الناس، ثم عاد السلطان إلى الديار المصرية يوم الثلاثاء، ثالث شوال بعد أن صام رمضان وعيَّد بدمشق[1]. اهـ.

[شيخ الإسلام بطل معركة شقحب]

قال الحافظ ابن عبد الهادي: وفي أوّل شهر رمضان من سنة اثنتين وسبعمائة، كانت وقعة «شقحب» المشهورة وحصل للنّاس شدّة عظيمة. وظهر فيها من كرامات الشيخ وإجابة دعائه وعظم جهاده وقوّة إيمانه، وشدّة نُصحه للإسلام وفرط شجاعته ونهاية كرمه، وغير ذلك من صفاته ما يفوق النعت ويتجاوز الوصف.

ولقد قرأت بخط بعض أصحابه ـ وقد ذكر هذه الواقعة وكثرة من حضرها مِنْ جيوش المسلمين ـ قال: واتفقت كلمة إجماعهم على تعظيم

---

(١) انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٢٤ ـ ٢٨).

الشيخ تقيّ الدين ومحبته وسماع كلامه ونصيحته، واتّعظوا بمواعظه، وسأله بعضهم مسائل في أمر الدين، ولم يبق من ملوك الشام تركي ولا عربي إلاّ واجتمع بالشيخ في تلك المدة، واعتقد خيره وصلاحه ونصحه لله ولرسوله وللمؤمنين.

قال: ثم ساق الله سبحانه جيش الإسلام العرمرم المصري، صحبةَ أمير المؤمنين والسلطان الملك النّاصر وولاة الأمر وزعماء الجيش وعظماء المملكة والأمراء المصريين عن آخرهم بجيوش الإسلام سوْقاً حثيثاً للقاء التتار المخذولين.

فاجتمع الشيخ المذكور بالخليفة والسلطان وأرباب الحل والعقد، وأعيان الأمراء عن آخرهم وكلهم «بمرج الصُّفَّر» قِبْليَّ دمشق المحروسة. وبينهم وبين التتار أقل من مقدار ثلاث ساعات مسافة.

ودار بين الشيخ المذكور وبينهم ما دار بين الشاميّين وبينه وكان بينهم ومعهم كأحد أعيانهم، واتفق له من اجتماعهم ما لم يتفق لأحدٍ قبله من أبناء جنسه، حيث اجتمعوا بجملتهم في مكانٍ واحدٍ في يومٍ واحد على أمرٍ جامعٍ لهم وله مُهمٍّ عظيم، يحتاجون فيه إلى سماع كلامه، هذا توفيقٌ عظيم كانَ من الله تعالى له لم يتفق لمثله.

وبقي الشيخ المذكور ـ رضي الله عنه ـ هو وأخوه وأصحابه ومَن معه من الغزاة قائماً بظهوره وجهاده ولأمة حربه، يوصي النَّاس بالثبات ويعدهم بالنّصر ويبشّرهم بالغنيمة والفوز بإحدى الحسنييْن إلى أنْ صدق الله وعده وأعزّ جنده، وهزم التتار وحده ونصر المؤمنين وهزم الجمعَ وولّوا الدُّبر، وكانت كلمة الله هي العليا وكلمة الكفار هي السفلى وقطع دابر القومِ الكفار، والحمد لله ربّ العالمين.



[دخول الشيخ وحزبه شاكيا سلاحه بعد هزيمة التتار]

ودخل جيش الإسلام المنصور إلى دمشق المحروسة والشيخ في أصحابه شاكياً في سلاحه، داخلاً معهم، عالية كلمته، قائمة حجّته ظاهرة ولايته مقبولة شجاعته، مجابة دعوته ملتمسة بركته، مكرّماً معظّماً ذا سلطانٍ وكلمةٍ نافذة.

وهو مع ذلك يقول للمدّاحين له: أنا رجلُ مِلّة لا رجلُ دولة[1]. اهـ.

[تشجيع شيخ الإسلام الخليفة والسلطان وتثبيتهما في ساحة المعركة]

وحُكي من شجاعة الشيخ في مواقف الحروب «نوبة شقحب» سنة اثنين وسبعمائة ونوْبة «كسروان» ما لم يُسمع إلاّ عن صناديد الرجال والشجعان الأبطال. فكان تارة يُباشر القتال وتارة يُحرِّض عليه قائماً بظهوره وجهاده شاكياً في سلاحه ولأمة حربه. يوصي الناس بالثبات ويعدهم بالنصر ويبشِّرهم بالغنيمة.

وركب البريد إلى مهنى بن عيسى واستحضره إلى الجهاد، وركب بعدها إلى السلطان واستنفره وواجهه بالكلام الغليظ أُمراءه وعسكره.

ولمّا جاء السلطان الملك الناصر بجيوش الإسلام للقاء التتار وشقحب جعل الشيخ يشجع السلطان ويثبته.

فلمّا رأى السلطان كثرة التتار قال: يا خالد بن الوليد!

فقال له: لا تقُل هذا، بل قُل: يا اللّه، واستعن بالله ربّك ووحِّده

(١) «العقود الدرية» (ص: ١٧٥ ـ ١٧٧).

وحده تُنصر.

وقل: يا مالك يوم الدين إيّاك نعبد وإيّاك نستعين. ثُم صار تارة يُقبل على الخليفة وتارة على السلطان ويربط جأشهما حتى جاء نصر الله والفتح.

وحُكي أنّه قال للسلطان: اثبت فأنت منصور.

فقال له بعض الأمراء: قل إن شاء الله. فقال: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً فكان كما قال[1]. اهـ.

[فرط شجاعة شيخ الإسلام وبأسه عند قتال الكفار]

قال: ولقد أخبرني حاجبٌ من الحجّاب الشاميّين أمير من أمرائهم ذو دينٍ متين وصدقٍ لهجةٍ معروف في الدولة، قال: قال لي الشيخ يوم اللقاء ونحن «بمرج الصُّفَّر» وقد تراءى الجمعان: يا فلان أوقفني موقف الموت.

قال: فسُقته إلى مقابلةِ العدوّ، وهم منحدرون كالسيْل، تلوح أسلحتهم من تحتِ الغبار المنعقد عليهم.

ثمّ قلت له: يا سيِّدي، هذا موقف الموت وهذا العدوّ قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة، فدونك وما تريد.

قال: فرفع طرفه إلى السماء، وأشخصَ بصره وحرّك شفتيْه طويلاً. ثمّ انبعثَ وأقدم على القتال. وأمّا أنا فَخُيِّلَ إليَّ أنه دعا عليهم وأنّ دعاءَه استُجيب منه في تلك الساعة.

قال: ثمّ حال القتال بيننا والالتحام، وما عُدتُ رأيته حتى فتح الله

---

(١) «الكواكب الدرية» (ص: ٩٦).

ونصر وانحاز التتار إلى جبلٍ صغير عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة، وكان آخر النهار.

قال: وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما تحريضاً على القتال وتخويفاً للنّاسِ من الفرار.

فقلت: يا سيِّدي، لك البشارة بالنّصر، فإنّه قد فتح الله ونصر، وها هم التتّار محصورون بهذا السفح، وفي غد إن شاء الله تعالى يؤخذون عن آخرهم.

قال: فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ودعا لي في ذلك الموطن دعاء وجدت بركته في ذلك الوقت وبعده.

[وقعة جبل كسروان]

قال: ثم لم يزل الشيخ بعد ذلك على زيادةٍ في الحال والقال والجاه والتحقيق في العلم والعرفان، حتى حرّك الله سبحانه عزمات نفوس وُلاةِ الأمرِ لقتالِ[1] أهلِ جبل كسروان، وهم الذين بغوْا وخرجوا على الإمام وأخافوا السُّبل وعارضوا المارِّين بهم من الجيش بكلِّ سوء.

فقام الشيخ في ذلك أتمّ قيام، وكتب إلى أطرافِ الشامِ في الحثِّ على قتالِ المذكورين وأنها غزاة في سبيل الله.

ثمّ تجهّز هو بمن معه لغزوهم بالجبل[2]، صَحِبَهُ وليُّ الأمر نائب

---

(١) قال ابن كثير: وفي مستهل ذي الحجة (٧٠٤هـ) ركب الشيخ تقي الدين ابن تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الكرد والكسروانيين ومعه نقيب الأشراف زين الدين بن عدنان، فاستتابوا خلقاً منهم وألزموهم بشرائع الإسلام ورجع مؤيداً منصوراً. اهـ. «البداية والنهاية» (١٤ / ٣٧)، وفي «العقود» (ص: ١٨١): وصحبته: الأمير قراقوش.

(٢) خرج نائب السلطنة (ثاني المحرم ٧٠٥هـ) بمن بقي من الجيوش الشامية، وقد كان تقدم=

المملكة المعظمة أعزّ الله نصره والجيوش الشاميّة المنصورة، وما زال مع ولي الأمر في حصارهم وقتالهم حتى فتح الله الجبل وأجلى أهله.

وكان من أصعبِ الجبال وأشقها ساحة، وكانت الملوك المتقدِّمة لا تُقدِم على حصاره مع علمها بما عليه أهله من البغي والخروج على الإمام والعصيان وليس إلاّ لصعوبة المسلك ومشقَّة النزول عليهم.

وكذلك لمّا حاصرهم «بَيْدَرا» بالجيش رحل عنهم، ولم يَنَل منهم منالاً، لذلك السبب ولغيره وذلك عقيب فتح قلعة الروم ففتحه الله على يدي وليِّ الأمر نائب الشام المحروس أعزّ الله نصره.

[فتح الجبل من كرامات شيخ الإسلام]

وكان فتحه أحد المكرمات والكرامات المعدودة للشيخ، لسببين على ما يقوله النّاس:

أحدهما: لكون أهل هذا الجبل بُغاة رافضة سبّابة تعيّن قتالهم.

والثاني: لأنّ جبل الصالحيّة لمّا استولت الرّافضة عليه ـ في حالِ استيلاء الطاغية قازان ـ أشار بعض كبريائهم بنهب الجبل، وسَبْي أهله وقتلهم، وتحريق مساكنهم، انتقاماً لكونهم سنيّة، وسمّاهم ذلك المشير: نواصِب. فكان ما كان من أمر جبل الصالحيّة بذلك القول وتلك الإشارة.

= بين يديه طائفة من الجيش مع ابن تيمية في ثاني المحرم، فساروا إلى بلاد الجرد، والرفض والتيامنة.

فخرج نائب السلطنة الأفرم بنفسه بعد خروج الشيخ لغزوهم فنصرهم الله عليهم وأبادوا خلقاً كثيراً منهم ومن فرقتهم الضالة ووطئوا أراضيَ كثيرة من صنع بلادهم. اهـ. «البداية والنهاية» (١٤ / ٣٨).

قالوا: فكوفىء الرافضة بمثل ذلك بإشارة كبيرة من كبراء أهل السنة، وزناً بوزن جزاءً على يد وليِّ الأمر وجيوش الإسلام.

والمشير المذكور؛ هو الشيخ المشار إليه.

ولمّا فُتِحَ الجبل وصارَ الجيشُ بعد الفتح إلى دمشق المحروسة، عكف خاصُّ الناسِ وعامّهم على الشيخ بالزيارة والتسليم عليه والتهنئة بسلامته، والمسألةَ له منهم عن كيفيّة الحصار للجبل، وصورة قتال أهله وعمّا وقع بينهم وبين الجيوش من المراسلات وغيرها. فحكى الشيخ ذلك[1]. اهـ.

قال ابن كثير: وعاد نائب السلطنة إلى دمشق في صحبته الشيخ ابن تيمية والجيش وقد حصل بسبب شهود الشيخ هذه الغزوة خير كثير، وأبان الشيخ علماً وشجاعة في هذه الغزوة، وقد امتلأت قلوب أعدائه حسداً له وغماً[2]. اهـ.

قال ابن عبد الهادي: ثم إن الشيخ رحمه الله ـ بعد وقعة جبل كسروان ـ أرسل رسالة إلى السلطان الملك الناصر، يذكر فيها ما أنعم الله على السلطان وعلى أهل الإسلام، بسبب فتوح الجبل المذكور[3]. اهـ.

---

(١) «العقود الدرية» (ص: ١٧٧ ـ ١٨٠).

(٢) «البداية والنهاية» (١٤ / ٣٨).

(٣) «العقود الدرية» (ص: ١٨٢)، وانظرها كاملة هناك. وفي «مجموع الفتاوى» (٢٨ / ٣٩٨ـ٤٠٩).



[مقتطفات من رسالة الشيخ إلى السلطان الملك الناصر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من الداعي أحمد ابن تيمية إلى سلطان المسلمين، ومن أيد الله في دولته الدين، وأعز بها عباده المؤمنين، وقمع فيها الكفار والمنافقين والخوارج المارقين، نصره الله ونصر به الإسلام، وأصلح له وبه أمور الخاص والعام، وأحيا به معالم الإيمان، وأقام به شرائع القرآن وأذلّ به أهل الكفر والفسوق والعصيان.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. . . .

[بيان عقائد أهل الجبل وأنهم من أكابر المفسدين في أمر الدنيا والدين]

. . . فإن اعتقادهم: إن أبا بكر وعمر وعثمان، وأهل بَدْر، وبَيْعة الرِّضوان وجمهور المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، وأئمة الإسلام وعلماءهم أهل المذاهب الأربعة وغيرهم، ومشايخ الإسلام وعُبَّادهم، وملوك المسلمين وأجنادهم، وعوام المسلمين وأفرادهم، كل هؤلاء عندهم كُفَّار مُرتدُّون، أكفر من اليهود والنصارى، لأنهم مرتدُّون عندهم والمرتدّ شَرٌّ من الكافر الأصلي، ولهذا السبب يُقدِّمون الفرنج والتتار على أهل القرآن والإيمان.

[ذكر تحالفهم مع التتار ضد المسلمين]

ولهذا لما تقدم التتار إلى البلاد، وفعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد، وأرسلوا إلى أهل قُبرص فملكوا بعض الساحل، وحملوا راية الصَّليب، وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسْراهم ما لا يُحصي عَدَدَه إلا الله، وأقام سوقهم بالساحل عشرين يوماً

يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص[1]، وفرحوا بمجيء التتار، هم وسائر أهل هذا المذهب الملعون، ولما خرجت العساكر الإسلامية من الديار المصرية، ظهر فيهم من الخزي والنكال ما عرفه الناس منهم، ولما نصر الله الإسلام النُّصرة العظمى عند قدوم السلطان، كان بينهم شبيه بالعزاء.

[هذه الطائفة كانت من أعظم الأسباب في خروج جنكسخان إلى بلاد الإسلام]

كل هذا، وأعظم منه، عند هذه الطائفة التي كانت من أعظم الأسباب في خروج جَنْكِسخان إلى بلاد الإسلام، وفي استيلاء هولاكو على بغداد، وفي قدومه إلى حلب، وفي نهب «الصالحية»، وفي غير ذلك من أنواع العداوة للإسلام وأهله.

لأن عندهم أن كل من لم يوافقهم على ضلالهم فهو كافر مرتد[2].

[سبب كثرة فسادهم وإدخالهم الرعب على السكان]

والمكان الذي لهم في غاية الصعوبة، ذكر أهل الخبرة أنهم لم يروا مثله. ولهذا كثر فسادهم، فقتلوا من النفوس، وأخذوا من الأموال ما لا يعلمه إلا الله.

ولقد كان جيرانهم من أهل البقاع وغيرها معهم في أمر لا يُضْبط شرُّه، كل ليلة تنزل عليهم منهم طائفة، ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، كانوا في قطع الطرقات، وإخافة سكان البيوتات على أقبح

---

(١) أي: الصليبيين المحاربين للمسلمين. انظر «ابن تيمية» لأبي زهرة (ص: ٣٩ ـ ٤١).

(٢) ثم ذكر المذهب العقدي الذي تلقنه لهم أئمتهم.

سيرة عُرفت من أهل الجنايات، يرد إليهم النصارى من أهل قُبرص فيضيفونهم ويعطونهم سلاح المسلمين، ويقعون بالرجل الصالح من المسلمين، فإما أن يقتلوه أو يصلبوه، وقليل منهم من يفلت بالحيلة. . .

[قتالهم كان غزوة شرعية كما أمر الله ورسوله]

فأعان الله ويَسَّرَ بحسن نية السلطان وهمته في إقامة شرائع الإسلام، وعنايته بجهاد المارقين أن غُزوا غزوة شرعية، كما أمر الله ورسوله، بعد أن كشف أحوالهم، وأُزيحت عللهم، وأزيلت شُبههم، وبُذل لهم من العدل والإنصاف ما لم يكونوا يطمعون به، وبُيِّنَ لهم أن غزوهم اقتداء بسيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قتال «الحروريَّة» المارقين، الذين تواتر عن النبي الأمر بقتالهم ونعت حالهم من وجوه متعددة[1]. . . .

[رؤية شيخ الإسلام العميقة للحفاظ على النصر المحقق بإنفاذ مراسم السلطان بحسم مادة أهل الفساد وإقامة الشريعة بالبلاد ومعاقبة من عرف منهم بالبدعة والنفاق بما توجبه شريعة الإسلام]

تمام هذا الفتح وبركته تَقَدُّم مراسيم السلطان بحسْم مادَّة أهل الفساد، وإقامة الشريعة في البلاد، فإن هؤلاء القوم لهم من المشايخ والإخوان في قُرى كثيرة مَنْ يَقتدون بهم، وينتصرون لهم، وفي قلوبهم غِلٌّ عظيم، وإبطان معاداة شديدة، لا يؤمَنُون معها على ما يمكنهم، ولو أنه مباطنة العدو، فإذا أمسك رؤوسهم الذين يُضِلونهم ـ مثل بني العَوْد ـ زال بذلك

---

(١) انظرها في الرسالة نفسها (ص: ١٨ ـ ١٩١) من «العقود الدرية»، وبعد ذلك قارن شيخ الإسلام غزوته هذه بغزوة بني النضير وعلَّل قطعه أشجارهم. وانظر «المرجع السابق».

من الشر ما لا يعلمه إلا الله[1].

ويتقدم إلى قُراهم وهي قرى متعددة بأعمال دمشق، وصَفد، وطرابلس، وحَماة، وحمص، وحلب بأن يقام فيهم شرائع الإسلام، والجمعة، والجماعة، وقراءة القرآن، ويكون لهم خطباء ومؤذنون، كسائر قرى المسلمين، وتقرأ فيهم الأحاديث النبوية، وتنشر فيهم المعالم الإسلامية، ويعاقب من عُرف منهم بالبدعة والنفاق بما توجبه شريعة الإسلام.

فإن هؤلاء المحاربين وأمثالهم قالوا: نحن قوم جبال، وهؤلاء كانوا يعلموننا ويقولون لنا: أنتم إذا قاتلتم هؤلاء تكونون مجاهدين ومن قُتل منكم فهو شهيد.

وفي هؤلاء خلق كثير لا يقرُّون بصلاة، ولا صيام، ولا حج، ولا عمرة، ولا يُحَرِّمون الميتة، والدم، ولحم الخنزير، ولا يؤمنون بالجنة والنار، من جنس الإسماعيلية، والنُّصَيْريّة، والحاكميّة، والباطِنيّة، وهم كفار أكفر من اليهود والنصارى بإجماع المسلمين.

فتقدمُ المراسم السلطانية بإقامة شعائر الإسلام: من الجمعة، والجماعة، وقراءة القرآن، وتبليغ أحاديث النبي ﷺ في قُرى هؤلاء من أعظم المصالح الإسلامية، وأبلغ الجهاد في سبيل الله.

وذلك سبب لانقماع من يباطن العدو من هؤلاء، ودخولهم في طاعة

---

(١) وقد قال قبل ذلك مبيناً ثمرات هذه الغزوة سياسياً بأنه قد انكسر من أهل البدع والنفاق بالشام ومصر والحجاز واليمن والعراق، ما يرفع الله به درجات السلطان، ويُعزُّ به أهل الإيمان.

الله ورسوله، وطاعة أولي الأمر من المسلمين.

وهو من الأسباب التي يعين الله بها على قمع الأعداء.

فإن ما فعلوه بالمسلمين في أرض «سِيْس» نوع من غدرهم الذي به ينصر الله المسلمين عليهم، وفي ذلك لله حكمة عظيمة، ونصرة للإسلام جسيمة[1]. اهـ.

* * *

---

(١) مختصراً من «العقود الدرية» (ص: ١٨٢ ـ ١٩٤)، وعنوان الكتاب: «سلطان المسلمين، ومن أيَّد الله في دولته الدين، وقمع الكفار والمنافقين، أيَّد الله به الإسلام، ونشر عدله في الأنام».



الفصل الرابع

مناظرة شيخ الإسلام ابن تيمية
لدجاجلة البطائحية

مناظرة ابن تيمية لدجاجلة البطائحية

قال شيخ الإسلام[1]:

الحمد لله رب العالمين؛ وأشهد أن لا إله إلا الله رب السموات والأرضين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم تسليماً دائماً إلى يوم الدين.

[ذكر سبب كتابة شيخ الإسلام مناظرته للأحمدية]

(أما بعد) فقد كتبت ما حضرني ذكره في المشهد الكبير بقصر الإمارة والميدان بحضرة الخلق من الأمراء والكتاب والعلماء والفقراء العامة وغيرهم في أمر «البطائحية»[2] يوم السبت تاسع جمادى الأولى سنة

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٤٥ ـ ٤٧٥).

(٢) الرفاعية (أو البطائحية): أسسها أحمد بن الحسين الرفاعي، من بني رفاعة (قبيلة من العرب)، ولد وعاش في أم عَبيدة، من أعمال البصرة في العراق، ومات فيها سنة ٥٧٨هـ، والبطائح اسم المنطقة، وفي كتبهم يجعلونه من سلالة فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ويجعلون رفاعة أحد أجداده. اهـ «الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ» (ص: ٣٥٦).
وهي من الفرق الصوفية الضالة ولمزيد من الاطلاع انظر «التصوف في ميزان البحث والتحقيق» للشيخ عبد القادر بن حبيب الله السِّندي (ص ١١١ ـ ١٣٤).

خمس[1]، لتشوف الهمم إلى معرفة ذلك وحرص الناس على الاطلاع عليه، فإن من كان غائباً عن ذلك قد يسمع بعض أطراف الواقعة، ومن شهدها فقد رأى وسمع ما رأى وسمع، ومن الحاضرين من سمع ورأى ما لم يسمع غيره ويره لانتشار هذه الواقعة العظيمة.

ولما حصل بها من عز الدين، وظهور كلمته العليا، وقهر الناس على متابعة الكتاب والسنة، وظهور زيف من خرج عن ذلك من أهل البدع المضلة، والأحوال الفاسدة والتلبيس على المسلمين.

وقد كتبت في غير هذا الموضع صفة حال هؤلاء «البطائحية» وطريقهم وطريق (الشيخ أحمد بن الرفاعي) وحاله، وما وافقوا فيه المسلمين وما خالفوهم، ليتبين ما دخلوا فيه من دين الإسلام وما خرجوا فيه عن دين الإسلام؛ فإن ذلك يطول وصفه في هذا الموضع، وإنما كتبت هنا ما حضرني ذكره من حكاية هذه الواقعة المشهورة في مناظرتهم ومقابلتهم.

وذلك أني كنت أعلم من حالهم بما قد ذكرته في غير هذا الموضع ـ وهو أنهم وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام وطريقة الفقر والسلوك ويوجد في بعضهم التعبد والتأله والوجد والمحبة والزهد والفقر والتواضع ولين الجانب والملاطفة في المخاطبة والمعاشرة والكشف والتصرف ونحو ذلك ما يوجد ـ فيوجد أيضاً في بعضهم من الشرك وغيره من أنواع الكفر، ومن الغلو والبدع في الإسلام والإعراض عن كثير مما جاء به الرسول، والاستخفاف بشريعة الإسلام، والكذب والتلبيس، وإظهار المخارق

---

(١) بعد المئة السابعة.

الباطلة وأكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله ما يوجد.

[كثرة وقائع شيخ الإسلام مع الأحمدية وكشف زيفهم وتتويب جماعة منهم وتعزيره جماعة من شيوخهم]

قال: وقد تقدّمت لي معهم وقائع متعدِّدة بيّنت فيها لِمَن خاطبته منهم ومِنْ غيرهم بعض ما فيهم من حقٍّ وباطل، وأحوالهم التي يُسمُّونها الإشارات، وتاب منهم جماعة، وأدب منهم جماعة من شيوخهم.

وبيّنتُ صورةَ ما يُظهرونه من المخاريق[1]: مثل ملابسة النار والحيّات، وإظهار الدم واللاّذن والزعفران، وماء الورد والعسل والسكر، وغير ذلك.

وأنّ عامّة ذلك عن حِيلٍ معروفةٍ وأسبابٍ مصنوعة.

وأراد غير مرّة منهم قوم إظهار ذلك، فلمّا رأوْا معارضتي لهم رجعوا ودخلوا عليّ أنْ أسترهم. فأجبتهم إلى ذلك بشرط التوبة.

حتى قال لي شيخٌ منهم في مجلس عامٍّ فيه جماعة كثيرة ببعض البساتين لما عارضتهم بأنِّي أدخلُ معكم النّارَ بعد أنْ نغتسل بما يذهب الحيلة، ومن احترق كان مغلوباً، فلمّا رأوا الصدقَ أمسكوا عن ذلك.

---

(١) أطلقوا اسم المخارق والمخاريق على الخوارق المفتعلة بالحيل والتلبيس والشعوذة وهي في أصل اللغة ضرب من لعب الصبيان. اهـ. من«الرسائل والمسائل» (١ / ١٣٤).

وانظر خوارق العادة عند الصوفية ومناقشتها في كتاب «الكشف عن حقيقة الصوفية» (ص ٦٤٧ ـ ٦٦٤).

[صورة من تلبيسهم الشيطاني على بعض أمراء التتر
وشيخ الإسلام يتحداهم بفضح أمرهم]

قال شيخ الإسلام: وحكى ذلك الشيْخ أنّه كان مرّةً عند بعض أُمراء التتر بالمشرق، وكان له صنمٌ يعبده.

قال: فقال لي: هذا الصنم يأكل من هٰذا الطعام كل يوم ويبقى أثرُ الأكل في الطعام بيناً يُرى فيه!! فأنكرتُ ذلك.

فقال لي: إن كان يأكل أنت تموت.

فقلتُ: نعم.

قال: فأقمتُ عندهُ إلى نصفِ النَّهار ولم يظهر في الطعام أثر!

فاستعظم ذلك التتريّ وأقسمَ بأيْمانٍ مغلَّظة أنّه كل يوم يُرى فيه أثر الأكل لٰكن اليوم بحضورك لم يظهر ذلك.

فقلتُ لهذا الشيخ: أنا أبيّن لك سبب ذلك؛ ذلك التتريّ كافر مشرك، ولصنمه شيطانٌ يغويه بما يظهره من الأثر في الطعام، وأنت كان معك من نور الإسلام وتأييد الله تعالى ما أوجب انصراف الشيطان عن أن يفعل ذلك بحضورك وأنت وأمثالك بالنِّسبة إلى أهل الإسلام الخالص كالتتريّ بالنسبة إلى أمثالك.

فالتتريّ وأمثاله سود، وأهل الإسلام المحض بيض، وأنتم بلق فيكم سواد وبياض. فأعجب هذا المثل من كان حاضراً.

[شيخ الإسلام يمنعهم من إظهار الإشارات الشيطانية ويتحداهم فينقلبون صاغرين]

قال: وقلتُ لهم في مجلسٍ آخر لمّا قالوا: تريدُ أن نظهِرَ هذه الإشارات؟

قلت: إنْ عملتموها بحضور مَنْ ليس من أهل الشأن: من الأعراب والفلاّحين، أو الأتراك أو العامّة أو جمهور المتفقّهة والمتفقرة والمتصوِّفة لم يحسب لكم ذلك.

فمَن معه ذهب فليأتِ به إلى سوقِ الصّرف إلى عند الجهابذة الّذين يعرفون الذهب الخالص من المغشوش ومن الصفر[1] لا يذهب إلى عند أهلِ الجهل بذلك.

فقالوا لي: لا نعمل هٰذا إلاّ أن تكون همّتك معنا.

فقلتُ: همّتي ليست معكم بل أنا معارِضٌ لكم ممانِعٌ لكم لأنكم تقصدونَ بذلك إبطال شريعة رسول الله ـ ﷺ ـ، فإن كان لكم قدرة على إظهار ذلك فافعلوا، فانقلبوا صاغرين.

[جماعة من الأحمدية تطوق أعناقها بأغلال الحديد وشيخ الإسلام يأمرهم بخلع أطواقهم ويوضح بالبرهان أن فعلهم من أعظم المحرمات وأكبر السيئات وأنه من البدع المنكرات وإظهارهم الموافقة لكلام شيخ الإسلام]

قال: فلمّا كان قبل هذه الواقعة بمدة كان يدخل منهم جماعة معَ شيخٍ لهم من شيوخِ البرّ مطوَّقين بأغلالِ الحديد في أعناقهم وهو وأتباعه

(١) النحاس.

معروفون بأمور.

وكان يحضر عندي مرات فأُخاطبه بالتي هي أحسن، فلمّا ذكر النَّاس ما يُظهرونه من الشِّعار المبتدع الذي يتميّزون به عن المسلمين ويتخذونه عبادة وديناً، يوهمون به النّاس أنّ هٰذا للّه سِرٌّ من أسرارهم، وأنّه سيماءُ أهلِ الموهبة الإلٰهيّة السالكين طريقهم ـ أعني طريق ذلك الشيخ وأتباعه ـ. خاطبته في ذلك بالمسجدِ الجامع، وقلت: هذا بدعة لم يشرعها الله تعالى ولا رسوله ولا فعل ذلك أحدٌ من سلفِ هذه الأمة ولا من المشايخ الذين يُقتدى بهم، ولا يجوزُ التعبّد بذلك ولا التقرُّب به إلى الله تعالى، لأنّ عبادة الله بما لم يشرعه ضلالة.

ولباس الحديد على غير وجه التعبد قد كرهه من كرهه من العلماء للحديث المروي في ذلك وهو أن النبي ﷺ رأى على رجل خاتماً من حديد فقال: «مالي أرى عليك حلية أهل النار»[1].

وقد وصف الله تعالى أهل النار بأن في أعناقهم الأغلال[2]، فالتشبه بأهل النار من المنكرات. وقال بعض الناس: قد ثبت في «الصحيح» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في حديث الرؤيا قال في آخره: «أحب القيد وأكره الغُلَّ. القيد ثبات في الدين»[3]. فإذا كان مكروهاً في المنام فكيف في اليقظة؟!

فقلت له في ذلك المجلس ما تقدم من الكلام أو نحواً منه مع زيادة، وخوفته من عاقبة الإصرار على البدعة، وأن ذلك يوجب عقوبة فاعله،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٢٣) وغيره وهو في «صحيح الجامع» (٥٥٤٠).

(٢) كقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ [يس: ٨].

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٠١٧ ـ فتح)، ومسلم (٢٢٦٣) واللفظ له، وغيرهما.

ونحو ذلك من الكلام الذي نسيت أكثره لبعد عهدي به.

وذلك أن الأمور التي ليست مستحبة في الشرع لا يجوز التعبد بها باتفاق المسلمين، ولا التقرب بها إلى الله ولا اتخاذها طريقاً إلى الله وسبباً لأن يكون الرجل من أولياء الله وأحبائه ولا اعتقاد أن الله يحبها أو يحب أصحابها كذلك، أو أن اتخاذها يزداد به الرجل خيراً عند الله وقربة إليه ولا أن يجعل شعاراً للتائبين المريدين وجه الله، الذين هم أفضل ممن ليس مثلهم.

فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به، وهو أن المباحات إنما تكون مباحة إذا جعلت مباحات، فأما إذا اتخذت واجبات أو مستحبات كان ذلك ديناً لم يشرعه الله، وجعل ما ليس من الواجبات والمستحبات منها بمنزلة جعل ما ليس من المحرمات منها، فلا حرام إلا ما حرم الله، ولا دين إلا ما شرعه الله؛ ولهذا عظم ذم الله في القرآن لمن شرع ديناً لم يأذن الله به، ولمن حرم ما لم يأذن الله بتحريمه، فإذا كان هذا في المباحات فكيف بالمكروهات أو المحرمات؟!

ولهذا كانت هذه الأمور لا تلزم بالنذر، فلو نذر الرجل فعل مباح أو مكروه أو محرم لم يجب عليه فعله كما يجب عليه إذا نذر طاعة الله أن يطيعه؛ بل عليه كفارة يمين إذا لم يفعل عند أحمد وغيره، وعند آخرين لا شيء عليه، فلا يصير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة [طاعة وعبادة][1].

ونحو ذلك العهود التي تتخذ على الناس لالتزام طريقة شيخ معين كعهود أهل «الفتوة» و«رماة البندق» ونحو ذلك ليس على الرجل أن يلتزم من ذلك على وجه الدين والطاعة لله إلا ما كان ديناً وطاعة لله ورسوله في

---

(١) انظر «الرسائل والمسائل» (١ / ١٣٧).

شرع الله؛ لكن قد يكون عليه كفارة عند الحنث في ذلك.

ولهذا أمرت غير واحد أن يعدل عما أخذ عليه من العهد بالتزام طريقة مرجوحة أو مشتملة على أنواع من البدع إلى ما هو خير منها من طاعة الله ورسوله ﷺ واتباع الكتاب والسنة؛ إذ كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أو يقول عن عمل: إنه قربة وطاعة وبر وطريق إلى الله واجب أو مستحب إلا أن يكون مما أمر الله به ورسوله ﷺ؛ وذلك يعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك، وما علم باتفاق الأمة أنه ليس بواجب ولا مستحب ولا قربة لم يجز أن يعتقد أو يقال أنه قربة وطاعة.

فكذلك هم متفقون على أنه لا يجوز قصد التقرب به إلى الله، ولا التعبد به ولا اتخاذه ديناً ولا عمله من الحسنات، فلا يجوز جعله من الدين لا باعتقاد وقول، ولا بإرادة وعمل.

وبإهمال هذا الأصل غلط خلق كثير من العلماء والعباد يرون الشيء إذا لم يكن محرماً لا ينهى عنه؛ بل يقال إنه جائز، ولا يفرقون بين اتخاذه ديناً وطاعة وبراً، وبين استعماله كما تستعمل المباحات المحضة، ومعلوم أن اتخاذه ديناً بالاعتقاد أو الاقتصاد أو بهما أو بالقول أو بالعمل أو بهما من أعظم المحرمات وأكبر السيئات، وهذا من البدع المنكرات التي هي أعظم من المعاصي التي يعلم أنها معاصي وسيئات.

[إصرارهم على الابتداع في الدين وإظهارهم ما يخالف شرعة المسلمين وشيخ الإسلام يسلك معهم مسلك الرفق والأناة]

فلمّا نهيتهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة ومضت على ذلك مدة، والنّاسُ يذكرون عنهم الإصرارَ على الابتداع في الدين وإظهار ما يخالف شِرعة المسلمين، ويطلبون الإيقاع بهم، وأنا أسلك مسلك الرِّفق

والأناة وأنتظر الرجوعَ والفيئة وأُأخر الخطابَ إلى أنْ يحضر (ذلك الشيخ) المسجد الجامع.

وكان قد كتب إليّ كتاباً بعد كتاب فيه احتجاج واعتذار، وعتب وآثار، وهو كلامٌ باطلٌ لا تقوم به الحجّة، بل إمّا أحاديثُ موضوعة، أو إسرائيليّات غير مشروعة، وحقيقة الأمر الصدّ عن سبيل الله، وأكل أموال النّاس بالباطل.

فقلت لهم: الجواب يكون بالخطاب، فإنَّ جوابَ مثل هٰذا الكتاب لا يتم إلا بذلك، وحضر عندنا منهم شخص فنزعنا الغلَّ مِن عنقه.

وهؤلاء هم من أهل الأهواء الذين يتعبدون في كثير من الأمور بأهوائهم لا بما أمر الله تعالى ورسوله ﷺ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[1]، ولهذا غالب وجدهم هوى مطلق، لا يدرون من يعبدون، وفيهم شبه قوي من النصارى الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[2]؛ ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع أهل الأهواء.

فحملهم هواهم على أن تجمعوا تجمع الأحزاب، ودخلوا إلى المسجد الجامع مستعدين للحراب، بالأحوال التي يعدونها للغِلاب.

---

(١) القصص: [٥٠].

(٢) المائدة: [٧٧].



[شيخ الإسلام يطلب شيخهم للمناظرة واتباع الحجة... ويدخلون إلى المسجد للمحاربة بأحوالهم الشيطانية وذهابهم إلى قصر الإمارة مرتين للشكوى على شيخ الإسلام وأن يكف إنكاره عليهم ويسلم لهم حالهم]

قال: فلمّا قُضيت صلاة الجمعة أرسلتُ إلى شيخهم لنخاطبه بأمرِ اللهِ ورسولِهِ - ﷺ - ونتفق على اتباع سبيله، فخرجوا من المسجد الجامع في جموعهم إلى قصرِ الإمارة، وكأنهم اتفقوا معَ بعضِ الأكابر على مطلوبهم.

ثمّ رجعوا إلى مسجد الشاغوا[1] - على ما ذُكِر لي - وهم من الصِّيَاحِ والاضطرابِ على أمرٍ من أعجبِ العُجاب.

فأرسلتُ إليهم مرّةً ثانية لإقامة الحجة والمعذرة وطلباً للبيانِ والتبصرة ورجاءَ المنفعةِ والتذكرة فعمدوا إلى القصرِ مرّةً ثانية.

وذُكِر لي أنهم قدِموا من النَّاحية الغربيّة مُظهرين الضجيج والعجيج والإزبادَ والإرعاد، واضطرابَ الرؤوس والأعضاء، والتقلُّب في نهر بردى وإظهار التولُّه الذي يخيّلوا به على الردى، وأبرزوا ما يدّعونه من الحال والمحالَ الذي يسلمه إليهم من أضلّوا من الجُهّال.

فلمّا رأى الأميرُ ذلك هالَهُ ذلك المنظر، وسأل عنهم فقيل له: هم مشتكون.

فقال: ليدخل بعضهم. فدخل شيخهم وأظهرَ من الشكوى عليَّ

(١) انظر «منادمة الأطلال» (ص ٣٨١).

ودعوى الاعتداء مِنِّي عليهم كلاماً كثيراً لم يبلغني جميعه، لٰكن حدّثني مَنْ كانَ حاضراً، أنّ الأميرَ قال لهم: فهذا الذي يقولُه من عنده أو يقوله عن الله ورسوله - ﷺ -.

فقالوا: بل يقوله عن الله ورسولِه - ﷺ -.

قال: فأيُّ شيءٍ يُقال له؟

قالوا: نحن لنا أحوالٌ وطريقٌ يُسلَّمُ إلينا.

قال: فنسمع كلامَه فمن كان الحق معه نصرناه.

قالوا: نريدُ أن تشدَّ مِنّا.

قال: لا ولٰكن أشدُّ من الحق سواءٌ كان معكم أو معه.

قالوا: ولا بدَّ من حضورِه.

قال: نعم، فكرروا ذلك فأمر بإخراجهم. فأرسل إلى بعضِ خواصِّه من أهلِ الصدق والدين ممّن يعرف ضلالهم، وعرفني بصورةِ الحال وأنّه يريد كشف أمر هؤلاء.

فلمّا علِمتُ ذلك أُلقِيَ في قلبي أنّ ذلك لأمرٍ يريده الله مِنْ إظهارِ الدين، وكشفِ حالِ أهلِ النِّفاق المبتدعين، لانتشارهم في أقطار الأرضين، وما أحببتُ البغيَ عليهم والعُدوان، ولا أنْ أسلُكَ معهم إلا أبلغ ما يمكن من الإحسان.

[شيخ الإسلام يرسل إليهم أنه سيحضر عند نائب السلطنة ولكنه سيكشف زيفهم حينئذ نزعوا الأغلال من الأعناق وأجابوا إلى الوفاق]

فأرسلت إليهم مَن عرفهم بصورةِ الحال، وأنِّي إذا حضرتُ كان ذلك عليكم من الوبال، وكثر فيكم القيل والقال.

وأنّ مَن قعد أو قام قدام رماح أهلِ الإيمان فهو الذي أوقعَ نفسه في الهوان.

فجاءَ الرسول وأخبر أنهم اجتمعوا بشيوخهم الكبار الذين يعرفون حقيقة الأسرار، وأشاروا عليهم بموافقة ما أمروا به من اتباع الشريعة والخروج عمّا ينكر عليهم من البدع الشنيعة.

وقال شيخهم[1] الذي يسيح بأقطارِ الأرض كبلادِ الترك ومصر وغيرها: أحوالنا تظهر عند التتار لا تظهر عند شرع محمد بن عبدالله[2]، وأنّهم نزعوا الأغلال من الأعناق وأجابوا إلي الوِفاق.

[شيخ الإسلام يعزم على دخول النار ويلقى في قلبه أنها ستكون برداً وسلاماً عليه كما كانت على إبراهيم وأنها تحرق أشباه الصابئة]

ثمّ ذكر لي أنّه جاءَهم بعض أكابر غلمان المطاع وذكر أنّه لا بُدَّ من حضورِهم لموعدِ الاجتماع.

فاستخرتُ الله تعالى تلك الليلة واستعنته واستنصرتُه واستهديْته،

---

(١) هو الشيخ صالح الأحمدي الرفاعي، شيخ المينبع، كان التتر يكرمونه لما قدموا دمشق، ولما جاء قطلوشاه نائب التتر نزل عنده. «البداية والنهاية» (١٤ / ٤٩).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في «تاريخه» (١٤ / ٣٨): فضبط الحاضرون عليه تلك الكلمة، وكثر الإنكار عليهم من كل أحد.

وسلكت سبيلَ عبادِ الله في مِثلِ هذه المسالك حتى أُلقِيَ في قلبي أنْ أدخل النار[1] عند الحاجة إلى ذلك وأنّها تكونُ برداً وسلاماً على من اتّبعَ ملّة الخليل، وأنّها تحرقُ أشباه الصابئة[2] أهل الخروج عن هذه السبيل، وقد كان بقايا الصابئة أعداءُ إبراهيم إمام الحنفاء بنواحي البطائح منضمين إلى مَنْ يضاهيهم من نصارى الدهماء وبين الصابئة ومن ضل من العباد المنتسبين إلى هذا الدين، نسب يعرفه من عرف الحق المبين، فالغالية من القرامطة والباطنية، كالنصيرية[3] والإسماعيلية[4] يخرجون إلى مشابهة الصابئة الفلاسفة، ثم إلى الإشراك، ثم إلى جحود الحق تعالى.

ومن شركهم الغلو في البشر، والابتداع في العبادات، والخروج عن الشريعة له نصيب من ذلك بحسب ما هو به لائق، كالملحدين من أهل الاتحاد[5]، والغالية من أصناف العباد.

فلمّا أصبحنا ذهبتُ للميعاد وما أحببتُ أنْ أستصحبَ أحداً للإسعاد، لٰكن ذهبَ أيضاً بعض مَن كان حاضراً من الأصحاب، والله هو المسبِّب لجميع الأسباب.

---

(١) وقد استدل على ذلك العمل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بحديث الغلام وهو حديث أخرجه مسلم (٣٠٠٥) وغيره كما نبه عليه الشيخ عبد القادر السِّندي في كتابه البديع «التصوف في ميزان البحث والتحقيق» (ص ١٢٠).

(٢) الصبوة في مقابلة الحنيفية، وفي اللغة صبا الرجل إذا مال وزاغ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق، وزيغهم عن نهج الأنبياء، قيل لهم الصابئة، انظر «الملل والنحل» (٢ / ٩٥)، و«جامع البيان في تأويل القرآن» للطبري (١ / ٣٦٠ / ٣٦١).

(٣) النصيرية: من غلاة الشيعة، انظر «فتاوى شيخ الإسلام» (٣٥ / ١٦١ ـ ١٦٢).

(٤) من غلاة الشيعة، انظر «الملل والنحل» للشهرستاني (٢ / ٢٧ ـ ٣٦).

(٥) تقدم التعريف بهم.

وبلغني بعد ذلك أنهم طافوا على عددٍ من أكابر الأمراء، وقالوا أنواعاً ممّا جرت به عادتُهم من التلبيس والافتراء، الذي استحوذوا به على أكثر أهل الأرض من الأكابر والرؤساء.

مِثلَ زعمهم أنّ لهم أحوالاً لا يقاومهم فيها أحد من الأولياء، وأنّ لهم طريقاً لا يعرفها أحد من العلماء، وإنّ شيخهم هو في المشايخ كالخليفة، وإنّهم يتقدّمونَ على الخلق بهذه الأخبار المنيفة.

وأنّ المنكِرَ عليهم هو آخذٌ بالشرع الظاهر غير واصِل إلى الحقائق والسرائر، وأنّ لهم طريقاً وله طريق، وهم الواصلون إلى كنه التحقيق، وأشباهِ هذه الدّعاوى ذاتِ الزخرف والتزويق.

وكانوا لفرط انتشارهم في البلاد واستحواذهم على الملوك والأمراء، والأجناد لخفاءِ نور الإسلام واستبدال أكثر النَّاس بالنّور الظلام، وطموس آثار الرسول في أكثر الأمصار، ودروس حقيقة الإسلام في دولة التتار لهم في القلوب موقعٌ هائل ولهم فيهم من الاعتقاد ما لا يزول بقول قائل.

قال المخبر: فغدا أولئك الأمراء الأكابر، وخاطبوا فيهم نائبَ السلطان بتعظيم أمرهم الباهر، وذكر لي أنواعاً من الخطاب والله تعالى أعلم بحقيقة الصواب. والأمير مستشعر ظهورَ الحق عند التحقيق. فأعادَ الرسولَ إليّ مرةً ثانية فبلغهُ أنّا في الطريق، وكان كثير من أهلِ البدع الأضداد كطوائف من المتفقهة والمتفقرة وأتباع أهل الاتحاد مُجدِّين في نصرهم بحسب مقدورهم، مجهزين لمن يعينهم في حضورهم.

فلمّا حضرتُ وجدتُ النفوس في غاية الشوق إلى هذا الاجتماع، متطلِّعين إلى ما سيكون، طالبين للاطلاع.



[افتراؤهم على شيخ الإسلام عند نائب السلطنة

وابن تيمية يكشف صور تلبيسهم للأمر ومن ثم يفتضح أمرهم]

قال: فذكر لي نائب السلطان وغيره من الأمراء بعض ما ذكروه من الأقوال المشتملة على الافتراء.

وقال إنهم قالوا: إنك طلبت منهم الامتحان وأن يحموا الأطواق ناراً ويلبسوها.

فقلت: هٰذا من البهتان.

وها أنا ذا أصف ما كان. قلتُ للأمير: نحنُ لا نستحل أن نأمر أحداً بأنْ يدخل ناراً، ولا تجوز طاعة من يأمر بدخول النار، وفي ذلك الحديث الصحيح[١]. وهؤلاء يكذبون في ذلك وهم كذابون مبتدعون قد أفسدوا من أمر دين المسلمين ودُنياهم ما الله به عليم.

وذكرت تلبيسهم على طوائف من الأمراء. وأنّهم لبّسوا على الأمير المعروف بالأيدمري[٢]. وعلى قفجق[٣] نائب السلطنة وعلى غيرهما.

وقد لبّسوا أيضاً على الملك العادل كتبغا[٤] في ملكه، وفي حالة

---

(١) أخرجه البخاري في عدة مواضع منها (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠)، وغيرهما.

(٢) الأمير عز الدين أيدمر بن عبد الله الحلبي الصالحي، كان من أكابر الأمراء، وأحظاهم عند الملوك، ثم عند الملك الظاهر، كان يستنيبه إذا غاب، ت ٦٧٧هـ. اهـ «البداية والنهاية» (١٣ / ٢٧٠).

(٣) الأمير سيف الدين قبجق بن عبد الله المنصوري نائب حلب، ت ٧١٠. انظر «الدرر الكامنة» (٣ / ٢٤١ ـ ٢٤٣).

(٤) كان من كبار الأمراء المنصورية، وقد ملك البلاد بعد مقتل الأشرف خليل بن منصور، ثم انتزع الملك منه لاجين، وبعد مقتل لاجين أخذ الملك منه الناصر بن قلاوون، فاستنابه=

ولاية حماة، وعلى أمير السلاح أجل أميرٍ بديار مصر، وضاق المجلس عن حكاية جميع تلبيسهم.

فذكرتُ تلبيسهم على الأيدمري، وأنّهم كانوا يرسلون من النساء مَنْ يستخبر عن أحوال بيته الباطنة، ثم يخبرونه بها على طريق المكاشفة، ووعدوه بالملك، وأنهم وعدوه أنْ يروه رجال الغيب.

فصنعوا خشباً طوالاً وجعلوا عليها مَنْ يمشي كهيئة الذي يلعب بأكر الزجاج، فجعلوا يمشون على جبل المزة وذاك يرى من بعيد قوماً يطوفون على الجبل وهم يرتفعون عن الأرض، وأخذوا منه مالاً ثم انكشف له أمرهم.

قلتُ للأمير: وولده هو الذي في حلقة الجيش يعلم ذلك وهو ممّن حدثني بهذه القصة.

وأمّا قفجق فإنهم أدخلوا رجلاً في القبر يتكلم وأوهموه أنّ الموتى تتكلم وأتوا به في مقابر باب الصغير إلى رجلٍ زعموا أنّه الرجل الشعراني الذي بجبل لبنان ولم يقربوه منه بل من بعيد لتعودَ عليه بركته.

وقالوا: إنه طلب منه جملةً من المال.

فقال قفجق: الشيخ يكاشف وهو يعلم أنّ خزائني ليس فيها هذا كلُّه. وتقرب قفجق منه وجذب الشعر فانقلع الجلد الذي ألصقوه على جلده من جلدِ الماعز.

فذكرتُ للأمير هذا، ولهذا قيل لي إنّه لمّا انقضى المجلس وانكشف

= بحماة، وكان من خيار الملوك وأعدلهم وأكثرهم براً، وكان من خيار الأمراء والنواب، ت ٧٠٢هـ. «المرجع السابق» (١٤ / ٢٩) مختصراً.

حالهم للنّاس، كتب أصحاب قفجق إليه كتاباً وهو نائب السلطنة بحماة يخبره صورة ما جرى.

وذكرتُ للأمير أنه مبتدعون بأنواع من البدع مثل الأغلال ونحوها. وإنا نهيناهم عن البدع الخارجة عن الشريعة.

فذكر الأمير حديث البدعة وسألني عنه فذكرت حديث العرباض بن سارية[1]، وحديث جابر بن عبدالله[2] وقد ذكرتهما بعد ذلك بالمجلس العام كما سأذكره.

[شيخ الإسلام يعزم دخول النار متحديا الطرقية نصرة لدين الله والأمير يتعجب من إقدامه على النار وشيوخ البطائحية يطلبون من الأمير الإصلاح ويعلنون التوبة وأنهم مجيبون إلى ما طلب من ترك الأغلال وغيرها من البدع وأنهم متبعون الشريعة]

قلتُ للأمير: أنا ما امتحنت هؤلاء لٰكن هم يزعمون أنّ لهم أحوالاً يدخلون بها النار، وأنّ أهل الشريعة لا يقدرون على ذلك، ويقولون لنا: هذه الأحوال التي يعجز عنها أهل الشرع ليس لهم أن يعترضوا علينا بل يسلم إلينا ما نحن عليه ـ سواء وافق الشرع أو خالفه ـ.

وأنا قد استخرتُ الله سبحانه أنّهم إنْ دخلوا النارَ أدخل أنا وهم ومن احترق منّا ومنهم فعليه لعنة الله، وكان مغلوباً، وذلك بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤) وغيره وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٤٥٥).

(٢) سيأتي تخريجه (ص: ٢٤٦).

فقال الأمير: ولِمَ ذاك؟

قلت: لأنهم يطلون جسومهم بأدويةٍ يصنعونها من دهن الضفادع، وباطن قشر النارنج، وحجر الطلق، وغير ذلك من الحيل المعروفة لهم، وأنا لا أطلي جلدي بشيء فإذا اغتسلت أنا وهم بالخل والماء الحار بطلت الحيلة وظهر الحق. فاستعظم الأمير هجومي على النّار.

وقال: أتفعل ذلك؟!

فقلت له: نعم قد استخرتُ الله في ذلك وأُلقِيَ في قلبي أن أفعله.

ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداء، فإنّ خوارق العادات إنّما تكون لأمة محمد ـ ﷺ ـ المتبعين له باطناً وظاهراً لحجة أو لحاجة، فالحجة لإقامة دين الله والحاجة لما لا بد منه من النصر والرزق الذي يقوم به دين الله.

وهؤلاء إذا أظهروا ما يسمُّونه إشاراتهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تبطل دين الله وشرعه وجب علينا أن ننصر الله ورسوله ـ ﷺ ـ ونقوم في نصر دين الله وشريعته بما نقدر عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا، فلنا حينئذ أن نعارِض ما يُظهرونه من هذه المخاريق بما يؤيدنا الله به من الآيات.

وليعلم أنّ هذا مثل معارضة موسى للسحرة لما أظهروا سحرهم أيّد الله موسى بالعصا التي ابتلعت سحرهم.

فجعل الأمير يخاطب مَنْ حضره من الأمراء على السماط بذلك، وفرح بذلك. وكأنهم كانوا قد أوهموه أنّ هؤلاء لهم حال لا يقدِر أحد على ردِّه. وسمعته يخاطب الأمير الكبير الذي قدم من مصر، الحاج

بهادِر[1]، وأنا جالسٌ بينهما على رأس السماط بالتركي ما فهمته منه إلاّ أنه قال: اليومَ ترى حرباً عظيماً، ولعلّ ذاك كان جواباً لمن كان خاطبه فيهم على ما قيل.

وحضر شيوخهم الأكابر فجعلوا يطلبون من الأمير الإصلاح وإطفاء هذه القضية ويترفقون.

فقال الأمير: إنما يكون الصلح بعد ظهورِ الحق وقمنا إلى مقعد الأمير بزاوية القصر أنا وهو وبهادر، فسمعته يذكر له أيوب الحمّال بمصر والمولهين ونحو ذلك.

فدلّ ذلك على أنه كان عند هذا الأمير لهم صورة معظمة، وأنّ له فيهم ظناً حسناً والله أعلم بحقيقة الحال، فإنه ذكر لي ذلك.

وكان الأمير أحبّ أن يُشهد بهادر هذه الواقعة ليتبيّن له الحق. فإنه من أكابر الأمراء وأقدمهم وأعظمهم حرمة عنده، وقد قدم الآن وهو يحب تأليفه وإكرامه فأمر ببساط يبسط في الميدان.

وقد قدم البطائحية وهم جماعة كثيرون وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية، من الإزباد والإرغاء وحركة الرؤوس والأعضاء، والطفر والحبو والتقلب ونحو ذلك من الأصوات المنكرات والحركات الخارجة عن العادات المخالفة لما أمر به لقمان لابنه في قوله: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾[2].

---

(1) بهادر الأمير سيف الدين المنصوري المعروف بالحاج بهادر (ت ٧١٠)، انظر «أعيان العصر» (١ / ٤٨٨)، و«الدرر الكامنة» (١ / ٥٠٠).

(2) لقمان: [١٩].

[اعتراف شيخهم الكذاب بتلبيسه قديماً على شيخ الإسلام]

فلمّا جلسنا وقد حضرَ خلقٌ عظيم من الأمراء والكتاب والعلماء والفقراء، والعامّة وغيرهم. وحضر شيخهم الأول المشتكي، وشيخ آخر يسمي نفسه خليفة سيده أحمد، ويركب بعلميْن[1]، وهم يسمُّونه: عبدالله الكذاب، ولم أكن أعرف ذلك. وكان من مدة قدم عليّ منهم شيخ بصورةٍ لطيفة وأظهر ما جرت به عادتهم من المسألة فأعطيته طلبته ولم أتفطن لكذبه حتى فارقني. فبقي في نفسي أنّ هذا خفي عليَّ تلبيسه إلى أن غابَ. وما يكاد يخفى عليّ تلبيس أحد بل أدركه في أول الأمر فبقي ذلك في نفسي ولم أره قط إلى حين ناظرته.

ذكر لي أنه ذاك الذي كان اجتمع بي قديماً فتعجبت من حسن صنع الله أنه هتكه في أعظم مشهد يكون حيث كتم تلبيسه بيني وبينه.

فلمّا حضروا تكلم منهم شيخ يقال له حاتم بكلام مضمُونه طلب الصلح والعفو عن الماضي والتوبة، وإنّا مجيبون إلى ما طلب من ترْك هذه الأغلال وغيرها من البدع، ومتبعون للشريعة.

فقلت: أمّا التوبة فمقبولة، قال الله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾[2] هذه إلى جنب هذه. وقال تعالى: ﴿۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾[3].

---

(١) العلمان رمز متبع في الطريقة الرفاعية نسبة إلى اللقب الذي أطلقوه على الشيخ أحمد الرفاعي، «مناظرة ابن تيمية» (ص ٢٧) للشيخ عبد الرحمن دمشقية.

(٢) غافر: [٣].

(٣) الحجر: [٤٩ ـ ٥٠].

[طرحهم الشبهة للبسهم الأطواق وشيخ الإسلام يطيح بها ويبين الحق]

فأخذ شيخهم المشتكي ينتصر للبسهم الأطواق وذكر أن وهب بن منبه روى أنه كان في بني إسرائيل عابد وأنّه جعل في عنقه طوقاً في حكاية من حكايات بني إسرائيل لا تثبت.

فقلت لهم: ليس لنا أن نتعبّد في ديننا بشيء من الإسرائيليّات المخالفة لشرعنا. قد روى الإمام أحمد في «مسنده» عن جابر بن عبدالله أنّ النبيّ - ﷺ -: رأى بيد عمر بن الخطّاب ورقة من التوراة، فقال: «أمتهوكون يا ابن الخطاب؟ لقد جئتكم بها بيْضاء نقيّة، لو كان موسى حياً ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم»[1].

وفي «مراسيل» أبي داود[2] أنّ النبيّ - ﷺ - رأى مع بعض أصحابه شيئاً من كتب أهل الكتاب، فقال: «كفى بقوم ضلالة أنْ يتبعوا كتاباً غير كتابهم أنزل إلى نبيٍّ غير نبيِّهم»، وأنزل الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾[3].

فنحن لا يجوز لنا اتباع موسى ولا عيسى فيما علمنا أنّه أنزل عليهما من عند الله إذا خالف شرعنا، وإنّما علينا أن نتَّبع ما أنزِل علينا من ربّنا ونتبع الشرعة والمنهاج الذي بعث الله به إلينا رسولنا. كما قال تعالى: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[4].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧) وغيره، وحسنه الألباني في «الإرواء» (١٥٨٩).

(٢) رقم (٤١٦).

(٣) العنكبوت: [٥١].

(٤) المائدة: [٤٨].

فكيف يجوز لنا أن نتبع عُبّاد بني إسرائيل في حكاية لا تعلم صحتها وما علينا من عُبّاد بني إسرائيل، ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1]. هاتِ ما في القرآن وما في الأحاديث الصحاح كالبخاري ومسلم، وذكرت هذا وشبهه بكيفيّة قوية.

فقال هذا الشيخ منهم يخاطب الأمير: نحن نريد أن تجمع لنا القضاة الأربعة والفقهاء ونحن قومٌ شافعيّة.

فقلت له: هذا غير مستحبٍّ ولا مشروع عند أحدٍ من علماء المسلمين، بل كلهم ينهى عن التعبد به ويعدُّه بدعة، وهٰذا الشيخ كمال الدين بن الزملكاني[2] مفتي الشافعيّة ودعوته.

وقلت: يا كمال الدين ما تقول في هذا؟

فقال: هذا بدعة غير مستحبة بل مكروهة، أو كما قال. وكان مع بعض الجماعة فتوى فيها خطوط طائفة من العلماء بذلك.

وقلت: ليس لأحدٍ الخروج عن شريعة محمد ـ ﷺ ـ ولا الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ـ وأشك هل تكلمت هنا في قصة موسى والخضر، فإني تكلمت بكلامٍ بعد عهدي به ـ.

فانتدب ذلك الشيخ «عبدالله» ورفع صوته وقال: نحن لنا أحوال وأمورٌ باطنة لا يوقَف عليها، وذكر كلاماً لم أضبط لفظه، مثل المجالس والمدارس والباطن والظاهر، ومضمونه: أنّا لنا الباطن ولغيرنا الظاهر وأنّ لنا أمراً لا يقف عليه أهل الظاهر فلا ينكرونه علينا.

---

(١) البقرة: [١٣٤].

(٢) تقدم التعريف به.

فقلت له ـ ورفعت صوتي وغضبت ـ: الباطن والظاهر والمجالس والمدارس والشريعة والحقائق كلُّ هذا مردود إلى كتاب الله وسنّة رسوله ـ ﷺ ـ ليس لأحد الخروج عن كتاب الله وسنّة رسوله ـ ﷺ ـ لا من المشايخ والفقراء ولا من الملوك والأمراء ولا من العلماء والقضاة وغيرهم. بل جميع الخلق عليهم طاعة الله ورسوله ـ ﷺ ـ وذكرت هذا ونحوه.

[ادعاؤهم من جديد الأحوال الخارقة وشيخ الإسلام يتحداهم ويعجزهم ومشايخهم الكبار يتضرعون عند الأمير في طلب الصلح]

فقال ـ ورفع صوته ـ: نحن لنا الأحوال وكذا وكذا، وادّعى الأحوال الخارقة كالنار وغيرها، واختصاصهم بها وأنهم يستحقون تسليم الحال إليهم لأجلها.

فقلت ـ ورفعت صوتي وغضبت ـ: أنا أخاطب كلَّ أحمدي من مشرق الأرض إلى مغربها: أيَّ شيءٍ فعلوه في النّار فأنا أصنع مثل ما تصنعون، ومن احترق فهو مغلوب، وربما قلت: فعليه لعنة الله. ولكن بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار، فسألني الأمراء والنّاس عن ذلك؟

فقلتُ: لأنّ لهم حيلاً في الاتصال بالنّار يصنعونها من أشياء من دهن الضفادع وقشر النارنج وحجر الطلق. فضجّ الناس بذلك فأخذ يُظهر القدرة على ذلك.

فقال: وأنا وأنت نُلف في بارية[1] بعد أن تُطلى جسومنا بالكبريت.

فقلت: فقُم وأخذتُ أكرر عليه في القيام إلى ذلك فمدّ يده يُظهر

---

(١) أي: في الحصير.

خلعَ القميص.

فقلت: لا! حتى تغتسل بالماء الحار والخل فأظهر الوهم على عادتهم.

فقال: من كان يحب الأمير فليحضر خشباً أو قال: حزمة حطب.

فقلت: هذا تطويل وتفريق للجمع ولا يحصل به مقصود، بل قنديل يوقَد وأدخل إصبعي وإصبعك فيه بعد الغسل، ومن احترقت إصبعه فعليه لعنة الله. أو قلت: فهو مغلوب. فلمّا قلت ذلك تغيّر وذلّ. وذُكر لي أنّ وجهه اصفرّ.

ثم قلت لهم: ومع هذا فلو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين حقيقةً، ولو طِرتم في الهواء، ومشيتم على الماء، ولو فعلتم ما فعلتم لم يكن في ذلك ما يدلُّ على صحّة ما تدَّعونه من مخالفة الشرع ولا على إبطال الشرع؛ فإن الدجال الأكبر يقول للسماء أمطري فتمطر، وللأرض أنبتي فتنبت، وللخربة أخرجي كنوزك فتخرج كنوزها تتبعه، ويقتل رجلاً ثم يمشي بين شقيه، ثم يقول له قم فيقوم[1]، ومع هذا فهو دجال كذاب ملعون، لعنه الله، ورفعت صوتي بذلك فكان لذلك وقع عظيم في القلوب.

وذكرت قول أبي يزيد البسطامي[2]: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب «الفتن» (٢٩٣٧) باب ذكر الدجال وصفته وما معه، وغيره، بألفاظ عدة، وانظر «قصة المسيح الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام وقتله إياه على سياق رواية أبي أُمامة رضي الله عنه مضافاً إليه ما صح عن غيره من الصحابة رضي الله عنهم» للعلامة المحدث الألباني رحمه الله.

(٢) طيفور بن عيسى بن علي، أحد مشايخ الصوفية. انظر «البداية والنهاية» (١١ / ٣٨).

ويمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهي، وذكرت عن يونس بن عبد الأعلى أنه قال للشافعي: أتدري ما قال صاحبنا يعني الليث بن سعد؟

قال: لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء فلا تغتر به(١).

فقال الشافعي: لقد قصَّر الليث، لو رأيت صاحب هوى يطير في الهواء فلا تغتر به؛ وتكلمت في هذا ونحوه بكلام بَعُد عهدي به.

ومشايخهم الكبار يتضرّعون عند الأمير في طلب الصلح وجعلتُ ألحُّ عليه في إظهار ما ادعوه من النار مرّة بعد مرّة وهم لا يجيبون.

وقد اجتمع عامة مشايخهم الذين في البلد والفقراء المولهون منهم وهم عدد كثير والناس يضجّون في الميْدان ويتكلمون بأشياء لا أضبطها.

فذكر بعض الحاضرين أنّ الناس قالوا ما مضمونه: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ﴾(٢).

وذكروا أيضاً: أنّ هذا الشيخ يسمى عبدالله الكذّاب وأنّه الذي قصدك مرة فأعطيْته ثلاثين درهماً.

فقلت: ظهر لي حين أخذ الدراهم وذهب أنّه مُلبِّس وكان قد حكى حكاية عن نفسه مضمونها أنّه أدخل النار في لحيته قدّام صاحب حماة. ولمّا فارقني وقع في قلبي أنّ لحيته مدهونة وأنّه دخل إلى الرُّوم واستحوذ عليهم.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «مناقب الشافعي» (ص ١٨٤). وانظر «مناقب الشافعي» للبيهقي (١ / ٤٥٣).

(٢) الأعراف: [١١٨ ـ ١١٩].

[انكشاف أمرهم وافتضاحه للأمراء والحاضرين والأمير يسأل شيخ الإسلام: ماذا تريد منهم؟]

فلمّا ظهر للحاضرين عجزهم وكذبهم وتلبيسهم وتبيّن للأمراء الذين كانوا يشدون منهم أنهم مبطلون رجعوا.

وتخاطب الحاج بهادر ونائب السلطان وغيرهما بصورة الحال وعرفوا حقيقة المحال. وقمنا إلى داخل ودخلنا، وقد طلبوا التوبة عمّا مضى.

وسألني الأمير: عمّا تطلب منهم؟

فقلت: متابعة الكتاب والسنّة، مثل أن لا يعتقد أنَّه لا يجب عليه اتباعهما. أو أنه يسوغ لأحد الخروج من حكمهما ونحو ذلك، أو أنه يجوز اتباع طريقة تخالف بعض حكمهما ونحو ذلك من وجوه الخروج عن الكتاب والسنة التي توجِب الكفر وقد توجِب القتل دون الكفر، وقد توجب قتال الطائفة الممتنعة دون قتل الواحد المقدور عليه.

فقالوا: نحن ملتزمون الكتاب والسنَّة أتنكر علينا غير الأطواق؟ نحن نخلعها.

فقلت: الأطواق وغير الأطواق ليس المقصود شيئاً معيّناً وإنّما المقصود أن يكون جميع المسلمين تحت طاعة الله ورسوله ﷺ.

فقال الأمير: فأي شيءٍ الذي يلزمهم من الكتاب والسنّة؟

فقلت: حكم الكتابِ والسنة كثيرٌ لا يمكن ذكره في هٰذا المجلس لٰكن المقصود أن يلتزموا هذا التزاماً عاماً. ومن خرج عنه ضُرِبت عنقه

ـ وكرر ذلك، وأشار بيده إلى ناحية الميدان[1] ـ.

وكان المقصود أن يكون هذا حكماً عاماً في حق جميع الناس. فإنّ هٰذا مشهد عام مشهور قد توفرت الهمم عليه فيتقرر عند المقاتلة وأهل الديوان والعلماء والعباد وهؤلاء وولاة الأمور أنّه من خرج عن الكتاب والسنّة ضربت عنقه.

قلت: ومن ذلك الصلوات الخمس في مواقيتها كما أمر الله ورسوله فإنّ من هؤلاء من لا يصلي، ومنهم من يتكلم في صلاته حتى إنّهم بالأمس بعد أن اشتكوا عليّ في عصر الجمعة جعل أحدهم يقول في صلب الصلاة: يا سيِّدي أحمد شيء لله.

وهذا ـ مع أنّه مبطلٌ للصلاة ـ فهو شرك بالله ودعاء لغيره في حال مناجاته التي أمرنا أن نقول فيها: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2].

وهٰذا قد فعل بالأمس بحضرة شيخهم، فأمر قائل ذلك لما أنكر عليه المسلمون بالاستغفار على عاداتهم في صغير الذنوب ولم يأمره بإعادة الصلاة.

وكذلك يصيحون في الصلاة صياحاً عظيماً وهذا منكر يبطل الصلاة.

فقال: هذا يغلب على أحدهم كما يغلب العطاس.

فقلت: العطاس من الله والله يحب العطاس ويكره التثاؤب[3]، ولا

---

(١) لكثرة أتباعهم وتوافرهم بالميدان.

(٢) الفاتحة: [٥].

(٣) حديث: «إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب . . . .» أخرجه البخاري (٦٢٢٦) وغيره.

يملك أحدهم دفعه. وأمّا هذا الصياح فهو من الشيطان وهو باختيارهم وتكلفهم ويقدرون على دفعه.

ولقد حدثني بعض الخبيرين بهم بعد المجلس أنهم يفعلون في الصلاة ما لا تفعله اليهود والنصارى: مثل قوْل أحدهم: أنا على بطن امرأة الإمام وقول الآخر: كذا وكذا من الإمام ونحو ذلك من الأقوال الخبيثة. وأنهم إذا أنكر عليهم المنكر ترك الصلاة يصلون بالنوبة.

وأنا أعلم أنهم متولون للشياطين ليسوا مغلوبين على ذلك كما يغلب الرجل في بعض الأوقات على صيحة أو بكاء في الصلاة أو غيرها.

[عقب إظهارهم الالتزام بالكتاب والسنة شيخ الإسلام ينكر على جموعهم بالميدان حركاتهم الشيطانية وأصواتهم العالية ويجيب على بعض شبهاتهم]

فلمّا أظهروا التزام الكتاب والسنة وجموعهم بالميدان بأصواتهم وحركاتهم الشيطانية يُظهرون أحوالهم.

قلت له: أهٰذا موافق للكتابِ والسنّة؟

فقال: هذا من الله حال يرد عليهم.

فقلت: هذا من الشيطان الرجيم لم يأمر الله به ولا رسوله ـ ﷺ ـ ولا أحبّه الله ولا رسوله ـ ﷺ ـ.

فقال: ما في السمٰوات والأرض حركة ولا كذا ولا كذا إلّا بمشيئته وإرادته.

فقلتُ له: هٰذا من بابِ القضاء والقدر. وهٰكذا كلُّ ما في العالم من

كفر وفسوق وعصيان هو بمشيئة الله وإرادته.

وليس ذلك بحجة لأحدٍ في فعله. بل ذلك ممّا زيّنه الشيطان وسخطه الرحمٰن.

فقال: فبأيِّ شيءٍ تبطل هذهِ الأحوال؟

فقلت: بهذه السياط الشرعيّة. فأعجب الأمير وضحك.

وقال: أي والله بالسياط الشرعيّة تبطل هذه الأحوال الشيطانيّة. كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد ومن لم يُجِب إلى الدين بالسياط الشرعيّة فبالسيوف المحمّديّة.

وأمسكتُ سيف الأمير وقلت: هذا نائب رسول الله - ﷺ - وغلامه وهذا السيف سيف رسول الله - ﷺ -. فمن خرج عن كتاب الله وسنة رسوله ضربناه بسيف الله. وأعاد الأمير هذا الكلام.

[جواب مسكت على شبهة أخرى]

وأخذ بعضهم يقول: فاليهود والنصارى يُقَرون ولا نُقَرُّ نحن؟

فقلت: اليهود والنصارى يُقرون بالجزية على دينهم المكتوم في دورهم. والمبتدع لا يُقرُّ على بدعته. فأُفحِموا لذلك.

وحقيقة الأمر أن من أظهر منكراً في دار الإسلام لم يقر على ذلك، فمن دعا إلى بدعة وأظهرها لم يقر، ولا يقر من أظهر الفجور، وكذلك أهل الذمة لا يقرون على إظهار منكرات دينهم، ومن سواهم فإن كان مسلماً أخذ بواجبات الإسلام أو ترك محرماته، وإن لم يكن مسلماً ولا ذمياً فهو إما مرتد وإما مشرك وإما زنديق ظاهر الزندقة.

وذكرت ذم المبتدعة فقلت: روى مسلم في «صحيحه»[1] عن جعفر ابن محمد الصادق عن أبيه أبي جعفر الباقر عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته: «إن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة».

وفي «السنن»[2] عن العرباض بن سارية، قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» وفي رواية[3] «وكل ضلالة في النار».

فقال لي: البدعة مثل الزنا، وروى حديثاً في ذم الزنا.

فقلت: هذا حديث موضوع على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، والزنا معصية، والبدعة من شر المعصية، كما قال سفيان الثوري: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ فإن المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها.

وكان قد قال بعضهم: نحن نتوِّب الناس.

فقلت: مماذا تتوِّبونهم؟

---

(١) رقم (٨٦٧).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) قال العلامة الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (١٣٦٥): هذه الزيادة تفرد بها النسائي، من حديث جابر بن عبدالله، وسندها صحيح.

فقال: من قطع الطريق، والسرقة، ونحو ذلك.

فقلت: حالهم قبل تتويبكم خير من حالهم بعد تتويبكم؛ فإنهم كانوا فساقاً يعتقدون تحريم ما هم عليه، ويرجون رحمة الله، ويتوبون إليه، أو ينوون التوبة، فجعلتموهم بتتويبكم ضالين مشركين خارجين عن شريعة الإسلام، يحبون ما يبغضه الله ويبغضون ما يحبه الله، وبينت أن هذه البدع التي هم وغيرهم عليها شر من المعاصي.

قلت مخاطباً للأمير والحاضرين: أما المعاصي فمثل ما روى البخاري[1] في «صحيحه» عن عمر بن الخطاب أن رجلاً كان يدعى حماراً، وكان يشرب الخمر، وكان يضحك النبي ﷺ، وكلما أُتي به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جَلَدَه الحَدَّ فلعنه رجل مرة وقال: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم؟!

فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله».

قلت: فهذا رجل كثير الشرب للخمر، ومع هذا فلما كان صحيح الاعتقاد يحب الله ورسوله شهد له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ونهى عن لعنه.

وأما المبتدع فمثل ما أخرجا في «الصحيحين» عن علي بن أبي طالب وعن أبي سعيد الخدري وغيرهما ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقسم، فجاءه رجل ناتىء الجبين كث اللحية، محلوق الرأس، بين عينيه أثر السجود، وقال ما قال.

---

(١) كتاب «الحدود» رقم (٦٧٨٠).

فقال النبي ﷺ: «يخرج من ضئضئ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»[1]، وفي رواية: «لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل»[2]، وفي رواية: «شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه»[3].

«قلت»: فهؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم وما هم عليه من العبادة والزهادة أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقتلهم، وقتلهم علي بن أبي طالب ومن معه من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم.

وذلك لخروجهم عن سنة النبي وشريعته، وأظن أني ذكرت قول الشافعي: «لأن يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يبتلى بشيء من هذه الأهواء»[4].

فلما ظهر قبح البدع في الإسلام، وأنها أظلم من الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنهم مبتدعون بدعاً منكرة فيكون حالهم أسوأ من حال الزاني والسارق وشارب الخمر، أخذ شيخهم عبدالله يقول: يا مولانا لا تتعرض لهذا الجناب العزيز ـ يعني أتباع أحمد بن الرفاعي ـ.

فقلت له منكراً بكلام غليظ: ويحك؛ أي شيء هو الجناب العزيز

---

(١) أخرجه البخاري في عدة مواضع منها: (٣٣٤٣)، ومسلم (١٠٦٤)، وغيرهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٦٨) ونحوه في مسلم (١٠٦٦) بلفظ: «لا تكلوا» كلاهما من كلام علي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٠٠)، وابن ماجه رقم (١٧٦)، وغيرهما، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٤) رواه البيهقي في «مناقب الشافعي» (١ / ٤٥٤).

وجناب من خالفه أولى بالعز؟! يا ذو الزرجنة تريدون أن تبطلوا دين الله ورسوله؟!

فقال: يا مولانا يحرقك الفقراء بقلوبهم.

فقلتُ: مثل ما أحرقني الرافضة لمّا قصدتُ الصعود إليهم وصار جميع الناس يخوفوني منهم ومن شرِّهم، ويقول أصحابهم: إنّ لهم سراً مع الله فنصر الله وأعان عليهم.

وكان الأمراء الحاضرون قد عرفوا بركة ما يسره الله في أمرِ غزوِ الرافضة بالجبل[1].

[في ختام المجلس يقول شيخ الإسلام من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه ويعيد الأمير هذا الكلام ويستقر عليه ويطلبون من شيخ الإسلام كتبا صحيحة ليهتدوا بها]

وقلت لهم: يا شبه الرافضة يا بيت الكذب؛ فإنّ فيهم من الغلوِّ والشرك والمروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة في بعضِ صفاتهم. وفيهم من الكذب ما قد يقاربون به الرافضة في ذلك، أو يساوونهم، أو يزيدون عليهم.

فإنهم من أكذب الطوائف حتى قيل فيهم: لا تقولوا أكذب من اليهود على الله، ولكن قولوا أكذب من الأحمديّة على شيخهم.

وقلتُ لهم: أنا كافرٌ بكم وبأحوالكم ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾[2].

---

(١) مضى.

(٢) سورة هود: [٥٥].

ولمّا رددت عليهم الأحاديث المكذوبة أخذوا يطلبون مني كتباً صحيحة ليهتدوا بها فبذلت لهم ذلك.

وأُعيد الكلام أنّه من خرج عن الكتاب والسنة ضُربَت عنقه. وأعاد الأمير هذا الكلام واستقرّ الكلام على ذلك.

والحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

* * *



الفصل الخامس

[بطلان الكيمياء]

[ذكر مناظرة شيخ الإسلام لأحد كبار الكيماوية في عصره]



[مناظرة شيخ الإسلام لعلي بن الحسن الجابي ببطلان الكيمياء وظهوره عليه وخبر كتبه بعد موته]

قال شيخ الإسلام: قال لي رأس من رؤوسهم[1] لما نهيته عنها وبينت له فسادها وتحريمها[2] ـ ولما ظهرت عليه الحجة ـ: أخذ يستعفي عن المناظرة ويذكر أنه منقطع بالجدال.

وقال فيما قال: النبي ﷺ كان يعرف الكيمياء.

---

(١) هو علي بن الحسن بن عبد الله بن الجابي (ت ٧٠١هـ)، وكان قد أغرِيَ بالكيمياء وحصل فيها كتباً كثيرة جداً وكان يزعم أنها صحت معه. اهـ. من «الدرر الكامنة» (٣/ ٣٩).

(٢) أي الكيمياء وفي «فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء» (١ / ٤٤٧ ـ ٤٤٨) ليس علم الكيمياء الذي يدرس لطلاب المدارس من جنس الكيمياء التي منعها العلماء وقالوا إنها سحر وحذروا الناس منها وذكروا أدلة على بطلانها وبينوا أنها خداع وتمويه يزعم أصحابها أنهم يجعلون الحديد مثلاً ذهباً والنحاس فضة ويغشون بذلك الناس ويأكلون أموالهم بالباطل.
أما التي تدرس في المدارس في هذا الزمن فهي تحليل المادة إلى عناصرها التي تتركب منها أو تحويل العناصر إلى مادة تركب منها تخالف صفاتها تلك العناصر بواسطة صناعة وعمليات تجري عليها فإنها حقيقة واقعية بخلاف الكيمياء المزعومة ـ فإنها تمويه وخداع ـ وليست من أنواع السحر الذي جاءت النصوص في الكتاب والسنة بتحريمه والتحذير منه. اهـ.

فقلت له: كذب بل هو مستلزم للكفر. فإن الله قال في كتابه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[1] وهذه الآية نزلت بالإجماع في غزوة تبوك، وكان النبي ﷺ قد حض فيها على الصدقة حتى جاء رجل بناقة مخطومة مزمومة، فقال له النبي ﷺ: «لك بها سبعمائة ناقة مخطومة مزمومة»[2]. وجاء أبو عقيل بصاع فطعن فيه بعض المنافقين وقال فيها: كان الله غنياً عن صاع هذا، وجاء آخر بصرة كادت يده تعجز عن حملها، فقالوا: هذا مراءٍ. فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

وجاء عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ بألف ناقة فأعوزت خمسين، فكملها بخمسين فرس فقال النبي ﷺ: «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم»[4] وصارت هذه من مناقبه المشهورة فيقال: مجهز جيش العسرة. وقد قال الله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[5].

وقد قيل: إنهم طلبوا أن يحملهم على النعال، وسواء أريد بالنعال

---

(١) سورة التوبة: [٩٢].

(٢) أخرجه مسلم (١٨٩٢) وغيره، دون قوله: «مزمومة».

(٣) سورة التوبة: [٧٩].

(٤) هذه اللفظة ثابتة عن النبي ﷺ في «سنن الترمذي» وغيره، وذكر الألف ناقة والخمسين فرس لم أجده، وفي «سنن الترمذي» (٣٩٦٦) بإسناد ضعيف ذكر ثلاثة مئة بعير.

(٥) سورة التوبة: [٩١ ـ ٩٢].

النعال التي تلبس أو الدواب التي تركب فقد أخبر الله عن نبيه أنه قال لهم: «لا أجد ما أحملكم عليه» وقد كان هو يحض الناس على الإنفاق غاية الحض.

فلو كانت الكيمياء حقاً مباحاً وهو يعلمها لكان من الواجب أن يعمل منها ما يجهز به الجيش فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ومن نسب إلى النبي ﷺ ذلك فقد نسبه إلى ما نزهه الله عنه.

وأيضاً فإن علماء الأمة لم يوجب أحد منهم في الكيمياء حقاً لا خمساً ولا زكاة ولا غير ذلك وقد اتفقوا على إن في الركاز الخمس.

كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح[1] عن النبي ﷺ والركاز الذي لا ريب فيه هو دفن الجاهلية وهي الكنوز المدفونة في الأرض كالمعادن، فأهل الحجاز لا يجعلونها من الركاز وهو مذهب أحمد وغيره وأهل العراق يجعلونها من الركاز ومن العلماء من يفرق بين أن يوجد المال جملة، وبين أن لا يوجد، وللشافعي فيها أقوال معروفة وجمهور العلماء يوجبون في المعدن حقاً إما الزكاة وإما الخمس.

ولو كانت الكيمياء حقاً حلالاً لكان الواجب فيها أعظم من الخمس وأعظم من الزكاة فإنها ذهب عظيم بسعي يسير أيسر من استخراج المعادن والركاز لكن هي عند علماء الدين من الغش الباطل المحرم الذي لا يحل عمله ولا اتخاذه مالاً فضلاً عن أن يوجبوا فيها ما يجب في المال الحلال.

وقال لي المخاطب فيها: فإن موسى عليه السلام كان يعمل الكيمياء.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٩)، ومسلم (١٧١٠)، وغيرهما.

قلت له: هذا كذب لم ينقل هذا عن موسى أحد من علماء المسلمين ولا علماء أهل الكتاب، بل قد ذكروا عنهم بأن موسى كان له عليهم حق يأكل منه ولو كان يعمل الكيمياء لكان يأكل منها.

قال: فإن قارون كان يعمل الكيمياء.

قلت: وهذا أيضاً باطل فإنه لم يقله عالم معروف وإنما يذكره مثل الثعلبي في تفسيره عمن لا يسمى.

وفي تفسير الثعلبي الغث والسمين فإنه حاطب ليل ولو كان مال قارون من الكيمياء لم يكن له بذلك اختصاص فإن الذين عملوا الكيمياء خلق كثير لا يحصون والله سبحانه قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾[1]. فأخبر أنه أتاه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة والكنوز إما أن يكون هو كنزها كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾[2] الآية، وإما أن يكون اطلع على كنائز مدفونه وهو الركاز وهذا لا ريب أنه موجود.

[غسل كتب الكيمياء بأمر شيخ الإسلام]

ثم إنه مات هذا الرجل وكان خطيباً بجامع[3] فلم يشهد جنازته من جيرانه وغيرهم من المسلمين إلا أقل من عشرة، وكان يعاني السحر والسيميا[4]، وكان يشتري كتباً كثيرة من كتب العلم فشهدت بيع كتبه لذلك.

---

(١) سورة القصص: [٧٦].

(٢) سورة التوبة: [٣٤].

(٣) «جامع الجراح». انظر «الدرر الكامنة» (٣ / ٣٩).

(٤) السيميا: قسم من السحر. انظر «مجموع الفتاوى» (٢٩ / ٣٨٥)، و«أبجد العلوم» (٢ / ٣٣٢).

فقام المنادي ينادي على «كتب الصنعة» وكانت كثيرة يعني كتب الكيمياء.

فإنهم يقولون: هي علم الحجر المكرم وهي علم الحكمة ويعرفونها بأنواع من العبارات.

وكان المتولي لذلك من أهل السيف والديوان شهوداً فقلت لولي الأمر: لا يحل بيع هذه الكتب فإن الناس يشترونها فيعملون بما فيها.

فيقولون: هؤلاء «زغلية» فيقطعون أيديهم، وإذا بعتم هذه الكتب تكونون قد مكنتموهم من ذلك، وأمرت المنادي فألقاها ببركة كانت هناك فألقيت حتى أفسدها الماء ولم يبق يعرف ما فيها[1]. اهـ.

* * *

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (٢٩ / ٣٦٨ ـ ٣٩١).



الفصل السادس

الحلول والاتحاد
وخدمة الشياطين شيوخ الشر

[مناظرة شيخ الإسلام كبار المنجمين واعترافهم بالكذب]

قال شيخ الإسلام: وهكذا «المنجمون»[1] حتى إني خاطبتهم بدمشق، وحضر عندي رؤساؤهم، وبينت فساد صناعتهم بالأدلة العقلية التي يعترفون بصحتها.

قال رئيس منهم: والله إنا نكذب مائة كذبة، حتى نصدق في كلمة[2]. اهـ.

---

(١) قال شيخ الإسلام: قد عَلِم الخاصة والعامة بالتجربة والتواتر أن الأحكام التي يحكم بها المنجمون يكون الكذب فيها أضعاف الصدق وهم في ذلك من أنواع الكهان. اهـ. «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٧٢).

وفي «مختصر الفتاوى المصرية» قال شيخ الإسلام: والأدلة على فساد هذه الصناعة وتحريمها كثيرة جداً.

وقد ثبت في «صحيح مسلم»: «من أتى عرافاً فسأله لم يقبل الله صلاته أربعين يوماً».

والعراف: اسم للكاهن والمنجم والرمّال ونحوهم ممن يتكلم في تقدمة المعرفة بهذه الطرق. اهـ (ص ١٥٢).

وانظر حكم المنجمين وصناعة التنجيم والاستدلال بها على الحوادث لشيخ الإسلام في «الفتاوى» (٣٥/ ١٩١ ـ ١٩٧).

(٢) «المصدر السابق» (٣٥ / ١٧٢)، وانظر فيه حكم من اعتقد أن الكواكب لها تأثير في الوجود وحكم الأبراج.

[قصص في خدمة الشياطين شيوخَ الشر]

ومثل هذا[١] يحصل كثيراً لغير «الحلاج»[٢] ممن له حال شيطاني ونحن نعرف كثيراً من هؤلاء في زماننا وغير زماننا: مثل شخص هو-الآن بدمشق كان الشيطان يحمله من جبل الصالحية إلى قرية حول دمشق، فيجيء من الهوى إلى طاقة البيت الذي فيه الناس، فيدخل وهم يرونه، ويجيء بالليل إلى «باب الصغير» فيعبر منه هو ورفقته، وهو من أفجر الناس.

[الشياطين تحمل «البوى» في الهواء وتطير به]

وآخر كان بالشوبك في قرية يقال لها «الشاهدة» يطير في الهوى إلى رأس الجبل والناس يرونه، وكان شيطان يحمله، وكان يقطع الطريق.

وأكثرهم شيوخ الشر، يقال لأحدهم «البوى» أي المخبث ينصبون له حركات في ليلة مظلمة[٣]، ويصنعون خبزاً على سبيل القربات، فلا يذكرون

---

(١) أي من مخاريقه وحيله وخدمة الشياطين له فإنه كان صاحب خزعبلات بهتانية وأحوال شيطانية وهذه القصص التي أسوقها هي جزء من جواب شيخ الإسلام عن حقيقة «الحلاج الحسين بن منصور». انظر «مجموع الفتاوى» (٣٥ / ١٠٨ ـ ١١٩).

(٢) الحَلّاج: هو الحسين بن منصور بن مَحْمِي، أبو عبد الله ـ ويقال أبو مُغيث ـ الفارسيُّ البيضاويُّ الصوفي، قتل سنة (٣٠٩هـ)، وانظر سوء سيرته في «السير» (١٤ / ٣١٣ ـ ٣٥٤)، وقد قال شيخ الإسلام عنه: ظهر عنه من الأقوال والأعمال ما أوجب كفره وقتله باتفاق المسلمين والله أعلم به. اهـ «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١١٩).

(٣) وفي «الصفدية»(١ / ١٩١) قال: فيذبحون ذبيحة للشيطان، ويغنون له، فتأتي الشياطين وتخاطبهم ببعض الأمور الغائبة كأحوال غائبيهم وسرقاتهم وغير ذلك ويحمل «البوى» فيوقف به في الهواء وهم يرونه، ولا يكون بينهم إذ ذاك مسلم ولا كتاب فيه قرآن. هذا مشهور عندهم إلى هذا الوقت أخبرنا به غير واحد.

الله ولا يكون عندهم من يذكر الله، ولا كتاب فيه ذكر الله ثم يصعد ذلك البوى في الهوى وهم يرونه ويسمعون خطابه للشيطان، وخطاب الشيطان له ومن ضحك أو شرق بالخبز ضربه الدف ولا يرون من يضرب به.

ثم إن الشيطان يخبرهم ببعض ما يسألونه عنه، ويأمرهم بأن يقربوا له بقراً وخيلاً وغير ذلك وأن يخنقوها خنقاً ولا يذكرون اسم الله عليها فإذا فعلوا قضى حاجتهم.

[اعترافات تائب وذكر خبر شيطانه]

وشيخ آخر أخبر عن نفسه أنه كان يزني بالنساء، ويتلوط بالصبيان الذين يقال لهم «الحوارات» وكان يقول: يأتيني كلب أسود بين عينيه نكتتان بيضاوان، فيقول لي: فلان! إن فلاناً نذر لك نذراً، وغداً يأتيك به، وأنا قضيت حاجته لأجلك، فيصبح ذلك الشخص يأتيه بذلك النذر؛ ويكاشفه هذا الشيخ الكافر.

قال: وكنت إذا طلب مني تغيير مثل اللاذن[1] أقول حتى أغيب عن عقلي؛ وإذ باللاذن في يدي، أو في فمي وأنا لا أدري من وضعه!!

قال: وكنت أمشي وبين يدي عمود أسود عليه نور.

فلما تاب هذا الشيخ، وصار يصلي، ويصوم، ويتجنب المحارم، ذهب الكلب الأسود وذهب التغيير؛ فلا يؤتى بلاذن ولا غيره.

---

(١) نوع من العلوك.

[سرقة الشياطين المال والطعام وتقديمه لأحد شيوخ الشر]

وشيخ آخر كان له شياطين يرسلهم يصرعون بعض الناس، فيأتي أهل ذلك المصروع إلى الشيخ يطلبون منه، إبراءه، فيرسل إلى أتباعه فيفارقون ذلك المصروع، ويعطون ذلك الشيخ دراهم كثيرة.

وكان أحياناً تأتيه الجن بدراهم[1] وطعام تسرقه من الناس، حتى إن بعض الناس كان له تين في كوارة فيطلب الشيخ من شياطينه تيناً فيحضرونه له، فيطلب أصحاب الكوارة التين فوجدوه قد ذهب.

[الشياطين تغري عابديها بإسقاط الصلاة وإحضار ما يريد]

وآخر كان مشتغلاً بالعلم والقراءة، فجاءته الشياطين أغرته، وقالوا له: نحن نسقط عنك الصلاة، ونحضر لك ما تريد.

فكانوا يأتونه بالحلوى والفاكهة، حتى حضر عند بعض الشيوخ العارفين بالسنة فاستتابه وأعطى أهل الحلاوة ثمن حلاوتهم[2] التي أكلها ذلك المفتون بالشيطان.

[تعليق شيخ الإسلام على أصحاب الأحوال الشيطانية]

فكل من خرج عن الكتاب والسنة، وكان له حال: من مكاشفة، أو تأثير، فإنه صاحب حال نفساني، أو شيطاني. وإن لم يكن له حال بل هو يتشبه بأصحاب الأحوال فهو صاحب حال بهتاني.

---

(١) قال شيخ الإسلام: . . . والذي علمناه في زماننا ممن تحمله الجن وتطير به في الهواء، وتسرق له أنواع الأطعمة من الحلاوة وغيرها، وتأتيه بها وتخبره عن بعض الأمور الغائبة عنه بأمور كثيرة يطول وصفها في هذا الباب «كتاب الصفدية» (١ / ١٦٨).

(٢) قال شيخ الإسلام بعد ذكره هذه القصة في «الصفدية» (١ / ١٩٢): وهذه الأمور وأمثالها معلوم لنا بالضرورة والتواتر.

وعامة أصحاب الأحوال الشيطانية يجمعون بين الحال الشيطاني والحال البهتاني، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۞ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[1].

و«الحلاج» كان من أئمة هؤلاء أهل الحال الشيطاني، والحال البهتاني وهؤلاء طوائف كثيرة[2]. اهـ ـ إلى أن قال ـ:

[ابن تيمية ينكر استغاثة بعض أصحابه به في شدائد أصابتهم]

وكثيرٌ ممّن يستغيثُ بالمشايخ فيقول: يا سيِّدي فلان، أو يا شيخ فلان اقضِ حاجتي، فيرى صورةَ ذلك الشيخ تخاطبه ويقول: أنا أقضي حاجتك وأطيّب قلبك فيقضي حاجته أو يدفع عنه عدوّه، ويكون ذلك شيطاناً قد تمثّل في صورته لمّا أشرك بالله فدعا غيره[3].

وأنا أعرِفُ من هذا وقائعَ متعدِّدة، حتى إنّ طائفةً من أصحابي ذكروا

(١) سورة الشعراء: [٢٢١ ـ ٢٢٢].

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٥ / ١١٢ ـ ١١٤)، وانظر تتمة التعليق والفوائد النفيسة على هذه الأحوال في «رسالة الفرقان بين الحق والباطل» لابن تيمية شيخ الإسلام، وهي ضمن «مجموع الفتاوى» (١٣ / ٥ ـ ٢٢٩)، وقد طبعت مستقلة أكثر من طبعة.

(٣) قال شيخ الإسلام: ومن هذا: أني أعرف رجالاً يستغيثون ببعض الأحياء في شدائد تنزل بهم فيفرج عنهم، وربما يعاينون أموراً، وذلك الحي المستغاث به لم يشعر بذلك، ولا علم له به ألبتة.
وفيهم من يدعو على أقوام أو يتوجه في إيذائهم فيرى بعض الأحياء أو بعض الأموات يحول بينه وبين إيذاء أولئك، وربما رآه ضارباً له بسيف، وإن كان الحي لا شعور له بذلك.
وقد يجري لعباد الأصنام أحياناً من هذا الجنس المحرم ـ ما يظنون أنه محبة من الله ـ بما تفعله الشياطين لأعوانهم. اهـ مختصراً «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٣٥٤).

أنّهم استغاثوا بي في شدائد أصابتهم.

أحدهم كان خائفاً من الأرمن.

والآخرُ كان خائفاً من التتر.

فذكر كلٌّ منهم أنّه لمّا استغاث بي رآني في الهوى وقد دفعت عنه عدوّه، فأخبرتهم أنّي لم أشعر بهذا ولا دفعتُ عنكم شيئاً وإنّما هٰذا الشيطان تمثّل لأحدهم فأغواهُ لمّا أشرك بالله تعالى.

[ابن تيمية يجادل أحد المستغيثين بالمشايخ]

وهكذا جرى لغير واحد من أصحابنا المشايخ مع أصحابهم؛ يستغيث أحدهم بالشيخ، فيرى الشيخ قد جاء وقضى حاجته، ويقول ذلك الشيخ: إني لم أعلم بهذا فيتبين أن ذلك كان شيطاناً.

وقد قلت لبعض أصحابنا لما ذكر لي أنه استغاث باثنين كان يعتقدهما، وأنهما أتياه في الهوى؛ وقالا له: طيب قلبك، نحن ندفع عنك هؤلاء، ونفعل، ونصنع.

قلت له: فهل كان من ذلك شيء؟

فقال: لا.

فكان هذا مما دله على أنهما شيطانان؛ فإن الشياطين وإن كانوا يخبرون الإنسان بقضية أو قصة فيها صدق فإنهم يكذبون أضعاف ذلك كما كانت الجن يخبرون الكهان.

[ابن تيمية يتوب «الشياح» ويجدد إسلامه]

ولهٰذا من اعتمدَ على مُكاشفته التي هي من أخبارِ الجنِّ كان كذِبُه أكثرُ مِن صِدقه[1].

كشيخٍ كان يُقال له: «الشيّاح» توّبناهُ، وجدّدنا إسلامَهُ، كان له قرينٌ من الجنّ يُقال له: «عنتر» يخبره بأشياء فيصدق تارة ويكذب تارة[2].

فلمّا ذكرتُ له أنّك تعبُدُ شيطاناً من دون الله اعترفَ بأنّه يقول له: يا عنتر لا سبحانك إنّك إلٰهٌ قذِر، وتابَ من ذلِكَ في قصّةٍ مشهورةٍ[3].

[ابن تيمية يسعى لدى الولاة في قتل صاحب حال شيطاني - كافر - ويتحقق مسعاه]

وقد قَتل سيف الشّرع مَنْ قتل مِن هؤلاء مثل الشخص الذي قتلناهُ سنة خمسَ عشرة، وكان له قرينٌ يأتيه ويكاشفه فيصدق تارة ويكذب تارة وقد انقاد له طائفة من المنسوبين إلى أهلِ العلمِ والرئاسة فيكاشفهم حتى كشف الله لهم.

وذلكَ أنّ القرين كان تارةً يقول لهُ أنا رسول الله[4]، ويذكُر أشياء

(١) قال شيخ الإسلام: . . . ونحن قد علمنا ذلك بالاضطرار غير مرة فهذا نوع من المكاشفات والإخبار بالغيب غير النفساني. «كتاب الصفدية» (١ / ١٨٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٩ / ٤٨).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣٥ / ١١٦).

(٤) قال شيخ الإسلام: ورجال الغيب هم الجن، وهو يحسب أنه إنسي وقد يقول له: أنا الخضر، أو الياس، بل أنا محمد أو إبراهيم الخليل أو المسيح، أو أبو بكر، أو عمر أو أنا الشيخ فلان، أو الشيخ فلان ممن يحسن بهم الظن، وقد يطير به في الهواء، أو يأتيه بطعام أو شراب أو نفقة، فيظن هذا كرامة؛ بل آية ومعجزة تدل على أن هذا من رجال=

تنافي حالَ الرسول، فشهد عليه أنّه قال: إنّ الرسولَ يأتيني ويقول لي كذا وكذا من الأمور التي يكفر مَنْ أضافها إلى الرسول.

فذكرتُ لِولاةِ الأمور أنّ هٰذا من جِنسِ الكُهّان، وأنّ الذي يراهُ شيطاناً، ولهٰذا لا يأتيه في الصورة المعروفة للنّبي - ﷺ - بل يأتيه في صورةٍ مُنكرة.

ويُذكرُ عنه أنّه يخضع له ويُبيح له أنْ يتناول المُسكِرِ وأموراً أُخرى، وكان كثيراً من النّاسِ يظنّون أنّه كاذب فيما يُخبر به من الرؤية ولم يكُن كاذباً في أنّه رأى تلك الصورة لٰكن كان كافراً في اعتقاده أنّ ذلك رسولُ الله ومثل هٰذا كثير[1]. اهـ.

[تكرار قصة الإستغاثة بشيخ الإسلام وإنكاره على من استغاث به]

قال شيخ الإسلام: وأعرف عدداً كثيراً[2] وقع لهم في عدة أشخاص يقول لي كل من الأشخاص: إني لم أعرف أن هذا استغاث بي، والمستغيث قد رأى ذلك الذي هو على صورة هذا وما اعتقد أنه إلا هذا[3].

وذكر لي غير واحد أنهم استغاثوا بي، كل يذكر قصة غير قصة

= الغيب أو من الملائكة، ويكون ذلك شيطاناً لبس عليه، فهذا ومثله واقع كثيراً أعرف منه وقائع كثيرة كما أعرف من الغلط في السمعيات والعقليات. اهـ «مجموع الفتاوى» (١٣ / ٧١ - ٧٢).

(١) «المرجع السابق» (٣٥ / ١١٥ - ١١٧).

(٢) أي من الناس.

(٣) وذلك كما قال شيخ الإسلام: وكثيراً ما يتصور الشيطان بصورة المدعو المنادى المستغاث به إذا كان ميتاً. وكذلك قد يكون حياً ولا يشعر بالذي ناداه؛ بل يتصور الشيطان بصورته فيظن المشرك الضال المستغيث بذلك الشخص أن الشخص نفسه أجابه وإنما هو الشيطان. اهـ. «مجموع الفتاوى» (١٩ / ٤٧).

صاحبه، فأخبرت كلاً منهم أني لم أجب أحداً منهم ولا علمت باستغاثته.

فقيل: هذا يكون ملكاً؟

فقلت: الملك لا يغيث المشرك إنما هو شيطان أراد أن يضله[1]. اهـ.

[جني يحب شيخ الإسلام ويتصور بصورته]

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة: وتارة يأتونَ[2] إلى مَن هو خالٍ في البرية، وقد يكون ملكاً أو أميراً كبيراً ويكون كافراً وقد انقطع عن أصحابه، وعطش وخاف الموت فيأتيه في صورةِ إنسي ويسقيه ويدعوه إلى الإسلام ويُتَوِّبه فيُسلم على يديه ويتوبه ويُطعمه ويدلُّهُ على الطريق.

ويقول: من أنت؟

فيقول: أنا فلان، ويكون من مؤمني الجن.

كما جرى مثل هذا لي كنتُ في مصر في قلعتها[3]، وجرى مثلُ هذا إلى كبير من الترك من ناحية المشرق. وقال له ذلك الشخص: أنا ابن تيميّة، فلم يشك ذلك الأمير أني أنا هو. وأخبر بذلك ملك ماردين.

وأرسل بذلك ملك ماردين إلى ملك مصر رسولاً وكنت في الحبس.

فاستعظموا ذلك وأنا لم أخرج من الحبس. ولكنْ كان هذا جنياً يحبنا[4] فيصنع بالترك التتر ما كنت أصنع بهم. لمّا جاؤوا إلى دمشق كنت

---

(١) «المصدر نفسه» (١٩ / ٤٧ ـ ٤٨).

(٢) أي الجن.

(٣) مسجوناً آنذاك.

(٤) قال شيخ الإسلام: ونحن لو ذكرنا ما رأينا وسمعناه من أحوال الجن لطال الخطاب من=

أدعوهم إلى الإسلام فإذا نطق أحدهم بالشهادتين أطعمتهم ما تيسّر، فعمل معهم مثل ما كنتُ أعمل. وأرادَ بذلك إكرامي ليظنَّ ذاكَ أني أنا الذي فعلتُ ذلك.

قال لي طائفة من الناس: فلِمَ لا يجوز أن يكونَ مَلَكاً؟ قلت: لا، إنّ الملك لا يكذب، وهٰذا قد قال: أنا ابن تيميّة. وهو يعلم أنه كاذبٌ في ذلك[1].

[رؤية شيخ الإسلام خط الجن أكثر من مرة]

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة: كذلك شيخٌ بمصر يُقال له «الدسوقي» بعد أنْ ماتَ كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة.

وأراني صادقٌ مِن أصحابه الكتابَ الذي أرسله، فرأيته بخط الجنّ - وقد رأيتُ خطّ الجن غير مرة - وفيه كلامٌ من كلام الجنّ.

وذاك المُعْتَقِد يعتقد أنّ الشيخ حيٌّ[2] وكان يقول: انتقل ثم مات[3]. اهـ.

[تمثُّل شيطان بصورة شيخ الإسلام]

. . . ومثل هذا يجري كثيراً لكثير من المشركين والنصارى، وكثير من المسلمين، ويرى أحدهم شيخاً يحسن به الظن، ويقول: أنا الشيخ فلان، ويكون شيطاناً.

= أحوالهم مع المؤمنين الصالحين ومن أحوالهم مع أهل الكذب والفجور، «الصفدية» (١ / ١٧٠).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣ / ٩٢ - ٩٣).

(٢) وفي الحقيقة هو شيطان كما تقدم من كلام شيخ الإسلام انظر (ص: ٢٦٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٣ / ٩٤).

وأعرف من هذا شيئاً كثيراً وأعرف غير واحد ممن يستغيث ببعض الشيوخ الغائبين، الموتى، يراه قد أتاه في اليقظة وأعانه.

وقد جرى مثل هذا لي ولغيري ممن أعرفه، ذكر غير واحد أنه استغاث بي من بلاد بعيدة، وأنه رآني قد جئته.

ومنهم من قال: رأيتك راكباً بثيابك وصورتك.

ومنهم من قال: رأيتك على جبل.

ومنهم من قال: غير ذلك.

فأخبرتهم أني لم أغثهم، وإنما ذلك شيطان تصور بصورتي ليضلهم لما أشركوا بالله ودعوا غيره.

[صاحب شيخ الإسلام يخبره بقصته]

وكذلك غير واحد ممن أعرفه من أصحابنا استغاث به بعض من يحسن به الظن فرآه قد جاء وقضى حاجته.

قال صاحبي: أنا لا أعلم بذلك.

ومن هؤلاء الشيوخ من يقول: إنه يسمع صوت ذلك الشخص المستغيث به ويجيبه وتكون الشياطين أسمعته صوتاً يشبه صوت المستغيث به، فأجابه الشيخ بصوته فأسمعت المستغيث صوتاً يشبه صوت الشيخ، فيظن أنه صوت الشيخ.

[تمثُّل بعض الجن لجماعة في صورة شيخ الإسلام]

وهذا جرى لمن أعرفه فأخبر بذلك عن نفسه.

وقال: بقي الجني الذي يحدثني يبلغني مثل صوت المستغيثين بي،

ويبلغهم مثل صوتي، ويريني في شيء أبيض نظير ما أسأل عنه، فأخبر به الناس أني رأيته، وأنه سيأتي، ولا أكون قد رأيته، وإنما رأيت شبهه، وهكذا تفعل الجن بمن يعزم عليهم ويقسم عليهم ـ إلى أن قال ـ:

. . . ويتمثل لمن يستغيث به من ضلال المسلمين بشيخ من الشيوخ في صورة ذلك الشيخ، كما يتمثل لجماعة ممن أعرفه في صورتي وفي صور جماعة من الشيوخ الذين ذكروا ذلك[1]. اهـ.

[شيخ الإسلام يذكر عدة قصص يبين خدمة الشياطين شيوخ الشر]

قال شيخ الإسلام[2]: قد علمنا بالضرورة والتواتر أن الجن تحمل الإنسان من مكان إلى مكان تعجز قدرته عن الوصول إليه، وهذا قد علمناه نحن في غير صورة وغيرنا يعلم من جزئيات ذلك ما لم نعلمه، ومن شك في أصل ذلك فليرجع إلى من عنده علم ذلك، وإلا فليس للإنسان أن يكذب بما لا يعلم، ونحن نعرف من ذلك أموراً كثيرة جداً.

ونعرف عدداً كثيراً حُملوا في الهواء من مدائنهم إلى عرفات وإلى مكة في غير وقت عرفات، وبعضهم كان كافراً لم يسلم، وبعضهم منافق لا يقر بوجوب الصلاة، وبعضهم جاهل يعتقد أن وقوفه بعرفات بلا إحرام مع رجوعه إلى بلده بلا طواف وسعي ولا إحرام عبادة وكرامة من كرامات الصالحين، ومثل عدد كبير حملوا إلى غير مكة.

ولو ذكرت ما أعرفه من هذا لطال الخطاب.

---

(١) «الجواب الصحيح» (١ / ٣٢٠ / ٣٢١).

(٢) في كتاب «الصفدية» (١ / ١٩٠ ـ ١٩١)، وهذا هو الوجه السادس الذي يبين فيه شيخ الإسلام أن الخوارق التي تفعلها الجن ليست من قوى النفس.

وأعرف شخصاً من أصحابنا حملته الجن في الهواء من أسفل دارٍ إلى أعلاها، ووصوه بأمور الدين وتاب وحصل له خير.

وآخر كان معه شيطان يحمله قدّام الناس بمدينة «الشوبك» فيصعد في الهواء إلى رؤوس الجبال.

وآخر كان يحمله شيطانه من جبل الصالحية إلى قرية «يلدى» نحو فرسخ.

وطائفة حملتهم الشياطين من مدينة «تدمر» إلى «بيت المقدس» وأمرتهم أن يصلوا إلى الشمال وصلوا إليه أياماً وأخبروهم أن هذه الشريعة تغير وتنسخ حتى طلبهم المسلمون إلى جامع تدمر وكانوا في مغارة واستتابوهم فلم يتوبوا بل مكثوا يصلون إلى الشمال ثلاثة أيام ثم تابوا بعد ذلك وتبين لهم أن ذلك كان من الشيطان.

وآخر أتى قوماً يرقصون في سماع فبقي يرقص في الهواء على رؤوسهم فرآه شخص فصرخ به فسقط وكان هذا بحضرة الشيخ شبيب الشطي، فقال الشيخ: هذا سلبني حالي، فسأله، فقال: لم يكن له حال وإنما شيطان حمله من «الرحبة» إلى هنا فصرخت فيه فألقاه وهرب.

وجرى نظير هذه القصة لغير واحد. اهـ.

[مكر الشيطان بمدعي الكرامة]

قال شيخ الإسلام: إني أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها.

وأعرف من يخاطبهم الحجر والشجر وتقول: هنيئاً لك يا ولي الله، فيقرأ آية الكرسي فيذهب ذلك.

وأعرف من يقصد صيد الطير فتخاطبه العصافير وغيرها، وتقول: خذني حتى يأكلني الفقراء ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل في الإنس ويخاطبه بذلك.

ومنهم من يكون في البيت وهو مغلق فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح وبالعكس، وكذلك في أبواب المدينة وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة أو تمر به أنوار أو تحضر عنده من يطلبه ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه فإذا قرأ آية الكرسي مرة بعد مرة ذهب ذلك كله.

وأعرف من يخاطبه مخاطب ويقول له أنا من أمر الله ويعده بأنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ ويظهر له الخوارق.

مثل: أن يخطر بقلبه في الطير والجراد في الهواء فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يميناً أو شمالاً ذهبت حيث أراد.

وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي أو نومه أو ذهابه حصل له ما أراد من غير حركة منه في الظاهر، وتحمله إلى مكة وتأتي به وتأتيه بأشخاص في صورة جميلة وتقول له: هذه الملائكة الكروبيون أرادوا زيارتك، فيقول في نفسه: كيف تصوروا بصورة المردان؟!

فيرفع رأسه فيجدهم بلحى ويقول له: علامة أنك أنت المهدي أنك تنبت في جسدك شامة، فتنبت ويراها وغير ذلك وكله من مكر الشيطان[1].

---

(١) قال شيخ الإسلام: إنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة، فلم يكرم الله عبداً بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه، ويزيده مما يقربه إليه ويرفع به درجته. اهـ «مجموع الفتاوى» (١١ / ٢٩٨).

وهذا باب واسع لو ذكرت ما أعرفه منه لاحتاج إلى مجلد كبير[1]. اهـ.

[موقف شيخ الإسلام الجديد والقديم من ابن عربي]

قال شيخ الإسلام: . . . وهؤلاء[2] موَّهوا على السالكين التوحيد الذي أنزل الله تعالى به الكتب وبعث به الرسل بالاتحاد الذي سموه توحيداً وحقيقته تعطيل الصانع وجحود الخالق.

وإنما كنت قديماً ممّن يُحسن الظنّ بابن عربي ويعظّمه لما رأيت في كتبه من الفوائد مثل كلامه في كثير من «الفتوحات» و«الكنة» و«المحكم المربوط» و«الدرة الفاخرة» و«ومطالع النجوم» ونحو ذلك.

ولم نكن بعد اطّلعنا على حقيقة مقصوده ولم نطالع «الفصوص» ونحوه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١ / ٣٠٠ ـ ٣٠١).

(٢) أي الذين يقولون بالاتحاد من الصوفية كابن عربي وغيره وهذا الكلام ضمن رسالة بعث بها ابن تيمية إلى «نصر المنبجي » بمصر إرشاداً ونفعاً له ولغيره وذلك لما بلغه من تعظيم نصرٍ هذا لابن عربي وطريقته وأتباعه من الاتحادية، وكان شيخ الإسلام ينال من الجاشنكير حاكم مصر وشيخه المنبجي هذا ويقول: زالت أيامه وانتهت رياسته وقرب انقضاء أجله ويتكلم فيهما وفي ابن عربي وأتباعه، ونال شيخ الإسلام بسبب ذلك الأذى العظيم والمحاكمة الظالمة والاعتقال والتخطيط لاغتياله وينجيه الله دوماً ولا تزيده المحن إلا صلابة وثباتاً ونصراً للحق وأهله، وسيأتي مدى الأذى الذي تعرض له شيخ الإسلام، وقد أفصح شيخ الإسلام عن كفر ابن عربي كما تقدم قبل ذلك وكتبه بذلك طافحة وانظر مثلاً «حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود وبيان بطلانه بالبراهين النقلية والعقلية» في «مجموعة الرسائل والمسائل» (٤ / ٣ ـ ١١٤)، وكفره علماء كثيرون آخرون انظر «تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي» للعلامة برهان الدين البقاعي.

وكنّا نجتمع مع إخواننا في الله نطلب الحق ونتّبعه ونكشف حقيقة الطريق.

فلمّا تبيّن الأمر عرفنا نحن ما يجب علينا، فلمّا قدم من المشرق مشايخ معتبرون وسألوا عن حقيقة الطريق الإسلاميّة والدين الإسلامي، وحقيقة حال هؤلاء وجب البيان.

وكذلك كتب إلينا من أطرافِ الشامِ رجالٌ سالكون، أهل صدقٍ وطلب أن أذكر النكت الجامعة لحقيقة مقصودهم[1].

[ابن تيمية يجتمع بسلطان الأقطاب]

اجتمع بي قديماً شيخٌ معظمٌ من أصحاب ابن حمويه ـ صاحب ابن عربي ـ يسمِّيه أصحابه سلطان الأقطاب وتفاوضنا في كتاب «الفصوص». وكان معظّماً له ولصاحبه حتى أبديت له بعض ما فيه فهاله ذلك، وأخذ يذكر مثل هذه الأحاديث فبيّنت له أنّ هذا كله كذب[2]. اهـ.

[شيخ الإسلام يبين ما في الفصوص من الكفر والضلال وأفاضل شيوخهم يعترفون بذلك]

قال شيخ الإسلام[3]: وقد قال لي أفضل شيوخ هؤلاء بالديار المصرية لما أوقفته على بعض ما في هذا الكتاب[4] مثل هذا الموضع[5] وغيره.

---

(١) «الرسائل والمسائل» (١ / ١٧٨ ـ ١٧٩).

(٢) «الرسائل والمسائل» (٤ / ٨٠).

(٣) «الرد على ابن سبعين وأهل الوحدة» (ص ٤٨٨).

(٤) كتاب «الفصوص» لابن عربي شيخ الاتحادية.

(٥) في ادعاء النبوة.

فقال: هذا كفر.

وقال لي في مجلس آخر: هذا الكتاب عندنا من أربعين سنة نعظمه ونعظم صاحبه ما أظهر لنا هذه المصائب إلا أنت. اهـ.

[شيخ الإسلام يبين «للاتحادية» حقيقة قولهم وسر مذهبهم وودوا لو كان إمامهم]

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة: ولهٰذا لمّا بيّنت لطوائف من أتباعهم ورؤسائهم حقيقة قولهم وسر مذهبهم صاروا يعظّمون ذلك.

ولولا ما أقرنه بذلك من الذمّ والرد لجعلوني من أئمتهم. وبَذلوا لي من طاعة نفوسهم وأموالهم ما يجلُّ عن الوصف كما تبذله النّصارى لرؤسائهم، والإسماعيليّة لكبرائهم، وكما بذل آل فرعوْن لِفرعوْن[1].

[سماعات شيخ الإسلام من أعيان العلماء والفقهاء والفضلاء عن حقيقة شيخ الاتحادية ابن عربي وسر مذهبه وحقيقة طريقته والتعريف بأشهر أتباعه وأنصاره كالفاجر التلمساني وابن الفارض]

قال شيخ الإسلام: حدثني أحد أعيان الفضلاء أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبري رحمة الله عليه يقول: رأيت ابن عربي وهو شيخ نجس يكذِّب بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي أرسله الله. ولقد صدق فيما قال.

وحدثني صاحبنا الفقيه الصوفي أبو الحسن علي بن قرباص أنه دخل على الشيخ قطب الدين بن القسطلاني فوجده يصنف كتاباً؛ فقال: ما هذا؟

فقال: هذا في الرد على ابن سبعين وابن الفارض وأبي الحسن

---

(١) «الرسائل والمسائل» (٤ / ٦).

الحربي والعفيف التلمساني.

وحدثني عن جمال الدين بن واصل وشمس الدين الأصبهاني أنهما كانا ينكران كلام ابن عربي ويبطلانه ويردان عليه وأن الأصبهاني رأى معه كتاباً من كتبه فقال: إن اقتنيت شيئاً من كتبه فلا تجيء إليَّ، أو ما هذا معناه.

وأن ابن واصل لما ذكر كلامه في التفاحة التي انقلبت عن جوار معلم معها فقال: والله الذي لا إله إلا هو يكذب. ولقد برَّ في يمينه.

وحدثني صاحبنا الفاضل أبو بكر بن سالار عن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد شيخ وقته عن الإمام أبي محمد بن عبدالسلام أنهم سألوه عن ابن عربي لما دخل مصر فقال: شيخ سوء مقبوح يقول بقدم العالم ولا يحرم فرجاً.

وكان تقي الدين يقول: هو صاحب خيال واسع حدثني بذلك غير واحد من الفقهاء ممن سمع كلام ابن دقيق العيد.

وحدثني ابن بحير عن رشيد الدين سعيد وغيره أنه قال: كان يستحل الكذب، وهذا أحسن أحواله[1].

---

(١) قال شيخ الإسلام: وكان جماعة من الفضلاء ـ حتى بعض من خاطبني فيه وانتصر له ـ يرى أنه كان يستحل الكذب ويختارون أن يقال يتعمد الكذب وأن ذلك هو أهون من الكفر.
ثم صرحوا بأن مقالته كفر وكان يشهد عليه بتعمد الكذب غير واحد من عقلاء الناس وفضلائهم من المشايخ والعلماء. اهـ. ثم يبين ـ رحمه الله ـ أن كذب ابن عربي أعظم من كذب المتنبئين الكذابين كالمختار بن أبي عبيد وأمثاله بل قال: إن كذب مسيلمة الكذاب لم يبلغ كذبه وافتراؤه إلى هذا الحد. وانظر كاملاً هذا التعليق النفيس في =

وحدثني الشيخ العالم العارف كمال الدين المراغي شيخ زمانه أنه لما قدم وبلغه كلام هؤلاء في التوحيد قال: قرأت على العفيف التلمساني من كلامهم شيئاً فرأيته مخالفاً للكتاب والسنة، فلما ذكرت ذلك له قال: القرآن ليس فيه توحيد بل القرآن كله شرك ومن اتبع القرآن لم يصل إلى التوحيد.

قال: فقلت له: ما الفرق عندكم بين الزوجة والأجنبية والأخت والكل واحد؟

قال: لا فرق بين ذلك عندنا وإنما هؤلاء المحجوبون اعتقدوه حراماً فقلت: هو حرام عليهم عندهم وأما عندنا فما ثم حرام.

وحدثني كمال الدين بن المراغي أنه لما تحدث مع التلمساني في هذا المذهب قال: وكنت أقرأ عليه في ذلك فإنهم كانوا قد عظموه عندنا ونحن مشتاقون إلى معرفة «فصوص الحكم» فلما صار يشرحه لي أقول: هذا خلاف القرآن والأحاديث فقال: ارمِ هذا كله خلف الباب واحضر بقلب صافٍ حتى تتلقى هذا التوحيد ـ أو كما قال ـ ثم خاف أن أشيع ذلك عنه فجاء إليَّ باكياً وقال: استر عني ما سمعته مني.

وحدثني أيضاً كمال الدين أنه اجتمع بالشيخ أبي العباس الشاذلي تلميذ الشيخ أبي الحسن فقال عن التلمساني: هؤلاء كفار؛ هؤلاء يعتقدون أن الصنعة هي الصانع.

قال: وكنت قد عزمت على أن أدخل الخلوة على يده.

= «مجموعة الرسائل والمسائل» (٤ / ٥١).

فقلت: أنا لا آخذ عنه هذا وإنما أتعلم منه أدب الخلوة.

فقال لي: مثلك مثل من يريد أن يتقرب إلى السلطان على يد صاحب الأتون والزبال فإذا كان الزبال هو الذي يقربه إلى السلطان فكيف يكون حال السلطان؟

وحدثنا أيضاً قال: قال لي قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد: إنما استولت التتار على بلاد المشرق لظهور الفلسفة فيهم وضعف الشريعة.

فقلت له: ففي بلادكم مذهب هؤلاء الذين يقولون بالاتحاد وهو شر من مذهب الفلاسفة؟

فقال: قول هؤلاء لا يقوله عاقل بل كل عاقل يعلم فساد قول هؤلاء - يعني أن فساده ظاهر - فلا يذكر هذا فيما يتشبه على العقلاء بخلاف مقال الفلاسفة فإن فيها شيئاً من المعقول وإن كانت فاسدة.

وحدثني تاج الدين الأنباري الفقيه المصري الفاضل أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبري يقول: رأيت ابن عربي شيخاً مخضوب اللحية وهو شيخ نجس يكفر بكل كتاب أنزله الله، وكل نبي أرسله الله.

وحدثني الشيخ رشيد الدين بن المعلم أنه قال: كنت وأنا شاب بدمشق أسمع الناس يقولون عن ابن عربي والخسروشاهي إن كلاهما زنديق - أو كلاماً هذا معناه -.

وحدثني الشيخ إبراهيم الجعبري أنه حضر ابن الفارض[1] عند الموت

---

(١) هو أبو حفص عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد ت ٦٣٢. انظر «البداية والنهاية» (١٣ / ١٥٤)، قال شيخ الإسلام: وابن الفارض - من متأخري الاتحادية - صاحب القصيدة التائية المعروفة «بنظم السلوك»، وقد نظم فيها الاتحاد نظماً رائق اللفظ، فهو أخبث من=

وهو ينشد[1]:

إن كان منزلتي في الحب عندَكمُ ... ما قد لقيتُ فقد ضيَّعت أيامي

أمنيـة ظفـرتْ نفسـي بهـا زمنـاً ... واليـوم أحسبهـا أضغـاثَ أحـلامِ

وحدثني الفقيه الفاضل تاج الدين الزنباري أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبري يقول: رأيت في منامي ابن عربي وابن الفارض وهما شيخان أعميان يمشيان ويتعثران ويقولان: كيف الطريق؟ أين الطريق؟

وحدثني شهاب الدين المزي عن شرف الدين بن الشيخ نجم الدين ابن الحكيم عن أبيه أنه قال: قدمت دمشق فصادفت موت ابن عربي فرأيت جنازته فكأنما ذر عليها الرماد فرأيتها لا تشبه جنائز الأولياء ـ أو قال ـ فعلمت أن هذا. وعن أبيه عن الشيخ إسماعيل الكوراني أنه كان يقول: ابن عربي شيطان، وعنه أنه كان يقول عن الحريري إنه شيطان.

وحدثني شهاب الدين عن القاضي شرف الدين الباربلي أن أباه كان ينهاه عن كلام ابن عربي وابن الفارض وابن سبعين[2]. اهـ.

وحدثني من كان معه[3] ومعه آخر نظير له فمرا على كلب أجرب ميت بالطريق عند دار الطعم.

فقال له رفيقه: هذا أيضاً هو ذات الله.

= لحم خنزير في صينية من ذهب، وما أحسن تسميتها بنظم الشكوك! انظر «مجموع الفتاوى» (٤ / ٧٣ ـ ٧٤).

(١) ديوانه (ص ١٥٧).

(٢) انظر «مجموعة الرسائل والمسائل» (٤ / ٨١ ـ ٨٦).

(٣) أي التلمساني، قال شيخ الإسلام: وهو من حذاقهم علماً ومعرفة، وكان يظهر المذهب بالفعل فيشرب الخمر ويأتي المحرمات. اهـ. «مجموع الفتاوى» (١٣ / ١٨٦).

فقال: وهل ثم شيء خارج عنها؟ نعم! الجميع في ذاته!

وحدثني الشيخ عبد السيد[1] الذي كان قاضي اليهود ثم أسلم، وكان من أصدق الناس، ومن خيار المسلمين وأحسنهم إسلاماً، أنه كان يجتمع بشيخ منهم يقال له الشرف البلاسي يطلب منه المعرفة والعلم.

قال: فدعاني إلى هذا المذهب.

فقلت له: قولكم يشبه قول فرعون.

قال: ونحن على قول فرعون!

فقلت لعبد السيد: واعترف لك بهذا؟

قال: نعم! وكان عبد السيد إذ ذاك قد ذاكرني بهذا المذهب.

فقلت له: هذا مذهب فاسد وهو يؤول إلى قول فرعون! فحدثني بهذا.

فقلت له: ما ظننت أنهم يعترفون بأنهم على قول فرعون، لكن مع إقرار الخصم ما يحتاج إلى بينة.

قال عبد السيد: فقلت له: لا أدع موسى وأذهب إلى فرعون.

فقال: ولم؟

قلت: لأن موسى أغرق فرعون فانقطع واحتج عليه بالظهور الكوني.

فقلت لعبد السيد ـ وكان هذا قبل أن يسلم ـ: نفعتك اليهودية، يهودي خير من فرعوني.

---

(١) تقدم التعريف به، وقد أسلم على يد شيخ الإسلام انظر (ص: ٤٥).

وحدثني الثقة الذي كان منهم ثم رجع عنهم أن أبغض الناس إليه محمد بن عبدالله ﷺ.

قال: وإذا نهق الحمار ونبح الكلب سجدوا له، وقالوا: هذا هو الله فإنه مظهر من المظاهر.

قال: فقلت له: محمد بن عبدالله أيضاً مظهر من المظاهر فاجعلوه كسائر المظاهر وأنتم تعظمون المظاهر كلها أو اسكتوا عنه.

قال: فقالوا لي: محمد نبغضه فإنه أظهر الفرق ودعا إليه وعاقب من لم يقل به.

قال: فتناقضوا في مذهبهم الباطل، وجعلوا الكلب والحمار أفضل من أفضل الخلق.

قال لي: وهم يصرحون باللعنة له ولغيره من الأنبياء ولا ريب أنهم من أعظم الناس عبادة للشيطان وكفراً بالرحمن[1]. اهـ.

[شيخ الإسلام يتوِّب شيوخ الحلوليين]

قال شيخ الإسلام: لما وقعت محنة هؤلاء الملاحدة المشهورة وجرى فيها ما جرى من الأحوال، ونصر الله الإسلام عليهم، طلبنا شيوخهم لنتوِّبهم، فجاء من كان من شيوخهم، وقد استعد لأن يُظهر عندنا غاية ما يمكنه أن يقوله لنا ليسلم من العقاب.

فقلنا له: العالم هو الله أو غيره؟

فقال: لا هو الله ولا غيره.

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (١٣ / ١٨٦ ـ ١٩٠).

وهذا كان عنده هو القول الذي لا يمكن لأحد أن يخالفه فيه ولو علم أننا نكره لما قاله لنا وكان من أعيان شيوخهم ومحقِّقيهم وممن له أتباع ومريدون، وله ولأصحابه سلطان ودولة ومعرفة ولسان وبيان، حتى أدخلوا معهم من ذوي السلطان والقضاة والشيوخ والعامة ما كان دخولهم في ذلك سبباً لانتقاض الإسلام ومصيره أسوأ من دين النصارى والمشركين لولا ما من الله به من نصر الإسلام عليهم وبيان فساد أقاويلهم من التلبيس، الذي باطنه كفر وإلحاد، لا يفهمه خواص العباد[1]. اهـ.

[شيخ الإسلام يناظر أحد كبار القائلين بالوجود المطلق ويظهر عليه ويقول له: غُلبت، ويضحك لظهور فساد كلامه]

قال شيخ الإسلام: ولما اجتمع بي بعض حذّاقهم[2] ـ وعنده أنَّ هذا المذهب هو غاية التحقيق الذي ينتهي إليه الأكملون من الخلق ولا يفهمه إلا خواصهم وذكر أن الإحاطة هو الوجود المطلق[3] ـ قلت له: فأنتم تثبتون أمركم على القوانين المنطقية ومن المعروف في قوانين المنطق أن المطلق لا يوجد في الخارج مطلقاً؛ بل لا يوجد إلا معيناً، فلا يكون الوجود المطلق موجوداً في الخارج، فبهت ثم أخذ يُفتش لعلّه يظفر بجواب.

فقال: نستثني الوجود المطلق من الكليات.

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٦ / ١٧٢ ـ ١٧٣).

(٢) من القائلين بالوجود المطلق.

(٣) انظر الرد على أهل الإحاطة القائلين بالوجود المطلق في «الصفدية» (١ / ٢٩٦ ـ ٢٩٧). وانظر «حقيقة مذهب الاتحاديين» لشيخ الإسلام في «مجموعة الرسائل والمسائل» (٤ / ٣ ـ ١١٤).

فقلت له: غُلبت، وضحكت لظهور فساد كلامه[1]. اهـ.

[شيخ الإسلام يتوِّب «سبعيني» ثم يصبح يرد عليهم وشيخه يقول ابن تيمية أخرب بيوتنا وقلع أصولنا]

قال شيخ الإسلام[2] قال لي رجل من أعيانهم[3]: بلغنا أنك ترد على الشيخ عبدالحق[4] نحن نقول: إن الناس ما يفهمون كلامه فإن كنت تشرحه لنا وتبينْ فساده قبلناه وإلا فلا.

فقلت له: نعم أنا أبين لك مراده من كتبه «كالبد» و«الإحاطة» و«الفقيرية» وغير ذلك.

فقال: عندنا الكتاب الخاص الذي يسمى «لوح الأصالة» وهو سر السر. وهو الذي نطلب بيانه. ولم أكن رأيته، فذهب وجاء به، ففسرته له حتى تبين مراده[5]، وكتب أسئلة سألني عنها تكلمت فيها على أصل قولهم وقول ابن عربي وابن سينا ومن ضاهى هؤلاء، وبينت له أن أصل قولهم يرجع إلى الوجود المطلق، ثم بينت له أن المطلق لا يكون إلا في الأذهان لا

---

(١) «كتاب الصفدية» (١ / ٢٩٦).

(٢) في كتاب «الصفدية» (١ / ٣٠٢ ـ ٣٠٣)، وانظر هذه القصة أيضاً في كتاب «النبوات» (ص / ٨٢ ـ ٨٣).

(٣) الذين يقولون بقول ابن سبعين.

(٤) هو عبدالحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن سبعين ت ٦٦٩هـ.
قال الذهبي في «العبر» (٣ / ٣٢٠): كان من زهاد الفلاسفة من القائلين بوحدة الوجود. له تصانيف وأتباع يقدمهم يوم القيامة. اهـ. وانظر سوء سيرته وظلام أيامه ولياليه في «التصوف في ميزان البحث والتحقيق» (ص / ٢٠٢ ـ ٢١٢).

(٥) في كتاب «الرد على ابن سبعين وأهل الوحدة»، وهو مطبوع باسم «بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد».

في الأعيان[1]. وكان له فضيلة، فلما تبين له ذلك أخذ يصنف في الرد عليهم، وذهب إلى شيخ كبير منهم.

فقال له: بلغني أنك جَرى بينك وبين فلان الكلام.

قال: نعم.

قال: أي شيء قال لك؟

قال: فقال لي: آخر أمركم ينتهي إلى الوجود المطلق.

قال: جيد.

قال: بأي شيء يرد ذلك؟

قال: المطلق إنما هو في الأذهان لا في الأعيان.

فقال: أخرب بيوتنا وقَلَعَ أصولنا[2]، هذا ونحوه. اهـ.

[بعض الشياطين تلقي لأحد مستخدميها باستيلاء التتار على دار المسلمين]

لما استولى التتار على بغداد وكان الطوسي[3] منجماً لهولاكو

---

(١) انظر بيان ذلك في «الصفدية» (١ / ٢٩٦ و٢٩٧ و٣٠٠ـ٣٠٨).

(٢) أي شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٣) هو نصير الدين محمد بن عبدالله الطوسي (ت ٦٧٢) قال ابن القيم: نصير الشرك والكفر الملحد، وزير الملاحدة النصير الطوسي وزير هولاكو شفا نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه، فعرضهم على السيف حتى شفا إخوانه من الملاحدة، واشتفى هو، فقتل الخليفة، والقضاة والفقهاء والمحدثين واستبقى الفلاسفة والمنجمين والطبائعيين والسحرة. ونقل أوقاف المدارس والمساجد والربط إليهم وجعلهم خاصته وأولياءه. . . .
ورام جعل إشارات إمام الملحدين ابن سينا مكان القرآن فلم يقدر على ذلك، ورام تغيير=

استولى على كتب الناس: الوقف، والملك، فكان كتب الإسلام مثل التفسير والحديث والفقه والرقائق يعدمها، وأخذ كتب الطب والنجوم والفلسفة والعربية فهذه عنده هي الكتب المعظمة.

وكان بعض من أعرفه قارئاً خطيباً لكن كان يعظم هؤلاء ويرتاض رياضة فلسفية سحرية حتى يستخدم الجن.

وكان بعض الشياطين ألقى إليه أن هؤلاء يستولون على دار الإسلام فكان يقول لبعض أصحابنا: يا فلان عن قليل يرى هذا الجامع جامع دمشق يقرأ فيه المنطق والطبيعي والرياضي والإلهي، ثم يرضيه فيقول: والعربية أيضاً. والعربية إنما احتاج المسلمون إليها لأجل خطاب الرسول بها فإذا أعرض عن الأصل كان أهل العربية بمنزلة شعراء الجاهلية أصحاب المعلقات السبع ونحوهم من حطب النار[1]. اهـ.

[إبرار أقسام ابن تيمية وظهور مباهلته بشأن ابن هود الاتحادي مدعي الألوهية]

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة: كان عندنا بدمشق الشيخ المشهور الذي يُقال له ابن هود[2]، وكان من أعظم مَنْ رأيْناه من هؤلاء الاتّحاديّة زهداً ومعرفةً ورياضة.

= الصلاة وجعلها صلاتين، فلم يتم له الأمر، وتعلم السحر في آخر الأمر فكان ساحراً يعبد الأصنام. اهـ مختصراً «إغاثة اللهفان» (٢ / ٢٦٧).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣ / ٢٠٧).

(٢) قال الذهبي في «العبر» (٣ / ٣٩٨): الشيخ الزاهد بدر الدين حسن بن علي بن يوسف ابن هود المرسي الصوفي الاتحادي الضال (ت ٦٩٩). وانظر «شذرات الذهب» (٧ / ٧٨٠ ـ ٧٨١).

وكان من أشد الناس تعظيماً لابن سبعين ومفضّلاً له عنده على ابن عربي وغلامه ابن إسحاق. وأكثر الناس من الكبار والصغار كانوا يطيعون أمره.

وكان أصحابه الخواص به يعتقدون فيه أنّه: اللّه، وأنّه ـ أعني ابن هود ـ هو المسيح ابن مريم. ويقولون إنّ أُمّه كان اسمها مريم وكانت نصرانيّة.

ويعتقدون أن قول النبيّ ﷺ[1]: «ينزل فيكم ابن مريم» هو هذا وأنّ روُحانيّة عيسى تنزل عليه[2].

وقد ناظرني في ذلك من كان أفضل الناس إذ ذاك معرفةً بالعلومِ الفلسفيّة وغيرها مع دخوله في الزهد والتصوُّف.

وجرى لهم في ذلك مخاطبات ومناظرات يطول ذكرها، جرت بيني وبينهم حتى بيّنت لهم فساد دعواهم بالأحاديث الصحيحة الواردة في نزولِ عيسى بن مريم، وإنّ ذلك الوصف لا ينطبق على هٰذا.

وبيّنت فساد ما دخلوا فيه من القرمطة. حتى ظهرت مباهلتهم.

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع عدة منها: (٢٢٢٢)، ومسلم (٢٤٢)، وغيرهما.

(٢) قال شيخ الإسلام: وأراد ـ ابن هود ـ أن يظهر بأمر أعظم مما ظهرت به الأنبياء فكان يتكلم على الأنبياء الثلاثة أصحاب الملل الذين هم موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم، ثم جعل الرابع المنتظر أعظم من هؤلاء الثلاثة، ويرجو أن يكون هو ذلك الرابع، أو يصرح بذلك ويقول على طريق الفلاسفة: موسى في الجسم، وعيسى في النفس، ومحمد في العقل، أو يقول: سبحان الله لموسى، والحمد لله لعيسى، ولا إله إلا الله لمحمد، والله أكبر لهذا الرابع المنتظر، ويقول: موسى له علم اليقين، وعيسى له عين اليقين، ومحمد له حق اليقين، وهذا الرابع له حقيقة حق اليقين، والرابع هو صاحب الوجود الواجب وهو الإحاطة عندهم. اهـ. «الصفدية» (١ / ٢٨٤ ـ ٢٨٥).

وحلفتُ لهم أنّ ما ينتظرونه من هٰذا لا يكون ولا يتم وأن الله لا يتم أمر هٰذا الشيخ. فأبرّ الله تلك الأقسام والحمد لله ربِّ العالمين.

هٰذا مع تعظيمهم لي بمعرفتي عندهم، وإلاّ فهم يعتقدون أنّ سائر الناس محجوبون جُهّال بحقيقتهم وغوامضهم. وإلاّ فمن كان عند هؤلاء يَصلحُ أن يخاطب بأسرارهم. إنّما الناس عندهم كالبهائم حتى قال لي شيخٌ مشهورٌ من شيوخهم لمّا بيّنتُ له حقيقة قولهم، فأخذ يستحسن ويعظّم معرفتي بقولهم، وقال: هؤلاء الفقهاء هم صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون.

فقلت له: هَبْ أنّ الفقهاء كذلك، أباللّه أهٰذا القول موافق لدين الإسلام؟ فيتحير المجتهدون ويضطربون إذا شبِّه عليهم.

وقال لي بعض مَنْ كان يصدِّق هؤلاء الاتحاديّة ثم رجع عن ذلك فكان من أفضل الناس ونبلائهم وأكابرهم: ما المانع من أن يظهر الله في صورة بشر؟؟! والنبيُّ يقول في الدجال[1]: «إنّه أعور، وإنّ ربكم ليس بأعور» فلولا جواز ظهوره في هذه الصورة لما احتاج إلى هٰذا في كلام له. وأخذ يحتج بذلك على إمكان أن يكون «ابن هود» الله.

فبيّنت له امتناع ذلك من وجوهٍ، وتكلمت معه في ذلك بكلامٍ طالَ عهدي به لست أضبطه الآن، حتى تبيّن له بطلان ذلك.

وذكرتُ له أنّ هذا الحديث لا حجّة فيه، والله سبحانه قد بيّن عبوديّة المسيح وكفر من ادّعى فيه الإلٰهيّة بأنواعٍ غير ذلك. كقوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٣١) و(٧٤٠٨)، ومسلم (٢٩٣٣)، وغيرهما.

يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾[1]. فأكل الطعام لازمٌ لكل بشر.

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[4]، وأمثال ذلك[5]. اهـ.

[المتنبي الكذاب وإغواء الشيطان له]

قال الحافظ ابن كثير: وفيها[6] قتل عبد الملك بن مروان الحارث بن سعيد المتنبي الكذاب، ويقال له الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقي، مولى أبي الجلاس العبدري، ويقال مولى الحكم بن مروان، كان أصله من الجولة فنزل دمشق وتعبَّد بها وتنسك وتزهد ثم مكر به ورجع القهقرى على عقبيه، وانسلخ من آيات الله تعالى، وفارق حزب الله المفلحين، واتبع الشيطان فكان من الغاوين ولم يزل الشيطان يزج في قفاه حتى أخسره دينه ودنياه، وأخزاه وأشقاه، فإنا لله وحسبنا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد سمعت شيخنا العلامة أبا العباس ابن تيمية رحمة الله يقول: كان

---

(١) سورة المائدة: [٧٥].

(٢) سورة المائدة: [١٧].

(٣) سورة البقرة: [٢٥٥].

(٤) سورة الإخلاص: [٣ ـ ٤].

(٥) «بغية المرتاد» (٥٢٠ ـ ٥٢٢).

(٦) سنة ٧٩.

ينقر هذه الرخامة الحمراء التي في المقصورة[1] فتسبَّح وكان زيديقاً[2]. اهـ. مختصراً.

[ليس للعمود سر]

قال الحافظ ابن كثير في «تاريخه»[3]: وقد كانت بدمشق طلسمات وضعتها اليونان بعضها باق إلى يومنا هذا والله أعلم.

فمن ذلك العمود الذي في رأسه مثل الكرة في «سوق الشعير» عند قنطرة أم حكيم، وهذا المكان يعرف اليوم بالعلبيين، ذكر أهل دمشق أنه مِن وَضعِ اليونان لعسر بول الحيوان، فإذا داروا بالحيوان حول هذا العمود ثلاث دورات انطلق باطنه فبال، وذلك مجرب من عهد اليونان.

قال ابن تيمية عن هذا العمود: إن تحته مدفون جبار عنيد، كافر يعذب، فإذا داروا بالحيوان حوله سمع العذاب فراث وبال من الخوف.

قال: ولهذا يذهبون بالدواب إلى قبور النصارى واليهود والكفار، فإذا سمعت أصوات المعذبين انطلق بولها، والعمود المشار إليه ليس له سر، ومن اعتقد أن فيه منفعة أو مضرة فقد أخطأ خطأً فاحشاً. وقيل: إن تحته كنزاً وصاحبه عنده مدفون.

***

(١) من المسجد.

(٢) «البداية والنهاية» (٩ / ٢٩ ـ ٣١)، وانظر فيه مبتدأ أمره ومكر الشيطان به وصفة مسكه وقتله.

(٣) (٩ / ١٥٧)، وانظر (ص ١٦٥).

الفصل السابع

في محنة شيخ الإسلام ابن تيمية الأولى بدمشق (٦٩٨هـ) وتمسكه بطريق السلف مقتطفات من حكاية مناظرة الواسطية (٧٠٥هـ)



[ملخص محنة شيخ الإسلام الأولى بدمشق (٦٩٨هـ) وقيام المبتدعين عليه لتأليفه الحموية ووقائعها المثيرة وظهوره على الخصوم]

قال الشيخ علم الدين(١): وفي شهر ربيع الأول من سنة ثمان وتسعين وستمائة وقع بدمشق محنة للشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية، وكان الشروع فيها من أول الشهر، وظهرت يوم الخامس منه واستمرت إلى آخر الشهر.

وملخصها: أنه كان كتب جواباً سُئِلَ عنه من «حماة»(٢) في الصفات(٣)، فذكر فيه مذهب السلف، ورجحه على مذهب المتكلمين، وكان قبل ذلك بقليل أنكر أمر المنجمين، واجتمع «بسيف الدين

---

(١) البرزالي، وقد سبق التعريف به.

(٢) حماة: مدينة من مدن الشام. انظر «معجم البلدان» (٣/ ١٨٠ ـ ١٨١).

(٣) قال الإمام ابن يوسف الحنبلي في «الكواكب الدرية» (ص: ١٠٢): فأوّل مِحنته ـ كما نقل الثِّقات ـ في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة، بسبب عقيدته الحَمَوِيَّة الكبرى، وهي جواب سؤال ورد من حماة، فوضعها ما بين الظهر والعصر في ست كراريس بقطع نصف البلدي، فجرى له بسبب تأليفها أُمور ومحن، رجَّح مذهب السَّلف على مذهب المتكلِّمين، وشنَّع عليهم. اهـ. انظر «الحمويَّة الكبرى» في «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥ ـ ١٢٠)، وانظر «فتح رب البرية بتلخيص الحموية» للعلامة العثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ.

جاغان»[1] في ذلك في حال نيابته بدمشق وقيامه. فقام نائب السلطنة، وامتثل أمره. وقبل قوله والتمس منه كثرة الاجتماع به. فحصَل بسبب ذلك ضيق لجماعة مع ما كان عندهم قبل ذلك من كراهية الشيخ وتألمهم لظهوره وذكره الحسن.

فانضاف شيء إلى أشياء. ولم يجدوا مساغاً إلى الكلام فيه لزهده، وعدم إقباله على الدنيا، وترك المزاحمة على المناصب وكثرة علمه وجوْدة أجوبته وفتاويه، وما يظهر فيها من غزارة العلم وجودة الفهم.

فعمدوا إلى الكلام في العقيدة لكونهم يرجحون مذهب المتكلمين في الصفات والقرآن على مذهب السلف ويعتقدونه الصواب.

فأخذوا الجواب الذي كتبه، وعملوا عليه أوراقاً في ردِّه ثم سعوْا السعي الشديد إلى القضاة والفقهاء واحداً واحداً. وأغروا خواطرهم، وحرّفوا الكلام، وكذبوا الكذب الفاحش، وجعلوه يقول بالتجسيم ـ حاشاه من ذلك ـ وأنه قد أوعز ذلك المذهب إلى أصحابه. وأنّ العوام قد فسدت عقائدهم بذلك، ولم يقع من ذلك شيء والعياذ بالله.

وسعوْا في ذلك سعياً شديداً في أيامٍ كثيرة المطر والوحل والبرد، وسعوْا في ذلك سعياً شديداً.

ووافقهم جلالُ الدين الحنفي[2]، قاضي الحنفية يومئذ على ذلك ومشى معهم إلى دار الحديث الأشرفية، وطلب حضوره وأرسل إليه

---

(١) جاغان الأمير الكبير سيف الدين، كان فيه خير ودين. انظر «العبر» (٣/ ٣٩٧).

(٢) القاضي جلال الدين أبو العباس أحمد بن قاضي القضاة حسام الدين الرومي الحنفي (ت ٧٤٥). انظر «قضاة دمشق» (ص: ١٩٢).

فلم يحضر.

وأرسل إليه في الجواب: إنّ العقائد ليس أمرها إليك، وإنّ السلطان إنّما ولاّك لتحكم بين الناس، وإن إنكار المنكرات ليس ممّا يختصّ به القاضي.

فوصلت إليه هذه الرسالة فأغْرَوا خاطره، وشوّشوا قلبه، وقالوا: لم يحضر وردَّ عليك.

فأمر بالنداء على بطلان عقيدته في البلدة: فأجاب إلى ذلك، فنودي في بعض البلد.

ثمّ بادر سيف الدين جاغان وأرسل طائفة فضرب المنادي وجماعة ممّن حوله وأخرق بهم. فرجعوا مضروبين في غاية الإهانة.

ثم طلب سيف الدين جاغانُ مَن قام في ذلك وسعى فيه، فدارت الرسل والأعوان عليهم في البلد، فاخْتفوا واحتمى مقدمهم ببدر الدين الأتابكي، ودخل عليه في داره. وسأل منه أن يجيره من ذلك، فترفّق في أمره إلى أن سكن غضب سيف الدين جاغان.

ثمّ إنّ الشيخ جلس يوم الجمعة على عادته ثالث عشر الشهر، وكان تفسيره في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وذكر الحلم، وما ينبغي استعماله، وكان ميعاداً جليلاً.

ثمّ إنّه اجتمع بالقاضي إمام الدين الشافعي[2] وواعده لقراءة جزئه الذي أجاب فيه وهو المعروف: بالحموية.

---

(١) [سورة القلم: ٤].

(٢) تقدم التعريف به.

فاجتمعوا يوم السبت رابع عشر الشهر من بكرة النهار إلى نحو الثلث من ليلة الأحد، ميعاداً طويلاً مستمراً. وقرئت فيه جميع العقيدة وبيَّن مراده من مواضعٍ أُشكلت. ولم يحصل إنكار عليه من الحاكم ولا ممّن حضر المجلس، بحيث انفصل عنهم والقاضي يقول: كل من تكلم في الشيخ يعزّر، وانفصل عنهم عن طيبة.

وخرج والناس ينتظرون ما يسمعون من طيب أخباره، فوصل إلى داره في ملأٍ كثير من الناس، وعندهم استبشار وسرور به.

وهو في ذلك كله ثابت الجأش، قوي القلب واثق بالنصر الإلٰهي لا يلتفت إلى نصر مخلوق ولا يعوِّل عليه.

وكان سعيهم في حقه أتمّ السعي، لم يبقوا ممكناً من الاجتماع بمن يرتجون منه أدنى نصر لهم، وتكلموا في حقه بأنواع الأذى، وبأمور يستحي الإنسان من الله سبحانه أن يحكيها، فضلاً عن أن يختلقها ويلفقها، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

والذين سعوا فيه معروفون عندنا وعند كل أحد، قد اشتهر هذا الفعل الفظيع عنهم. وكذلك من ساعدهم بقول أو تشنيع أو إغراء أو إرسال رسالة، أو إفتاء أو شهادة، أو أذى لبعض أصحاب الشيخ ومن يلوذ به أو شتم، أو غيبة أو تشويش باطن. فإنه وقع من ذلك شيء كثير من جماعة كثيرة.

ورأى جماعة من الصالحين والأخيار في هذه الواقعة وعقيبها للشيخ مرائي حسنة جليلة، لو ضبطت كانت مجلداً تامّاً[1]. اهـ.

---

(١) «العقود الدرية» (ص: ١٩٨ ـ ٢٠٢)، وانظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٤ ـ ٥) =

[كون شيخ الإسلام عند تأليفه الحموية دون الأربعين من العمر]

وفي «الكواكب الدرية»[1]: هذا آخر «الحموية الكبرى» ألفها الشيخ - رحمه الله - وعمره دون الأربعين سنة، ثم انْفتح له - بعد ذلك - من الرد على الفلاسفة والجهمية، وسائر أهل الأهواء والبدع ما لا يوصف ولا يُعبَّر عنه، وجرى له من المناظرات العجيبة، والمباحثات الدقيقة - مع أقرانه وغيرهم - في سائر أنواع العلوم ما تضيق عنه العبارة، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه. اهـ.

«مقتطفات من حكاية الواسطية»

[سبب كتابة الشيخ المناظرة وبيان الحامل على هذه الاجتماعات وذكر الباعث على إرسال الكتاب السلطاني]

قال شيخ الإسلام: سئلت غير مرة، أن أكتب ما حضرني ذكره ممّا جرى في المجالس الثلاثة، المعقودة للمناظرة، في أمر الاعتقاد بمقتضى ما ورد به كتاب السلطان[2] من الديار المصرية إلى نائبه أمير البلاد، لما سعى إليه قوم من الجهمية والاتحادية، والرافضة وغيرهم من ذوي الأحقاد.

= و«الكواكب الدرية» (ص: ١٠٢ ـ ١١٤).

(١) (ص: ١١٢).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في «تاريخه» (١٤ / ٣٩): كان الباعث على إرساله قاضي المالكية ابن مخلوف، والشيخ نصر المنبجي شيخ الجاشنكير وغيرهما من أعدائه، وذلك أن الشيخ تقي الدين ابن تيمية كان يتكلم في المنبجي وينسبه إلى اعتقاد ابن عربي، وكان للشيخ تقي الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه لتقدمه عند الدولة، وانفراده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الناس له، ومحبتهم له، وكثرة أتباعه، وقيامه في الحق، وعلمه وعمله. اهـ.

فأمر الأمير بجمع القضاة الأربعة، قضاة المذاهب الأربعة وغيرهم من نوابهم، والمفتين والمشائخ، ممن له حرمة وبه اعتداد، وهم لا يدرون ما قصد بجمعهم في هذا الميعاد، وذلك يوم الإثنين ثامن رجب المبارك، عام خمس وسبعمائة.

فقال لي: هذا المجلس عُقِد لك، فقد ورد مرسوم السلطان بأن أسألك عن اعتقادك، وعما كتبت به إلى الديار المصريّة، من الكتب التي تدعو بها الناس إلى الاعتقاد، وأظنه قال: وأن أجمع القضاة والفقهاء وتتباحثوا في ذلك[1].

[مصدر تلقي العقيدة عند شيخ الإسلام]

فقلت: أما الاعتقاد فلا يؤخذ عني ولا عمّن هو أكبر مني، بل يؤخذ عن الله ورسوله ـ ﷺ ـ وما أجمع عليه سلف الأمة، فما كان في القرآن وجب اعتقاده وكذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة، مثل صحيح البخاري ومسلم. وأمّا الكتب فما كتبت إلى أحد كتاباً ابتداءً أدعوه به إلى شيء من ذلك ولٰكني كتبت أجوبة أجبت بها من يسألني من أهل الديار المصرية وغيرهم.

---

(١) بعد انقضاء هذه المجالس، «جاء كتاب السلطان في السادس والعشرين من شعبان: إنا كنا سمعنا بعقد مجلس للشيخ تقي الدين ابن تيمية، وقد بلغنا ما عقد له من المجالس، وأنه على مذهب السلف وإنما أردنا بذلك براءة ساحته مما نسب إليه». اهـ. من «البداية والنهاية» (١٤ / ٣٩).

[الكذب على شيخ الإسلام أكثر من مرة
وتزوير كتاب عليه إلى الأمير يتضمن ذكر عقيدة محرفة]

وكان قد بلغني أنه زُوِّرَ عليَّ كتاب إلى الأمير ركن الدين الجاشنكير أستاذ دار السلطان يتضمن ذكر عقيدة محرفة ولم أعلم بحقيقته لٰكن علمت أنه مكذوب.

وكان يَرد عليَّ مِن مصر وغيرها من يسألني عن مسائل في الاعتقاد وغيره فأُجيبه بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة ـ إلى أن قال ـ:

ثم قلت للأمير والحاضرين: أنا أعلم أنّ أقواماً يكذبون عليّ كما قد كذبوا عليّ غير مرة. وإن أمليْت الاعتقاد من حفظي ربما يقولون: كتم بعضه أو داهن وداری. فأنا أحضر عقيدة مكتوبة من نحو سبع سنين قبل مجيء التتر إلى الشام.

وقلت قبل حضورها كلاماً قد بعِدَ عهدي به، وغضبتُ غضباً شديداً لٰكني أذكر أني قلت: أنا أعلم أنّ أقواماً كذبوا عليَّ وقالوا للسلطان أشياء. وتكلمتُ بكلام احتجت إليه مثل أن قلت:

من قام بالإسلام أوقات الحاجة غيري؟

ومن الذي أوضح دلائله وبيّنه؟

وجاهد أعداءَه وأقامه لما مال؟

حين تخلى عنه كل أحد ولا أحد ينطق بحجته ولا أحد يجاهد عنه.

وقمت مظهراً لحجته مجاهداً عنه مرغباً فيه؟

فإذا كان هؤلاء يطمعون في الكلام فيَّ فكيف يصنعون بغيري؟ ولو أنّ

يهودياً طلب من السلطان الإنصاف لوجب عليه أن ينصفه، وأنا قد أعفو عن حقي وقد لا أعفو، بل قد أطلب الإنصاف منه وأن يحضر هؤلاء الذين يكذبون ليوافقوا على افترائهم، وقلت كلاماً أطول من هذا الجنس، لٰكن بَعُد عهدي به فأشار الأمير إلى كاتب الدَّرْج[1] محيي الدين بأن يكتب ذلك.

وقلت أيضاً: كل من خالفني في شيءٍ مما كتبته فأنا أعلم بمذهبه منه ـ إلى أن قال ـ:

ثم أرسلت من أحضرها ومعها كراريس بخطي من المنزل فأحضرت «العقيدة الواسطية».

[سبب كتابة الشيخ العقيدة الواسطية]

وقلت لهم: هذه كان سبب كتابتها أنّه قدم عليَّ من أرض «واسط»[2] بعض قضاة نواحيها ـ شيخ يقال له «رضي الدين الواسطي» ـ من أصحاب الشافعي قدم علينا حاجّاً، وكان من أهل الخير والدين، وشكا ما الناس فيه بتلك البلاد وفي دولة التتر من غلبة الجهل والظلم، ودروس الدين والعلم، وسألني أن أكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته، فاستعفيت من ذلك.

وقلت: قد كتب الناس عقائد متعددة، فخذ بعض عقائد أئمة السنة فألحّ في السؤال.

وقال: ما أحبُّ إلاّ عقيدةً تكتبها أنت، فكتبتُ له هذه العقيدة وأنا قاعدٌ بعد العصر، وقد انتشرت بها نسخٌ كثيرة، في مصر والعراق وغيرهما.

فأشار الأمير بأن لا أقرأها أنا لرفع الريبة، وأعطاها لكاتبه الشيخ

---

(١) الدَّرْج: الورق الذي يكتب فيه.

(٢) بلدة من أعمال العراق. انظر «معجم البلدان» (٨/ ٤٣٥).

كمال الدين[1]، فقرأها على الحاضرين حرفاً حرفاً، والجماعة الحاضرون يسمعونها ويورد المورد منهم ما شاء ويعارض فيما شاء، والأمير أيضاً: يسأل عن مواضع فيها، وقد علم الناس ما كان في نفوس طائفة من الحاضرين من الخلاف والهوى ما قد علم الناس بعضه، وبعضه بسبب الاعتقاد وبعضه بغير ذلك ـ ثم أجاب من اعترض عليه في العقيدة[2] ـ إلى أن قال:

[الأمير يقترح على الشيخ مخرجا لقطع النزاع والشيخ يأبى ويتحدى]

ولما رأى هذا الحاكم العدل ممالأتهم وتعصبهم، ورأى قلة العارف الناصر، وخافهم قال: أنت صنّفت اعتقاد الإمام أحمد فتقول هذا اعتقاد أحمد، يعني والرجل يصنف على مذهبه فلا يعترض عليه فإن هذا مذهب متبوع. وغرضه بذلك قطع مخاصمة الخصوم.

فقلت: ما جمعتُ إلاّ عقيدة السلف الصالح جميعهم ليس للإمام أحمد اختصاص بهذا، والإمام أحمد إنّما هو مبلغ العلم الذي جاء به النبي ـ ﷺ ـ، ولو قال أحمد من تلقاء نفسه ما لم يجئ به الرسول لم نقبله وهذه عقيدة محمد ـ ﷺ ـ.

وقلت مرات: قد أمهلت كل من خالفني في شيء منها ثلاث سنين، فإن جاء بحرفٍ واحدٍ عن أحد من القرون الثلاثة التي أثنى عليها النبي ـ ﷺ ـ: حيث قال[3]: «خير القرون القرن الذي بعثت فيه ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، ـ يخالف ما ذكرته فأنا أرجع عن ذلك وعليَّ أن آتي

---

(١) ابن الزملكاني، سبق التعريف به.

(٢) قال شيخ الإسلام: وكان مجموع ما اعترض به المنازعون، المعاندون بعد انقضاء قراءة جميعها، والبحث فيها عن أربعة أسئلة «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٧٧).

(٣) انظر «السلسلة الصحيحة» (٦٩٩ و٧٠٠).

بنقول جميع الطوائف ـ عن القرون الثلاثة، توافق ما ذكرته من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبليّة والأشعرية وأهل الحديث، والصوفيّة وغيرهم. . .

[الاستنصار بالهندي لمناظرة ابن تيمية ولكن الشيخ يعجزه ويسكته]

فلمّا كان «المجلس الثاني» يوم الجمعة في اثني عشر رجب، وقد أحضروا أكثر شيوخهم ممن لم يكن حاضراً ذلك المجلس، وأحضروا معهم زيادة «صفي الدين الهندي»[(١)].

وقالوا: هذا أفضل الجماعة وشيخهم في علم الكلام[(٢)] وبحثوا فيما بينهم واتفقوا وتواطؤوا وحضروا بقوة واستعداد غير ما كانوا عليه، لأنّ المجلس الأول أتاهم بغتة وإن كان أيضاً بغتة للمخاطب الذي هو المسؤول والمجيب والمناظر . ـ إلى أن قال ـ:

[الشيخ صفي الدين الهندي ينصف الشيخ ويقول لأصحابه: ما له ذنب وما لكم عليه من اعتراض]

وحدثني الثقة عنه بعد خروجه من المجلس أنه اجتمع به وقال له: أخبرني عن هذا المجلس.

---

(١) الشيخ صفي الدين الهندي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي الشافعي المتكلم (ت ٧١٥).

(٢) قال ابن كثير في «تاريخه» (١٤ / ٣٩): وحضر صفي الدين الهندي، وتكلم مع الشيخ تقي الدين كلاماً كثيراً ولكن ساقيته لاطمت بحراً. اهـ.
وانظر أنموذج تخطئة الشيخ له وتكذيبه إياه وتسكيته هو ونائب المالكي سكوتاً لم يتكلما بعده بما يذكر، بل إنهم اصطلحوا على تغييره بابن الزملكاني لمتابعة المناظرة وذلك في «المجلس الثاني»، انظر «مجموع الفتاوى» (٣ / ١٨١ ـ ١٨٤ و٢٠٩).

فقال: ما لفلان ذنب ولا لي فإنّ الأمير سأل عن شيء فأجابه عنه فظننته سأل عن شيء آخر.

وقال: قلت لهم: أنتم ما لكم على الرجل اعتراض، فإنه نصر ترك التأويل وأنتم تنصرون قول التأويل، وهما قولان للأشعري.

وقال: أنا أختار ترك التأويل، وأخرج وصيته التي أوصى بها وفيها قول ترك التأويل.

قال الحاكي لي: فقلت له: بلغني عنك أنك قلت في آخر المجلس ـ لما أشهد الجماعة على أنفسهم بالموافقة ـ: لا تكتبوا عني نفياً ولا إثباتاً، فلم ذاك؟

فقال لوجهين: أحدهما: أني لم أحضر قراءة جميع العقيدة في المجلس الأول.

والثاني: لأن أصحابي طلبوني لينتصروا بي، فما كان يليق أن أُظهر مخالفتهم فسكت عن الطائفتين ـ إلى أن قال ـ:

[تأكيد الشيخ أنها عقيدة الرسول ـ ﷺ ـ وليس لأحمد بن حنبل بها اختصاص وإنما هذا اعتقاد سلف الأمة وأئمة الحديث]

قال لي بعض الأكابر من الحنفية ـ وقد اجتمع بي ـ: لو قلت هذا مذهب أحمد وثبت على ذلك لانقطع النزاع.

ومقصوده أنه يحصل دفع الخصوم عنك بأنه مذهب متبوع ويستريح المنتصر والمنازع من إظهار الموافقة.

فقلت: لا والله ليس لأحمد بن حنبل في هذا اختصاص وإنما هذا اعتقاد سلف الأمة وأئمة أهل الحديث.

وقلت: أيضاً هذا اعتقاد رسول الله ـ ﷺ ـ وكل لفظ ذكرته فأنا أذكر به آية، أو حديثاً، أو إجماعاً سلفياً. وأذكر من ينقل الإجماع عن السلف من جميع طوائف المسلمين والفقهاء الأربعة والمتكلمين وأهل الحديث والصوفية[1]. [2]. اهـ. من حكاية المناظرة.

***

(١) قال الذهبي: ثم وقع الاتفاق على أن هذا معتقد سلفي جيد. اهـ. «مجموع الفتاوى» (٣ / ٢٠١).

وقال الحافظ ابن كثير في «تاريخه» (١٤ / ٣٩) في نهاية المجلس الثاني: ... ثم انفصل الحال على قبول العقيدة، وعاد الشيخ إلى منزله معظماً مكرماً، وبلغني أن العامة حملوا له الشمع من باب النصر إلى القصاعين على جاري عادتهم في أمثال هذه الأشياء. ـ إلى أن قال ـ: ثم عقد المجلس الثالث في يوم سابع شعبان بالقصر واجتمع الجماعة على الرضى بالعقيدة المذكورة. اهـ.

(٢) انظر «مناظرة الواسطية» كاملة في «مجموع الفتاوى» (٣ / ١٦٠ ـ ١٩٣)، و«العقود الدرية» (ص: ٢٠٦ ـ ٢٤٨)، وانظر «مختصر الحكاية» للبرزالي في «المرجع السابق» (٣ / ١٩٤ ـ ٢٠١)، وانظر فيه مختصرها لشرف الدين ابن تيمية (٣ / ٢٠٢ ـ ٢١٠)، و«البداية والنهاية» (١٤ / ٣٨ ـ ٣٩)، و«الكواكب الدرية» (ص: ١١٧ ـ ١٢٥)، وانظر «العقيدة الواسطية» في «مجموع الفتاوى» (٣ / ١٢٩ ـ ١٥٩).

الفصل الثامن

في توجه شيخ الإسلام ابن تيمية إلى مصر ومحنته بها وذكر أحداثها العظيمة الكثيرة إلى حين مغادرتها إلى دمشق واستقراره بها حتى قبل السجنة الأخيرة سنة ٧٢١هـ



[الرسم بكشف أمر الشيخ أيام جاغان والقاضي القزويني وإشارة نائب دمشق على ابن تيمية بعدم التوجه إلى مصر وتعهده بإصلاح قضاياه و شيخ الإسلام يمتنع ويذكر أن في سفره مصالح كبيرة]

قال الحافظ ابن كثير: جاء كتاب آخر[1] في خامس رمضان يوم اىثنين[2] وفيه الكشف عن ما كان وقع للشيخ تقي الدين ابن تيمية في أيام جاغان والقاضي إمام الدين القزويني[3]، وأن يحمل هو والقاضي ابن صَصْرَى[4] إلى مصر.

فتوجها على البريد نحو مصر وخرج مع الشيخ خلق من أصحابه وبكوا عليه وخافوا عليه من أعدائه.

---

(١) الكتاب المتقدم في السادس والعشرين من شعبان سنة (٧٠٥هـ) وفيه: «إنا كنا سمعنا بعقد مجلس للشيخ تقي الدين ابن تيمية وقد بلغنا ما عقد له من المجالس، وإنه على مذهب السلف وإنما أردنا بذلك براءة ساحته مما نسب إليه». اهـ. «البداية والنهاية» (١٤/ ٣٩).

(٢) (سنة ٧٠٥هـ).

(٣) سيأتي بيان ذلك مفصلاً.

(٤) تقدم التعريف به.

وأشار عليه نائب السلطنة ابن الأفرم بترك الذهاب إلى مصر وقال له: أنا أكاتب السلطان في ذلك وأصلح القضايا.

فامتنع الشيخ من ذلك وذكر له أن في توجهه لمصر مصلحة كبيرة ومصالح كثيرة[1]. اهـ.

[شيخ الإسلام ينكر على الشيخ المنبجي عقيدته الفاسدة والمنبجي يغري قضاة مصر وعلمائها على ابن تيمية ويوهم السلطان بأنه مخرجهم من الملك فيرسم بطلبه للديار المصرية]

قال الإمام مرعي بن يوسف الحنبلي: ظهر الشيخ نصر المنبجي[2] بمصر وشاع أمره، فقيل للشيخ ابن تيمية: إنه اتحادي، فكتب إليه الشيخ نحو ثلاثمائة سطر بالإنكار عليه، فأغرى الشيخ نصر قضاة مصر وعلماءها على ابن تيمية، وقال: إنَّه سيّئ العقيدة مبتدع معارض للفقراء وغيرهم وطعنوا فيه عند السلطان، فورد مرسوم السلطان لدمشق يسأل الشيخ عن عقيدته، فعقد المجلس للمناظرة[3] ثامن رجب سنة خمس وسبعمائة بحضرة العلماء والقضاة كما مرَّ.

ولا يبعد أن يكون الروافض قد برطلوا[4] عليه.

ثم لم يقنع ذلك الشيخ نصر، بل اجتمع مع طائفة من علماء مصر للجاشنكير ـ الذي تسلطن بمصر ـ، فأوهمه الشيخ نصر أن ابن تيمية

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ٣٩ ـ ٤٠).

(٢) تقدم التعريف به.

(٣) مضى ذكر هذه المجالس مفصلاً.

(٤) أي: رشوا.

يخرجهم من الملك ويقيم غيرهم[1] وأنه مبتدع.

[مرسوم السلطان إلى دمشق بإحضار ابن تيمية إلى مصر خامس شهر رمضان، سنة خمس وسبعمائة]

فلما طُلب إلى الديار المصرية مانع نائب الشام[2] وقال: «قد عقد له مجلسان بحضرتي، وحضره القضاة، والفقهاء، وما ظهر عليه شيءٌ»!!

فقال الرسول لنائب دمشق: أنا ناصح لك، وقد قيل: إنه يجمع الناس عليك وعقد لهم بيعة. فجزع من ذلك وأرسله إلى القاهرة على البريد[3]. اهـ.

[استحثاث المنبجي الأمراء والعلماء بطلب ابن تيمية إلى الديار المصرية والتحقق من عقيدته عقب نقده الاتحادية عقيدة ومسلكاً والتحري عن حركته النشطة بالشام]

قال الإمام أبو بكر الدَّواداري: إن بعض أصحاب الشيخ تقي الدين ابن تيمية أحضر للشيخ كتاباً من تصانيف الشيخ محيي الدين بن العربي يسمى «فصوص الحكم» وذلك في سنة ثلاث وسبع مئة فطالعه الشيخ تقي الدين فرأى فيه مسائل تخالف اعتقاده، فشرع في لعنة ابن العربي وسب أصحابه الذين يعتقدون اعتقاده، ثم اعتكف الشيخ تقي الدين في شهر رمضان وصنف نقيضه وسماه «النصوص على الفصوص» وبين فيه الخطأ

---

(١) وقال نصر الدين المنبجي لابن مخلوف: قل للأمراء: إن هذا يُخشى على الدولة منه كما جرى لابن تُومرت في بلاد المغرب. اهـ. «الكواكب الدرية» (ص: ١١٥).

(٢) الأمير ابن الأفرم.

(٣) «الكواكب الدرية» (ص: ١٢٧ ـ ١٢٨).

الذي ذكره ابن العربي وبلغه أن شيخ الشيوخ «كريم الدين»[1] شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة المحروسة له اشتغال بمصنفات ابن العربي وأنه يعظمه تعظيماً كبيراً وكذلك الشيخ نصر المنبجي.

ثمَّ إن الشيخ تقي الدين صنف كتابين فيهما إنكار كثير على تأليف ابن العربي ولعنه فيهما مصرحاً ولعن من يقول بقوله، وسير الكتاب الواحد للشيخ نصر المنبجي والآخر للشيخ كريم الدين، فلما وقف عليه الشيخ نصر حصل عنده من ذلك أمر عظيم وتألم له تألماً بالغاً وحصل له إنكاء شديد.

وكان الشيخ نصر كما قد تقدم من الكلام منزلته عند الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير العالية. وأن بيبرس لا يقوم ويقعد إلا به في سائر حركاته وكان سائر الحكام من القضاة والأمراء وأرباب المناصب يترددون إلى عند الشيخ نصر لأجل منزلته عند بيبرس الجاشنكير.

[تحالف القاضي المالكي ابن مخلوف
والشيخ نصر المنبجي ضد ابن تيمية]

فحضر عنده القاضي زين الدين بن مخلوف المالكي عقيب وقوف الشيخ نصر على كتاب الشيخ تقي الدين، فأوقف القاضي على الكتاب المذكور.

فقال له القاضي: أوقف الأمير ركن الدين عليه وقرِّر معه ما أحببت وأنا معك كيف شئت، وألزم الأمير ركن الدين بطلبه إلى الديار المصرية،

---

(١) الشيخ كريم الدين بن الحسين الأيكي شيخ الشيوخ بمصر (ت ٧١٠هـ) بخانقاه سعيد السعداء. «البداية والنهاية» (١٤ / ٦٢).

وتسأله عن عقيدته فقد بلغني أنه أفسد عقول جماعة كبيرة وهو يقول بالتجسيم وعندنا من اعتقد هذا الاعتقاد كفر ووجب قتله.

فلما حضر الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنير عند الشيخ نصر على عادته أجرى له ذكر ابن تيمية وأمر عقيدته وأنه أفسد عقول جماعة كبيرة ومن جملتهم نائب الشام وأكبر الأمراء الشاميين والمصلحة تقتضي طلبه إلى الأبواب العالية ويطلب منه عقيدته، وتقرأ على العلماء بالديار المصرية من المذاهب الأربعة فإن وافقوه وإلا يستتيبوه ويرجعوه ليرجع عن مذهبه واعتقاده وسائر من لعب بعقله من الناس أجمعين ثم ذكر له ذنوباً أخر[١] حتى حرَّض بيبرس على طلبه[٢]. اهـ.

[عداوة قاضي القضاة زين الدين المالكي لشيخ الإسلام من أسباب طلبه إلى الديار المصرية]

قال العلامة النويري: السبب المُحرِّكُ لهذه الواقعة الموجبُ لطلب الشيخ تقي الدين المذكور إلى الديار المصرية فقد اطلعت عليه من ابتدائه

---

(١) قلت: من الذنوب التي ذكرت ـ زعم ـ اجتماع الناس عليه والتفافهم حوله وإقامته الحدود والتعزير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة حلقات العلم ومناظرة أهل البدع ومزيد من حب العامة له والعلماء والأمراء والقضاة وحركته الدائبة والنشطة مما دعاهم إلى إقامة الدعوى والحكومة عليه بمصر لأنهم لا يستطيعون ذلك بالشام لكثرة محبيه ومؤيديه.
ومن أعظم ذنوبه كما سيأتي أنه يسعى لإخراجهم من الملك وأنه يلهج بذكر ابن تومرت ويخشى منه على الدولة كحال ابن تومرت كما يزعمون فلذلك رسموا بقدومه مصر.

(٢) «كنز الدُّرر وجامع الغُرَر» لأبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدَّواداري عن «الجامع» (ص: ١٧٥ ـ ١٧٦).

وهو: أن بعض الطلبة واسمه: عبد الرحمن العينوسي سكن «بالمدرسة الناصرية»[1] التي تقدم ذكرها بالقاهرة وكنت بها، وبها قاضي القضاة زين الدين المالكي وغيره[2].

فاتفق اجتماعي أنا والقاضي شمس الدين محمد بن عدلان الكناني القرشي الشافعي[3] بمنزلي بالمدرسة المذكورة في بعض الليالي وهو أيضاً ساكن بالمدرسة ومعيد بها، فحضر عبد الرحمن المذكور إلينا ومعه الفُتيا[4] وقد أجاب الشيخ تقي الدين عنها فأخرجها من يده وشرع يذكر الشيخ تقي الدين وبسط عبارته وعلمه وقال: هذه من جملة فتاويه ولم يرد فيما ظهر أذاه وإنما قصد ـ والله أعلم ـ نشر فضيلته فتناولها القاضي شمس الدين بن عدلان منه وقرأها.

فلما وقف القاضي شمس الدين ابن عدلان على هذه الفتيا أنكر منها مواضع، وعرضها على القاضي زين الدين المالكي، فقال قاضي القضاة: أحتاج أن يثبت عندي أن هذا خط تقي الدين المذكور، فإذا ثبت ذلك رتبت عليه مقتضاه، وانفصل المجلس في تلك الليلة على هذا.

ثم شهد جماعة عند قاضي القضاة أن الجواب المذكور بخط تقي الدين المذكور فثبت ذلك عنده وأشهد على نفسه به في شعبان من

---

(١) انظر التعريف بها في «الخطط» للمقريزي (٢ / ٣٦٣ ـ ٣٦٤).

(٢) تقدم التعريف به.

(٣) المعروف بابن عدلان الكناني (ت ٧٤٩هـ)، قال الأسنوي: كان فقيهاً إماماً يضرب به المثل في الفقه عارفاً بالأصلين والنحو والقراءات ذكياً نظاراً فصيحاً. . . اهـ. «طبقات الشافعية» للأسنوي (١ / ٣٠٥ ـ ٣٠٦)، وانظر «الدرر الكامنة» (٣ / ٣٣٣ ـ ٣٣٤).

(٤) توجد هذه الفتوى في «مجموع الفتاوى» (١٢ / ٢٣٥ ـ ٢٤٥)، وانظرها كاملة في «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص: ١٠٨ ـ ١١٧).

السنة[1]، واجتمع قاضي القضاة زين الدين بالأمراء وعرَّفهم ما أنكره من فتياه، فرُسم بطلبه إلى الأبواب السلطانية وتوجه البريد بذلك، فتوقف نائب السلطنة بالشام الأمير جمال الدين في إرساله، واتفق وصول الأمير سيف الدين الطنقش الجمالي أستاذ دار نائب السلطنة بالشام إلى الأبواب السلطانية في الشهر المذكور في بعض المهمات وملَّك السلطان مخدومه من أملاكه بالشام أماكن احتاج إلى إثباتها على قاضي القضاة زين الدين المالكي فاجتمع بي بسبب ذلك. فدخلت على قاضي القضاة وعرفته مكانة سيف الدين المذكور ومنزلته من أرباب الدولة ومحل مخدومه والتمست منه الإذن له في الدخول، وإكرامه اذا دخل عليه فأذن له في الدخول فلما دخل عليه اطَّرَحَه ولم يكترث لدخوله وكلمه بكلام غليظ.

[تحميل قاضي القضاة زين الدين المالكي الأمير سيف الدين الطنقش رسالة إلى نائب الشام الأمير ابن الأفرم تفسخ عزمه وتجزعه لتأخره بإرسال ابن تيمية إلى الديار المصرية بعد ورود المرسوم بذلك]

فكان مما قال له عند دخوله عليه: أنت أستاذ دار جمال الدين؟

قال: نعم.

قال: لا بيض الله وجهه وحَمَّله رسالة لمخدومه.

فقال: قل له عني: أنت تعرف كيف كنت، وأنني اشتريتك للسلطان الملك المنصور وكنت على حال من الضرورة في جنديتك وإمرتك ثم خولك الله تعالى من نعمه وأفاض عليك منها ما أنت عليه الآن وألحقك بأكابر الملوك ونُعِتَّ بملك الأمراء ثم أنت تدافع عن رجل طلبته لقيام حق

---

(١) ٧٠٥هـ.

من حقوق الله عليه؟! والله لئن لم ترسله ليعجلنَّ الله تعالى هلاكك. . . ، إلى غير ذلك مما قاله في وقت خروجه فالتزم الأمير سيف الدين الطقنش أنه عند وصوله إلى دمشق لا يُبيتْ ابن تيمية بها، ويرسله إليه.

[قاضي القضاة يجتمع بالأمراء ويناقشون أمر ابن تيمية فيرسلون الأمير حسام الدين لاجين بمرسوم سلطاني إلى دمشق بطلب ابن تيمية إلى مصر من جديد]

ثم لم يقنع قاضي القضاة بذلك إلى أن اجتمع بالأمراء، وجدَّد معهم الحديث في أمر تقي الدين، فاقتضى ذلك إرسال الأمير حسام الدين لاجين العمري أحد الحُجَّاب بالأبواب السلطانية إلى دمشق بمثال شريف سلطاني بطلبه فتوجه ووصل إليها في خامس شهر رمضان.

هذا هو السبب الموجب لطلبه وانحمال قاضي القضاة زين الدين المالكي عليه نقلته عن مشاهدة واطلاع[1]. اهـ.

[ازدحام الناس لوداع شيخ الإسلام إلى مصر]

قال في «العقود الدرية»[2]: وقرأت بخط بعض أصحاب الشيخ، وقال: ولما توجه الشيخ في اليوم الذي توجه فيه من دمشق المحروسة[3] كان يوماً مشهوداً، غريب المثل، في كثرة ازدحام الناس لوداعه ورؤيته حتى انتشروا من باب داره إلى قريب للجسورة ـ فيما بين دمشق والكسوة ـ التي هي أول منزلة منها وهم ما بين باكٍ وحزين ومتعجب ومتنزه ومُزاحم متغالٍ

---

(١) «الجامع» (ص: ١٠٧ ـ ١١٩).
(٢) (ص: ٢٤٩).
(٣) إلى مصر بطلب من السلطان.

فيه، ودخل الشيخ مدينة «غزة»[1] يوم السبت وعمل في جامعها مجلساً عظيماً.

وفي «البداية والنهاية»[2]: وخرج مع الشيخ خلق من أصحابه وبكوا وخافوا عليه من أعدائه.

[الادعاء على شيخ الإسلام عند القاضي ابن مخلوف المالكي بعد وصوله مصر بيوم ورفضه الحكم لأنه خصمه]

في يوم الخميس الثاني والعشرين من رمضان[3] وصل الشيخ والقاضي[4] إلى القاهرة، وفي ثاني يوم بعد صلاة الجمعة جُمع القضاة وأكابر الدولة بالقلعة لمحفل وأراد الشيخ أن يتكلم فلم يُمكّن من البحث والكلام على عادته[5]، وانتدب له الشمس بن عدلان خصماً احتساباً وادَّعى عليه القاضي ابن مخلوف المالكي[6] أنه يقول:

إن الله فوق العرش حقيقة، وإن الله يتكلم بحرف وصوت، [وإن الله يشار إليه إشارة حسية] وسأل جوابه.

---

(١) سبق التعريف بها.

(٢) (١٤/ ٤٠).

(٣) (سنة ٧٠٥هـ).

(٤) قاضي القضاة بالشام نجم الدين بن صَصْرَى (ت ٧٢٣هـ) انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ١١٠).

(٥) وفي «الذيل» لابن رجب (٢ / ٣٩٧): ثم إن المصريين دبروا الحيلة في أمر الشيخ، ورأوا أنه لا يمكن البحث معه ولكن يعقد له مجلس يُدَّعى عليه، وتقام عليه الشهادات.

(٦) قاضي المالكية بمصر زين الدين علي بن مخلوف المالكي (ت ٧١٨) من ألد أعداء الشيخ.

[وقال المدّعي: أطلب تعزيره على ذلك التعزير البليغ - يشير إلى القتل على مذهب مالك -.

فقال القاضي: ما تقول يا فقيه؟][1].

فأخذ الشيخ في حمد الله والثناء عليه.

فقيل له: أجب ما جئنا بك لتخطب.

فقال: ومن الحاكم فيَّ؟

فقيل له: القاضي المالكي.

قال: كيف يحكم فيَّ وهو خصمي[2]، وغضب غضباً شديداً وانزعج[3].

فأقيم مُرسّماً عليه، وحبس في برج أياماً. ثم نقل[4] منه ليلة عيد

---

(١) «الذيل» لابن رجب (٢/ ٣٩٧).

(٢) قال ابن رجب الحنبلي: ومراده أني وإياك متنازعان في هذه المسائل فكيف يحكم أحد الخصمين على الآخر فيها. «المرجع السابق».

(٣) وفي «كنز الدُّرر وجامع الغرر»... فقال: عدوي وعدو مذهبي فكرروا عليه القول مراراً، ولم يزدهم على ذلك شيئاً وطال الأمر. فعند ذلك حكم القاضي المالكي باعتقاله على رد الجواب فقال الشيخ: «رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه» [سورة يوسف: ٣٣]. اهـ. عن «الجامع» (ص: ١٧٠).

(٤) السبب في نقله إلى الجب ما ذكره ابن أيبك الدَّواداري في «كنزه» [أنه] بلغ القاضي أن جماعة من الأمراء يترددون إليه، وينقلون له المآكل الطيبة، فطلع القاضي واجتمع بالأمير ركن الدين في قضيته وقال: هذا يجب عليه التضييق إذا لم يقتل، وإلا فقد ثبت كفره. فنقلوه هو وإخوانه ليلة عيد الفطر إلى الجب بالقلعة. اهـ. «المرجع السابق».

الفطر إلى الحبس المعروف بالجب، هو وأخوه شرف الدين عبد الله وزين الدين عبد الرحمن[١].

[صفة معتقل شيخ الإسلام بالقاهرة]

قال المقريزي في الخطط: كان بالقلعة[٢] «جب» يحبس فيه الأمراء، وكان مهولاً مظلماً كثير الوطاويط كريه الرائحة، يقاسي المسجون فيه ما هو كالموت أو أشد منه، عَمَّره الملك المنصور قلاوون في سنة إحدى وثمانين وستمائة فلم يزل إلى أن قام الأمير بكتمر الساقي[٣] في أمره مع الملك الناصر محمد بن قلاوون حتى أخرج من كان فيه من المحابيس ونقلهم إلى الأبراج وردمه وعمَّر فوق الردم طباقاً في سنة تسع وعشرين وسبعمائة[٤]. اهـ.

قلت: والباعث للأمير بكتمر الساقي البحث في أمر هذا الجب وهدمه مع الملك الناصر محمد بن قلاوون ما ذكره «صاحب الخطط» فقال: . . . . إن شادَّ العمائر نزل إليه ليصلح عمارته فشاهد أمراً مهولاً من الظلام وكثرة الوطاويط والروائح الكريهة واتفق مع ذلك أن الأمير بكتمر الساقي كان عند شخص يسخر به ويمازحه فبعث به إلى الجب ودلي فيه ثم أطلقه من بعد ما بات به ليلة فلما حضر إلى بكتمر أخبره بما عاينه من شناعة الجب وذكر ما فيه من القبائح المهولة، وكان شاد العمائر في المجلس

---

(١) تقدم التعريف بهما.

(٢) أي بقلعة الجبل.

(٣) بكتمر الأمير سيف الدين الساقي الناصري (ت ٧٣٣هـ). انظر «أعيان العصر» (١ / ٤٣٥ ـ ٤٣٨).

(٤) «الخطط» للمقريزي (٢ / ٢١٣).

فوصف ما فيه الأمراء الذين بالجب من الشدائد فتحدث بكتمر مع السلطان في ذلك فأمر بإخراج الأمراء منه وردم وعمَّر فوقه[1]. اهـ.

قلت: وقد أشار شيخ الإسلام إلى صفة هذا السجن[2] فقال: ـ بعد رفضه الادعاء عليه ومساءلته وحكومته بمصر وأنه سجن بالبهتان والافتراء والتزوير والحسد وأن سجنه باسم الشرع باطل بأكثر من عشرين وجهاً ـ:

. . . ثم النصارى في حبس حسن يشركون فيه بالله ويتخذون فيه الكنائس فيا ليت حبسنا كان من جنس حبس النصارى! وياليتنا سوينا بالمشركين عباد الأوثان! بل لأولئك الكرامة ولنا الهوان، فهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر إن رسول الله ـ ﷺ ـ أمر بهذا[3]؟! اهـ.

[مطاردة التيميين والتهديد بالعزل والحبس وأخذ خطوطهم بالرجوع عن عقيدتهم في مصر والشام والكتاب السلطاني فيه أيضاً الحط على شيخ الإسلام وإهانة الحنابلة والتشديد عليهم]

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: ثم بعث كتاب سلطاني إلى الشام[4] بالحط على الشيخ، وألزم الناس ـ خصوصاً أهل مذهبه ـ بالرجوع عن عقيدته والتهديد بالعزل والحبس.

(١) «المرجع السابق» (٢/ ١٨٨ ـ ١٨٩).
(٢) وقد مكث شيخ الإسلام في الجب مسجوناً سنة وستة أشهر كما سيأتي!!
(٣) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٥٤).
(٤) (سنة ٧٠٥هـ)، وذكر النويري الكتاب السلطاني في «نهاية الأرب في فنون الأدب» وهو كما قال جامعا الجامع: هذا المرسوم صاغه فقهاء السلطة، وعلماء البدعة المأجورون ولا غرابة فنظائره ماثلة والتاريخ يعيد نفسه!!!

ونودي بذلك في الجامع والأسواق. ثم قرىء الكتاب بسُدَّة الجامع بعد الجمعة وحصل أذى كثير للحنابلة بالقاهرة وحبس بعضهم وأخذ خطوط بعضهم بالرجوع، وكان قاضيهم الحراني قليل العلم[1]. اهـ.

وفي «التاريخ لابن كثير»: وألزم أهل مذهبه بمخالفته وكذلك وقع بمصر قام عليه جاشنكير وشيخه نصر المنبجي[2] وساعدهم جماعة كثيرة من الفقهاء والفقراء وجرت فتن كثيرة منتشرة نعوذ بالله من الفتن.

وحصل للحنابلة بالديار المصرية إهانة عظيمة كثيرة وذلك أن قاضيهم كان قليل العلم مزجي البضاعة وهو شرف الدين الحراني[3]، فلذلك نال أصحابهم ما نالهم وصارت حالهم حالهم[4]. اهـ.

[إحضار نائب مصر القضاة الثلاثة وجماعة من الفقهاء للإفراج عن شيخ الإسلام بشروط وتكرار الرسل إليه ست مرات والشيخ مصمم على عدم الحضور]

وفي ليلة عيد الفطر[5] أحضر الأمير سيف الدين سلار[6] نائب مصر القضاة الثلاثة وجماعة من الفقهاء فالقضاة الشافعي والمالكي والحنفي

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢ / ٣٩٧).
(٢) سبق التعريف بهما.
(٣) قاضي الحنابلة شرف الدين أبو محمد عبد الغني بن يحيى بن محمد بن عبد الله الحراني (ت ٧٠٩هـ). انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٥٨) و«ذيل طبقات الحنابلة» (٢ / ٣٥٨).
(٤) «البداية والنهاية» (١٤ / ٤٠).
(٥) (سنة ٧٠٦هـ).
(٦) الأمير سيف الدين سلّار التتري المنصوري الصالحي (ت ٧١٠هـ).

والفقهاء الباجي[1] والجزري[2] والنمراوي[3].

وتكلموا في إخراج الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الحبس فاشترط بعض الحاضرين عليه شروطاً بذلك.

منها: أنه يلتزم بالرجوع عن بعض العقيدة وأرسلوا إليه ليحضر ليتكلموا معه في ذلك، فامتنع من الحضور وصمم.

وتكررت الرسل إليه ست مرات، فصمم على عدم الحضور ولم يلتفت إليهم ولم يعدهم شيئاً.

فطال عليهم المجلس فتفرقوا وانصرفوا غير مأجورين[4].

[نائب السلطان بالشام يتشوق لشيخ الإسلام ويطلب كتابه المرسل إلى أحد أقاربه ويقرأه على الناس ويثني عليه ويقول: ما رأيت مثله]

في اليوم الثامن والعشرين من ذي الحجة[5] أخبر نائب السلطنة[6] بوصول كتاب من الشيخ تقي الدين من الحبس الذي يقال له الجب فأرسل في طلبه[7].

---

(١) الإمام العلامة الفقيه علي بن محمد بن خطاب الباجي علاء الدين الشافعي (ت ٧١٤هـ)، انظر «الدرر الكامنة» (٣/ ١٠١ ـ ١٠٢).

(٢) الإمام شمس الدين محمد بن يوسف بن عبد الله الجزري الشافعي (ت ٧١١هـ)، «النجوم الزاهرة» (٩ / ٢٢١).

(٣) الفقيه عز الدين عبد الجليل النمراوي الشافعي (ت ٧١٠هـ)، انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٦٢).

(٤) «البداية والنهاية» (١٤/ ٤٤).

(٥) (سنة ٧٠٦هـ).

(٦) نائب السلطنة بدمشق الأفرم، وقد مضى التعريف به.

(٧) للكتاب الذي وصل من الشيخ إلى أحد أقربائه وفي هذا إعلان لمحبتهم للشيخ ومعرفتهم=

فجيء به فقرئ على الناس فجعل يشكر الشيخ ويثني عليه وعلى علمه وديانته وشجاعته وزهده وقال: ما رأيت مثله وإذا هو كتاب مشتمل على ما هو عليه في السجن من التوجه إلى الله وأنه لم يقبل من أحد شيئاً لا من النفقات السلطانية ولا من الكسوة ولا من الإدرارات ولا غيرها ولا تدنس بشيء من ذلك[1].

[ظهور شرف الدين ابن تيمية بالحجة والبرهان على القاضي المالكي في بعض مسائل الاعتقاد بعد طلبه وأخيه من السجن]

وفي هذا الشهر يوم الخميس السابع والعشرين منه[2] طلب أخوا الشيخ تقي الدين: شرف الدين وزين الدين من الحبس إلى مجلس نائب السلطان سلار وحضر ابن مخلوف المالكي وطال بينهم كلام كثير.

فظهر شرف الدين[3] بالحجة على القاضي المالكي بالنقل والدليل

= بعظيم قدره وجهاده من قبل نائب السلطنة والعامة وأنه المسجون ظلماً وعدواناً.

(١) «البداية والنهاية» (١٤ / ٤٥).

(٢) ذي الحجّة (سنة ٧٠٦هـ).

(٣) وقد ذكره الذهبي في «معجم شيوخه» فقال: كان إماماً بارعاً فقيهاً عارفاً بالمذهب وأصوله وأصول الديانات عارفاً بدقائق العربية وبالفرائض والحساب والهيئة . . . وكان متقناً للمناظرة وقواعدها والخلاف. اهـ. مختصراً. وانظر «أعيان العصر» (٢ / ٩٠٥) و«الذيل على طبقات الحنابلة» (٢ / ٣٨٢).

وقد ناب عن أخيه ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ بالتدريس في الحنبلية مدة. اهـ. المصدر الأخير. قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: عقد مرة مجلس لشيخ الإسلام أبي العباس ابن تيمية فتكلم فيه بعض أكابر المخالفين وكان خطيب الجامع فقال الشيخ شرف الدين عبد الله أخو الشيخ: كلامنا مع أهل السنة، وأما أنت: فأنا أكتب لك أحاديث من الصحيحين، وأحاديث من الموضوعات ـ وأظنه قال: وكلاماً من سيرة عنتر ـ فلا تميز=

والمعرفة وخطأه في مواضع ادعى فيها دعاوى باطلة.

وكان الكلام فى مسألة العرش ومسألة الكلام، وفي مسألة النزول[1].

[مجيء ملك العرب بنفسه إلى السجن وإقسامه على الشيخ الخروج إليه واجتماعه مع الفقهاء وتهرب القضاة واعتذارهم جميعا خوفا من ملاقاته في البحث والمناظرة وإشارة الأمير سلار بعدم سفره إلى الشام ونفع الناس بعلمه وتعريفهم فضله]

وفي يوم الجمعة رابع عشر صفر[2] اجتمع قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة بالشيخ تقي الدين ابن تيمية في «دار الأوحدي» من «قلعة الجبل»[3].

وطال بينهما الكلام ثم تفرقا قبل الصلاة والشيخ تقي الدين مصمم على عدم الخروج من السجن، فلما كان يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الأول جاء الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى ملك العرب[4] إلى السجن بنفسه وأقسم على الشيخ تقي الدين ليخرجن إليه.

= بينها ـ أو كما قال ـ فسكت الرجل. «الذيل» (٢ / ٢٣). اهـ.

(١) «البداية والنهاية» (١٤ / ٤٥).

(٢) (سنة ٧٠٧هـ).

(٣) انظر «دار أوحد الدين» (٢ / ٧٧)، وانظر التعريف بـ «قلعة الجبل» (٢ / ٢٠٢) وما بعدها من «خطط» المقريزي.

(٤) كان كبير القدر محترماً عند الملوك كلهم بالشام ومصر والعراق، وكان ديناً خيراً متحيزاً للحق، وكان يحب الشيخ تقي الدين ابن تيمية حباً زائداً هو وذريته وعربه، وله عندهم منزلة وحرمة وإكرام، يسمعون قوله ويمتثلونه، وهو الذي نهاهم أن يُغِير بعضهم على بعض وعرفهم أن ذلك حرام وله في ذلك مصنف جليل. (ت ٧٣٥هـ). اهـ مختصراً. «البداية والنهاية» (١٤ / ١٨٢).

فلما خرج[1] أقسم عليه ليأتين معه إلى دار سلار فاجتمع به بعض الفقهاء «بدار سلار» وجرت بينهم بحوث كثيرة ثم فرقت بينهم الصلاة.

ثم اجتمعوا إلى المغرب وبات الشيخ تقي الدين عند سلار ثم اجتمعوا يوم الأحد بمرسوم السلطان جميع النهار ولم يحضر أحد من القضاة بل اجتمع من الفقهاء خلق كثير أكثر من كل يوم منهم الفقيه نجم الدين ابن الرِّفعة[2] وعلاء الدين الباجي[3] وفخر الدين ابن بنت أبي سعد[4] وعز الدين النمراوي وشمس الدين بن عدنان[5] وجماعة من الفقهاء، وطلبوا القضاة فاعتذر بأعذار بعضهم بالمرض وبعضهم بغيره، لمعرفتهم بما ابن تيمية منطوٍ عليه من العلوم والأدلة وأن أحداً من الحاضرين لا يطيقه، فقبل عذرهم نائب السلطنة ولم يكلفهم الحضور بعد أن رسم السلطان بحضورهم أو بفصل المجلس على خير.

وبات الشيخ عند نائب السلطنة وجاء الأمير حسام الدين مهنا يريد أن يستصحب الشيخ تقي الدين معه إلى دمشق.

---

(١) وفي «الكواكب الدرية» (ص: ١٣١) وغيرها: وكان مدة مقام الشيخ في الجُب ثمانية عشر شهراً.
قلت: وهذه سجنته الثانية وانظر «مقدمة الجامع» لأبي زيد (ص: ن).

(٢) الإمام العلامة نجم الدين أحمد بن محمد بن الرِّفْعَة (ت ٧١٠هـ)، انظر «الدرر الكامنة» (١/ ٢٨٤ـ ٢٨٧).

(٣) الشيخ الإمام علي بن محمد بن عبد الرحمن بن خطاب الباجي (ت ٧١٤هـ)، انظر «طبقات الشافعية الكبرى» (٤/ ٤٠٨ـ ٤٠٩).

(٤) القاضي فخر الدين أبو عمرو عثمان بن علي الأنصاري المعروف بابن بنت أبي سعد (ت ٧٢٠هـ)، انظر «النجوم الزاهرة» (٩/ ٢٤٧).

(٥) تقدم التعريف بهما.

فأشار سلار بإقامة الشيخ بمصر عنده ليرى الناس فضله وعلمه وينتفع الناس به ويشتغلوا عليه.

وكتب الشيخ كتاباً إلى الشام يتضمن ما وقع له من الأمور[1].

[مجريات مجلس شيخ الإسلام بالقاهرة]

قال ابن عبد الهادي: وفي يوم الخميس السادس من شهر ربيع الآخر سنة سبع وسبعمائة عقد للشيخ[2] مجلس آخر بالمدرسة الصالحية بالقاهرة واجتمع فيه القضاة وغيرهم.

وكان مما جرى في المجلس ـ فيما بلغني ـ أنه قيل للشيخ: نستغفر الله العظيم ونتوب إليه.

فقال الشيخ: كلنا نستغفر الله العظيم ونتوب إليه.

والتفت إلى رجل منهم فقال له: استغفر الله العظيم وتب إليه.

فقال: أستغفر الله العظيم وأتوب إليه وكذلك قال الآخر والآخر وكلهم يقول كذلك.

فقيل للشيخ: تب إلى الله عز وجل من كذا وكذا ـ وذُكر له كلام ـ.

فقال: إن كنت قلت كلاماً يستوجب التوبة فأنا تائب منه.

فقال له قائل: هذه ليست توبة.

فرد عليه الشيخ وجهله ووقع كلام يطول ذكره[3]. اهـ.

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤ / ٤٧).

(٢) بعد عشرين يوماً من خروجه من السجن.

(٣) «العقود الدرية» (ص: ٢٥٦).

[شكوى الصوفية الشيخ إلى السلطان وأمره بحبسه]

قال الحافظ ابن عبد الهادي: ولم يزل بمصر يعلّم الناس ويُفتيهم ويُذكِّر بالله ويدعو إليه، ويتكلّم في الجوامع على المنابر بتفسير القرآن وغيره من بعد صلاة الجمعة إلى العصر، إلى أن ضاق منه وانحصر واجتمع خلق كثير من أهل الخوانق والرُّبط والزوايا، واتفقوا على أن يشكوا الشيخ إلى السلطان فطلع منهم خلقٌ إلى القلعة[1] وكان منهم خلقٌ تحت القلعة، فكانت لهم ضجّة شديدة، حتى قال السلطان: ما هؤلاء؟ فقيل له: هؤلاء كلّهم قد جاؤوا من أجل الشيخ تقي الدين ابن تيميّة يشكون منه، ويقولون إنّه يسبُّ مشايخهم ويضع من قدرهم عند النّاس واستغاثوا منه وأجلبوا عليه، ودخلوا على الأمراء في أمره ولم يُبقوا ممكناً.

وكان بعض الناس يأتون إلى الشيخ فيقولون له: إنّ الناس قد جمعوا لك جمعاً كثيراً.

فيقول: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وأمر من يعقد له مجلساً «بدار العدل» فعقد له مجلس يوم الثلاثاء في العشر الأُول من شوّال من سنة سبع وسبعمائة، وظهر في ذلك المجلس من علم الشيخ وشجاعته وقوة قلبه وصدق توكله وبيان حجّته ما يتجاوز الوصف وكان وقتاً مشهوداً ومجلساً عظيماً.

وقال له كبير من المخالفين: من أين لك هذا؟

فقال له الشيخ: من أين لا تعلمه؟

---

(١) «قلعة الجبل» مرّ التعريف بها.

وذكر بعض مَن حضر ذلك المجلس: أنّ الناس لمّا تفرقوا منه قام الشيخ ومعه جماعة من أصحابه.

قال: فجاء وجئت معه إلى موضع ـ ذكره ـ بدار العدل.

قال: فلمّا جلسنا استلقى الشيخ على ظهره، وكان هناك حجر لأجل تثقيل الحصير فأخذه ووضعه تحت رأسه فاضطجع قليلاً ثم جلس.

وقال له إنسان: يا سيدي قد أكثر الناس عليك.

فقال: إن هم إلاّ كالذباب، ورفع كفّه إلى فيه ونفح فيه.

قال: وقام، وقمنا معه حتى خرجنا فأُتيَ بحصان فركبه ويختل بذؤابته فلم أرَ أحداً أقوى قلباً ولا أشدّ بأساً منه.

قال: فلمّا أكثروا الشكاية منه والملام وأوسعوا من أجله الكلام رُسم بتسفيره إلى بلاد الشام[١].

[دعوى ابن عطاء الله الإسكندري على شيخ الإسلام وعدم ثبوت شيء منها]

قال البرزالي: وفي شوّال منها[٢] شكى الصوفية بالقاهرة على الشيخ تقي الدين وكلموه في ابن عربي[٣] وغيره إلى الدولة فردوا الأمر في ذلك

---

(١) كما سيأتي تفصيله وبيانه.

(٢) (سنة ٧٠٧هـ).

(٣) تقدم التعريف به.

إلى القاضي الشافعي[1] فعقد له مجلس وادعى عليه ابن عطاء[2] بأشياء فلم يثبت عليه منها شيء لكنه قال: لا يستغاث إلا بالله، لا يستغاث بالنبي استغاثة بمعنى العبارة ولكن يتوسل به ويتشفع به إلى الله[3].

فبعض الحاضرين قال: ليس عليه في هذا شيء. ورأى القاضي بدر الدين ابن جماعة أن هذا فيه قلة أدب[4].

فحضرت رسالة إلى القاضي أن يعمل معه ما تقتضيه الشريعة.

فقال القاضي: قد قلت له ما يقال لمثله[5]. اهـ.

[تخيير الدولة الشيخ السفر إلى دمشق أو الإسكندرية بشروط أو السجن فاختار الحبس]

ثم إن الدولة خيروه بين أشياء؛ إما أن يسير إلى دمشق أو الإسكندرية بشروط أو الحبس، فاختار الحبس[6] فدخل عليه جماعة في السفر إلى

---

(١) قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي (ت ٧٣٣هـ).

(٢) شيخ الصوفية بالقاهرة أبو الفضل تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندراني الشاذلي (ت ٧٠٩هـ).
قال ابن حجر: وهو ممن قام على الشيخ تقي الدين بن تيمية فبالغ في ذلك. اهـ.
انظر «الدرر الكامنة» (١ / ٢٧٣ ـ ٢٧٤)، وفي «العقود الدرية» (ص: ٢٧٠): شكا شيخ الصوفية بالقاهرة ـ كريم الدين الآملي، وابن عطاء، وجماعة نحو الخمسمائة ـ من الشيخ تقي الدين، وكلامه في ابن عربي وغيره، إلى الدولة. اهـ.

(٣) للمزيد انظر كتاب «التوسل والوسيلة» لشيخ الإسلام وهو ضمن «مجموع الفتاوى» (١ / ١٤٢ ـ ٣٦٨).

(٤) ومع هذا التهويش كله لم يستطع أن يقول: هذا كفر.

(٥) «البداية والنهاية» (١٤ / ٤٧ ـ ٤٨).

(٦) هذه السجنة الثالثة بمصر لشيخ الإسلام لمدة ستة عشر يوماً ثم توجه إلى دمشق قبل أن=

دمشق ملتزماً ما شرط فأجاب أصاحبه إلى ما اختاروا جبراً لخواطرهم فركب خيل البريد ليلة الثامن عشر من شوال[1] ثم أرسلوا خلفه من الغد بريداً آخر فردوه[2].

وحضر عند قاضي القضاة ابن جماعة[3] وعند جماعة من الفقهاء، فقال له بعضهم: إن الدولة ما ترضى إلا بالحبس.

فقال القاضي: وفيه مصلحة له واستناب شمس الدين التونسي المالكي وأذن له أن يحكم عليه بالحبس فامتنع وقال: ما ثبت عليه شيء فأذن لنور الدين الزواوي المالكي فتحير فلما رأى الشيخ توقفهم في حبسه.

قال: أنا أمضي إلى الحبس[4] وأتبع ما تقتضيه المصلحة.

= يردوه من مثاني الطريق كما سيأتي انظر «مقدمة الجامع» لبكر أبو زيد (ص: ن ـ هـ).

(١) (سنة ٧٠٦هـ).

(٢) قلت: لما كانت حكومة شيخ الإسلام موكلة إلى ابن جماعة قاضي القضاة الشافعي وقد رُسم بتسفيره إلى الشام وتوجه على خيل البريد مسافراً كما تقدم «وكان قاضي القضاة زين الدين المالكي في ذلك الوقت في حال شديدة من المرض وقد أشرف على الموت فبلغه ذلك عقيب إفاقته من غشي كان قد حصل له فأرسل إلى الأمير سيف الدين سلاَّر وسأله في رده فأمر برده إلى القاهرة فتوجه البريد وأعاده من مدينة بلبيس فوصل وقاضي القضاة زين الدين مغلوب بالمرض فأرسل إلى نائبه القاضي نور الدين الزواوي فحضر به إلى مجلس قاضي القضاة بدر الدين وحررت الدعوى عليه في أمر اعتقاده وما وقع منه فشهد عليه الشيخ شرف الدين بن الصابوني وقيل: إن الشيخ علاء الدين القُونوي يشهد عليه فاعتقل بسجن الحاكم بحارة الديلم. اهـ. «نهاية الأرب» للنويري عن «الجامع» (ص: ١٢٨).

(٣) مضى التعريف به.

(٤) هذه السجنة الرابعة بمصر لشيخ الإسلام في قاعة الترسيم من آخر شهر شوال سنة ٧٠٧ إلى أول سنة ٧٠٨ أي لمدة تزيد عن شهرين وذلك بعد أن رَدُّوه من مثاني الطريق يوم ليلة سفره كما تقدم. انظر «مقدمة الجامع» لبكر أبو زيد (ص: هـ).

فقال نور الدين الزواوي: يكون في موضع يصلح لمثله.

فقيل له: الدولة ما ترضى إلا بمسمى الحبس، فأُرسل إلى حبس القضاة[١] في المكان الذي كان فيه تقي الدين ابن بنت الأعز[٢] حين سجن، وأذن له أن يكون عنده من يخدمه[٣]، وكان ذلك كله بإشارات نصر المنبجي لوجاهته في الدولة فإنه كان قد استحوذ على عقل الجاشنكير الذي تسلطن فيما بعد وغيره من الدولة والسلطان مقهور معه[٤].

[السجن يصبح بدخول شيخ الإسلام خيراً من الزوايا والمدارس والاشتغال عليه بالعلم حتى صار المحابيس إذا أطلقوا يختارون الإقامة]

ولمّا دخل الحبس وجد المحابيس مشتغلين بأنواع من اللعب يلتهونَ بها عمّا هم فيه، كالشطرنج والنرد ونحو ذلك من تضييع الصلوات.

فأنكر الشيخ عليهم ذلك أشدّ الإنكار وأمرهم بملازمة الصلاة والتوجّه إلى الله بالأعمال الصالحة والتسبيح والاستغفار والدعاء وعلّمهم من السنّة ما يحتاجون إليه ورغّبهم في أعمال الخير وحضهم على ذلك.

حتى صار الحبس بما فيه من الاشتغال بالعلم والدين خيراً من الزوايا والربط والخوانق والمدارس، وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا

---

(١) حبس القضاة بحارة الديلم بالقاهرة.

(٢) هو قاضي الدِّيار المصرية تقي الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن قاضي القضاة تاج الدين العَلَائي الشافعي (ت ٦٩٥)، انظر «البداية والنهاية» (١٣ / ٣٦٧) «وطبقات الشافعية الكبرى» (٤ / ٣٣٣ ـ ٣٣٤).

(٣) كان خادمه تلميذه الشيخ إبراهيم بن أحمد الغياني، وقد مضى التعريف به.

(٤) «البداية والنهاية» (١٤ / ٤٨) وانظر «الكواكب الدرية» (ص: ١٣٤).

يختارون الإقامة عنده، وكثر المترددون إليه حتى كان السجن يمتلئ منهم[1]. اهـ.

واستمر الشيخ في الحبس يُستفتى ويقصده الناس ويزورونه وتأتيه الفتاوى المشكلة التي لا يستطيعها الفقهاء من الأمراء وأعيان الناس فيكتب عليها بما يحير العقول من الكتاب والسنة.

ثم عقد للشيخ مجلس بالصالحية بعد ذلك كله ونزل الشيخ بالقاهرة «بدار ابن شقير» وأكب الناس على الاجتماع به ليلاً ونهاراً[2].

[بيان أسباب نقل شيخ الإسلام إلى ثغر الإسكندرية]

استهلت سنة ٧٠٨هـ والشيخ تقي الدين قد أخرج من الحبس والناس قد عكفوا عليه زيارة وتعلماً واستفتاء وغير ذلك[3].

فلما كثر اجتماع الناس به وترددهم إليه ساء ذلك أعداءه، وحصرت صدورهم فسألوا نقله إلى الإسكندرية وظنوا أن قلوب أهلها عن محبته عرية. وأرادوا أن يبعد عنهم خبره أو لعلهم يقتلونه فينقطع أثره فأرسل به[4] إلى ثغر الإسكندرية في ليلة يسفر صباحها عن يوم الجمعة سلخ صفر من سنة تسع وسبعمائة[5].

---

(١) «العقود الدرية» (ص: ٢٦٩) قال ابن رجب: وكان أصحابه يدخلون عليه أولاً سراً. ثم شرعوا يتظاهرون بالدخول عليه. «الذيل» (٢ / ٣٩٩).

(٢) «البداية والنهاية» (١٤ / ٤٨).

(٣) «المرجع السابق» (١٤ / ٤٩).

(٤) سيأتي تفصيل ذلك وبيانه.

(٥) «العقود الدرية» (ص: ٢٦٩).



فصل

[محنة شيخ الإسلام في سجنه

أحداث ومجريات وصول الشيخ شمس الدين الدباهي مصر للصلح بين ابن تيمية والمنبجي ورفض المنبجي الصلح]

قال خادم شيخ الإسلام[١]: لمّا كان الشيخ في قاعة الترسيم[٢]، وكان الشيخ العارف القدوة شمس الدين الدباهي[٣] قد طلع من الشام إلى مصر حتى يُصلح بين الشيخ وبين الشيخ نصر المنبجي، فكتب ورقةً فيها: «الطفيلي على الله محمد بن الدباهي يسأل من الشيخين الصالحين شيخ المشايخ أبي الفتح نصر المنبجي[٤]، وشيخ الإسلام أحمد ابن تيميّة أنهما يتفقان على طاعة الله ورسوله بحسب ما يمكنهما».

وذكر أشياء يلتزمانها بحسب الإمكان ويتفقان عليها.

---

(١) إبراهيم بن أحمد الغياني. انظر: «ناحية من حياة شيخ الإسلام» ابن تيمية (ص: ٢٤ ـ ٣٤).

(٢) كان قضى فيها مدة تزيد على الشهرين مسجوناً وهي السجنة الرابعة له بمصر كما تقدم (ص: ٣٣٠).

(٣) هو محمد بن أحمد بن أبي نصر القدوة الزاهد شمس الدين الدباهي البغدادي الحنبلي (ت ٧١١هـ)، «قال الحافظ ابن حجر»: قدم دمشق فلازم ابن تيمية قال الذهبي: كان ممن يقول الحق وإن كان مراً وفيه صفات حميدة. اهـ. «الدرر الكامنة» (٣/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦) وانظر «أعيان العصر» (٣/ ١٥٢٦ ـ ١٥٢٧).

(٤) هو أبو الفتح نصر بن سليمان المَنْبِجيّ (ت ٧١٩هـ) وقد ناصب شيخ الإسلام ابن تيمية العداء طوال سني عمره ظلماً وبهتاناً وغيرةً وحسداً منه له وتمريراً لمخططات الدولة الساعية لقتله خوفاً من استيلائه على الملك زعموا!!

وجاءت الورقة إلى الشيخ فقال: «إني أُجيب إلى ذلك». فراح بها إلى الشيخ نصر فوجد عنده المشايخ التدامرة، أبا بكر والشيخ إبراهيم أولاد بروان، فقام الشيخ نصر من مجلسه وأقعد الشيخ شمس الدين فيه وعظّمه تعظيماً كبيراً فأوقفه على الورقة.

فقال له: يا سيِّدي، ولم كتبت إلى الشيخ مثل هذه وما سُمِعَ بعدُ منّا كلام كثير.

فقال له: اكتب أنّك أجبت إلى ذلك.

فقال: إنْ كتب الشيخ كتبت.

فقال له: الله على ما تقول وكيل.

فقال: نعم، فسيّر الورقة إلى الشيخ.

فكتب: أجبتُ إلى ذلك ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، وكتبه أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيميّة، وجاب الرسول الورقة إليه.

فقال له الشيخ شمس الدين: اكتب مع الشيخ مثل ما قلت، وعاهدت الله عليه.

فقال: ما بقيت أكتب شيئاً.

فقال له شمس الدين: عاديتك في الله، وكشفَ رأسه وقال: ثمّ نبتهل ثم نبتهل، وقام ونزل من عنده.

[مهاجمة بيت ابن تيمية واعتقال بعض أصحابه وهرب شرف الدين ابن تيمية واعتقال زين الدين مع تبرؤ القاضي من قضيته وكلمة ابن تيمية في الظلمة وأعوانهم]

قال خادم الشيخ إبراهيم الغياني: فسيّر الشيخ نصر إلى والي المدينة أن يكبس بيت ابن تيمية ويمسك أصحابه ويحطّهم في الحبس.

فسيّر الوالي نائبه فكبس البيت[1] وكان قصدهم أن يمسكوا شرف الدين أخا الشيخ، فهرّبوه من فوق السطح وأمسك أصحاب الشيخ وجابهم إلى الوالي فحطهم في قاعة عند بيته، ومنعوا الناس من الدُّخول إلى عند الشيخ، ثم بعد أيّام عُزل الوالي.

فسيّب الجماعة، فتأخر عنده زين الدين أخو الشيخ فسير إلى القاضي ابن مخلوف برسالة الشيخ نصر فأمسك زين الدين وحبسه عند الشيخ في قاعة الترسيم.

وفي تلك الأيام سرق مملوك زين الدين له قماش نفتة ومروزي وغيره، وسافر به ومرض زين الدين فطلب الحمام فراح السجّان وخادم الشيخ إبراهيم بن أحمد الغياني إلى القاضي.

فقال له خادم الشيخ: هٰذا إن كان في حبسك، فاكتب له ورقة اعتقال

---

(١) كان ذلك في ليلة الأربعاء العشرين من شوّال من سنة ثمان وسبعمائة كما قال البرزالي. انظر «العقود الدرية» (ص: ٢٧١).

وإن كان ما هو في حبسك فلم ترسم عليه؟ ما هو في حبسي أنا، بلغني أنه يطلب يخدم أخاه ما استحللت منعه.

فقال له: أخوه رجلٌ تاجر يريد وحده عشرة تخدمه، والشيخ أنا أخدمه.

وقد قال نائب السلطان وغيره: إنّهم ما رسموا بحبس زين الدين والشيخ يفتي بأن القماش الذي سُرِق لزين الدين يلزمك.

ويقول السجّان: ما هو في حبسي ولا نخليه يطلع، فقال له: إذا نزلت في بيتي غداً تعال إلى عندي مع السجّان.

قال إبراهيم: ثم حدثنا الشيخ بذلك، فقال لزين الدين: قُم اطلع هذا القاضي قد تبرّأ من قضيّتك.

فقال السجّان: حتى يروح إلى القاضي مثلما رأيتم.

فقال الشيخ: إنّ الظلمة وأعوان الظلمة يحطون يوم القيامة في توابيت من نار ثم يُقذفون في الجحيم، قال الله: ﴿۞ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾[1].

فقال: أنا ما أجسر أقول له هٰذا. ثم إنه رسم بأن يخرج.

فقال الشيخ: ما بقي يخرج.

فأرسل القاضي ابنه محب الدين يسأله مراراً متعددة حتى خرج.

---

(١) سورة الصافات: [٢٢ ـ ٢٣].

[مواصلة التدامرة سعيهم لإخراج الشيخ من السجن

وطلبهم منه ورقة صلح يتفق عليها الطرفان]

وفي تلك الأيام جاء المشايخ التدامرة[1] - إبراهيم وأبو بكر - إلى الشيخ، وقالوا له: قد اجتمعنا بهؤلاء القائمين عليك.

وقالوا: قد بُلشنا به والناس تلعننا بسببه.

وقد قلنا: إنّا قد أخذناه بحكم الشرع في الظاهر فليبصر شيئاً لا يكون علينا ولا عليه فيه ردّ فيكتبه لنا ونتفق نحن وهو عليه. فلمّا قالوا له ذلك، قال لهم: أنا منشرح الصدر، وما عندي قلق وهم برّا الحبس فلِمَ يقلقون؟ وكتب: عن أبي هريرة قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنّ الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا. وأنْ تُناصحوا من ولاّهُ الله أمركم». رواه مسلم[2].

فخرجوا من عنده على ذلك.

[رفضهم ورقة ابن تيمية لأنها ستؤول إلى قتلهم أو ذهاب مناصبهم

وتوصل التدامرة إلى ورقة صلح من طرف الدولة]

ثم إنهم بعد أيّام جاؤوا إلى عنده، وقالوا له: قد وقفوا على الورقة.

وقالوا: هـذا رجلٌ مِحجـاج خَصِم، وما له قلب يفزع من الملوك، وقد اجتمع بغازان ملك التتر وكبار دولته وما خافهم[3]، ومتى اجتمع

---

(١) نسبة إلى مدينة تدمر في الشام.

(٢) (رقم ١٧١٥).

(٣) انظر «الفصل الثاني» (١٦١ ـ ١٦٤) في ذكر قوة قلبه وشجاعته وتفاصيل لقائه قازان.

بالسلطان والدولة وقرأ عليه كتاب «الفصوص»[1] الذي كانت الفتنة بسببه، قتلونا أو قطعونا من المناصب.

ويقال عنّا: إنّه ما خرج من الحبس حتى دخلتم تحت ما شَرَطَ عليكم.

ابعثوا أنتم، اشرطوا عليه ما أردتم فإن لم يدخل تحته، تكونوا قد عُذرتم فيه.

[طلبهم نزوله عما في الورقة من مسألة العرش والقرآن ليقف السلطان عليهما ثم تقطع الورقة]

فلمّا أخبره بذلك المشايخ التدامرة قالوا: يا سيّدي، قد حمّلونا كلاماً نقوله لك، وحلّفونا أنّه ما يطلع عليه غيرنا: أن تنزل لهم عن مسألة العرش، ومسألة القرآن ونأخذ خطك بذلك؛ نوقف عليه السلطان، ونقول له: هذا الذي حبسنا ابن تيميّة عليه قد رجع عنه ونقطع نحن الورقة.

[رفض ابن تيمية قبول الورقة وإقسامه بالله أن دولة الجاشنكير ستزول]

فقال لهم: تدعونني أن أكتب بخطّي أنّه ليس فوق العرشِ إلٰه يُعبد، ولا في المصاحف قرآن، ولا لله في الأرض كلام؟ ودقّ بعمامته الأرض وقام واقفاً، ورفع برأسه إلى السماء، وقال: اللهّم إني أشهدك على أنّهم يدعونني أن أكفر بك وبكتبك ورسلك، وأنّ هذا الشيء ما أعمله. اللهمّ

---

(١) تأليف أبي بكر محيي الدين محمد بن علي الطائي الأندلسي (ت ٦٣٨هـ).

أنزل بأسك الذي لا ترده عن القوم المجرمين، نفذت فيهم سهام الله.

والله لتقلبن دولة بيبرس أسفلها أعلاها، ويكون أعزُّ مَن فيها أذلّ من فيها، ولينتقمن الله من الكبير والصغير، وكم أجد عليهم وما أدعو عليهم؟!

فقلت أنا وشرف الدين بن سعد الدين: شيخ الإسلام الأنصاري[1] عُرِضَ على السيف أربع عشرة مرة لا يُقال له: «وافقنا». إلا أسكت ويقول: أُقتل ولا يسعني أن أسكت عمّن خالفني.

وكان الشيخ سكت عنهم في دمشق وما كان جرى شيء من هذا وهم انفلتوا فينا بالسبّ القبيح والشتم وما عليه أضر من أصحابه. ثم خرجوا من عنده.

[رؤيا الشيخ الفرّا في شيخ الإسلام]

وبعد ذلك جاء إلى عند الشيخ رجلٌ يقال له الشيخ عليّ الفرّا، له منامات خوارق.

فقال: رأيت في منامي كأنّ البحر قد زاد حتى دخل الماء في جميع حارات المدينة، وهو أسود مثل القطران وهو يغلي مثل القدر على النار، والشيخ راكبٌ سفينة وقد ركب معه جماعة يسيرة وهو يقول: النّجاء النّجاء. وقد طلعت به من بابِ السعادة حتى جاءت إلى باب اللوق. وإذا بالسلطان سنقر راكب فيلاً وخلفه راكب القاضي ابن مخلوف والشيخ نصر، وأنا أقول: يا سيّدي كيف نعمل حتى نخرج من هذا الكدر الذي نحن فيه

---

(١) أبو إسماعيل الأنصاري شيخ الإسلام عبد الله بن محمد بن علي الهروي (ت ٤٨١هـ)، انظر «العبر» (٢ / ٢٤٣).

إلى البحر الصافي وهٰذا الفيل في طريقنا؟! وأنت تقرأ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾[1] إلى آخرها، وما أُصيبت السفينة إلا أنها قد صارت في البحر الكبير.

[قول التدامرة له: لا بد لك من الموافقة فإنهم عاملون على قتلك أو نفيك أو حبسك]

ثم بعد أيام جاء عند الشيخ شمس الدين بن سعد الدين الحرّاني وأخبره أنهم يسفِّرونه إلى الإسكندرية. وجاءت المشايخ التدامرة وأخبروه بذلك.

وقالوا له: كلُّ هذا يعملونه حتى توافقهم، وهم عاملون على قتلك أو نفيك أو حبسك.

فقال لهم: أنا إنْ قُتِلت كانت لي شهادة.

وإن نفوْني كانت لي هجرة، ولو نفوْني إلى قبرص لدعوتُ أهلها إلى الله وأجابوني.

وإن حبسوني كان لي معبداً.

وأنا مثل الغنمة كيفما تقلبت تقلبت على صوف. فيئسوا منه وانصرفوا.

---

(١) سورة الفيل: [١].



[جملة أوراق سياسية متبادلة بين الشيخ والدولة من جهة وسطاء خيّرين يسعون لخروجه من سجنه]

[الدولة تبدأ المفاوضات مع الشيخ لإطلاق سراحه]

قال شيخ الإسلام:

أما بعد فإنه في آخر شهر رمضان سنة ست وعشرين وسبعمائة، جاء أميران رسولين من عند الملأ المجتمعين من الأمراء والقضاة ومن معهم، وذكروا رسالة من عند الأمراء مضمونها طلب الحضور ومخاطبة القضاة لتخرج وتنفصل القضية، وأن المطلوب خروجك، وأن يكون الكلام مختصراً ونحو ذلك.

فقلت: سلم على الأمراء وقل لهم:

لكم سنة وقبل السنة مدة أخرى تسمعون كلام الحضور الليل والنهار وإلى الساعة لم تسمعوا مني كلمة واحدة، وهذا من أعظم الظلم، فلو أن يهودياً أو نصرانياً أو عدواً آخر للإسلام ولدولتكم لما جاز أن تحكموا عليه حتى تسمعوا كلامه، وأنتم قد سمعتم كلام الخصوم وحدهم في مجالس كثيرة.

فاسمعوا كلامي وحدي في مجلس واحد، وبذلك نجتمع ونتخاطب بحضوركم، فإن هذا من أقل العدل الذي أمر الله به في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾(1).

---

(1) سورة النساء: [58].

فطلب الرسولان أن أكتب ذلك في ورقة فكتبته فذهبا ثم عادا وقالا:

المطلوب حضورك لتخاطبك القضاة بكلمتين وتنفصل.

وكان في أوائل النصف من الشهر المذكور جاءنا هذان الرسولان بورقة كتبها لهم المُحكم من القضاة، وهي طويلة طلبت منهم نسخاً فلم ظ[1] من أنه على العرش حقيقة ظ[2] ولا تشبيه.

(قلت): في خطي ظ[3] وخاطبني بخطاب فيه طول قد ذكر في غير هذا الموضع، فندموا على كتابة تلك الورقة وكتبوا هذه.

فقلت: أنا لا أحضر إلى من يحكم فيَّ بحكم الجاهلية، وبغير ما أنزل الله ويفعل بي ما لا تستحله اليهود ولا النصارى، كما فعلتم في المجلس الأول.

وقلت للرسول: قد كان ذلك بحضوركم أتريدون أن تمكروا بي كما مكروا في العام الماضي؟! هذا لا أجيب إليه، ولكن من زعم أني قلت قولاً باطلاً فليكتب خطه بما أنكره من كلامي ويذكر حجته، وأنا أكتب جوابي مع كلامه، ويعرض كلامي وكلامه على علماء الشرق والغرب، فقد قلت هذا بالشام وأنا قائله هنا، وهذه عقيدتي التي بُحثت بالشام بحضرة قضاتها ومشايخها وعلمائها وقد أرسل إليكم نائبكم النسخة التي قرئت وأخبركم بصورة ما جرى، وإن كان قد وقع من التقصير في حقي والعدوان والإغضاء

---

(١) هكذا بالأصل.

(٢) هكذا بالأصل.

(٣) هكذا بالأصل.

عن الخصوم ما قد علمه الله والمسلمون، فانظروا النسخة التي عندكم، وكان قد حضر عندي نسخة أخرى بها.

فقلت: خذ هذه النسخة فهذا اعتقادي فمن أنكر منه شيئاً فليكتب ما ينكره وحجته لأكتب جوابي. فأخذا العقيدة وذهبا ثم عادا ومعهما ورقة لم يذكر فيها شيء من الاعتراض على كلامي بل قد أنشؤوا فيها كلاماً طلبوه وذكر الرسول أنهم كتبوا ورقة ثم قطعوها[(١)]، ثم كتبوا هذه.

[إلزامه بالتخلي عن عقيدته

وتحليه بأخرى مبدلة يكفي لإطلاق سراحه]

ولفظها: الذي نطلب منه أن يعتقده أن ينفي الجهة عن الله والتحيز، وأن لا يقول إن كلام الله حرف وصوت قائم به، بل هو معنى قائم بذاته، وأنه سبحانه لا يشار إليه بالأصابع إشارة حسية، ويطلب منه أن لا يتعرض لأحاديث الصفات وآياتها عند العوام، ولا يكتب بها إلى البلاد، ولا في الفتاوى المتعلقة بها.

فلما أراني الورقة كتبت جوابها فيها مرتجلاً مع استعجال الرسول[(٢)].

---

(١) غير مستبعد أن تكون هذه الورقة المقطعة سياسية بحتة يدعونه فيها مثلاً إلى عدم التدخل بشؤون الدولة، والتخلي عن التعزير وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتفكيك جسم جماعته، وأن ينفك من تجميع الناس حوله، ... بل وإلى القبول بنفيه بدل تأبيد سجنه وقتله، بل قد صرح الشيخ: «أنه ليس مقصودكم الحكم الشرعي، ولكن دفع ما سمعتموه من تهمة الملك»، فأداروا الأمر بينهم بتمزيقها، وإلزامه بضد ما يدعو إليه من الاعتقاد السلفي الذي حاجج عنه وخاصم، ليصدروا حكماً بسجنه لرفضه ما في الورقة، فيكون سجنه مسوّغاً أمام الرأي العام.

(٢) انظر هذه الأجوبة مطولة محبرة في «الفتاوى الكبرى» (ج / ٥).



[جواب الشيخ على رسالة صلح

مفاوضات، مراجعات، كشف مؤامرات، ثبات على الحق]

قال شيخ الإسلام:

الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له...

أما بعد: فقد وصلت «الورقة»[1] التي فيها رسالة الشيخين الجليلين العالمين الناسكين القدوتين، أيدهما الله وسائر الإخوان بروح منه، وكتب في قلوبهم الإيمان، وأدخلهم مدخل صدق، وأخرجهم مخرج صدق، وجعلهم ممن ينصر به السلطان؛ سلطان العلم، والحجة والبيان، والبرهان وسلطان القدرة، والنصر بالسنان والأعوان، وجعلهم من أوليائه المتقين وجنده الغالبين لمن ناوأهم من الأقران، ومن أئمة المتقين الذين جمعوا بين الصبر والإيقان، والله محقق ذلك ومنجز وعده في السر والإعلان ومنتقم من حزب الشيطان لعباد الرحمن.

لكن بما اقتضته حكمته، ومضت به سنته، من الابتلاء والامتحان، الذي يخلص الله به أهل الصدق والإيمان من أهل النفاق والبهتان؛ إذ قد دل كتابه على أنه لا بد من الفتنة لكل من الداعي إلى الإيمان والعقوبة لذوي السيئات والطغيان، قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ

---

(١) هذه الورقة أرسلت إليه في السجن في رمضان سنة ست وسبعمائة. انظر «مجموع الفتاوى» (٣ / ٢١١) ومقدمة «الجامع لسيرة شيخ الإسلام» (ص: ن) وقد كتب شيخ الإسلام عن هذه المحنة وبين ما فيها من تبديل الدين، واتباع سبيل غير المسلمين. انظر «الفتاوى الكبرى» (٥ / ٦).

ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۞ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1] ـ إلى أن قال ـ والله هو المسؤول أن يثبتكم وسائر المؤمنين بالقول الثابت في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، ويتم عليكم نعمه الباطنة والظاهرة، وينصر دينه وكتابه، وعباده المؤمنين على الكافرين، والمنافقين: الذي أمرنا بجهادهم والإغلاظ عليهم في كتابه المبين[2].

[عِظم شأن العقيدة ولا تفاوض بها من قِبَل الشيخ]

وشأن هذه «القضية» وما يتعلّق بها أكبر مما يظنُّه مَن لا يراعي إلاَّ جزئيّات الأمور، ولهٰذا كان فيما خاطبت به أمين الرسول علاء الدين الطيبرسي أن قلت: هذه «القضيّة» ليس الحق فيها لي بل للّه ولرسوله وللمؤمنين من شرقِ الأرضِ إلى مغربها.

وأنا لا يمكنني أن أبدِّل الدين ولا أُنكِّس راية المسلمين ولا أرتدُّ عن دين الإسلام لأجل فلان وفلان.

نعم، يمكنني أنْ لا أنتصر لنفسي ولا أُجازي مَنْ أَساء إليَّ وافترى عليّ، ولا أطلب حظِّي ولا أقصد إيذاء أحدٍ بحقِّي وهٰذا كلّه مبذولٌ منِّي وللّه الحمد، ونفسي طيبة بذلك.

وكنتُ قد قلتُ له: الضّرر في هذه «القضيّة» ليس عليَّ بل عليكم فإنّ الذين أثاروها من أعداء الإسلام الذين يُبغضونه ويُبغضون أولياءه

---

(١) سورة العنكبوت: [١ ـ ٤].

(٢) في قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾، [التحريم: ٩].

والمجاهدين عنه ويختارون انتصار أعدائه من التّتار ونحوهم.

وهم دبّروا عليكم حيلةً يفسدون بها مِلَّتكم ودولتكم، وقد ذهب بعضهم إلى بعض بلدان التّتار وبعضهم مُقيم بالشام وغيره، ولهٰذه «القضيّة» أسرارٌ لا يمكنني أن أذكرها ولا أُسمِّي مَنْ دخل في ذلك حتى تشاوروا نائب السلطان، فإنْ أذِن في ذلك ذكرتُ لك ذلك، وإلاّ فلا يُقال ذلك له. وما أقوله فاكشفوه أنتم.

فاستعجب من ذلك وقال: يا مولانا، ألا تُسمِّي لي أنت أحداً، فقلت: وأنا لا أفعل ذلك فإنّ هٰذا لا يصلح.

لٰكن تعرفون مِنْ حيث الجملة أنّهم قصدوا فساد دينكم ودنياكم، وجعلوني إماماً تستُّراً لعلمهم بأنِّي أواليكم وأسعى في صلاح دينكم ودنياكم. وسوف إن شاء الله ينكشف الأمر.

[الشيخ يقول: إن قتلت كنت من أفضل الشهداء والحبس في حقي من أفضل نعم الله عليّ]

قلت له: وإلاّ فأنا على أيِّ شيءٍ أخاف؟ إنْ قُتِلتُ كنتُ مِنْ أفضلِ الشهداء، وكان عليَّ الرحمة والرِّضوان إلى يوم القيامة! وكان على من قتلني اللّعنة الدائمة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

ليعلم كل من يؤمن بالله ورسوله أنِّي إن قُتِلتُ لأجلِ دين الله، وإنْ حُبِستُ فالحبس في حقِّي من أعظم نعم الله عليّ.

ووالله ما أطيق أن أشكر نعمة الله عليّ في هذا الحبس، وليس لي ما أخاف الناس عليه؛ لا إقطاعي ولا مدارسي، ولا مالي ولا رياستي وجاهي.

وإنّما الخوف عليكم إذا ذهب ما أنتم فيه من الرِّياسة والمال، وفسد

دينكم الذي تنالون به سعادة الدنيا والآخرة.

وهٰذا كان مقصود العدوِّ الذي أثار هذه الفتنة.

وقلت: هؤلاء الذين بمصر من الأُمراء والقضاةِ والمشائخ، إخواني وأصحابي، أنا ما أسأتُ إلى أحدٍ منهم قط، وما زلتُ محسناً إليهم، فأيُّ شيءٍ بيني وبينهم، ولٰكن لبَّس عليهم المنافقون أعداء الإسلام.

وقلت له: هذه القضيّة أكبر ممّا في نفوسكم؛ فإنّ طائفة من هؤلاء الأعداء ذهبوا إلى بلاد التتر.

فقال: إلى بلاد التتر؟

فقلت: نعم، هم من أحرص الناس على تحريك الشرِّ عليكم، إلى أمورٍ أخرى لا يصلح أنْ أذكرها لك.

[الذي أقوله في مسائل الاعتقاد عليه أئمة المذاهب الأربعة]

وكان قد قال لي: فأنت تخالِفُ المذاهب الأربعة، وذكر حكم القضاة الأربعة.

فقلت له: بل الذي قلته عليه الأئمة الأربعة المذاهب، وقد أحضرت في الشام أكثر من خمسين كتاباً من كتب الحنفيّة والمالكيّة والشافعيّة، وأهل الحديث والمتكلّمين والصوفيّة. كلُّها توافق ما قلته بألفاظِه، وفي ذلك نصوص سلف الأمة وأئمتها.

ولم يستطع المنازِعون مع طولِ تفتيشهم كتب البلد وخزائنه أن يُخرِجوا ما يناقِض ذلك عن أحدٍ مِنْ أئمة الإسلامِ وسلفِه.

[كل ما هو مكتوب بالمحاضر كذب إلا كلمة واحدة وهي: استوى على العرش حقيقة]

وكان لمّا أعطاني الدرج فتأمّلتُه.

فقلت له: هٰذا كلّه كذب إلاّ كلمة واحدة، وهي أنه «استوى على العرش حقيقة»، لٰكن بلا تكييف ولا تشبيه.

قلت: وهذا هو في العقيدة بهذا الّلفظ بلا تكييف ولا تمثيل، ولا تحريفٍ ولا تعطيل.

فقال: فاكتب خطّك بهذا.

قلت: هذا مكتوبٌ قبل ذلك في «العقيدة» ولم أقُل بما يناقِضُه، فأيُّ فائدةٍ في تجديد الخط؟!

وقلت: هذا اللفظ قد حكى إجماع أهلِ السنّة والجماعة عليه غير واحدٍ من العلماء؛ المالكية والشافعيّة وأهل الحديث وغيرهم، وما في علماء الإسلام مَنْ ينكر ذلك إلاّ هؤلاء الخصوم.

[لازم قولهم في نفي استواء الله على عرشه]

قلت: فإنّ هؤلاء يقولون: ما فوق العرش ربٌّ يُدعى ولا فوق السّماء إلٰهٌ يُعبد وما هنالك إلاّ العدم المحض والنّفي الصرف، وأنّ الرسول ﷺ لم يُعْرَج به إلى الله تعالى ولٰكن صعد إلى السماء ونزل، وأنّ الدّاعي لا يرفَع يديه إلى الله.

ومنهم مَن يقول: إنّ الّله هو هذا الوجود وأنا الّله وأنتَ الّله والكلب والخنزير والعذرة! ويقول: إنّ الله حالٌّ في ذلك!

فاستعظم ذلك وهاله أنّ أحداً يقولُ هٰذا.

فقال: هؤلاء يعني ابن مخلوف وذويه.

فقلت: هؤلاء ما سمعت كلامهم ولا خاطبوني بشيء، فما يحلُّ لي أن أقول عنهم ما لم أعلمه، ولٰكن هذا قول الّذين نازعوني بالشام، وناظروني وصرّحوا لي بذلك، وصرّح أحدهم بأنه لا يقبل من الرسول ﷺ ما يقوله في هذا الباب ممّا يخالفهم.

[خروج الأمير من عند الشيخ فرحاً ويقول:
هو على الحق وهؤلاء قد ضيعوا الله]

وجعل الرجل في أثناء الكلام يُصغي لما أقوله ويعيه، لما رأى غضبي، ولهٰذا بلغني من غير وجه أنّه خرج فرِحاً مسروراً بما سمعه منّي وقال: هذا على الحقّ وهؤلاء قد ضيّعوا الله، وإلا فأين هو الله؟! وهٰكذا يقول كلُّ ذي فطرةٍ سليمة؛ كما قاله: جمال الدين الأخرم للملك الكامل لما خاطبه الملك الكامل في أمر هؤلاء فقال له الأخرم: هؤلاء قد ضيّعوا إلٰهك فاطلب إلٰهاً تعبده ـ إلى أن قال ـ:

مع أنّي في عمري إلى ساعتي هذه لم أَدْعُ أحداً قط في أُصولِ الدين إلى مذهب حنبلي وغير حنبلي ولا انتصرت لذلك ولا أذكره في كلامي، ولا أذكر إلاّ ما اتّفق عليه سلفُ الأمّة وأئمتها.

وقد قلت لهم غير مرة: أنا أُمهل مَنْ يخالفني ثلاث سنين إنْ جاءَ بحرفٍ واحد عن أحدٍ من أئمة القرون الثلاثة يخالف ما قلته فأنا أُقِرُّ بذلك.

وأمّا ما أذكره فأذكره عن أئمة القرون الثلاثة بألفاظهم وبألفاظ من نقل إجماعهم من عامّة الطّوائف.

فصل

[مما جاء في الورقة]

«ما ذكرتم من لين الكلام، والمخاطبة بالتي هي أحسن».

فأنتم تعلمون أني من أكثر الناس استعمالاً لهذا؛ لكن كل شيء في موضعه حسن، وحيث أمر الله ورسوله بالإغلاظ على المتكلم لبغيه وعدوانه على الكتاب والسنة، فنحن مأمورون بمقابلته، لم نكن مأمورون أن نخاطبه بالتي هي أحسن، ومن المعلوم أن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]، فمن كان مؤمناً فإنه الأعلى بنص القرآن...

فصل

[لم يطلب الشيخ تفويض الحكم إلى شخص معين وثناؤه على القاضي «بدر الدين» ونوابه]

«[ما][2] ذكرتم من أني أطلب تفويض الحكم إلى شخص معين».

فهذا لا يصلح؛ بل فيه الضرر على ذلك الشخص وعليَّ وفساد عام، وذلك أنكم تعلمون أن القاضي «بدر الدين» أني كنت من أعظم الناس موالاة له، ومناصرة ومعاونة له، ومدافعة لأعدائه عنه في أمور متعددة، بل ما أعلم أحداً أكثر مني مخالصة له ومعاونة، وذلك لله وحده لا لرغبة ولا لرهبة مني.

---

(١) سورة آل عمران: [١٣٩].

(٢) زيادة ليستقيم السياق.

وقطعة قوية مما حصل لي من الأذى ـ بدمشق وبمصر أيضاً ـ إنما هو بسبب انتصاري له ولنوابه: مثل الزرعي[1]، والتبريزي[2]، وغيرهما من حاشيته، وتنويهي بمحاسنه في مصر أيضاً قد عرفت بذلك فإنه حزب الردى وغيره يعادوني على ذلك.

والله يعلم أن منزلته عندي ومكانته من قلبي ليست قريبة من منزلة غيره فضلاً عن أن تكون مثلها. وحاشا لله أن يشبه بدر الدين بمن فرق الله بينه وبينه من وجوه كثيرة زائدة. وفي سنن أبي داود[3] عن عائشة قالت: أمرنا رسول الله ﷺ «أن ننزل الناس منازلهم» وعندي من أظلم الناس من يقرن بينه وبين غيره في مرتبة واحدة بالشام أو بمصر، وما زال «بدر الدين» مظلوماً بمثل هذا من الإقران، وأنا أعتقد من أعظم ما أتقرب به إلى الله نصره، وموالاته، ومعاونته أنتم تعرفون[4] في هذا خصوصاً بهذه الديار، فإنه ينبغي أن تكون معاونةٌ له ومناصرةٌ له أكثر مما كانت بالشام؛ لأن في كثير من هؤلاء من النفرة عنه، والكذب، والفجور ما ليس في غيرهم.

فأنا أحب وأختار كلَّ ما فيه علو قدره في الدنيا والدين، ولا أحب أن أجعله غرضاً لسهام الأعداء بل ما عملت معه ومع غيره، وما أعمل معهم فأجري فيه على الله الذي يقول: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾

---

(١) جمال الدين الزرعي سلمان بن عمر بن سالم الأذرعي (ت ٧٣٤)، انظر «رفع الإصر» (ص: ١٦٤).

(٢) قاضي القضاة علاء الدين علي بن إسماعيل القونوي التبريزي (ت ٧٢٩)، انظر «الدرر الكامنة» (٣/ ٢٤ ـ ٢٨)، و«قضاة الشام» لابن طولون (ص: ٩١).

(٣) رقم (٤٨٤١)، وضعفه الألباني، انظر «الضعيفة» رقم (١٨٩٤).

(٤) بياض بالأصل.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

[القاضي المالكي ابن مخلوف رجل كذاب فاجر قليل العلم والدين وإقرار الأمير بذلك]

ولهذا لمّا ذكر «الطيبرسي» القضاة وأجملهم، قلتُ له: إنّما دخل في هذه القضيّة «ابن مخلوف» وذاك رجلٌ كذّابٌ فاجر قليل العلم والدين فجعل يبتسم لمّا جعلت أقول هذا كأنّه يعرفه وكأنّه مشهورٌ بقبح السيرة.

وقلت: ما لابن مخلوف والدخول في هٰذا؟ هل ادّعى عليّ أحد دعوى ممّا يَحْكُم به؟ أم هٰذا الذي تكلّمت فيه هو من أمر العلم العام؟ مثل تفسير القرآن ومعاني الأحاديث والكلام في الفقه وأصول الدين.

وهذه المرجع فيها إلى مَنْ كان من أهل العلم بها والتّقوى لله فيها، وإن كان السلطان والحاكم مِن أهل ذلك تكلم فيها من هذه الجهة، وإذ عزل الحاكم لم ينعزل ما يستحقّه من ذلك كالإفتاء ونحوه، ولم يُقيّد الكلام في ذلك بالولاية.

وإن كان السلطان والحاكم ليس من أهل العلم بذلك ولا التّقوى فيه لم يحلَّ له الكلام فيه فضلاً عن أن يكون حاكماً، «وابن مخلوف» ليس من أهل العلم بذلك ولا التقوى فيه.

قلت: فأمّا القاضي «بدر الدين» فحاشا لله، ذاك فيه من الفضيلة والدِّيانة ما يمنعه أنْ يدخل في هٰذا الحكم المخالف لإجماع المسلمين من بضعةٍ وعشرين وجهاً.

---

(١) سورة الزلزلة: [٧ ـ ٨].

قلت: ومن أصرّ على أنَّ هٰذا الحكم الذي حكم به «ابن مخلوف» هو حكم شرع محمد ﷺ فهو بعد قيام الحجّة عليه كافر.

فإنّ صبيان المسلمين يعلمون بالاضطرار من دين الإسلام أنّ هذا الحكم لا يرضى به اليهود ولا النّصارى فضلاً عن المسلمين! وذكرت له بعض الوجوه الذي يعلم بها فساد هذا الحكم، وهي مكتوبة مع «الشرف محمد» وكذلك نزهت القاضي «شمس الدين السَّرُوجِيّ»[1] عن الدخول في مثل هذا الحكم.

[ليس مقصودكم الحكم الشرعي بل دفع ما سمعتموه من تهمة الملك]

وقلت له: أنتم ما كان مقصودكم الحكم الشرعي، وإنّما كان مقصودكم دفع ما سمعتموه من تهمة الملك.

ولمّا علمت الحكام أنّ في القضيّة أمر الملك أحجموا وخافوا من الكلام خوفاً يعذرهم الله فيه، أو لا يعذرهم لٰكن لولا هذا لتكلّموا بأشياء. ولو كان هذا الحكم شاذاً أو فيه غرض لذي سيف لكان عجائب.

فقالوا: يا مولانا مَنْ يتكلم في أمر الملك؟! نحن ما نتكلم، دعنا من الكلام في الملك.

فقلت: أيُّها النائم! أخلِّيكم من الملك؟! وهذه الفتنة التي ملأتم بها الدنيا هل أثارها إلا ذلك؟![2] ونحن قد سمعنا هٰذا بدمشق لٰكن ما اعتقدنا

---

(١) أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني العباسي (ت ٧١٠)، انظر «رفع الإصر» (ص ٤١) و«النجوم الزاهرة» (٩ / ٢١٢ ـ ٢١٣).

(٢) وقد قال شيخ الإسلام: أنا لم يدع عليّ دعوى يختص بها الحاكم من الحدود والحقوق: مثل قتل، أو قذف، أو مال، ونحوه، بل في مسائل العلم الكلية. . .اهـ. للمزيد من الفائدة انظر «مجموع الفتاوى» (٣ / ٢٣٨).

عاقلاً يصدِّق بذلك.

وهؤلاء القوم بعد أن خرج من أنفسهم تهمة الملك إذا ذُكِر لهم بعض ما يقوله المنازعون لي يستعظمونه جداً، ويروْن مقابلة قائلها بأعظم العقوبة، فإنّ الله سبحانه يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾(1).

فيعلم أني لو أطلب هٰذا ذهبت الطيور بي وببدر الدين كل مذهب، وقيل إنّ بيننا في الباطن اتّفاقات، فأنا أعمل معه ما أرجو جزاءه من الله.

وهو يعمل بموجب دينه، وأيضاً «فبدر الدين» لا يحتمل من كلام الناس وأذاهم ـ ما يفعله مثل هؤلاء ـ رجلٌ له منصب وله أعداء.

وأنا ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ فقد فعلوا غاية ما قدروا عليه.

وما بقي إلا نصر الله الذي وعد به رسوله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ـ إلى أن قال ـ:

[قبول الشيخ المحاقة عند القاضي بدر الدين إذا أجاب لذلك وتخوف الشيخ وصول الأذى «لبدر الدين» فيختار المحاقة عند بعض نوابه كالقاضي الزرعي]

ولا ريب أن مثل «بدر الدين» من أعدل الناس وأحبهم في أهل الصدق والعدل ومن أشد الناس بغضاً لشهود الزور، ولو كان متمكناً منهم لعمل أشياء، فهذا لو احتيج فيه إلى مثل «بدر الدين» لكان هو الحاكم الذي ينبغي أن يتولاه، دون من هو مشهور بالفجور.

(1) سورة الصف: [9].

لكن هذه المحاضر التي عندهم ما تساوي مدادها، وهم يعرفون كذبها وبطلانها، وأنا لا أكره المحاقة عليها عنده ليثبت عنده الحق دون الباطل، فإن كان يجيب إلى ذلك فيا حبذا لكني أخاف أن يحصل له أذى فيَّ بالقدح في بعض الناس، فهو يستخير الله فيما يفعله والله يخير له في جميع الأمور.

بل أختار أنا وغيري المحاقة على ذلك عند بعض نوابه كالقاضي «جمال الدين الزرعي»[1] فإنه من عدول القضاة وإلا «فبدر الدين» أجل قدراً من أن يكلف ذلك لو كنت محتاجاً إلى ذلك.

فأما والأمر ظهر عند الخاصة والعامة فلا يحتاج إليه كما قلت «للطيبرسي»: الكتاب من السلطان الذي كتب على لسان السلطان، وأخبر عن ذلك بجميع ما أخبر من الكذب ومخالفة الشريعة أموراً عظيمة بنحو عشرة أوجه، والكتاب[2] الذي كتب على لسان «غازان» كان أقرب إلى الشريعة من هذا الكتاب الذي كتب على لسان السلطان، وسواء بأن فعل ذلك أو لم يفعل فإني أعتقد، وأدين الله بأن نصره ومعاونته على البر والتقوى، وعلى نفوذ صدقه وعدله، دون كذب الغير[3] وظلمه، وعلى رفع قدره على الغير من أعظم الواجبات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) سبق التعريف به.

(٢) مضى الكلام عنه.

(٣) يقصد «ابن مخلوف» وحاشيته.

فصل

[أعداء الشيخ ورأسهم القاضي المالكي ابن مخلوف لا يريدون المحاقة بعد المشورة بينهم وأنهم حينئذ مقهورون متهوكون والأمير يطلب من الشيخ غير مرة ترك المحاقة]

ومما ينبغي أن تعلمه: أن القوم مستضعفون عن المحاقة إلى الغاية ـ ابن مخلوف، وغيره ـ وقد أداروا الرأي بينهم وعلموا أنهم عند المحاقة مقهورون متهوكون.

والطيبرسي طلب مني غير مرة ترك المحاقة.

فقلت له: أنا ما بغيت على أحد ولا قلت لأحد: وافقني على اعتقادي، وإلا فعلت بك، ولا أكرهت أحداً بقول ولا عمل؛ بل ما كتبت في ذلك شيئاً قط إلا أن يكون جواب استفتاء بعد إلحاح السائل واحتراقه، وكثرة مراجعته، ولا عادتي مخاطبة الناس في هذا ابتداء.

وهؤلاء هم الذين دعوا الناس إلى ما دعوهم إليه، وأكرهوهم عليه: فيبينون للناس ما الذي أمروهم به، وما الذي نهوهم عنه. فإن كانوا أمروهم بما أمرهم الله به ورسوله: فالسمع والطاعة لله ولرسوله ولمن أمر بما أمر الله به ورسوله. وإن كانوا أمروا بحق وباطل، ونهوا عن حق وباطل، وأمروا ونهوا عن أمور لا يعرفون حقيقتها، كانوا بذلك من الجاهلين الظالمين، وكان الحاكم بذلك من القاضيين اللذين في النار، ولم تجز طاعتهم في ذلك بل تحرم.

وأنا لو شئت المحاقة كانت أمور عظيمة؛ لكن من أنكر شيئاً مما قلته

فليقل: إني أنكر كذا وكذا ويكتب خطه بما أنكره، ويوجه إنكاره له، وأنا أكتب خطي بالجواب ويعرض الكلامان على جميع علماء المسلمين ـ شرقاً وغرباً ـ وأنا قائل ذلك.

وقد قلت قبل ذلك بدمشق: هذه الإنكارات المجملة لا تفيد شيئاً بل من أنكر شيئاً فليكتب خطه بما أنكره، وبحجته، وأنا أكتب خطي بجواب ذلك ويرى أهل العلم والإيمان الكلامين فهذا هو الطريق في الأمور العامة، وأما الألفاظ التي لا تكتب فيكثر فيها التخليط، والزيادة والنقصان كما قد وقع.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وعلى سائر الجماعة وتخص «بدر الدين» بأكرم تحية وسلام، وتوقفه على هذه الأوراق إن شئت؛ فإنه كان يقول في بعض الأمور: ما عن المحبوب سر محجوب، وبشر بكل ما يسرُّ اللهُ به عباده المؤمنين وينتقم به من الكافرين والمنافقين، فإني أعرف جملاً مما يتجرعه هو وذووه من أهل الترؤس بالباطل من ذوي الكذب والمحال.

والله ناصر دينه، وناصر عباده المؤمنين على مناوئيهم بالباطل لكن ليس هذا موضع الإخبار بتفاصيل سارة.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم[1].

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢١١ ـ ٢٤٧).

وقال شيخ الإسلام أيضاً: الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

ونشهد أن لا إله إلا الله.

ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم تسليماً ـ.

أما بعد: فقد وصلت ورقتك التي ذكرت فيها إخبارك الشيخ باجتماع الرسول بي، وما أخبرته من الكلام، وأن الشيخ قال: أعلم أني والله قد عظم عندي كيف وقعت الصورة على هذا.. إلى آخره.

وأنه قال: تجتمع بالشيخ وتتفق معه ـ على ما يراه هو ويختاره، إن يكن كما قلت أو غيره ـ فتسلم عليه، وتقول له: أما هذه القضية ليس لي فيها غرض معين أصلاً، ولست فيها إلا واحداً من المسلمين، لي ما لهم، وعلي ما عليهم، وليس لي ولله الحمد حاجة إلى شيء معين يطلب من المخلوق، ولا في ضرر يطلب زواله من المخلوق؛ بل أنا في نعمة من الله سابغة ورحمة عظيمة أعجز عن شكرها.

[لا طاعة لولي الأمر إذا أمر بمعصية الله]

ولكن عليَّ أن أطيع الله ورسوله، وأطيع أولي الأمر إذا أمروني بطاعة الله، فإذا أمروني بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. هكذا دل عليه «الكتاب» و«السنة» واتفق عليه «أئمة الأمة».

... ومأمور أيضاً مع ذلك أن أقول أو أقوم بالحق حيث ما كنت، لا أخاف في الله لومة لائم.

وهذه القضية قد جرى فيها ما جرى مما ليس هذا موضع ذكره، وكنت تبلغني بخطابك وكتابك عن الشيخ ما تبلغني وقد رأيت وسمعت موافقتي على كلِّ ما فيه طاعة الله ورسوله، وعدم التفاتي إلى المطالبة بحظوظي، أو مقابلة مَن يؤذيني، وتيقّنت هٰذا منّي فما الذي يطلب من المسلم فوق هذا؟

وأشرت بترك المحاقة ولين الجانب وأنا مجيبٌ إلى هٰذا كلِّه.

[رسول نائب السلطان يفاوض الشيخ لإطلاق سراحه]

فجاء الفتاح أولاً، فقال: يسلِّم عليك النائب.

وقال: إلى متى يكون المقام في الحبس؟ أما تخرج؟ هل أنتَ مقيمٌ على تلك الكلمة أم لا؟ وعلمت أن الفتاح ليس له في استقلاله بالرسالة مصلحة لأمورٍ لا تخفى.

فقلت له: سلِّم على النائب، وقل له: أنا ما أدري ما هٰذه الكلمة؟ وإلى الساعة لم أدرِ على أيِّ شيءٍ حُبِست؟ ولا علمت ذنبي؟ وأنّ جواب هٰذه الرسالة لا يكون مع خَدَمتك، بل يُرسِل من ثقاته ـ الذين يفهمون ويصدقون ـ أربعة أمراء، ليكون الكلام معهم مضبوطاً عن الزيادة والنقصان، فأنا قد علمتُ ما وقع في هذه القصة من الأكاذيب.

فجاء بعد ذلك الفتاح ومعه شخص ما عرفته، لٰكن ذكر لي أنّه يُقال له «علاء الدين الطيبرسي»، ورأيت الذين عرفوه أثنوا عليه بعد ذلك خيراً وذكروه بالحسنى، لٰكنّه لم يَقُل ابتداء من الكلام ما يحتمل الجواب بالحسنى! فلم يقُل: الكلمة التي أنكرت كيت، وكيت! ولا استفهم: هل أنت

مجيبٌ إلى كيْت، وكيْت؟!!

ولو قال ما قال ـ من الكذب عليَّ والكفر والمجادلة ـ على الوجه الذي يقتضي الجواب بالحسنى لفعلت ذلك، فإنّ النّاس يعلمون أنّي مِنْ أطول الناس روحاً وصبراً على مُرِّ الكلام، وأعظم النّاس عدلاً في المخاطبة لأقلِّ الناس دع لولاة الأمور.

[إخراج محاضر فيها كثير من الكذب والظلم والمعصية وطلب موافقة الشيخ عليها والإقرار بها]

لٰكنّه جاء مجيء المكره على أنْ أوافق إلى ما دعا إليه وأخرج درجاً فيه من الكذب والظلم والدعاء إلى معصية الله والنّهي عن طاعته ما الله به عليم.

وجعلتُ كلّما أردتُ أنْ أجيبه أو أُحمِّله رسالة يبلِّغها، لا يريد أنْ يسمع شيئاً من ذلك ويبلِّغه، بل لا يريد إلاّ ما مضمونه الإقرار بما ذكر والتزام العوْد إليه ـ إلى أن قال ـ:

فقلتُ له في ضِمْنِ الكلام: الحق في هذه القصة ليس لي ولكن للّه ولرسوله ولسائر المؤمنين من شرق الأرض إلى غربها، وأنا لا أعني تبديل الدين وتغييره وليس لأجلك أو أجل غيرك أرتدُّ عن دين الإسلام، وأقِرُّ بالكفر، والكذب، والبهتان، راجعاً عنه أو موافقاً عليه.

ولمّا رأيتُه يُلِحُّ في الأمر بذلك أغلظتُ عليه في الكلام وقلت: دع هذا الفشار وقم، رح في شغلك. فأنا ما طلبت منكم أن تخرجوني ـ وكانوا قد أغلقوا الباب القائم الذي يدخل منه إلى الباب المطبق ـ.

فقلت أنا: افتحوا لي الباب حتى أنزل ـ يعني فرغ الكلام ـ.

وجعلَ غيْر مرّة يقول لي: أتخالِف المذاهب الأربعة؟

فقلت: أنا ما قلت إلا ما يوافق المذاهب الأربعة، ولم يحكم عليَّ أحد من الحكام إلاّ ابن مخلوف وأنت كنت ذلك اليوم حاضراً.

[رفض الشيخ محاكمة القاضي المالكي «ابن مخلوف» له]

وقلت له [أي: لابن مخلوف]: أنت وحدك تحكم أو أنت وهؤلاء؟

فقال: بل أنا وحدي.

فقلت له: أنت خصمي فكيف تحكم عليٍّ.

فقال: كذا، ومد صوته وانزوى إلى الزاوية.

وقال: قم، قم.

فأقاموني وأمروا بي إلى الحبس. ثمّ جعلتُ أقول أنا وإخوتي غير مرّة: أنا أرجع وأُجيب وإن كنت أنت الحاكم وحدك. فلم يقبل ذلك مِنِّي.

فلما ذهبوا بي إلى الحبس حَكَم بما حَكَم به، وأَثْبَتَ ما أَثبَتَ وأَمَرَ في الكتاب السلطاني بما أَمَرَ به.

[وصف الشيخ سجنه ومقارنته بسجون النصارى]

فهل يقول أحد من اليهود أو النصارى دعِ المسلمين أنّ هذا حبس بالشرع فضلاً عن أنْ يقال شرع محمد بن عبد الله.

وهٰذا ممّا يعلم الصبيان الصِّغار بالاضطرار من دين الإسلام أنّه

مخالفٌ لشرع محمد بن عبد الله.

وهذا الحاكم هو وذووه دائماً يقولون: فعلنا ما فعلنا بشرع محمد بن عبد الله، وهٰذا الحكم مخالفٌ لشرع الله ـ الذي أجمعَ المسلمون عليه ـ من أكثر من عشرين وجهاً.

ثمّ النّصارى في حبسٍ حسن، يشركون فيه بالله ويتَّخذون فيه الكنائس، فيا ليْت حبسنا كانَ مِن جنس حبس النّصارى، ويا ليتنا سُوِّينا بالمشركين وعُبّادِ الأوثان، بل لأولئك الكرامة ولنا الهوان[1]، فهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ أمرَ بهٰذا.

وبأيِّ ذنبٍ حبس إخوتي في دين الإسلام غيرَ الكذب والبهتان؟! ومَنْ قال إنّ ذلك فُعِل بالشرع فقد كفر بإجماع المسلمين.

[طلب الشيخ إنصافه وورقة الادعاء والكتاب السلطاني مخالف للشريعة وفيه من الكذب أمور عظيمة وطعنه بالشهود ورفضه القاضي ابن مخلوف حكما]

وقلتُ له في ضِمن الكلام: أنت لو ادعى عليك رجل بعشرة دراهم، وأنتَ حاضر في البلد غير ممتنع من حضورِ مجلس الحاكم، لم يكن للحاكم أن يحكم عليك في غيبتك، هٰذا في الحقوق فكيف بالعقوبات التي يحرم فيها ذلك بإجماع المسلمين؟!

ثمّ هذا الرجل قد ظهر كذِبه غير مرة. ذلك اليوم كذب عليّ في أكثر ما قاله. وهذه الورقة التي أمر بكتابتها أكثرها كذب. والكتاب السلطاني

(١) ما أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَهْ!!!

الذي كُتِبَ بأمره مخالِفٌ للشريعة من نحو عشرة أوجه. وفيه من الكذب على المجلس الذي عُقِد أمور عظيمة قد علمها الخاص والعامّ.

فإذا كان الكتاب الذي كُتِبَ على لسان السلطان وقُرِىء على منابر الإسلام أخبر فيه عن أهل المجلس؛ من الأمراء، والقضاة، بما هو من أظهر الكذب والبهتان، فكيفَ فيما غاب عنهم؟!

قلت: وهو دائماً يقول عني: إنِّي أقول: إنّ الله في زاوية، ولد ولداً. وهٰذا كله كذب وشهرته بالكذب والفجور يعلمه الخاص والعامّ.

فهل يصلح مثلَ هٰذا أن يحكم في أصول الدين ومعاني الكتاب والسنة، وهو لا يعرف ذلك؟! ورأيته هنا يتبسم تبسُّم العارف بصحّة ما قلته فكأنّ سيرة هذا الحاكم مشهورة بالشرِّ بين المسلمين.

وأخذ يقول لي: هذه المحاضر، ووجدوا بخطك.

فقلت: أنتَ كنتَ حاضراً ذلك اليوم، هل أراني أحد ذلك اليوم خطأً[1] أو محضراً؟

أو قيل لي: شهد عليك بكذا أو سمع لي كلاماً، بل حين شرعتُ أحمُد الله وأُثني عليه لقول النبي ـ ﷺ ـ:

«كُلُّ أمر ذي بالٍ لا يبدأ فيه بالحمد فهو أجذم»[2] منعوني من حمد الله.

وقالوا: لا تحمد الله، بل أجِب.

---

(١) كذا. والصواب: خطّاً.

(٢) رواه أبو داود في «سننه» (٤٨٤٠) بهذا اللفظ وضعفه الألباني، انظر «الإرواء» (١ / ٢٩ ـ ٣٢).

فقلت لابن مخلوف: ألك أُجيب أو لهٰذا المدّعي؟ وكان كلٌّ منهما قد ذكر كلاماً أكثره كذب.

فقال: أجِب المدَّعي.

فقلت: فأنت وحدك تحكم أو أنت وهؤلاء القضاة؟

فقال: بل أنا وحدي.

فقلت: أنتَ خصمي فكيف يصحُّ حكمك عليّ؟! فلم تطلب منِّي الاستفسار عن وجه المخاصمة فإنّ هٰذا كان خصماً من وجوهٍ متعدّدة معروفة عند جميع المسلمين.

ثم قلت: أمّا ما كان بخطِّي فأنا مقيمٌ عليه، وأمّا المحاضر فالشهود فيها فيهم من الأمور القادحة في شهادتهم وجوهٌ متعددة تمنع قبول شهاداتهم بإجماع المسلمين.

والذي شهدوا به فقد علم المسلمون خاصّتهم وعامّتهم بالشام وغيره ضدّ ما شهدوا به.

[شهادة القضاة بسلفية عقيدة الشيخ]

وهٰذا القاضي شرف الدين ابن المقدسي(١) قد سمع منه الناس العدُول، أنه كان يقول: أنا على عقيدة فلان، حتى قبل موته بثلاث دخلتُ عليه فيما يرى مع طائفة فقال قُدَّامهم: أنا أموتُ على عقيدتك يا فلان، لست على عقيدة هؤلاء يعني الخصوم.

(١) الشيخ الإمام الخطيب المدرس المفتي، شرف الدين أحمد ابن الشيخ كمال الدين أحمد ابن نعمة بن أحمد المقدسي (ت ٦٩٤)، وولي القضاء بدمشق، انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٣٦١).

وكذلك القاضي «شهاب الدين الخولي»[1] غير مرة يقول في قفاك: أنا على عقيدته.

والقاضي «إمام الدين»[2] قد شهد عليَّ العدول أنّه قال: ما ظهر في كلامه شيء ومَنْ تكلّم فيه عزّرته.

[لم يمنع الشيخ من التدريس والإفتاء ولم يستتب بشهادة مشايخ الشام]

وقال لي في أثناء كلامه: فقد قال بعض القضاة إنّهم أنزلوك عن الكرسي.

فقلت: هٰذا من أظهر الكذب الذي يعلمه جميع الناس؛ ما أنزلتُ عن الكرسي قطّ، ولا استتابني أحد قط عن شيء ولا استرجعني.

وقلت: قد وصل إليكم المحضر الذي فيه خطوط مشائخ الشام وسادات الإسلام، والكتاب الذي فيه كلام الحكام الذين هم خصومي؛ كجمال الدين المالكي[3]، وجلال الدين الحنفي[4] وما ذكروا فيه بما

---

(١) قاضي القضاة شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن قاضي القضاة شمس الدين أبي العباس أحمد الخوييّ (ت ٦٩٣)، انظر «البداية والنهاية» (١٣ / ٣٥٧) و«قضاة دمشق» (ص: ٧٩).

(٢) قاضي القضاة إمام الدين أبو المعالي عمر بن القاضي سعد الدين أبي القاسم عبد الرحمن ابن الشيخ إمام الدين أبي حفص عمر القزويني الشافعي (ت ٦٩٩)، انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ١٤) و«قضاة دمشق» (ص: ٨٢ ـ ٨٣).

(٣) قاضي القضاة جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سلمان بن يوسف الزواوي قاضي المالكية بدمشق (ت ٧١٧)، انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٨٧) و«قضاة دمشق» (ص: ٢٤٣ ـ ٢٤٥).

(٤) القاضي الأمير العالم جلال الدين أبو العباس أحمد ابن قاضي القضاة حسام الدين الرومي الحنفي (ت ٧٤٥)، انظر «البداية والنهاية» و«قضاة دمشق» (ص: ١٩٢).

يناقض هذه المحاضر.

وقوْل المالكي: ما بلغني قط أنّه استتيب ولا مُنع من فُتيا، ولا أُنزِل ولا كذا، ولا كذا. ولا ثبت عليه عندي قط شيْء يقدح في دينه. وكذلك قوْل سائر العلماء والحكام في غيْبتي.

وأما الشهادات ففيها أمور عظيمة فتدبروها، فكيف وشهود المحضر فيهم من موانع الشهادة أمور تقال عند الحاجة؟!

«فصل معترض»

[الحكم خارج عن شريعة الإسلام ومحاضر الادعاء أقل وأحقر من أن يحتاج إلى الرد عليها]

ذكرت في ورقتك أنك قلت للشيخ: «في نفسي أن تطلب لي المحاضر حتى ينظر هو فيها، فإن كان له دافع وإلا فالجماعة كلهم معذورون»، وهذا مما لا حاجة إليه أصلاً، وهذه المحاضر أقل وأحقر من أن يحتاج الرد عليها إلى حضرتها، فإني قد بينت ببضع وعشرين وجهاً أن هذا الحكم خارج عن شريعة الإسلام بإجماع المسلمين: المذاهب الأربعة وسائر أئمة الدين، وقلتُ للرسول: ما لابن مخلوف ونحوه في أن يتعرّض إلى علم الدين الذي غيره أعلم به منه مثل: تفسير القرآن، وأحاديث النبي ـ ﷺ ـ ومقالات السلف، وأصول الدين التي لا يعرفها. وهذه الأمور إنّما يرجع فيها إلى مَن يعرفها.

فإن كان السلطان أو نائبه الحاكم يعرِفها كان في ذلك كسائر العارفين بها وإلاّ فلا أمر لهم فيها، كما لا يراجع في الاستفتاء إلاّ من يُحسن الفتيا.

وقلت له: أنا لم يصدر مني قط إلاّ جواب مسائِل وإفتاء مستفتٍ، ما

كاتبتُ أحداً أبداً ولا خاطبته في شيءٍ من هذا بل يجيئني الرجل المسترشد المستفتي بما أنزل الله على رسوله فيسألني مع بُعده وهو محترقٌ على طلب الهدى، أفيسعني في ديني أن أكتمه العلم وقد قال النبيّ ـ ﷺ ـ[1]: «من سُئِل عن علمٍ يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجامٍ من نار»، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾[2]؟! أفعلى أمرك أمتنع عن جواب المسترشد لأكون كذلك؟ وهل يأمرني بهذا السلطان أو غيره من المسلمين[3].

[إعلان الشيخ أن المقصود من محاكمته وسجنه اتهامه بالسعي لأخذ الملك وأيدِ أجنبية تسعى لفساد ملتكم ودنياكم ودولتكم]

ولٰكن أنتم ما كان مقصودكم إلاّ دفع أمر الملك لما بلغكم من الأكاذيب.

فقال يا مولانا: دع أمر الملك، أحدٌ ما يتكلم في الملك.

فقلت: «إيه» الساعة ما بقي أحد يتكلم في الملك؟! وهل قامت هذه الفتنة إلاّ لأجلِ ذلك؟!

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢ / ٢٦٣) وغيره، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٨٤).

(٢) سورة البقرة: [١٥٩].

(٣) قال شيخ الإسلام بعد ذكره الآية والحديث المتقدمين في الحادثة نفسها: فلا يؤمر العالم بما يوجب لعنة الله عليه، فأخذا الجواب وذهبا فأطالا الغيبة، ثم رجعا ولم يأتيا بكلام محصل إلا طلب الحضور، فأغلظت لهم في الجواب وقلت لهم بصوت رفيع: يا مبدلين يا مرتدين عن الشريعة يا زنادقة، وكلاماً آخر كثيراً، ثم قمت وطلبت فتح الباب والعود إلى مكاني. اهـ. «الفتاوى الكبرى» (١ / ٦).

ونحن سمعنا ـ بهذا ـ ونحن بالشام أنّ المثير لها تهمة الملك لٰكن ما اعتقدنا أن أحداً يصدِّق هذا.

وذكرت له أن هذه القصة ليس ضررها عليّ، فإنّي أنا من أيِّ شيءٍ أخاف؟!

إن قتلت كنت من أفضل الشهداء وكان ذلك سعادة في حقِّي يترضّى بها عليّ إلى يوم القيامة.

ويلعن الساعي في ذلك إلى يوم القيامة.

فإنّ جميع أمّة محمد يعلمون أني أُقتل على الحق الذي بعث الله به رسوله.

وإنْ حُبِستُ فوالله إنّ حبسي لمن أعظم نعم الله عليّ وليس لي ما أخاف الناس عليه، لا مدرسة ولا إقطاع، ولا مال ولا رئاسة، ولا شيء من الأشياء.

ولٰكن هذه القصة ضررها يعود عليكم، فإنّ الذين سعوْا فيها من الشام أنا أعلم أنّ قصدهم فيها كيدكم وفساد ملتكم ودولتكم.

وقد ذهب بعضهم إلى بلاد التتر وبعضهم مقيم هناك، فهم الذين قصدوا فساد دينكم ودنياكم، وجعلوني إماماً بالتَّستر لعلمهم بأني أواليكم وأنصح لكم وأُريد لكم خير الدنيا والآخرة.

والقضيّة لها أسرار كلما جاءت تنكشف وإلاّ فأنا لم يكن بيني وبين أحدٍ بمصر عداوة ولا بُغضاً[1] وما زلت محباً لهم موالياً لهم: أمرائهم ومشائخهم وقضاتهم.

---

(١) كذا في المجموع، والصواب: بغضٌ.

[بالتحديد ما الذي تريد إيصاله لنائب السلطان؟

الشيخ: كل الذي بمحاضر الادعاء كذب إلا كلمة واحدة]

فقال لي: فما الذي أقوله لنائب السلطان؟

فقلت: سلِّم عليه وبلّغه كل ما سمعت.

فقال: هذا كثير.

فقلت: ملخصه أنّ ما في هذا الدرج أكثره كذب، وأما هذه الكلمة «استوى حقيقة» فهذه قد ذكر غير واحد من علماء الطوائف ـ المالكية وغير المالكية ـ أنّه أجمع عليها أهلُ السّنةِ والجماعة، وما أنكر ذلك أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، بل ما علمت عالماً أنكر ذلك، فكيف أترك ما أجمع عليه أهل السنة ولم ينكره أحد من العلماء؟! ـ ثم ذكر الآثار التي تدل على استواء الله على عرشه حقيقة ـ ثم قال:

. . وهذه الآثار لم أذكرها كلها للرسول، لٰكن هي مما أشرتُ إليه بقولي: إني لم أقل شيئاً من نفسي وإنّما قلتُ ما اتّفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وهذا الموضع يضيق بما في ذلك من كلام الأئمة.

فقال لي: نعم هو مستوٍ على العرش حقيقةً بذاته بلا تكييف ولا تشبيه.

قلت: نعم، وهٰذا هو في «العقيدة».

فقال: فاكتب هذه الساعة، أو قال: اكتب هذا أو نحو هٰذا.

فقلت: هذا هو مكتوب بهذا اللفظ في العقيدة التي عندكم التي بحثت بدمشق، واتفق عليها المسلمون، فأيُّ شيء هو الذي أريده؟[1]

---

(١) كذا، والصواب: «أزيده» بالمعجمة، كما يدلُّ عليه السياق.

وقلت له: أنا قد أحضرت أكثر من خمسين كتاباً من كتب أهل الحديث والتصوُّف والمتكلِّمين، والفقهاء الأربعة: الحنفية والمالكيّة والشافعيّة والحنبلية توافق ما قلت.

وقلت: أنا أُمهل مَن خالفني ثلاث سنين أن يجيء بحرفٍ واحد عن أئمة الإسلام يخالف ما قلته، فما الذي أصنعه؟!

[طلب النائب من الشيخ كتابة عقيدته والشيخ يرفض ويبدي السبب]

فلمّا خرج الطيبرسي والفتّاح عاد الفتاح بعد ساعة.

فقال: يسلِّم عليك نائب السلطان.

وقال: فاكتب لنا الآن «عقيدة» بخطك.

فقلت: سلم على نائب السلطان وقل له: لو كتبت الساعة شيئاً لقال القائل: قد زاد أو نقص أو غيّر الاعتقاد، وهٰكذا بدمشق لمّا طلبوا الاعتقاد ولم آتهم إلا بشيء قد كتبت متقدِّماً.

قلت: وهذا الاعتقاد هو الذي قرِىءَ بالشام في المجالس الثلاثة وقد أرسله إليكم نائبكم مع البريد والجميع عندكم ثم أرسل لكم مع «العمري» ثانياً لمّا جاء الكتاب الثاني ما قاله القضاة، والعلماء، والمحضر، وكتاب «البخاري» الذي قرأه المِزِّي.

والاعتقاد ليس شيئاً أبتدئه من عندي حتى يكون كل يوم لي اعتقاد وهو ذلك الاعتقاد بعينه والنسخة بعينها فانظروا فيها، فراح.

[المعاودة بتحديد كتابة الشيخ بالعفو وألا يتعرض لأحد]

ثم عاد وطلب أن أكتب بخطي أي شيء كان.

فقلت: فما الذي أكتبه؟

قال: مثل العفو، وألّا تتعرض لأحد.

فقلت: نعم هٰذا أنا مجيب إليه ليس غرضي في إيذاء أحد ولا الانتقام منه ولا مؤاخذته وأنا عافٍ عمّن ظلمني.

وأردت أن أكتب هٰذا، ثم قلت: مثل هٰذا ما جرت العادة بكتابته فإن عفو الإنسان عن حقّه لا يحتاج إلى هٰذا.

[إيهام ابن مخلوف أن الشيخ قد أقر بهذه المحاضر]

وتعلم أن الأمر لما جرى على هذا الوجه كاد بعض القلوب يتغير على الشيخ، وظنوا أن هذا الدرج قد أقر به، وأن ذلك يناقض ما كان يقوله ويرسل به، فجعلت أنا وأخي ندفع ذلك، ونقول: هذا من فعل ابن مخلوف وقد تحققت أنا أن ذلك من عمل ابن مخلوف.

ويعرف الشيخ أن مثل هذه القضية التي قد اشتهرت وانتشرت لا تندفع على هذا الوجه، فأنا أبذل غاية ما وسعني من الإحسان وترك الانتقام، وتأليف القلوب، لكن هو يعرف خلقاً كثيراً ممن بالديار المصرية ـ ثم ذكر شيئاً من شرهم وظلمهم إلى أن قال ـ.

[الشيخ ينقض حكم القاضي المالكي ابن مخلوف]

... فلو كان الذي حكم به ابن مخلوف هو مذهب مالك أو الأشعري، لم يكن له أن يلزم جميع الناس به ويعاقب من لم يوافقه عليه باتّفاق الأمة، فكيف والقول الذي يقوله ويلزم به هو خلاف نص مالك وأئمة أصحابه وخلاف نص الأشعري وأئمة أصحابه: كالقاضي أبي بكر، وأبي الحسن الطبري وأبي بكر بن فورك، وأبي القاسم القشيري، وأبي بكر البيهقي، وغير هؤلاء؟! كلهم مصرِّحون بمثل ما قلناه وبنقيض ما قاله ـ إلى أن قال ـ:

ثمّ لو فرض أنّ هذا الذي حكم فيه ممّا يسوغ فيه الاجتهاد: لم يكن له أن ينقض حكم غيره فكيف إذا نقض حكم حكام الشام جميعهم بلا شبهة، بل بما يخالف دين المسلمين بإجماع المسلمين، ولو زعم زاعم أنّ حكّام الشام مُكْرَهُوْنَ ففيهم من يصرِّح بعدم الإكراه غير واحد.

وهؤلاء بمصر كانوا أظهر إكراهاً لما اشتهر عند الناس أنّه فعل ذلك لأجل غرض الدولة المتعلّق بالملك وأنّه لولا ذلك لتكلم الحكام بأشياء. وهذا ثابت عن حكام مصر.

فكيف وهٰذا الحكم الذي حكم به مخالفٌ لشريعة الإسلام من بِضعةٍ وعشرين وجهاً؟! وعامّتها بإجماع المسلمين والوجوه مكتوبة مع «الشرف محمد» فينبغي أن يعرف الشيخ «نصر» بحقيقة الأمر وباطن القضيّة ليطبّها بتدبيره.

فأنا ليس مرادي إلاّ في طاعة الله ورسوله وما يخاف على المصريين إلا من بعضهم في بعض، كما جرت به العادة.

[سعي الشيخ في إبطال الأحكام الجائرة]

وقد سمعتم ما جرى بدمشق ـ مع أنّ أولئك أقرب إلى الاتفاق ـ من تجديد القاضي المذكور إسلامه عند القاضي الآخر.

وأنا لمّا كنت هناك كان هٰذا الآذن «يحيى الحنفي» فذهب إلى القاضي «تقي الدين الحنبلي»[1] وجدّد إسلامه وحكم بحقن دمه لما قام عليه بعض أصحابهم في أشياء.

---

(١) القاضي المسند الرحلة تقي الدين سليمان بن حمزة بن أحمد المقدسي الحنبلي (ت ٧١٥)، انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٧٧) و«قضاة الشام» (ص: ٢٧٥ ـ ٢٧٧).

وكان من مدّة لمّا كان القاضي «حسام الدين الحنفي»[١] مباشراً لقضاء الشام: أراد أن يحلق لحية هذا «الأذرعي» وأحضر الموس والحمار ليركبه ويطوف به فجاء أخوه عرّفني ذلك، فقمت إليه ولم أزل به حتى كفّ عن ذلك وجرت أمور لم أزل فيها محسناً إليهم.

وهذه الأمور ليست من فعلي ولا فعل أمثالي؛ نحن إنّما ندخل فيما يحبه الله ورسوله والمؤمنون، ليس لنا غرض مع أحد بل نجزي بالسيّئة الحسنة ونعفو ونغفر. وهذه القضيّة قد انتشرت وظهر ما فعل فيها وعلمه الخاص والعام.

[عندما يتعلق الأمر بالدولة تغير الأحكام الشرعية بسهولة]

فلو تغيّرت الأحوال حتى جاء أمير أو وزير له في نقل ملك قد أثبته أو حكم به، لكان هذا عند المصريين من أسهل ما يكون فيثبتون ردّته[٢] والمرتد أحكامه مردودة باتفاق العلماء، ويعود ضرره على الذين أعانوه ونصروه بالباطل من أهل الدولة وغيرهم.

وهٰذا أمر كبير لا ينبغي إهماله؛ فالشيخ خبيرٌ يعرف عواقب الأمور. وأنا والله من أعظم الناس معاونة على إطفاء كل شرٍّ فيها وفي غيرها وإقامة كل خير.

[نية الشيخ مع ألد أعدائه والساعي لإراقة دمه]

وابن مخلوف لو عمل مهما عمل والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه، ولا أُعين عليه عدوّه قط، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

---

(١) القاضي حسام الدين أبو الفضائل الحسن ابن القاضي تاج الدين أبي المفاخر أحمد بن الحسن الرازي الحنفي فُقد سنة (٦٩٩)، انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ١٤).

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (٢ / ٢٦٧).

هذه نيّتي وعزمي مع علمي بجميع الأمور فإني أعلم أنّ الشيطان ينزغ بين المؤمنين ولن أكون عوْناً للشيطان على إخواني المسلمين.

ولو كنت خارجاً لكنت أعلم بماذا أعاونه لٰكن هذه مسألة قد فعلوها زوراً والله يختار للمسلمين جميعهم ما فيه الخيرة في دينهم ودنياهم. ولن ينقطع الدور وتزول الحيرة إلاّ بالإنابة إلى الله والاستغفار والتوبة وصدق الالتجاء فإنه سبحانه لا ملجأ منه إلاّ إليه، ولا حوْل ولا قوّة إلاّ بالله.

[تفنيد الشيخ مزاعم نصر المنبجي بإطلاق سراحه]

وأمّا ما ذكرت عن الشيخ «نصر» أنّه قال: «كنت أوثر أن لا يحسوا به إلاّ وقد خرج خشية أن يعلم فلان وفلان فيطلعوا ويتكلموا، فتكثر الغوغاء والكلام» فعرِّفه أن كل من قال حقّاً، فأنا أحق من سمع الحق والتزمه وقبله، سواء كان حلواً أو مُرّاً وأنا أحق أن يتوب من ذنوبه التي صدرت منه بل وأحق بالعقوبة إذا كنت أضل المسلمين عن دينهم.

وقد قلت فيما مضى: ما ينبغي لأحد أن يحمله تحنُّنه لشخص وموالاته له على أن يتعصَّب معه بالباطل أو يعطل لأجله حدود الله تعالى بل قد قال النبيّ - ﷺ -[1]: «من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله فقد ضادَّ الله في أمره».

وهذا الذي يخافه - من قيام «العدو» ونحوه في المحضر الذي قدم به من الشام إلى ابن مخلوف فيما يتعلق بالاستغاثة بالنبي ﷺ - إن أظهروه كان وباله عليهم ودلّ على أنّهم مشركون لا يفرقون بين دين المسلمين ودين النصارى - إلى أن قال -.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٩٧) وغيره وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٣٧).

ومما ينبغي أن يُعَرَّف به الشيخ أني أخاف أن القضية تخرج عن أمره بالكلية، ويكون فيها ما فيه ضرر عليه، وعلى ابن مخلوف ونحوهما، فإنه قد طلب مني ما يجعل سبباً لذلك ولم أجب إليه فإني إنما أنا لون واحد والله ما غششتهما قط، ولو غششتهما كتمت ذلك، وأنا مساعد لهما على كل بر وتقوى[1].

[مرسوم السلطان بنفي ابن تيمية إلى الإسكندرية وتضجرُّه من هذا المرسوم]

قال خادم الشيخ الغياني: فلمّا كان بعدُ في صلاة المغرب جاء نائب والي المدينة بدر الدين المحب بن عماد الدين بن العفيف ومعه جماعة.

فقال: يا سيِّدي، باسم الله.

فقال له الشيخ: إلى أين؟

قال: إلى الإسكندريّة، قد رسم السلطان بذلك السّاعة.

فقال له: لو كنتم أخبرتموني بذلك حتى تجهزت للسفر، وأخذتُ معي نفقة.

فقال له: قد أمرت لك ولأصحابك ما يكفيك.

فقال له: أنا الليلة ما أُسافِر.

فقال له: ما يمكنني أن أُخالِف مرسوم السلطان.

فقال له: أمعك مرسوم بأن تسخطني؟

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٤٨ ـ ٢٧٧).

فقال: لا، وقام خرج من عنده، فغلق السجّان باب الحبس وراح.

[تبتُّله ودعاؤه وأنه في سرور

لو قسم على أهل الشام ومصر لفضل عنهم]

فلمّا كان بعد في صلاة العصر وقفت أبكي.

فقال لي الشيخ: لا تبكِ؛ ما بقيت هذه المحنة تبطيء.

فقلت له: أفتح لك في المصحف[1].

فقال: افتح، فطلع قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[2].

فقال: افتح في موضع آخر، فطلع قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[3] إلى آخرها.

فقال: افتح، فطلع قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾[4] إلى آخرها.

فلمّا صلّينا المغرب، بقي يدعو بدعاء الكرب، وأنزل الله عليه من

---

(١) قال شيخ الإسلام: وأما استفتاح الفأل في المصحف فلم ينقل عن السلف فيه شيء، وقد تنازع فيه المتأخرون. وذكر القاضي أبو يعلى فيه نزاعاً ذكر عن ابن بطة أنه فعله، وذكر عن غيره أنه كرهه، فإن هذا ليس الفأل الذي يحبه رسول الله ﷺ. . . !! ولتتمة المسألة ومزيد الفائدة. انظر «الفتاوى الكبرى» (١ / ١٩٠ ـ ١٩٢).

(٢) سورة النحل: [١٢٧ ـ ١٢٨].

(٣) سورة النمل: [٥٠].

(٤) سورة الفتح: [٢٩].

النور والبهاء والحال شيئاً عظيماً. وأشرتُ إلى المُحْبَسِين، كأن وجهه شمع يجلوه مثل العروس، حتى إذا راق الليل جاء نائب الوالي.

فقال: باسم الله. فبقوا يودّعونه ويبكون ويدعون عليهم بدعاءٍ مختلف. أقلُّه أن يسلبهم الله نعمته. وركب على باب الحبس. فقال له إنسان: يا سيّدي هذا مقام الصبر.

فقال له: بل هذا مقام الحمد والشكر، والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيءٌ لو قُسِّم على أهل الشام ومصر لفضُل عنهم.

ولو أنّ معي في هذا الموضع ذهباً وأنفقته ما أدّيتُ عُشرَ هذه النعمة التي أنا فيها.

[مرسوم بتسفير الشيخ إلى الإسكندرية وحده]

وخرج من «باب سعادة»[1] وركبنا في البحر إلى ذلك البرّ، فلقيَنا أميرٌ يقال له «بدر الدين طبر» أمير عشرة مقدم مائة. فمنعنا من السفر مع الشيخ.

وقال: ما معي مرسوم أن يجيء أحد مع الشيخ.

فقال الشيخ: يا إبراهيم[2] انزل إلى الشام وقل لأصحابنا: وحق القرآن ـ ثلاث مرات ـ ما بقيت هذه المحنة تبطىء، وتنفرج قريباً فوق ما في النفوس.

ويقلب الله مملكة بيبرس أسفلها أعلاها.

وليجعلنّ الله أعزّ من فيها أذلّ مَنْ فيها.

---

(١) من أبواب القاهرة من جهتها الغربية، وانظر «الخطط» (٢ / ٣٧٣).

(٢) أي: الغياني خادمه.



[الإشاعة بتغريق الشيخ بالبحر ولعن الناس لهم وإبرار أقسامه بزوال دولة الجاشنكير]

فلمّا رجعنا بعد أن ودّعناه[1] انكسر في تلك الليلة البحر ونقص الماء، وغلا الخبز وغيره وما بقي شيء يلتقى وبقيت الناس تلعنهم.

ويقولون: غرّقوا ابن تيميّة في البحر ما بقي يطلع! فطلع جماعة من أكابر الإسكندرية وصلحائها التقوا الشيخ.

وقعد في البرج الأخضر[2] حتى طلع السلطان الناصر من الكرك[3]، وهرب بيبرس من السلطنة، وسير بطلبه[4] مكرّماً. اهـ.

[وصول الخبر إلى الشام بنقله إلى الإسكندرية وخوف الناس عليه]

قال الحافظ ابن كثير: كان دخوله إلى الإسكندريّة يوم الأحد وبعد عشرة أيّام وصل خبره إلى دمشق فحصل عليه تألُّم وخافوا عليه غائلة «الجاشنكير» وشيخه «المنبجي» فتضاعف له الدعاء، وذلك أنهم لم يمكِّنوا أحداً من أصحابه أن يخرج معه إلى الإسكندرية، فضاقت له الصدور وذلك أنّه تمكن منه عدوه نصر المنبجي[5].

---

(١) قال ابن كثير في «تاريخه» (١٤ / ٥١) وفي ليلة سلخ صفر ـ ٧٠٩هـ ـ توجه الشيخ تقي الدين ابن تيمية من القاهرة إلى الإسكندرية صحبة أمير مقدم.

(٢) فأدخله دار السلطان وأنزله في برج منها فسيح متسع الأكناف، فكان الناس يدخلون عليه ويشتغلون في سائر العلوم، ثم كان بعد ذلك يحضر الجماعات ويعمل المواعيد على عادته في الجامع. اهـ. المرجع السابق.

(٣) سيأتي بيانه.

(٤) أي: شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٥) ذلك أن ركن الدين بيبرس الجاشنكير بويع في السلطنة سنة ٧٠٨هـ بعد اجتماع أعيان=

[سبب عداوة الجاشنكير والمنبجي لابن تيمية]

وكان سبب عداوته له أنّ الشيخ تقي الدين كان ينال من الجاشنكير ومن شيخه نصر المنبجي، ويقول: زالت أيّامه وانتهت رياسته وقرب انقضاء أجله، ويتكلم فيهما وفي ابن عربي وأتباعه.

[نفيه إلى الإسكندرية لتهيئة ظروف اغتياله]

فأرادوا أن يُسيِّروه إلى الإسكندرية كهيئة المنفي لعلّ أحداً من أهلها يتجاسر عليه فيقتله غيلة. فما زاد ذلك الناس إلاّ محبّةً فيه وقرباً منه وانتفاعاً به واشتغالاً عليه وحنوّاً وكرامةً له.

وجاء كتاب من أخيه[1] يقول فيه: إنّ الأخ الكريم قد نزل بالثغر المحروس على نيّة الرباط، فإنَّ أعداء الله قصدوا بذلك أموراً يكيدونه بها ويكيدون الإسلام وأهله، وكانت تلك كرامةً في حقنا وظنوا أن ذلك يؤدي إلى هلاك الشيخ، فانقلبت مقاصدهم الخبيثة وانعكست من كل الوجوه وأصبحوا وأمسوا وما زالوا عند الله وعند الناس العارفين سود الوجوه، يتقطعون حسرات وندماً على ما فعلوا. وانقلب أهل الثغر[2] أجمعين

= الدولة من الأمراء وغيرهم وبايعوه وخاطبوه بالملك المظفر وركب إلى القلعة ومشوا بين يديه وجلس على سرير المملكة بالقلعة، ودُقت البشائر وسارت البريدية بذلك إلى سائر البلدان. وكان هذا يتغالى في محبة شيخه نصر المنبجي عدو شيخ الإسلام، انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٥٠).

(١) من الإسكندرية كتبه الإمام المجاهد شرف الدين أبو محمد عبد الله بن عبد الحليم الحراني لأخيه من أُمه الإمام المجاهد بدر الدين قاسم بن محمد بن خالد في الشام يطمئنه على شيخ الإسلام وجماعته وسير الدعوة في الإسكندرية وقلب مؤامراتهم وفضحها.

(٢) يقصد بالثغر الإسكندرية.

إلى الأخ مقبلين عليه مكرمين له. وفي كلِّ وقت ينشر من كتاب الله وسنّة رسوله ما تقرُّ به أعين المؤمنين، وذلك شجى في حلوق الأعداء.

[حركة تيماوية إصلاحية كبيرة بالإسكندرية]

واتفق أنّه وجد بالإسكندريّة إبليس قد باض فيها وفرّخ وأضلّ بها فرق السبعينية والعربيّة[1]، فمزق الله بقدومه عليهم شملهم وشتت جموعهم شذر مذر، وهتك أستارهم وفضحهم.

واستتاب جماعة كثيرة منهم وتوّب رئيساً من رؤسائهم، واستقر عند عامة المؤمنين وخواصِّهم من أميرٍ وقاضٍ وفقيه ومفتٍ وشيخ وجماعة المجتهدين إلاّ مَنْ شذّ من الأغمار الجهّال مع الذلة والصّغار محبة الشيخ وتعظيمه وقبول كلامه والرجوع إلى أمره ونهيه.

فعلت كلمة الله بها على أعداء الله ورسوله، ولُعِنوا سِراً وجهراً وباطناً وظاهراً في مجامع الناس بأسمائهم الخاصة بهم وصار ذلك عند نصر المنبجي المقيم المقعد ونزل به من الخوف والذل ما لا يعبّر عنه. وذكر كلاماً كثيراً[2]. اهـ[3].

[شيخ الإسلام يعرف جماعته حاله
وهو في سجن الإسكندرية ويتشوقهم]

قال: والذي أعرف به الجماعة أحسن الله إليهم في الدنيا وفي الآخرة. وأتم عليهم نعمته الظاهرة والباطنة، فإني ـ والله العظيم الذي لا

---

(١) نسبة إلى أتباع ابن سبعين وابن عربي وقد تقدم التعريف بهما وبطريقتهما الفاسدة.
(٢) انظر الكتاب كاملاً في «العقود» (ص: ٢٧٢ ـ ٢٧٧).
(٣) «البداية والنهاية» (١٤ / ٥٢).

إله إلا هو ـ في نعم من الله ما رأيت مثلها في عمري كله.

وقد فتح الله سبحانه وتعالى من أبواب فضله ونعمته وخزائن جوده ورحمته ما لم يكن بالبال ولا يدور في الخيال. ما يصل الطرف إليها، يسرها الله تعالى حتى صارت مقاعد، وهذا يعرف بعضها بالذوق من له نصيب من معرفة الله وتوحيده وحقائق الإيمان وما هو مطلوب الأولين والآخرين من العلم والإيمان . . . وفي الجملة: ما يبين نعم الله التي أنعم بها عليّ وأنا في هذا المكان أعظم قدراً وأكثر عدداً ما لا يمكن حصره. . . . .

وأكثر ما ينقص عليَّ الجماعة، فأنا أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ما تقر به أعينهم وأن يفتح لهم من معرفة الله وطاعته والجهاد في سبيله ما يصلون به إلى أعلى الدرجات. . .

والمقصود إخبار الجماعة بأن نعم الله علينا فوق ما كانت بكثير كثير ونحن نحمد الله في زيادة من نعم الله، وإن لم يمكن خدمة الجماعة باللقاء، فأنا داعٍ لهم بالليل والنهار قياماً ببعض الواجب من حقهم وتقرباً إلى الله تعالى في معاملته فيهم. والذي آمر به كل شخص منهم أن يتقيَ الله ويعمل لله مستعيناً بالله، مجاهداً في سبيل الله ويقصد بذلك أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، ويكون دعاؤه وغيره بحسب ذلك كما أمر الله به ورسوله[1]. اهـ مختصراً.

---

(١) رسالة من شيخ الإسلام إلى جماعته وهو في حبس الإسكندرية يعرفهم سعادة نفسه وقلبه وعلو همته ويدعوهم فيها إلى الخشوع وعدم الخوف إلا من الله تعالى ويأمرهم بالتقوى والجهاد في سبيل الله ويتشوق فيها إلى إخوانه، انظرها كاملة في «مجموع الفتاوى» (٢٨ / ٣٠ـ٤٦).

[مدة اعتقاله بثغر الإسكندرية]

قال الحافظ ابن كثير: والمقصود أنّ الشيخ تقي الدين أقام بثغر الإسكندرية ثمانية أشهر مقيماً ببرج متّسع مليح نظيف، له شباكان أحدهما إلى جهة البحر والآخر إلى جهة المدينة.

وكان يدخل عليه مَن شاء ويتردد إليه الأكابر والأعيان، والفقهاء يقرؤون عليه ويستفيدون منه، وهو في أطيب عيشٍ وأشرح صدر.

[عزل المنتمين لابن تيمية عن الوظائف]

عزل[١] الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني[٢] عن نظر المارستان[٣] بسبب انتمائه[٤] إلى ابن تيمية بإشارة المنبجي[٥]. وباشره شمس الدين عبد القادر بن الخطيري.

[كتابة محضر بقاضي القضاة عدو الشيخ من قبل الصوفية بأمور قادحة في الدين والرسم بعزله جزاء وفاقاً]

باشر قاضي القضاة[٦] ابن جماعة «مشيخة سعيد السعداء» بالقاهرة

---

(١) في آخر ربيع الأول (سنة ٧٠٩هـ)، وكان قد طلب إلى القاهرة في العشرين من ربيع الآخر (سنة ٧٠٦هـ). وفي «البداية والنهاية»: ووصل مع البريدي كتاب فيه طلب الشيخ كمال الدين بن الزملكاني إلى القاهرة، فتوهم من ذلك وخاف أصحابه عليه بسبب انتسابه إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية، فتلطف به نائب السلطنة، وداری عنه حتى أعفي من الحضور إلى مصر، ولله الحمد. اهـ. (١٤ / ٤٣).

(٢) قاضي القضاة كمال الدين محمد بن علي بن عبد الواحد الزملكاني (ت٧٢٧هـ).

(٣) أي: المستشفى.

(٤) قبل أن ينحرف عنه.

(٥) تقدم التعريف به مراراً.

(٦) في جمادى الآخرة سنة ٧٠٩هـ.

بطلب الصوفية له، ورضوا منه بالحضور عندهم في الجمعة مرة واحدة، وعزل عنها الشيخ كريم الدين الأيكي[1] لأنه عزل منها الشهود، فثاروا عليه وكتبوا في حقه محاضر بأشياء قادحة في الدين، فرسم بصرفه عنهم، وعومل بنظير ما كان يعامل به الناس، ومن جملة ذلك قيامه على شيخ الإسلام ابن تيمية وافتراؤه عليه الكذب، مع جهله وقلة ورعه، فعجل الله له هذا الخزي على يدي أصحابه وأصدقائه جزاءً وفاقاً.

ونزل الشيخ إلى القاهرة وسكن بالقرب من «مشهد الحسين»[2] والناس يترددون إليه والأمراء والجند وكثير من الفقهاء والقضاة منهم من يعتذر إليه ويتنصّل ممّا وقع منه.

فقال: أنا حللتُ كلّ من آذاني.

[طلب السلطان شيخ الإسلام من الإسكندرية إلى القاهرة معززا بعد الإطاحة بسلطنة الجاشنكير]

قال الشيخ علم الدين البرزالي: «ولمّا دخل السلطان[3] إلى مصر يوم

(١) سبق التعريف به.

(٢) انظر التعريف به في «الخطط» (٢ / ٤٢٧ ـ ٢٢٨)، ويُنسب إلى الحسين اختلاقاً وكذباً، ولشيخ الإسلام جوابٌ بشأنه، انظر في «المجموع» (٢٧ / ٤٥١).

(٣) السلطان الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون بن عبد الله الصَّالحي كان قد ولي السلطنة ثلاث مرات.
الأولى: (سنة ٦٩٣هـ) بعد موت أخيه السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل وكان عمره إذ ذاك تسع سنوات ثم خلع على يدي الأمير زين الدين كبتغا بعد سنة تنتقص ثلاثة أيام.
الثانية: أعيد إلى السلطنة (سنة: ٦٩٨هـ) ثم سار كأنه يريد الحج فمضى إلى الكرك وانخلع من السلطنة وكانت مدته تسع سنوات وستة أشهر وثلاثة عشر يوماً.
الثالثة: أعيد إلى السلطنة (سنة: ٧٠٩هـ) فاستبد بالأمر حتى مات (سنة ٧٤١هـ) وكانت=

عيد الفطر لم يكن له دأب إلاّ طلب الشيخ تقي الدين بن تيمية من الإسكندرية معززاً مكرماً مبجّلاً.

فوجّه إليه في ثاني يوم من شوّال بعد وصوله بيوم أو يومين. فقدم الشيخ تقي الدين على السلطان في يوم ثامن الشهر، وخرج مع الشيخ خلق من الإسكندرية يودّعونه[1].

واجتمع بالسلطان يوم الجمعة فأكرمه وتلقّاه ومشى إليه في مجلس حفل فيه قضاة المصريين والشاميين وأصلح بينه وبينهم.

[مجريات اجتماع شيخ الإسلام بالسلطان]

قال الحافظ ابن كثير: وقد أخبرني القاضي جمال الدين القلانسي[2] بتفاصيل هذا المجلس وما وقع فيه من تعظيمه وإكرامه ممّا حصل له من الشكر والمدح من السلطان والحاضرين من الأمراء.

وكذلك أخبرني بذلك قاضي القضاة منصور الدين الحنفي[3] ولٰكن أخبار ابن القلانسي أكثر تفصيلاً وذلك أنّه كان إذ ذاك قاضي العساكر وكلاهما كان حاضراً هذا المجلس.

= مدته (الثالثة) اثنتين وثلاثين سنة وشهرين وخمسة وعشرين يوماً. اهـ «الخطط» (٢ / ٢٣٩) وانظر «الدرر الكامنة» (٤ / ١٤٤ ـ ١٤٨) وانظر صفة عودته إلى الملك وزوال دولة الجاشنكير بيبرس وخذلانه وخذلان شيخه نصر المنبجي الاتحادي الحلولي في «البداية والنهاية» (١٤ / ٥٣ ـ ٥٨).

(١) وفي «الكواكب الدرية» (ص: ١٣٥)، ويسألون الله أن يرده إليهم وكان وقتاً مشهوداً. اهـ.

(٢) قاضي العساكر ووكيل بيت المال ومدرس الأمينية وغيرها، (ت ٧٣١هـ). انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ١٦٣ ـ ١٦٤)، و«شذرات الذهب» (٨ / ١٦٦ / ١٦٧.

(٣) مضى التعريف به.

ذكر لي أنّ السلطان لمّا قدم عليه الشيخ تقي الدين ابن تيميّة نهض قائماً للشيخ أول ما رآه ومشى له إلى طرف الإيوان واعتنقا هناك هنيهة، ثم أخذه معه ساعة إلى طبقةٍ فيها شباك إلى بستان، فجلسا ساعةً يتحدثان.

ثمّ جاء ويد الشيخ في يد السلطان فجلس السلطان وعن يمينه ابن جماعة[1] قاضي مصر وعن يساره ابن الخليلي[2] الوزير وتحته ابن صَصْرَى ثم صدر الدين علي الحنفي[3].

وجلس الشيخ تقيّ الدين بين يديّ السلطان على طرف طرّاحته[4]. اهـ.

وفي «العقود الدرية» فشرع السلطان يثني على الشيخ عند الأمراء والقضاة بثناء ما سمعته من غيره قط. وقال كلاماً كثيراً، والناس تقول معه، ومثله القضاة والأمراء وكان وقتاً عجيباً وذلك مما يسوء كثيراً من الحاضرين من أبناء جنسه.

وقال في الشيخ من الثناء والمبالغة ما لا يقدر أحد من أخص أصحابه أن يقوله[5]. اهـ.

---

(١) مضى التعريف به.

(٢) هو الصاحب فخر الدين عمر بن عبد العزيز بن الحسن الخليلي (ت ٧١١هـ) «النجوم الزاهرة» (٩ / ٢٢٠).

(٣) الصدر علي قاضي الحنفية. «الكواكب الدرية» (١٣٦).

(٤) انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٥٢ ـ ٥٦).

(٥) (ص: ٢٨٠ ـ ٢٨١).

[جواب استفتاء في أهل الذمة

وتكلم ابن تيمية مع السلطان بكلام غليظ ورده على وزيره رداً عنيفاً

بعد وجوم كبار العلماء عن الجواب]

قال الحافظ ابن كثير: وتكلم الوزير في إعادة أهل الذمّة إلى لبس العمائم البيض بالعلائم وأنهم قد التزموا للديوان بسبع مائة ألف في كل سنة زيادة على الحالية[1]. فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام وكبار العلماء من أهل مصر والشام من جملتهم ابن الزملكاني.

قال ابن القلانسي: وأنا في مجلس السلطان إلى جنب ابن الزملكاني فلم يتكلم أحدٌ من العلماء ولا من القضاة.

فقال لهم السلطان: ما تقولون؟ يستفتيهم في ذلك فلم يتكلم أحد، فجثا الشيخ تقي الدين على ركبتيه وتكلم مع السلطان في ذلك بكلام غليظ وردّ على الوزير ما قاله ردّاً عنيفاً، وجعل يرفع صوته والسلطان يتلافاه ويُسكته بترفق وتؤدة وتوقير، وبالغ الشيخ في الكلام وقال ما لا يستطيع أحد أن يقول بمثله ولا بقريبٍ منه، وبالغ في التشنيع على مَن يوافق في ذلك.

وقال للسلطان: حاشاك أن يكون أول مجلس جلسته في أبهة الملك تنصر فيه أهل الذمّة لأجل حطام الدنيا الفانية، فاذكر نعمة الله عليك إذ رد ملكك إليك وكبت عدوك ونصرك على أعدائك.

---

(١) في «العقود الدرية»: ... على أن يعودوا إلى لبس العمائم البيض المعلمة بالحمرة والصفرة والزرقة، وأن يُعْفَوْا من هذه العمائم المصبغة كلها بهذه الألوان. (ص: ٢٨١).

فذكر أن الجاشنكير هو الذي جدّد عليهم ذلك.

فقال: والذي فعله الجاشنكير كان من مراسيمك لأنّه إنّما كان نائباً لك، فأعجب السلطان ذلك واستمر بهم على ذلك[1].

وجرت فصول يطول ذكرها. وقد كان السلطان أعلم بالشيخ من جميع الحاضرين [بعلمه ودينه][2] وقيامه بالحق وشجاعته.

[تصريح شيخ الإسلام بكلام عظيم وخطير جرى بينه وبين السلطان]

وسمعت الشيخ تقي الدين يذكر ما كان بينه وبين السلطان من الكلام لما انفردا في ذلك الشبّاك الذي جلسا فيه.

وأنّ السلطان استفتى الشيخ في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلّموا فيه، وأخرج[3] له فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشنكير وأنهم قاموا عليك، وآذوك أنت أيضاً وأخذ يحثُّه بذلك على أن يُفتيه في قتل بعضهم وإنما كان حنقه عليهم بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله ومبايعة الجاشنكير.

ففهم الشيخ مراد السلطان فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء وينكر أن ينال أحداً منهم بسوء، وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم.

فقال له: أنّهم قد آذوْك وأرادوا قتلك مراراً.

فقال الشيخ: من آذاني فهو في حِلٍّ، ومِنْ آذى الله ورسوله فالله

---

(١) في «العقود الدرية»: . . . فهذه من حسنات الشيخ تقي الدين رحمه الله ورضي الله عنه آمين. (ص: ٢٨١).

(٢) المرجع السابق (ص: ٢٧٩).

(٣) وفيه: . . . وأخرج من جيبه فتاوى لبعض الحاضرين. (ص: ٢٨٢).

ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح.

[بليغ ثناء قاضي المالكية على شيخ الإسلام]

قال: وكان قاضي المالكيّة ابن مخلوف يقول: ما رأينا مثلَ ابن تيميّة حرّضنا عليه فلم نقدِر عليه وقدر علينا فصفح عنّا وحاجج عنّا.

[نزوله القاهرة للدعوة واعتذار الناس إليه وجعله كل من عاداه في حل]

ثمّ إنّ الشيخ بعد اجتماعه بالسلطان نزل إلى القاهرة وعاد إلى بث العلم ونشره وأقبلت الخلق عليه ورحلوا إليه يشتغلون عليه ويستفتونه ويجيبهم بالكتابة والقول.

وجاء الفقهاء يعتذرون ممّا وقع منهم في حقّه.

فقال: قد جعلتُ الكلّ في حِلّ.

[إرساله كتاباً إلى دمشق يتضمن طلبه كتباً وأخباراً سارة بنجاح الدعوة وترغيم المبطلين]

وبعث الشيخ كتاباً إلى أهله[1] يذكر ما هو فيه من نعم الله وخيره الكثير ويطلب منهم جملة من كتب العلم[2] التي له ويستعينوا على ذلك

---

(١) بدمشق.

(٢) قال شيخ الإسلام: وقد أرسلت إليكم كتاباً أطلب ما صنفته في أمر الكنائس وهي كراريس بخطي وترسلون أيضاً من تعليق القاضي أبي يعلى الذي بخط القاضي أبي الحسين إن أمكن الجميع وهو أحد عشر مجلداً وإلا فمن أوله مجلد أو مجلدين أو ثلاثة وذكر كتباً يطلبها منهم. اهـ. «العقود الدرية» (ص: ٢٨٥).

بجمال الدين المِزِّي[1] فإنّه يدري كيف يستخرج له ما يريده من الكتب التي أشار إليها.

وقال في هذا الكتاب[2]: والحق كل ما له في علوٍّ وازدياد وانتصار والباطل في انخفاض وسفول واضمحلال، وقد أذلَّ الله رقاب الخصوم وطلب أكابرهم من السلم ما يطول وصفه.

وقد اشترطنا عليهم من الشروط ما فيه عِزُّ الإسلام والسنّة وما فيه قمع الباطل والبدعة، وقد دخلوا تحت ذلك كله وامتنعنا من قبول ذلك منهم حتى يظهر إلى الفعل، فلم نثق لهم بقول ولا عهد ولم نجبهم إلى مطلوبهم حتى يصير المشروط معمولاً والمذكور مفعولاً ويظهر من عز الإسلام والسنة للخاصّة والعامة ما يكون من الحسنات التي تمحو سيّئاتهم.

وذكر كلاماً طويلاً يتضمّن ما جرى له مع السلطان[3] في قمع اليهود والنصارى وذلّهم وتركهم على ما هم عليه من الذلّة والصغار، والله سبحانه أعلم[4]. اهـ.

[انقطاع الشيخ عن السلطان]

قال إسلام العبادي: وقد تقدم نزول شيخ الإسلام القاهرة وسكناه بالقرب من «مشهد الحسين» وعودته إلى نشاطه الدعوي الإصلاحي العظيم بهمة علية ونفس رضية وما زال يحلل المعتذرين من إساءتهم إليه.

---

(١) تقدم التعريف به.

(٢) انظره كاملاً في «العقود الدرية» (ص: ٢٨٤ ـ ٢٨٥).

(٣) تقدم بيان ذلك قبل قليل.

(٤) «البداية والنهاية» (١٤ / ٥٦ ـ ٥٧).

قال الذهبي[1]: ولم يكن الشيخ من رجال الدولة ولا يسلك معهم تلك النواميس فلم يعد السلطان يجتمع به، وعاد إلى بث العلم ونشره، والخلق يشتغلون عليه ويقرؤون ويستفتونه ويجيبهم بالكلام والكتابة، والأمراء والأكابر والناس يترددون إليه ـ وفيهم من يعتذر إليه مما وقع ـ فقال: قد جعلت الكلّ في حل مما جرى. اهـ.

[قاضي قضاة الحنفية يقول للحافظ البرزالي: أتحب ابن تيمية؟]

قال الحافظ البرزالي: وصل جماعة ممّن كان قد سافر مع السلطان إلى مصر في ذي القعدة[2] منهم قاضي قضاة الحنفيّة صدر الدين ومحيي الدين بن فضل الله، وغيرهما.

فقمتُ وجلستُ يوماً إلى القاضي صدر الدين الحنفي بعد مجيئه من مصر، فقال لي: أَتحب ابن تيميّة؟

قلت: نعم.

فقال لي وهو يضحك: والله لقد أحببت شيئاً مليحاً، وذكر لي قريباً ممّا ذكر ابن القلانسي، لكنّ سياق ابن القلانسي أتمّ[3]. اهـ.

[إشارته على السلطان بعزل وسجن والي دمشق المستبد]

استبدّ أحد الحكام الظالمين[4] بأهالي دمشق وظلمهم وفرض عليهم أموالاً كثيرة ولم يجدِ اعتراض العلماء بل أهانهم وضرب بعضهم.

---

(١) «الكواكب الدرية» (ص: ١٣٨).

(٢) (سنة ٧٠٩هـ).

(٣) «البداية والنهاية» (١٤ / ٥٧).

(٤) هو الأمير سيف الدين كراي (سنة ٧١١هـ)، وانظر صفة الإطاحة به وإمساكه في «البداية والنهاية» (١٤ / ٦٤).

وبلغ ذلك ابن تيميّة فتقدم للسلطان بشكواهم وبإشارته عزل الوالي المستبدّ وحبسه[1]. اهـ.

[انتقال نائب دمشق إلى نيابة طرابلس بإشارة الشيخ]

وقد انتقل الأفرم[2] إلى نيابة طرابلس[3] بإشارة ابن تيمية على السلطان بذلك[4].

[إصلاحات اجتماعية سببها ابن تيمية]

وفيها[5] قدم كتاب من السلطان إلى دمشق أن لا يولّى أحد بمال ولا برشوة فإنّ ذلك يُفضي إلى ولاية من لا يستحق الولاية وإلى ولاية غير الأهل.

فقرأه ابن الزملكاني على السدة وبلَّغه عنه ابن حبيب المؤذن، وكان سبب ذلك الشيخ تقي الدين ابن تيميّة ـ رحمه الله ـ[6].

[إقامة الحدود شأن الدولة]

وفي رمضان[7] جاء كتاب السلطان أنّ من قتل لا يجني أحد عليه بل

---

(١) «ابن تيمية» لأبي زهرة (ص: ٦٣).

(٢) نائب دمشق جمال الدين ابن الأفرم. كل هذه الإصلاحات التي بالشام سببها شيخ الإسلام وهو لا يزال بمصر ولكن الأخبار ترده تباعاً من جماعته وعموم الناس فيشير على السلطان بالرأي السديد فيرسم بذلك السلطان.

(٣) (سنة ٧١١هـ).

(٤) «البداية والنهاية» (١٤ / ٦٣).

(٥) (سنة ٧١٢هـ).

(٦) «البداية والنهاية» (١٤ / ٦٨).

(٧) (سنة ٧١٢هـ).

يتبع القاتل حتى يقتص منه بحكم الشرع الشريف.

فقرأه ابن الزملكاني على السدة بحضرة نائب السلطنة ابن تنكز[١].

وسببه ابن تيمية هو أمر بذلك وبالكتاب الأول قبله[٢]. اهـ.

[قيام جماعة من الغوغاء على الشيخ بجامع مصر وضربه وقيام أهل الحسينية وغيرهم انتصاراً للشيخ ثم صفحه هو عمن آذاه]

فلمّا كان في رابع شهر رجب من سنة إحدى عشرة وسبعمائة، جاء رجل ـ فيما بلغني ـ إلى أخيه الشيخ شرف الدين وهو في مسكنه بالقاهرة.

فقال له: إنّ جماعة «بجامع مصر»[٣] قد تعصّبوا على الشيخ وتفرّدوا به وضربوه.

فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وكان بعض أصحاب الشيخ جالساً عند شرف الدين. قال: فقمت من عنده وجئت إلى مصر فوجدت خلقاً كثيراً من «الحسينيّة»[٤] وغيرها رجالاً وفرساناً يسألون عن الشيخ. فجئت فوجدته «بمسجد الفخر» كاتب

---

(١) هو الأمير سيف الدين تنكز بن عبد الله المالكي الناصري نائب دمشق. «البداية والنهاية» (١٤ / ٦٧).

(٢) «البداية والنهاية» (١٤ / ٦٨).

(٣) هو أول مسجد أسس بديار مصر في الملة الإسلامية بعد الفتح. انظر التعريف به في «الخطط» (٢ / ٢٤٦ وما بعدها).

(٤) أي: من أهل الحسينية في المكان الذي يسكن به شيخ الإسلام بقرب «مشهد الحسين». انظر التعريف بالحارة الحسينية في «الخطط» (٢ / ٢٠ ـ ٢٢).

المماليك[1] على البحر واجتمع عنده جماعة، وتتابع الناس وقال بعضهم: يا سيِّدي، قد جاء خلقٌ كثير من الحسينيّة، ولو أمرتهم أن يهدموا مصر كلها لفعلوا.

فقال لهم الشيخ: لأي شيء؟ قال: لأجلك.

فقال لهم: هذا ما يحقّ.

فقالوا له: نحن نذهب إلى بيوت هؤلاء الذين آذوْك فنقتلهم ونخرِّب دورهم. فإنّهم شوّشوا على الخلق، وأثاروا هذه الفتنة على الناس.

فقال لهم: هذا ما يحلّ.

قالوا: فهذا الذي فعلوه معك يحل؟! هذا شيء لا نصبر عليه، ولا بدَّ أن نروح إليهم ونقاتلهم على ما فعلوا!

والشيخ ينهاهم ويزجرهم، فلمّا أكثروا في القول قال لهم: إمّا أن يكون الحق لي أو لكم أو لله. فإن كان الحق لي فهم في حلٍّ منه.

وإن كان لكم فإن لم تسمعوا مني ولا تستفتوني فافعلوا ما شئتم. وإن كان الحق لله فالله يأخذ حقه إن شاء كما شاء.

قالوا: فهذا الذي فعلوه معك هو حلالٌ لهم؟

قال: هذا الذي فعلوه قد يكونون مثابين عليه مأجورين فيه.

قالوا: فتكون أنت على الباطل وهم على الحق؟ فإذا كنت تقول: إنهم مأجورين فاسمع منهم ووافقهم على قولهم!

---

(١) نسبة إلى محمد بن فضل الله القاضي فخر الدين ناظر الجيش المعروف بالفخر (ت ٧٣٢هـ)، انظر «الخطط» (٢ / ٣١١).

فقال لهم: ما الأمر كما تزعمون، فإنهم قد يكونون مجتهدين مخطئين، ففعلوا ذلك باجتهادهم، والمجتهد المخطئ له أجر.

فلمّا قال لهم ذلك: قالوا: فقُم واركبْ معنا، حتى نجيء إلى القاهرة.

فقال: لا. وسأل عن وقت العصر فقيل له: إنه قريب. فقام قاصداً إلى الجامع لصلاة العصر. فقيل له: يا سيدي قد تواصوا عليك ليقتلوك، وفي الجامع قد يتمكنون منك، بخلاف غيره، فصلِّ حيث كان، فأبى إلاّ المضيَّ إلى الجامع والصلاة فيه. فخرج وتبعه خلقٌ كثير لا يرجعون عنه فضاقت الطريق بالناس، فقال له من كان قريباً منه: ادخل إلى هذا المسجد - مسجد في الطريق - واقعد فيه حتى يخفّ الناس لئلاّ يموت أحد من الزحام.

فدخل ولم يجلس فيه ووقف وأنا معه. فلمّا خفّ الناس خرج لطلب الجامع العتيق فمرّ في طريقه على قومٍ يلعبون بالشطرنج على مسطبة بعض حوانيت الحدادين. فنفض الرقعة وقلبها. فبُهِت الذي يلعب بها والناس من فعله ذلك.

ثمّ مشى قاصداً للجامع، والناس يقولون: هنا يقتلونه، الساعة يقتلونه. فلمّا وصل إلى الجامع قيل: الساعة يُغلق عليه الجامع وعلى أصحابه ويُقتلون.

فدخل الجامع ودخلنا معه، فصلّى ركعتين، فلمّا سلّم منهما أذّن المؤذِّن بالعصر، فصلّى العصر. ثم افتتح بقراءة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1]. ثم تكلم في المسألة التي كانت الفتنة بسببها إلى أذان المغرب.

---

(١) سورة الفاتحة: [٢].



[أتباع خصومه يغلّطون أنفسهم لقيامهم عليه]

فخرج أتباع خصومه وهم يقولون: والله لقد كنّا غالطين في هذا الرجل لقيامنا عليه. والله إنّ الذي يقوله هذا هو الحق، لو تكلّم هذا بغير الحق لم نمهله إلى أن يسكت، بل كنّا نبادِر إلى قتله، ولو كان هذا يُبطن خلاف ما يُظهر لم يَخْفَ علينا. وصاروا فرقتيْن يخاصم بعضهم بعضاً.

قال: ورُحْنا مع الشيخ إلى بيت ابن عمه على البحر فبتنا عنده[1]. اهـ.

[واقعة أخرى في أذى الشيخ بمصر]

قال الشيخ علم الدين[2]: وفي العشر الأوسط من رجب من سنة إحدى عشرة وسبعمائة، وقع أذىً في حق الشيخ تقي الدين بمصر، وظفر به بعض المبغضين له[3] في مكانٍ خال، وأساء عليه الأدب، وحضر جماعة كثيرة من الجند وغيرهم إلى الشيخ بعد ذلك لأجل الانتصار له. فلم يُجب إلى ذلك.

وكتب إلى «المقاتلي» يذكر أنّ ذلك وقع من فقيه مصر، يُعرَف

---

(١) «العقود الدرية» (ص: ٢٨٥ ـ ٢٨٩).

(٢) البرزالي.

(٣) هو الشيخ علي بن يعقوب بن جبريل البكري المصري (ت ٧٢٤هـ)، وكانت جنازته مشهورة غير مشهودة وقد كان من جملة من ينكر على شيخ الإسلام ابن تيمية.
وما مثاله إلا مثال ساقية ضعيفة كدرة لاطمت بحراً عظيماً صافياً، أو رملة أرادت زوال الجبل، وقد أضحك العقلاء عليه، وكان شيخه ينكر عليه إنكاره على ابن تيمية، ويقول له أنت لا تحسن أن تتكلم. اهـ مختصراً من «البداية والنهاية» (١٤ / ١١٨ ـ ١١٩، وانظر ص: ٧٢).

«بالمبدي»[1]. حصل منه إساءَة أدب ثم بعد ذلك طلب وتودّد. وشفع فيه جماعة والشيخ ما تكلم ولا اشتكى. ولو حصل منه شكوى أهين ذلك غاية الإهانة. لٰكن قال: أنا ما أنتصر لنفسي.

وأقام الشيخ بعد هذا مدة بالديار المصريّة[2]. اهـ.

[خروج شيخ الإسلام إلى الشام بصحبة السلطان بنية الغزاة وصفة تلقي الناس شيخ الإسلام وابتهاجهم لقدومه]

قدم[3] صحبةَ السلطانِ الشيخُ العالم العلامة تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية إلى دمشق يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة وكانت غيبته عنها سبع سنين كوامل[4] ومعه أخواه وجماعة من أصحابه.

وخرج خلق كثير لتلقيه وسروا بقدومه وعافيته ورؤيته واستبشروا به حتى خرج خلق من النساء أيضاً لرؤيته[5]، وقد كان السلطان صحبه معه من مصر فخرج معه بنية الغزاة فلما تحقق عدم الغزاة وأن التتر رجعوا إلى بلادهم فارق الجيش من غزة وزار القدس وأقام به أياماً ثم سافر على عجلون وبلاد السواد وزرع ووصل دمشق في أول يوم من ذي القعدة

---

(١) قال الذهبي: استفرد بالشيخ بمصر، ووثب عليه، ونتش بأطواقه، وقال: احضر معي إلى الشرع، فلي عليك دعوى، فلما تكاثر الناس انملص، فطلب من جهة الدولة، فهرب واختفى، وذكر غيره: أنه ثار بسبب ذلك فتنة، وأراد جماعة الانتصار من البكري فلم يمكنهم الشيخ من ذلك. «الذيل على طبقات الحنابلة» (٢ / ٤٠٠).

(٢) «العقود الدرية» (ص: ٢٨٩).

(٣) خرج السلطان من مصر لأجل ملاقاة التتار وكان قدوم السلطان ودخوله دمشق ثالث عشر شوال سنة ٧١٢هـ واحتفل الناس لدخوله. ونزل القلعة وزينت البلد وضربت البشائر. اهـ. انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٦٩).

(٤) وسبع جُمَع. كما في «العقود» (ص: ٢٩٠).

(٥) وما زالت أمه على قيد الحياة.

فدخلها فوجد السلطان قد توجه إلى الحجاز الشريف في أربعين أميراً من خواصّه يوم الخميس ثاني ذي القعدة[1]. اهـ.

قال الحافظ ابن عبد الهادي: وقد توفي في أثناء غيبة الشيخ عن دمشق غير واحد من كبار أصحابه وسادتهم.[2] اهـ.

[استقراره بدمشق ومواصلة عمله الدعوي الإصلاحي الكبير]

ثم إن الشيخ بعد وصوله إلى دمشق واستقراره بها لم يزل ملازماً لاشتغال الناس في سائر العلوم ونشر العلم وتصنيف الكتب وإفتاء الناس بالكلام والكتابة المطولة والاجتهاد في الأحكام الشرعية.

ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة، وفي بعضها يفتي بخلافهم وبخلاف المشهور في مذاهبهم، وله اختيارات كثيرة ومجلدات عديدة أفتى بما أدى إليه اجتهاده واستدل على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف[3].

[استفتاء السلطان ابن تيمية عن حكم الأموال التي أخذت من الدلقندي]

كان صاحب مكة الأمير خميصة[4] بن أبي نمى الحسني، قد قصد ملك التتر خَربندا[5] لينصره على أهل مكة فساعده الروافض هنالك وجهزوا

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤ / ٦٩).

(٢) «العقود الدرية» (ص: ٢٩٠).

(٣) «البداية والنهاية» (١٤ / ٦٩).

(٤) خميصة بن أبي نمى محمد بن حسن بن علي بن قتادة بن إدريس الحسني الشريف عز الدين أمير مكة قتل سنة ٧٢٥ انظر «البدر الطالع» (١ / ٢٣٨ ـ ٢٤٠).

(٥) خَرْبَنْدا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو (ت ٧٢٠هـ). «النجوم الزاهرة» (٩ / ٢٣٨).

معه جيشاً كثيفاً من خراسان فلما مات خربندا بطل ذلك بالكلية وعاد خميصة خائباً خاسئاً وفي صحبته أمير من كبار الروافض من التتر يقال له الدلقندي وقد جمع لخميصة أموالاً كثيرة ليقيم بها الرفض في بلاد الحجاز.

فوقع بها الأمير محمد بن عيسى[1] أخو مهنا، وقد كان في بلاد التتر أيضاً ومعه جماعة من العرب فقهرهما ومن كان معهما ونهب ما كان معهما من الأموال وحضرت الرجال وبلغت أخبار ذلك إلى الدولة الإسلامية فرضي عنه الملك الناصر وأهل دولته وغسل ذلك ذنبه عنده فاستدعى به السلطان إلى حضرته فحضر سامعاً مطيعاً فأكرمه نائب الشام[2] فلما وصل إلى السلطان أكرمه أيضاً.

ثم إنه استفتى الشيخ تقي الدين ابن تيمية[3] وكذلك أرسل إليه السلطان يسأله عن الأموال التي أخذت من الدلقندي.

فأفتاهم أنها تصرف في المصالح التي يعود نفعها على المسلمين لأنها كانت معدة لعناد الحق ونصرة أهل البدعة على السنة[4].

[الفتوى التي جرى بسبب الإفتاء بها محن وقلاقل]

قال الحافظ ابن عبد الهادي بن قدامة: ثم إن الشيخ ـ رحمه الله ـ بعد وصوله من مصر إلى دمشق واستقراره بها لم يزل ملازماً للاشتغال ونشر العلم وتصنيف الكتب وإفتاء الناس بالكلام والكتابة المطولة ونفع الخلق

---

(١) هو: الأمير الكبير ملك العرب (ت ٧٢٤هـ). انظر «شذرات الذهب» (٨ / ١١٨)، و«البداية والنهاية» (١٤ / ١٢٠).

(٢) هو الأمير سيف الدين تنكز بن عبد الله المالكي الناصري قتل سنة ٧٤٠هـ.

(٣) (سنة: ٧١٦هـ).

(٤) «البداية والنهاية» (١٤ / ٨٠).

والإحسان إليهم والاجتهاد في الأحكام الشرعية.

ففي بعض الأحكام يُفتي بما أدى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة، وفي بعضها قد يفتي بخلافهم أو بخلاف المشهور في مذاهبهم.

وتقدم قول الذهبي في حقه: وله الآن عدّة سنين لا يفتي بمذهب معين بل بما قام الدليل عليه عنده.

ومن اختياراته التي خالفهم[1] فيها أو خالف المشهور من أقوالهم:

ـ وقد ذكرها[2] إلى أن قال ـ:

ومن أقواله المعروفة المشهورة التي جرى بسبب الإفتاء بها مِحَنٌ وقلاقل: قوله بالتكفير في الحلف بالطلاق.

وأن الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة.

وأن الطلاق المحرم لا يقع.

وله في ذلك مصنفات ومؤلفات كثيرة[3] وقواعد وأجوبة غير ذلك مما لا ينضبط ولا ينحصر[4]. اهـ مختصراً.

---

(١) أي: الأئمة الأربعة.

(٢) وانظر أيضاً في «مجموع الفتاوى الكبرى» (٣/ ٩٥ ـ ٩٦).

(٣) انظر أسماء هذه المصنفات في «العقود الدرية» (ص: ٣٢٤ ـ ٣٢٥) و«الكواكب» (ص: ١٤٥)، وانظر بعض ما كتبه شيخ الإسلام عن هذه المسألة في «مجموع الفتاوى» كتاب «الطلاق» جـ ١٢ و«لمحة المختطف في الفرق بين الطلاق والحلف» من «الفتاوى الكبرى» جـ ٣ و«إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان» لابن القيم.

(٤) «الكواكب الدرية» (ص: ١٤١ ـ ١٤٥).

[قبوله نصيحة القاضي الحنبلي بترك الإفتاء بمسألة الطلاق]

وكان القاضي شمس الدين بن مسلم الحنبلي[1] ـ رحمه الله ـ في يوم الخميس منتصف شهر ربيع الآخر، من سنة ثمان عشرة وسبعمائة قد اجتمع بالشيخ وأشار عليه بترك الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق، فقبل الشيخ إشارته وعرف نصيحته، وأجاب إلى ذلك.

وكان قد اجتمع إلى القاضي جماعة من الكبار حتى فعل ذلك[2].

[منع شيخ الإسلام من الإفتاء بمسألة الطلاق بمرسوم والأمر بعقد مجلس لذلك]

فلمّا كان يوم السبت مستهلّ جمادى الأولى من هذه السنة، ورد البريد إلى دمشق ومعه كتاب السلطان بالمنع من الفتوى في مسألة الحلف بالطلاق، التى رآها الشيخ تقي الدين ابن تيمية وأفتى فيها، وصنّف فيها. والأمر بعقد مجلس في ذلك.

فعقد يوم الاثنين ثالث الشهر المذكور بدار السعادة، وانفصل الأمر على ما أمر به السلطان ونودي بذلك في البلد يوم الثلاثاء رابع الشهر المذكور.

---

(١) هو قاضي القضاة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مسلم بن مالك الصالحي الحنبلي (ت ٧٢٦هـ)، انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ١٣١)، و«شذرات الذهب» (٨ / ١٣٠ ـ ١٣١).

(٢) قال الحافظ ابن كثير: وكان قبل قدوم المرسوم قد اجتمع بالقاضي ابن مسلم الحنبلي جماعة من المفتين الكبار، وقالوا له أن ينصح الشيخ في ترك الإفتاء في مسألة الطلاق، فعلم الشيخ نصيحته، وأنه إنما قصد بذلك ترك ثوران فتنة وشر. اهـ. تاريخه (١٤ / ٨٩).

[عودته إلى الإفتاء بمسألة الطلاق وتأكيد المنع عليه بذلك]

ثمّ إنّ الشيخ عاد إلى الإفتاء بذلك وقال: لا يسعني كتمان العلم، فلمّا كان في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع عشرة وسبعمائة جُمع القضاة والفقهاء عند نائب السلطنة بدار السعادة وقرئ عليهم كتاب السلطان، وفيه فصل يتعلق بالشيخ بسبب الفتوى في هذه المسألة، وأُحضِر وعوتب على فتياه بعد المنع، وأكد عليه في المنع من ذلك[1]. اهـ.

وقال الحافظ الذهبي[2]: ولا هو يتفرد بمسائل بالتشهي، ولا يفتي بما اتفق، بل مسائله المفردة يحتج لها بالقرآن وبالحديث أو بالقياس، ويبرهنها ويناظر عليها، وينقل فيها الخلاف، ويطيل البحث أسوة من تقدمه من الأئمة، فإن كان أخطأ فيها فله أجر المجتهد من العلماء، وإن كان قد أصاب فله أجران، وإنما الذم والمقت لأحد رجلين: رجل أفتى في مسألة بالهوى ولم يُبدِ حُجة، ورجل تكلم في مسألة بلا خميرةٍ من علم ولا توسع في نقل، فنعوذ بالله من الهوى والجهل. اهـ.

[سجن الشيخ بسبب فتياه في الطلاق]

فلمّا كان بعد ذلك بمدة[3] في يوم الخميس الثاني والعشرين من رجب من سنة عشرين وسبعمائة، عقد مجلس بدار السعادة حضره النائب[4]

---

(١) «العقود الدرية» (ص: ٣٢٥ ـ ٣٢٦)، وانظر «البداية والنهاية» (١٤ / ٨٩).

(٢) «ثلاث تراجم نفيسة» (ص: ٢٥ ـ ٢٦)، وانظر «التاج المكلل» (ص: ٤٣٠).

(٣) تأكيد المنع عليه من الفتيا بمسألة الطلاق كان يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من رمضان سنة ٧١٩هـ. كما تقدم قبل قليل.

(٤) نائب الشام الأمير تنكز، وقد تقدم التعريف به.

والقضاة[1]، وجماعة من المفتين، وحضر الشيخ وعاودوه في الإفتاء بمسألة الطلاق، وعاتبوه على ذلك وحبسوه بالقلعة[2]، فبقي فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً[3].

ثم ورد مرسوم السلطان بإخراجه، فأخرج منها يوم الاثنين يوم عاشوراء من سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، وتوجه إلى داره.

[عودته إلى تعليم الناس وإلقاء الدروس بعد خروجه من السجن وذكر طلب الحافظ ابن عبد الهادي العلم عنده]

قال ابن عبد الهادي: ثم لم يزل بعد ذلك يعلّم الناس ويلقي الدرس بالحنبلية أحياناً، ويقرأ عليه في مدرسته بالقصاعين في أنواع من العلم.

وكنت أتردد إليه في هذه المدة أحياناً وقرأت عليه قطعة من «الأربعين» للرازي وشرحها لي وكتب لي على بعضها شيئاً، وكان يُقرأ عليه في تلك المدة من كتبه وهو يصلح فيها ويزيد ويَنقص.

ولقد حضرت معه يوماً في بستان الأمير فخر الدين بن الشمس لؤلؤ. وكان قد عمل وليمة وقرأت على الشيخ في ذلك اليوم أربعين حديثاً، وكتب بعض الجماعة أسماء الحاضرين، وأخذ الشيخ بعد ذلك في الكلام في أنواع العلوم، فبهت الحاضرون لكلامه، واشتغلوا

---

(١) أي: الأربعة.

(٢) حبس بقلعة دمشق في قاعة ومعه أخوه عبد الرحمن يؤنسه، وعزروا جماعة من أصحابه، منهم ابن القيم. انظر «شذرات الذهب» (٨ / ١٢٧).

(٣) هذه السجنة السادسة بدمشق والأولى له بعد قدومه من مصر.

بذلك عن الأكل.

وحصل في ذلك المجلس خير كثير. وكان فيه غير واحد من المشايخ، واستمر الشيخ بعد ذلك على عادته[1]. اهـ.

***

(١) باختصار يسير «العقود الدرية» (ص: ٣٢٦ ـ ٣٢٧)، وانظر «البداية والنهاية» (١٤ / ١٠٠ ـ ١٠١).



الفصل التاسع

مسألة «شد الرحال»
وذكر سجن شيخ الإسلام بقلعة دمشق
إلى أن توفي بها (٧٢٦هـ ـ ٧٢٨هـ)



[الكلام على شد الرحال إلى القبور]

قال الحافظ ابن عبد الهادي: لما كان في سنة ست وعشرين وسبعمائة وقع الكلام في مسألة شد الرحال، وإعمال المطي إلى قبور الأنبياء والصالحين. وظفروا للشيخ بجواب سؤال في ذلك. كان قد كتبه من سنين كثيرة. يتضمن حكاية قولين في المسألة وحجة كل قول منهما.

وكان للشيخ في هذه المسألة كلام متقدم[1] أقدم من الجواب المذكور بكثير. ذكره في كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» وغيره. وفيه ما هو أبلغ من هذا الجواب الذي ظفروا به.

وكثر الكلام والقيل والقال، بسبب العثور عل الجواب المذكور وعظم التشنيع على الشيخ، وحُرِّف عليه. ونُقل عنه ما لم يقله، وحصل فتنة طار شررها في الآفاق، واشتد الأمر، وخِيفَ على الشيخ من كيد القائمين في هذه القضية بالديار المصرية والشامية[2] وكثر الدعاء والتضرع والابتهال

---

(١) منذ عشرين سنة كما في «طبقات المحدثين» وفي «العقود» منذ خمس عشرة سنة، كلاهما للحافظ ابن عبد الهادي.

(٢) قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: وفي آخر الأمر دبروا عليه الحيلة في مسألة المنع من السفر إلى قبور الأنبياء والصالحين، وألزموه التنقص بالأنبياء، وذلك كفر، وأفتى بذلك طائفة من أهل الأهواء، وهم ثمانية عشر نفساً، رأسهم القاضي الأخنائي المالكي.
وأفتى قضاة مصر الأربعة بحبسه فحبس بقلعة دمشق. اهـ. «الذيل» (٢ / ٤٠١)، وانظر=

إلى الله تعالى وضعف من أصحاب الشيخ من كان عنده قوة وجبن منهم من كانت له همة.

وأما الشيخ ـ رضي الله عنه ـ فكان ثابت الجأش، قوي القلب، وظهر صدق توكله واعتماده على ربه[1]. اهـ.

[تحريف قاضي القضاة فتوى شيخ الإسلام في مسألة الزيارة]

قال الحافظ ابن كثير: وكان ابن الخطيري الحاجب قد دخل على الشيخ تقي الدين قبل هذا اليوم فاجتمع به وسأله عن أشياء بأمر نائب السلطنة[2].

ثم يوم الخميس دخل القاضي جمال الدين ابن جملة[3] وناصر الدين مشد الأوقاف وسألاه عن مضمون قوله في مسألة الزيارة.

فكتب ذلك في درج وكتب تحته قاضي الشافعية بدمشق: قابلت عن هذا السؤال المكتوب على خط ابن تيمية إلى أن قال: وإنما المحَزُّ جعله زيارة قبر النبي ﷺ وقبور الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصية بالإجماع مقطوعاً بها.

= كتاب «ابن تيمية» لأبي زهرة (ص: ٣٢٧ ـ ٣٢٨).

(١) «العقود الدرية» (ص: ٣٢٧ ـ ٣٢٨).

(٢) الأمير تنكز، تقدم التعريف به.

(٣) قاضي القضاة جمال الدين يوسف بن إبراهيم بن جملة الصالحي الشافعي (ت ٧٣٨هـ) ولي القضاء بدمشق نيابة واستقلالاً. قال الحافظ ابن حجر: وكان يبالغ في أذى ابن تيمية وجماعته. «الدرر الكامنة» (٤ / ٤٤٤)، وانظر «شذرات الذهب» (٨ / ٢١٠) وانظر «قضية القاضي ابن جملة» في «البداية والنهاية» (١٤ / ١٧٣ ـ ١٧٤)، وقال ابن كثير: . . . . ثم نقل إلى القلعة جزاء وفاقاً والحمد لله وحده.

فانظر الآن هذا التحريف على شيخ الإسلام فإن جوابه على هذه المسألة ليس فيها منع زيارة قبور الأنبياء والصالحين، وإنما فيه ذكر قولين في شد الرحل والسفر إلى مجرد زيارة القبور. وزيارة القبور من غير شد رحل إليها مسألة وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى.

والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل، بل يستحبها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك، ولم يتعرض إلى هذه الزيارة في هذه الوجه في الفتيا ولا قال إنها معصية ولا حكى الإجماع على المنع منها، ولا هو جاهل قول الرسول: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»[١] والله سبحانه لا يخفى عليه شيء، ولا يخفى عليه خافية: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٢]،[٣]. اهـ.

[المحنة الأخيرة في اعتقال شيخ الإسلام وإظهاره الفرح والسرور بذلك]

قال البرزالي[٤]: وفي يوم الاثنين عند العصر سادس عشر من شعبان[٥] اعتُقِل الشيخ الإمام العالم العلاّمة تقيّ الدين ابن تيميّة بقلعة دمشق. حضر إليه من جهة نائب السلطنة[٦] تنكز مشدّ الأوقاف[٧]، وابن

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (١٥٦٩ و١٥٧٢) والحديث في «صحيح مسلم» (٩٧٦) بلفظ: «فإنها تذكر الموت».

(٢) سورة الشعراء: [٢٢٧].

(٣) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٢٩).

(٤) الحافظ علم الدين البرزالي.

(٥) (سنة ٧٢٦هـ).

(٦) بدمشق، وقد سبق التعريف به.

(٧) وبعد أربعة أيام من خروج شيخ الإسلام من سجنه الأول بالشام بعد قدومه من مصر=

الخطيري أحد الحجّاب بدمشق. وأخبراه أنّ مرسوم السلطان وردَ بذلك، وأحضرا معهما مركوباً ليركبه وأظهر السرور والفرح بذلك.

وقال: أنا كنتُ منتظراً لذلك وهذا فيه خيرٌ كثير ومصلحة كبيرة. وركبوا جميعاً من داره إلى بابِ القلعة، وأخليت له قاعةٌ وأجرى إليها الماء ورسم له بالإقامة فيها وأقام معه أخوه زين الدين يخدمه بإذن السلطان. ورسم له ما يقوم بكفايته.

[سبب اعتقال شيخ الإسلام ومنعه من الفتيا مجدداً وجود فتيا له في إعمال المطي إلى زيارة قبور الأنبياء]

قال البزالي: وفي يوم الجمعة عاشر الشهر المذكور قرئ بجامع دمشق الكتاب السلطاني الوارد باعتقاله ومنعه من الفتيا وهذه الواقعة سببها فتيا وجدت بخطه في السفر وإعمال المطي إلى زيارة قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقبور الصالحين.

[سجن وتعزير جماعة من أصحاب شيخ الإسلام بعد اعتقاله الأخير]

وقال: وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر قاضي القضاة الشافعي[1] في حبس جماعة من أصحاب الشيخ تقيِّ الدين في سجن الحُكم، وذلك بمرسوم نائب السلطنة وإذنه له فيما تقتضيه الشريعة في أمرهم، وعزّر جماعة منهم على دوابَّ ونودي عليهم ثم أطلقوا سوى شمس الدين محمد

= أضيف شد الأوقاف إلى الأمير علاء الدين بن معبد إلى ما بيده من ولاية البر وعزل بدر الدين المنكورسي عن الشام!!! انظر «البداية والنهاية» (١٤ / ١٠٠).

(١) جلال الدين القزويني قاضي القضاة بالشام (ت ٧٣٩هـ) انظر «رفع الإصر» رقم: ١٩٥.

ابن قيِّم الجوزية[1]، فإنّه حُبِسَ بالقلعة وسكنت القضية[2].

[صفة سجنه بقلعة دمشق]

أخليت له قاعة حسنة، وأجري إليها الماء، وأقام فيها ومعه أخوه يخدمه، وأقبل في هذه المدة على العبادة والتلاوة وتصنيف الكتب والرد على المخالفين وكتب على تفسير القرآن العظيم جملة كبيرة تشتمل على نفائس جليلة ونكت دقيقة، ومعان لطيفة وأوضح مواضع كثيرة أشكلت على خلق من المفسرين.

وكتب في المسألة التي حبس بسببها مجلدات عدة[3] وظهر بعض ما

---

(١) تقدم التعريف به. قال ابن رجب الحنبلي في «الذيل» (٢ / ٤٤٨): وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة، منفرداً عنه، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ.

(٢) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٢٧ ـ ١٢٨). وقد بين شيخ الإسلام بطلان ما كتبه القضاة الأربعة على نسخة جواب الفتيا فقال: وإن الحكم به باطل بإجماع المسلمين من وجوه كثيرة قد بسطت في غير هذا الموضع. وهي خمسون وجهاً تبين بطلان ما كتب به وبطلان الحكم به، وانظرها في «مجموع الفتاوى» (٢٧ / ٢٩٠ ـ ٣١٣).

(٣) منها «الجواب الباهر في زوار المقابر» كتبه جواباً لطلب السلطان عما أفتى به في الزيارة وبيان المقصود بما كتبه، وفيه إنكار الخط المنسوب إليه وأن خطه موجود بما أفتى به وفيه التحدي وأن يعرض كلامه على من ينسب إلى العلم شرقاً وغرباً وأن الذي كتبه حق ظاهر مثل الشمس.

وفيه أيضاً التصريح بتحريف كلامه وأنه لم ينه أحداً عن السفر إلى مسجده ﷺ وإن كان المسافر إلى مسجده يزور قبره ﷺ بل هذا من أفضل الأعمال الصالحة ولا في شيء من كلامه وكلام غيره ينهى عن ذلك، ولا نهى عن المشروع في زيارة قبور الأنبياء والصالحين ولا عن المشروع في زيارة القبور بل قد ذكر في غير موضع استحباب زيارة القبور. انظر الجواب في «مجموع الفتاوى» (٢٧ / ٣١٤ ـ ٤٤٣)، وقد طبعت مفردة أكثر من مرة.

كتبه واشتهر[1]. اهـ.

[برهان الدين الزرعي يدرس بدل شيخ الإسلام في الحنبلية]

وفي يوم الأربعاء عاشر ذي القعدة[2] درس بالحنبلية[3] برهان الدين أحمد بن هلال الزرعي الحنبلي[4] بدلاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية وحضر عنده القاضي الشافعي وجماعة من الفقهاء وشق ذلك على كثير من أصحاب الشيخ تقي الدين[5]. واستمر بها إلى حين وفاته[6]. اهـ.

قال الصفدي: ورأيته (يعني: برهان الدين الزرعي) يحضر دروس العلامة ابن تيمية كثيراً، ويأخذ من فوائده ما شاد به مجداً أثيلاً، يجلس منصتاً، لا يتكلف لبحثٍ ولا يتكلم، ويرى أنه يتعلَّق بأهدابه ويتعلم[7]. اهـ.

[مناشدة علماء بغداد والشام وغيرهم السلطان بالإفراج عن شيخ الإسلام والكتابة بموافقتهم للشيخ في مسألة شد الرحال إلى القبور]

الحمدُ لله ربِّ العالمين. أمّا بعد فهذه فتيا أفتى بها الشيخ الإمام تقيُّ الدين أبو العباس «أحمد بن تيميّة» ـ رضي الله عنه ـ.

---

(١) «مختصر طبقات المحدثين» (٤ / ٢٩٤ ـ ٢٩٥).
(٢) (سنة: ٧٢٦هـ).
(٣) سبق التعريف بالمدرسة الحنبلية.
(٤) الفقيه الحنبلي الأصولي المناظر الفرضي (ت ٧٤١هـ). انظر «ذيل طبقات الحنابلة» (٢ / ٤٣٤ ـ ٤٣٥).
(٥) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٢٨ ـ ١٢٩).
(٦) «شذرات الذهب» (٨ / ٢٢٧).
(٧) «أعيان العصر» (١ / ٢٥).

ثمّ بعد مدة نحو سبع عشرة سنة، أنكرها بعض الناس، وشنّع بها جماعة عند بعض ولاة الأمور، وذكرت بعبارات شنيعة: ففهم منها جماعة غير ما هي عليه.

وانضم إلى الإنكار والشناعة وتغيُّر الألفاظ أمور أوجب ذلك كله مكاتبة السلطان ـ سلطان الإسلام بمصر ـ أيَّده الله تعالى، فجمع قضاة بلده.

ثم اقتضى الرأي حبسه، فحبس بقلعة دمشق المحروسة بكتاب ورد سابع شعبان المبارك سنة ست وعشرين وسبعمائة.

وفي ذلك كله لم يحضر الشيخ المذكور بمجلس حكم، ولا وقف على خطِّه الذي أنكر، ولا ادّعي عليه شيء[1].

فكتب بعض الغرباء من بلده هذه الفُتيا، وأوقف عليها بعض علماء بغداد، فكتبوا عليها بعد تأملها، وقراءة ألفاظها.

وسُئِلَ بعض مالكية دمشق عنها، فكتبوا كذلك، وبلغنا أن بمصر من وقف عليها فوافق. ثم ذكر السؤال الذي كتب عليه أهل بغداد وذكر الفتيا،

---

(١) لقد أراد السلطان هذه المرة وبعزم اغتيال شيخ الإسلام سياسياً أولاً ثم حركياً وإسقاطه علمياً والعمل على تأبيد سجنه وذلك بتدبير الحيلة عليه بتحريك فتوى قديمة له وتحريفها عليه وإلباسها ثوب الإسلام والغيرة على الدين وذلك بعد الوشاية المتكررة عنه، والمؤكدة سعيه للخروج عليه، وذكر نشاطه المتزايد واجتماع الناس عليه مما اضطرهم إلى تعزير وحبس أعيان أصحابه لإضعاف جماعته وأتباعه من بعده.
أضف إلى ذلك معرفة السلطان بقوة شخصيته وعظيم تضحياته تجاه أمته وكثرة علومه وتلون معرفته واستحواذه على محبة الأعيان والأمراء والنواب في المملكة. وأيضاً العناء والشدة التي لاقاها السلطان في رجوعه إلى السلطنة للمرة الثالثة فلذلك ضحى السلطان به ليهنأ هو في مملكته وسلطانه آمناً.

وجواب الشيخ المذكور عليها[1] وجواب الفقهاء بعده[2].

[صورتان من الانتصار لشيخ الإسلام وإظهار الموافقة له]

أولاً: الحمد لله ربِّ العالمين، وصلواته على سيِّدنا محمد، وعلى آله الطّاهرين.

ما ذكره مولانا الإمام العالم العامل، جامع الفضائل والفوائد، بحر العلوم، ومنشأ الفضل جمال الدين، كاتب خطّه أمام خطي هذا، جمّل الله به الإسلام، وأسبغ عليه سوابغ الإنعام، أتى فيه بالحق الجليّ الواضح، وأعرض فيه عن إغضاء المشايخ.

إذ السؤال والجواب اللّذان تقدّمان، لا يخفى على ذي فطنة وعقل أنّه أتى في الجواب المطابق للسؤال بحكاية أقوال العلماء الذين تقدّموه، ولم يبق عليه في ذلك إلاّ أن يعترضهُ معترض في نقله فيبرزه له من كتب العلماء الذين حكى أقوالهم.

---

(١) انظر صورة «السؤال والجواب» من كلام شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٢٧ / ١٨٣ ـ ١٩٢)، وفي «العقود الدرية» (ص: ٣٣٠ ـ ٣٤١)، وفي «الكواكب الدرية» (ص: ١٤٩ ـ ١٥٨).

(٢) انظر أجوبة الفقهاء هؤلاء كاملة في «مجموع الفتاوى» (٢٧ / ١٩٤ ـ ٢١٣)، وفي المراجع المتقدم ذكرها وقد اقتصرت على ذكر صورتين من مناشدة السلطان بإطلاقه من معتقله ونصرتهم شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.
وقد رأى خطوط هؤلاء العلماء الحافظ ابن عبد الهادي ونقل هذه الأجوبة كلها من خط المفتين بها واقتصر هو على ذكر بعض منها في «العقود الدرية» وقال في «الصارم المنكي» (ص: ٩) «وقد علم الخاص والعام بأن هذه الفتاوى مما شاع خبره وذاع واشتهر أمرها وانتشر وهي صحيحة ثابتة متواترة عمن أفتى بها من العلماء وقد رأيت أنا وغيري خطوطهم». اهـ.

والمعترض له بالتشنيع، إمّا جاهل لا يعلم ما يقول، أو متجاهل يحمله حسده وحمية الجاهليّة على ردّ ما هو عند العلماء مقبول.

أعاذنا الله من غوائل الحسد، وعصمنا من مخائل النكد، بمحمّد وآله الطيّبين الطاهرين[1]، والحمد لله ربِّ العالمين.

كتبه الفقير إلى عفو ربّه ورِضوانه. عبد المؤمن بن عبد الحق الخطيب[2] غفر الله له وللمسلمين أجمعين[3].

ثانياً: قال[4]: ووقفتُ على كتاب ورد مع أجوبة أهل بغداد، وصورته:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه ناصر الملّة الإسلاميّة، ومُعِزّ الشريعة المحمديّة، بدوام أيام الدولة المباركة السلطانيّة، المالكيّة، الناصريّة، ألبسها الله تعالى لباس العزّ المقرون بالدّوام، وحلاها بحلية النصر المستمر بمرور اللّيالي والأيام، والصلاة والسلام على النبيّ المبعوث إلى جميع الأنام. صلى الله عليه وعلى آله البررة الكرام.

اللّهم إنّ بابك لم يزل مفتوحاً للسائلين، ورفدك ما برح مبذولاً للوافدين، من عودته مسألتك وحدك، لم يسأل أحداً سواك، ومن منحته منائح رفدك، لم يفِد على غيرك، ولم يحتمَ إلاّ بحماك. أنت الربُّ العظيم الكريم الأكرم. قصدُ باب غيرك على عبادك محرّم.

---

(١) هذا من التوسل الممنوع والمحرم شرعاً!! انظر «مجموع الفتاوى» (٢٧ / ٨٣ ـ ١٠٥).
(٢) عالم بغداد في وقته (ت ٧٣٩هـ) انظر «الدرر الكامنة» (٢ / ٤١٨).
(٣) «العقود الدرية» (ص: ٣٤٨).
(٤) الحافظ ابن عبد الهادي رحمه الله.

أنت الذي لا إلٰه غيرك، ولا معبودٌ سِواك، عزّ جارك وجلّ ثناؤك، وتقدّست أسماؤك، وعظُم بلاؤك، ولا إلٰه غيرك.

ولم تزل سُنَّتك في خلقك جارية بامتحان أوليائك وأحبابك، تفضُّلاً منك عليهم، وإحساناً من لدنك إليهم، ليزدادوا لك في جميع الحالات ذكراً، ولأنعامكَ في جميع التقلبات شكراً، ولٰكنّ أكثر النّاس لا يعلمون، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾[1].

اللهم وأنت العالم الذي لا تُعلَم، وأنت الكريم الذي لا تبخل، قد علمت يا عالم السرِّ والعلانيّة، أنّ قلوبنا لم تزل ترفع إخلاص الدعاء صادقة، وألسنتنا في حالتي السر والعلانيّة ناطقة.

أن تسعفنا بإمداد هذه الدولة المباركة الميمونة السلطانيّة النّاصريّة. بمزيد العلا والرفعة والتمكين، وأن تحقق آمالنا فيها بإعلاء الكلمة في ذلك، برفع قواعد دعائم الدين، وقمع مكايد الملحدين، لأنها الدولة التي برئت من غشيان الجنف والحيف، وسلمت من طغيان القلم والسيف.

والذي ينطوي عليه ضمائر المسلمين، ويشتمل عليه سرائر المؤمنين: أنّ السلطان الملك الناصر للدين، ممّن قال فيه رب العالمين، وإلٰه السمٰوات والأرضين: الذي بتمكينه في أرضه حصل التمكين لملوك الأرض وعظماء السلاطين في كتابه العزيز الذي يُتلى، فمن شاء فليتدبّر: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[2]، وهو ممّن مكّنه الله تعالى في الأرض تمكيناً، يقيناً

---

(١) سورة العنكبوت: [٤٣].

(٢) سورة الحج: [٤١].

لا ظنّاً، وهو ممّن يعنى بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾[1].

والذي عهده المسلمون وتعوّده المؤمنون، من المراحم الكريمة والعواطف الرحيمة، إكرام أهل الدين، وإعظام علماء المسلمين.

والذي حمل على رفع هذه الأدعية الصريحة إلى الحضرة الشريفة ـ وإن كانت لم تزل مرفوعة إلى الله سبحانه بالنيّة الصحيحة ـ قوله ـ ﷺ ـ[2]: «الدين النصيحة، قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: للّه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامّتهم». وقوله ـ ﷺ ـ[3]: «إنّما الأعمال بالنيّات». فهٰذان الحديثات مشهوران بالصحة ومستفيضان في الأمّة.

ثمّ إنّ هذا الشيخ المعظّم الجليل، والإمام المكرّم النبيل، أوحد الدهر، وفريد العصر، طراز المملكة الملكيّة، وعلم الدولة السلطانية، لو أقسم مقسِم بالله العظيم القدير: أنّ هذا الإمام الكبير، ليس له في عصره مماثل ولا نظير، لكانت يمينه برّة غنيّة عن التكفير.

وقد خلت من وجود مثله السبع الأقاليم، إلاّ هذا الإقليم، يوافق على ذلك كلُّ منصف جُبِل على الطبع السليم.

---

(١) سورة النور: [٥٥].

(٢) أخرجه مسلم (١ / ٥٥) عن تميم الداري وغيره وعلقه البخاري (١ / ١٣٧ فتح)، وانظر طرقه الأخرى في «غاية المرام» (رقم: ٣٣٢) للألباني.

(٣) أخرجه البخاري في عدة مواضع أولها (١ / ١ فتح)، ومسلم (٢ / ١٩٠٧)، وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولست بالثناء عليه أُطريه، بل لو أطنب مُطنب في مدحه والثناءِ عليه لما أتى على بعض الفضائل التي هي فيه: أحمد ابن تيميّة، درّة يتيمة يتنافس فيها، تُشترى ولا تُباع، ليس في خزائن الملوك درّة تماثلها وتؤاخيها، انقطعت عن وجودِ مثله الأطماع.

لقد أصمَّ الأسماع، وأوهى قوى المتبوعين والأتباع: سماعُ رفع أبي العباس ـ أحمد بن تيميّة ـ إلى القلاع.

وليس يقع من مثله أمرٌ ينقم منه عليه، إلاّ أنه يكون أمراً قد لبس عليه، ونسب إلى ما لا ينسب مثله إليه، والتطويل على الحضرة العالية لا يليق، إن يكن في الدنيا قطب فهو القطب على التحقيق.

وقد نصب الله السلطان أعلى الله شأنه في هذا الزمان منصب يوسف الصدِّيق، صلى الله على نبينا وعليه، لما صرف الله وجوه أهل البلاد إليه، حين أمحلت البلاد، واحتاج أهلها إلى القوت المدّخر لديه. والحاجة بالنّاس والآن إلى قوت الأرواح، المشار في ذلك الزمان إليها، لا خفاء أنها للعلوم الشريفة، والمعاني اللطيفة.

وقد كانت في بلاد المملكة السلطانية ـ حرسها الله تعالى ـ تكال إلينا جزافاً بغير أثمان، منحة عظيمة من الله للسلطان، ونعمة جسيمة إذ خصّ بلاد مملكته وإقليم دولته بما لا يوجد في غيرها من الأقاليم والبلدان. وكان قد وفد الوافدون من سائر الأمصار إلى تلك الديار.

فوجدوا صاحب صواع الملك قد رُفع إلى القلاع، ومثل هذه الميرة لا توجد في غير تلك البلاد لتشترى أو تُباع، فصادف ذلك جدب الأرض ونواحيها جدباً أعطب أهاليها، حتى صاروا من شدة حاجتهم إلى الأقوات، كالأموات.

والذي عُرض للملك بالتضييق على صاحب صواعه مع شدة الحاجة إلى غذاء الأرواح، لعله لم يتحقق عنده أنّ هذا الإمام من أكابر الأولياء وأعيان أهل الصلاح.

وهـذه نزغـة من نزغات الشيطان، قال الله سبحانه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[1].

وأمّا إزراء بعض العلماء عليه في فتواه، وجوابه عن مسألة شدِّ الرِّحال إلى القبور. فقد حمل جواب علماء هذه البلاد إلى نظرائهم من العلماء، وقرنائهم من الفضلاء.

وكلهم أفتى: أنّ الصواب في الذي به أجاب.

والظاهر بين الأنام، أنّ إكرام هذا الإمام، ومعاملته بالتبجيل والاحترام، فيه قوام الملك، ونظام الدولة وإعزاز الملّة، واستجلاب الدعاء وكبت الأعداء، وإذلال أهل البدع والأهواء، وإحياء الأمة وكشف الغمّة، ووفور الأجر، وعلو الذكر، ورفع الباس، ونفع الناس، ولسان حال المسلمين تالٍ قول الكبير المتعال: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾[2].

والبضاعة المزجاة هي هذه الأوراق، المرقومة بالأقلام، والميرة المطلوبة: هي الإفراج عن شيخ الإسلام، والذي حمل على هذا الإقدام

---

(١) سورة الإسراء: [٥٣].

(٢) سورة يوسف: [٨٨].

قوله عليه السلام[1]: «الدين النصيحة» والسلام.

وصلى الله على سيِّدنا محمد وآله الطيّبين الكِرام، وسلّم تسليماً كثيراً. هذا آخر هذا الكتاب[2]. اهـ.

[وفاة الإمام شرف الدين ابن تيمية وشيخ الإسلام يصلي عليه صلاة الجنازة من داخل المعتقل]

وفي هذه المدة التي كان الشيخ فيها بالقلعة توفي أخوه الشيخ الإمام العالم العلامة، البارع، الحافظ، الزاهد، الورع جمال الإسلام، شرف الدين أبو محمد، عبد الله[3].

توفي يوم الأربعاء الرابع عشر من جمادى الأولى من سنة سبع وعشرين وسبعمائة. وصلى عليه ظهر اليوم المذكور بجامع دمشق، وحمل إلى باب القلعة فصلى عليه مرة أخرى. وصلى عليه أخوه[4] وخلق من

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) «العقود الدرية» (ص: ٣٤٥ ـ ٣٥٩)، وقد تعرض أولئك العلماء العاملون في كتبهم المرسلة إلى السلطان إلى ذكر الآيات والأحاديث وفقهها ودلالاتها على صحة فتوى شيخ الإسلام، وأيضاً ذكر مذاهب العلماء في ذلك وأنه مسبوق إلى القول بما أفتاه.

(٣) سبقت ترجمته، وانظر في «الذيل» (٢ / ٣٨٢ ـ ٣٨٤) لابن رجب الحنبلي.

(٤) قال ابن رجب: وصلى عليه أخوه تقي الدين، وزين الدين عبد الرحمن، وهما محبوسان في القلعة، وخلق معهما من داخل القلعة. اهـ المرجع السابق.
قلت: هذا هو الظلم والخوف من السلطان على أمن دولته وسماعه دوماً وشاية المخبرين لذلك منع شيخ الإسلام الصلاة على أخيه المجاهد شرف الدين إلا من وراء جدران القلعة يسمع صوت التكبير فيصلي معهم ويحدث هذا دوماً مع كل من سار على دربه واختطى خطاه من العلماء والمصلحين والدعاة الذين فهموا الإسلام بشمولية حتى ولو كان الخروج لدقائق معدودة للصلاة على والد أو ولد أو. . !!

داخل القلعة وكان الصوت بالتكبير يبلغهما، وكثر البكاء في تلك الساعة وكان وقتاً مشهوداً، ثم صُلي عليه مرة ثالثة، ورابعة، وحمل على الرؤوس والأصابع، إلى مقبرة الصوفية، فدفن بها. وحضر جنازته جمع كثير وعالم عظيم وكثر الثناء والتأسف عليه.

وكان رحمه الله شديد الخوف والشفقة على أخيه شيخ الإسلام[1]. اهـ مختصراً.

[صفة معاملته في سجنه وكيفية قضائه وقته هناك]

وما زال الشيخ تقي الدين رحمه الله في هذه المدة معظماً مكرماً يكرمه نقيب القلعة ونائبها، إكراماً كثيراً، ويستعرضان حوائجه ويبالغان في قضائها.

وما برح في هذه المدة مكباً على العبادة والتلاوة، وتصنيف الكتب والرد على المخالفين.

وكتب على تفسير القرآن جملة كثيرة تشتمل على نفائس جليلة ونكت دقيقة، ومعان لطيفة، وبين في ذلك مواضع كثيرة أشكلت على خلق من علماء أهل التفسير.

وكتب في المسألة التي حبس بسببها عدة مجلدات منها: كتاب في الرد على «الأخنائي» قاضي المالكية[2]، ومنها كتاب كبير حافل في الرد

---

(١) «العقود الدرية» (ص: ٣٦١ ـ ٣٦٢).

(٢) وقد رد عليه شيخ الإسلام وأطاح بشبهاته. وشحن رده بفرائد الفوائد وأبان فيه عن علم جم وكشف فيه افتراء المعترض وكذبه عليه وأنه ضحل المعرفة من أجهل الناس وأسوئهم فهماً وأقلهم علماً. مما زاد في محنته وبلائه.

وقد قال في نهاية رده عليه في «الإخنائية» قبل الخاتمة: «... قد تبين أن المعترض=

على بعض قضاة الشافعية[1]، وأشياء كثيرة في هذا المعنى.

وكان ما صنفه في هذه المدة قد خرج بعضه من عنده، وكتبه بعض أصحابه[2] وظهر واشتهر[3]. اهـ.

[الباعث لابن تيمية في الرد على الأخنائي]

قال شيخ الإسلام: أرسل إليَّ بعض أصحابنا جزءاً أخبر أنه صنفه بعض القضاة[4]، قد تكلم في المسألة التي انتشر الكلام فيها، وهي السفر إلى غير المساجد الثلاثة كالسفر إلى زيارة القبور، هل هو محرم أو مباح أو مستحب؟

= وأمثاله ـ من أهل البدع والضلال والكذب والجهل وتبديل الدين وتغيير شريعة الرسل ـ هم أولى بأن يجاهدوا باليد واللسان بحسب الإمكان وأنهم فيما استحلوه من جهاد أهل العلم والسنة من جنس الخوارج المارقين، بل هم شر من أولئك . . . » (ص: ٢٠٧).

(١) بل صنَّف بعض كبار أصحابه صنف في الرد على أولئك المجوزين فانظر مثلاً «الصارم المنكي في الرد على السبكي» لتلميذه البار الحافظ ابن عبد الهادي حيث يكشف المؤامرة بوضوح ويحاججهم بالأدلة والبراهين وينتصر لما ذهب إليه شيخه من الحق الواضح في هذه المسألة.

(٢) أبو المعالي كمال الدين محمد بن علي بن الواحد الدمشقي بن الزملكاني (ت ٧٢٧هـ).

(٣) «الكوكب الدرية» (ص: ١٧٢ ـ ١٧٣)، وانظر «العقود» (ص: ٣٦٣).

(٤) هو تقي الدين المالكي محمد بن أبي بكر عيسى الأخنائي (ت ٧٥٠هـ)، ولم يكن يريد شيخ الإسلام تعيينه بالرد بل كان يريد أن يسلك معه طريق النبي ﷺ: («ما بال رجال يقولون أو يفعلون كذا» فيذم ذلك ويحذر عن ذلك النوع وليس مقصوده إيذاء شخص معين كما قال.

ولكن لما كان هذا صنَّف مصنفاً وأظهره وشهره لم يكن بد من حكاية ألفاظه والرد عليه وعلى من هو مثله ممن ينتسب إلى علم ودين ويتكلم في هذه المسألة بما يناقض دين المسلمين حيث يجعل ما بعث الله به رسوله كفراً، وهذا رأس هؤلاء المبدلين فالرد عليه رد عليهم). اهـ. من كلام الشيخ في «الرد على الأخنائي» (ص: ١٢).

وهي المسألة التي أجبت فيها من مدة بضع عشرة سنة في القاهرة فأظهرها بعض الناس في هذا الوقت[1] ظناً أن الذي فيها خلاف الإجماع. . . . لكن المقصود هنا أنه أرسل إليَّ ما كتبه هذا القاضي وأقسم بالله عليَّ أن أكتب عليه شيئاً ليظهر للناس جهل مثل هؤلاء الذين يتكلمون في الدين بغير علم، وذلك أنهم رأوا في كلامه من الجهل والكذب والضلال ما لا يظن أن يقع فيه آحاد العلماء الذين يعرفون ما يقولون، فكيف بمن سمي قاضي القضاة[2]؟

[شيخ الإسلام يقول: لم أخرق الإجماع ولا في مسألة واحدة ولا أتكلم في مسألة ليس لي فيها إمام]

قال شيخ الإسلام[3]: إن لفظ «كَم» يقتضي التكثير، وهذا يوجب كثرة المسائل التي خرق المجيب فيها الإجماع، والذين هم أعلم من هذا المعترض وأكثر اطلاعاً اجتهدوا في ذلك غاية الاجتهاد فلم يظفروا بمسألة واحدة خرق فيها الإجماع، بل غايتهم أن يظنوا في المسألة أنه خرق فيها الإجماع كما ظنه بعضهم في مسألة الحلف بالطلاق، وكان فيها من النزاع نقلاً ومن الاستدلال فقهاً وحديثاً ما لم يطلع عليه. . . .

الوجه الثاني: أن المجيب ـ ولله الحمد ـ لم يقل قط في مسألة إلا بقول سبقه إليه العلماء، فإن كان قد يخطر له ويتوجه له فلا يقوله وينصره إلا إذا عرف أنه قد قاله بعض العلماء كما قال الإمام أحمد: «إياك أن تتكلم في

---

(١) بالشام (سنة: ٧٢٦هـ).

(٢) كتاب «الرد على الأخنائي» (ص: ٧، ٨، ٩) مختصراً.

(٣) في جملة رده على الأخنائي حيث قال المعترض: «لكن كم لصاحب هذه المقالة من مسائل خرق فيها الإجماع. . .» (ص: ١٩١).

مسألة ليس لك فيها إمام» فمن كان يسلك هذا المسلك كيف يقول قولاً يخرق به إجماع المسلمين، وهو لا يقول إلا ما سبقه إليه علماء المسلمين؟ فهل يتصور أن يكون الاجماع واقعاً في موارد النزاع؟ ولكن من لم يعرف أقوال العلماء قد يظن الإجماع من عدم علمه النزاع، وهو مخطئ في هذا الظن لا مصيب، ومن علم حجة على من لم يعلم. والمثبت مقدَّم على النافي[1]. اهـ.

فائدة

قال الإمام العلامة الحافظ محدث حلب سبط ابن العجمي أبو الوفاء إبراهيم بن محمد خليل الحلبي (ت ٨٤١): أخبرني بعض مشايخي أن بعض الأمراء الكبار كان يحبه، فوقع في يده الرد على المترجم أنه قد خرق الإجماع في خمسين مسألة، انفرد بها عن الأمة، فذكر ذلك لبعض مشايخنا.

فأجابه شيخنا: بأنه لم ينفرد بها، بل كل ما قاله له فيه سلف، وإن أحببت أيها الأمير اكتب هذه المسائل؟

فقال الأمير: لا بل أعرف أنه كلام مُتَحَمّلٌ على الشيخ!! اهـ[2].

---

(١) كتاب «الرد على الأخنائي» (ص: ١٩٥) وانظر ما بعدها من وجوه الرد على هذه المقالة.

وقد تقدم بيان تحريف الفتوى على شيخ الإسلام وتبديل ألفاظه من قبل علماء السلطان مثل الأخنائي وغيره الذين يمررون ما يريد وينجحون المؤامرة مكسية بثوب الغيرة على الإسلام ويغتالون بذلك المصلحين العظماء حاملي هم الأمة أصحاب الفهم الشمولي للإسلام والنظرة العالمية له لا القطرية وأنه غدُ العالم المشرق ولابد والمُخَلِّص له من الظلم والاستبداد والاستكبار الذي نحياه في ظل المناهج البشرية.

(٢) «الرد الوافر» (ص: ٢٨٠).

[إخراج الكتب والأوراق والدواة والقلم ومنعه من الكتب والمطالعة في سجنه وذكر سبب ذلك]

قال الحافظ ابن كثير: وفي يوم الاثنين تاسِعِ جمادى الآخرة[1] أُخرِج ما كان عند الشيخ تقيِّ الدين ابن تيميّة من الكتب والأوراق والدّواةِ والقلم ومُنع من الكتبِ والمطالَعةِ وحُمِلت كتبه في مستهلّ رجب إلى خزانة الكتب «بالعادليّة الكبيرة»[2].

قالَ البرزالي: وكانت نحو ستين مجلّداً وأربع عشرة ربطة كراريس، فنظر القضاةُ والفقهاء فيها وتفرّقوها بينهم.

وكان سبب ذلك أنّه أجابَ لمّا كان ردّ عليه التقيّ بن الأخنائي المالكي[3] في مسألة الزيارة. فردّ عليه الشيخ تقيّ الدين واستجهله وأعلمه

---

(١) (سنة ٧٢٨هـ).

(٢) مضى التعريف بها.

(٣) تقي الدين محمد بن أبي بكر الأخنائي المالكي (ت ٧٥٠هـ). قال ابن حجر: وكان كثير الحط على الشيخ تقي الدين ابن تيمية وأتباعه. اهـ. «رفع الإصر» (ص: ٣٥٢)، وانظر إلى صورة من ظلمه لأتباع شيخ الإسلام كالإمام أحمد بن محمد بن مري البعلي الحنبلي وأنه تمكن منه فضُرب بحضرته ضرباً مبرحاً حتى أدماه ثم شهره على حمار أركبه مقلوباً ثم نودي عليه: هذا جزاء من يتكلم في حق الرسول ﷺ، فكادت العامة تقتله ثم أُعيد إلى السجن ثم شفع فيه إلى أن رُحِّل، كل هذا لأنه تكلم في مسألة التوسل بالنبي ﷺ وفي مسألة الزيارة وغيرها على طريقة ابن تيمية، وانظر إلى قلة إنصافه وعدم عدله وجوره لما وقع من ابن شأس نظير ما وقع من ابن مري وتعصب له ودافع عنه مع كثرة الشهود من الأعيان والعدول واعتذر عنه. اهـ. ملخصاً من «رفع الأصر» (رقم: ١٨٠) و«الدرر الكامنة» (١ / ٣٠٢ / ٣٠٣).

أنه قليلُ البِضاعةِ في العلم[1]، فطلع الأخنائي إلى السلطان وشكاه.

فرسَمَ السلطان[2] عند ذلك بإخراج ما عنده من ذلك وكان ما كان[3]. اهـ.

[كتابة الشيخ رسائله بالفحم بعد منعه الدواة والقلم]

وفي «العقود»[4]: أنه كان بعد ذلك إذا كتب ورقة إلى بعض أصحابه يكتبها بفحم، وقد رأيت أوراقاً عدة بعثها إلى أصحابه، وبعضها مكتوب بفحم منها ورقة يقول فيها:

[إفلاس حزب الشيطان، وشيخ الإسلام يعدّ جهاد أهل الضلالة من جنس جهاد التتر]

. . . . والذي سعى فيه حزب الشيطان لم يكن مخالفة لشرع محمد ﷺ وحده بل مخالفة لدين جميع المرسلين: إبراهيم، وموسى، والمسيح، ومحمد خاتم النبين صلى الله عليهم أجمعين، وكانوا قد سعوا في أن لا

---

(١) حتى قال شيخ الإسلام عنه أثناء رده عليه إنه: لا يعرف نفس المذهب الذي انتسب إليه، ولا ما قال أصحابه به في مثل هذه المسألة التي افترى فيها وصنف فيها، وقد قال قبل ذلك بكثير (ص: ٤٢): فكفى بقاض جهلاً وضلالاً أن يقول بكفر من قال بقول إمامه وأصحابه! بل كفى بمن قال ذلك جهلاً وضلالاً سواء كان ذلك مالكياً أو غير مالكي! ومع عظيم قدر مالك بإجماع أهل الإسلام الخاص منهم والعام بل لم يكن في وقته مثله. . اهـ.

(٢) وذلك قبل وفاة الشيخ بأشهر وكان الناصر يحبه ويعضمه للأخنائي وأيضاً وافق هوى السلطان الذي لم يزل يتخوف منه ويود سماع صوت النيل من ابن تيمية حتى يؤيده ويدعمه.

(٣) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٤٠).

(٤) مختصراً (ص: ٣٦٤ ـ ٣٦٦).

يظهر من جهة حزب الله ورسوله خطاب ولا كتاب وجزعوا من ظهور «الأخنائية» فاستعملهم الله تعالى حتى أظهروا أضعاف ذلك وأعظم، وألزمهم بتفتيشه ومطالعته، ومقصودهم إظهار عيوبه، وما يحتجون به، فلم يجدوا فيه إلا ما هو حجة عليهم وظهر لهم جهلهم وكذبهم وعجزهم، وشاع هذا في الأرض وأن هذا مما لا يقدر عليه إلا الله، ولم يمكنهم أن يظهروا علينا فيه عيباً في الشرع والدين بل غاية ما عندهم أنه خولف مرسوم بعض المخلوقين، والمخلوق كائناً من كان إذا خالف أمر الله تعالى ورسوله لم يجب ـ بل ولا يجوز ـ طاعته في مخالفة أمر الله ورسوله باتفاق المسلمين.

وقال أيضاً: بل جهادنا في هذا مثل جهادنا يوم قازان، والجبلية، والجهمية والاتحادية، وأمثال ذلك. وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

[شيخ الإسلام يكتب ليقف على كتابته الموافق والمخالف ويطمئن جماعته أنه في نعم عظيمة لا تحصى ولا تعد]

وقال في ورقة أخرى[1]: .... وما كتبت شيئاً من هذا ليكتم عن أحد، ولو كان مبغضاً، والأوراق التي فيها جواباتكم غسلت[2].

وأنا طيب وعيناي طيبتان أطيب ما كانتا.

ونحن في نعم عظيمة لا تحصى ولا تُعَدُّ، والحمد لله حمداً كثيراً

(١) مختصراً (ص: ٣٦٦ ـ ٣٦٨).

(٢) ولم تغسل إلا لضمان سلامة جماعته والتكتم على مصدر الأخبار التي تصله من خارج معتقله ويومئ بهذا الفعل إلى طلب المزيد من الرسائل التي تكشف له واقع أُمته وأخبار أصحابه بعد الذي جرى لهم من السجن والتعزير كما تقدم. وهو درس لأصحاب الأوراق المكشوفة!!!

طيباً مباركاً فيه. اهـ كلام شيخ الإسلام. قال ابن عبد الهادي:

وهذه الورقة كتبها الشيخ وأرسلها بعد خروج الكتب من عنده بأكثر من ثلاثة أشهر في شهر شوال قبل وفاته بنحو شهر ونصف.

وفي أول هذه الورقة قال: وخروج الكتب كان من أعظم النعم، لتقفوا عليه[1]. اهـ.

[شيخ الإسلام يقبل على العبادة والتلاوة والتذكر والتهجد بعد إخراج الكتب والقلم من عنده ويقرأ كل يوم ثلاثة أجزاء ويختم في عشرة أيام حتى أتاه اليقين]

قال الحافظ ابن عبد الهادي: وأقبل الشيخ بعد إخراجها[2] على العبادة والتلاوة والتذكر والتهجد حتى أتاه اليقين.

وختم القرآن مدة إقامته بالقلعة ثمانين أو إحدى وثمانين ختمة انتهى في آخر ختمه إلى آخر اقتربت الساعة: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾[3]، ثم كملت عليه بعد وفاته وهو مسجى!!

كان كل يوم يقرأ ثلاثة أجزاء، يختم في عشرة أيام هكذا أخبرني أخوه زين الدين[4]. اهـ.

---

(١) مما كتبه في الرد على المخالفين كـ «الأخنائية» و«الزملكانية» وغيرهما.

(٢) قال الحافظ ابن عبد الهادي: ولما أخرج ما عنده من الكتب والأوراق، حمل إلى القاضي علاء الدين القونوي، وجعل تحت يده في المدرسة العادلية. «العقود» (ص: ٣٦٨).

(٣) سورة القمر: [٥٤ و٥٥].

(٤) «العقود الدرية» (ص: ٣٦٨).

قال الحافظ البزار: ولقد ظنوا أن في حبسه شينة، فجعله الله له فضيلة وزينة، وظهر له يوم موته ما لو رآه واده أقرَّ به عينيه. فإن الله تعالى لعلمه بُقرب أجله ألبسه من الفراغ عن الخلق للقدوم على الحق أجمل حُلله، كونه حبس على غير جريرة ولا جريمة بل على قوة في الحق وعزيمة[1].

ثم إن الشيخ رضي الله عنه بقي إلى ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة الحرام وتوفي إلى رحمة الله تعالى ورضوانه في بكرة ذلك اليوم، وذلك سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وهو على حاله مجاهداً في ذات الله تعالى صابراً محتسباً لم يجبن ولم يهلع ولم يضعف ولم يتتعتع بل كان إلى حين وفاته مشتغلاً بالله عن جميع ما سواه[2]. اهـ.

وكانت مدة مرضه بضعة وعشرين يوماً. وأكثر الناس ما علموا بمرضه فلم يفجأ الخلق إلا نعيه. فاشتد التأسف عليه وكثر البكاء والحزن. ودخل إليه أقاربه وأصحابه، وازدحم الخلق على باب القلعة والطرقات. وامتلأ جامع دمشق وصلوا عليه. وحمل على الرؤوس رحمه الله ورضي عنه[3]. اهـ.

* * *

---

(١) «الأعلام العلية» (ص: ٤٨).

(٢) المرجع السابق (ص: ٥١).

(٣) «العقود» (ص: ٣٦٨).



الفصل العاشر

[وفاة شيخ الإسلام وتشييع جنازته العظيمة وتأسف العالم على فقده]

(٧٢٨هـ)



[شيخ الإسلام على فراش الموت
يحلّل كل شخص عاداه إلا من كان عدواً لله ولرسوله]

قال الحافظ البزار[1]: أخبرني غير واحد ممن كان حاضراً بدمشق حين وفاته رضي الله عنه قال: إن الشيخ قدس الله روحه مرض أياماً يسيرة وكان إذ ذاك الملك شمس الدين الوزير بدمشق المحروسة فلما علم بمرضه استأذن في الدخول عليه لعيادته.

فأذن الشيخ له في ذلك. فلما جلس عنده أخذ يعتذر له عن نفسه ويلتمس منه أن يحلله مما عساه أن يكون وقع منه في حقه من تقصير أو غيره.

فأجابه الشيخ رضي الله عنه بأني قد أحللتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أني على الحق. وقال ما معناه: إني قد أحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه إياي لكونه فعل ذلك مقلداً غيره معذوراً ولم يفعله لحظ نفسه بل لما بَلَغه مما ظنه حقاً من مبلِّغه والله يعلم أنه بخلافه.

وقد أحللت كل واحد مما بيني وبينه إلا من كان عدواً لله ولرسوله.

ثم إن الشيخ، رضي الله عنه بقي ـ إلى حين وفاته ـ وهو على حاله،

---

(١) «الأعلام العلية» (ص: ٥١).

مجاهداً في ذات الله تعالى، صابراً، محتسباً، لم يَجبن ولم يَهْلَع ولم يَضعُف، ولم يتتعتع.

بل كان رضي الله عنه، إلى حين وفاته، مشتغلاً بالله عن جميع ما سواه. اهـ مختصراً.

[مرض شيخ الإسلام الذي توفي فيه ومدته ومكان الوفاة]

قال الإمام شمس الدين أبو عبدالله بن محمد القرشي[1]: توفي بقلعة دمشق في القاعة التي كان محبوساً فيها الثلث الأخير من الليل.

وكان له مدة سبعة عشر يوماً بالحمى كذا أخبرني أخوه الشيخ زين الدين عبدالرحمن. اهـ.

قال الحافظ ابن عبدالهادي[2]: فلم يفجأ الناس إلا نعيُه وما علموا بمرضه، وكان قد مرض عشرين يوماً فتأسف الخلق عليه.

وقال في «العقود»[3]: وكانت مدة مرضه بضعة وعشرين يوماً. اهـ.

[وقت وفاة شيخ الإسلام وتاريخها]

قال الحافظ ابن رجب[4]: كانت وفاته في سحر ليلة الاثنين عشري ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

---

(١) «حوادث الزمان»: (٢ / ٣٠٧).
(٢) «طبقات علماء الحديث» (٤ / ٢٩٥).
(٣) «العقود الدرية» ص: ٣٦٨.
(٤) «الذيل على طبقات الحنابلة» (٢ / ٤٠٥).



[عمر شيخ الإسلام حين وفاته ومدة اعتقاله الأخير بسجن القلعة]

قال القرشي: عاش سبعاً وستين سنة وثمانية أشهر وتسعة أيام، وخرج من بطن أمه يوم الاثنين وحبس الآن يوم الاثنين سادس شعبان سنة ست وعشرين وسبعمائة، فيكون مدة اعتقاله سنتين وثلاثة شهور وخمسة عشر يوماً.

وبينه وبين أخيه شرف الدين عبدالله سنة وستة أشهر وأربعة أيام، لأنه توفي في الرابع عشر من جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وسبعمائة، رحمهم الله تعالى وإيانا والمسلمين أجمعين[١]. اهـ.

[وفاة شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد ابن تيمية]

قال الشيخ علم الدين البرزالي في «تاريخه»[٢]: وفي ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة توفي الشيخ الإمام العالم العلم العلاّمة الفقيه الحافظ الزّاهد العابد المجاهد القدوة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد ابن شيخنا الإمام العلاّمة المفتي شهاب الدين أبي المحاسن عبدالحليم ابن الشيخ الإمام شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم محمد بن الخضر بن محمد بن الخضر ابن علي بن عبدالله ابن تيميّة الحرّاني ثمّ الدمشقي، بقلعة دمشق بالقاعة التي كان محبوساً بها.

وحضر جمعٌ كثير إلى القلعة، وأذن لهم في الدخول عليه، وجلس جماعة عنده قبل الغسل وقرؤوا القرآن وتبركوا برؤيته وتقبيله، ثم انصرفوا، ثم حضر جماعة من النساء ففعلن مثل ذلك ثم انصرفن واقتصروا على من

---

(١) «حوادث الزمان» (٢ / ٣٠٩).

(٢) كما في «البداية والنهاية» (١٤ / ١٤١).

يغسِّله، فلمّا فرغ من غسله أُخرِج ثم اجتمع الخلق بالقلعة والطريق إلى الجامع وامتلأ الجامع أيضاً وصحنه والكلاّسة وباب البريد وباب الساعات إلى باب اللبادين والغوارة، وحضرت الجنازة في الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك ووضعت في الجامع، والجند قد احتاطوا بها يحفظونها من الناس من شدة الزحام، وصُلّي عليه أولاً بالقلعة، تقدّم في الصلاة عليه أولاً الشيخ محمد بن تمام. اهـ.

[توافد الناس عند سماعهم بموته
وعظيم انزعاجهم له وتعطل الحياة يومئذ بدمشق]

قال الحافظ البزّار[1]: فما هو إلاّ أنْ سمع النّاس بموته، لم يبق في دمشق من يستطيع المجيء للصلاة عليه وأراده إلا حضر لذلك وتفرّغ له، حتى غلقت الأسواق بدمشق، وعطلت معائشها حينئذ.

وحصل للناس بمصابه أمر شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم وخرج الأمراء والرؤساء والعلماء والفقهاء، والأتراك والأجناد، والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوامّ.

وفي «حوادث الزمان»[2]: وغلقت جميع أسواق دمشق ولم يبق حانوت مفتوح إلا أن يكون نصرانياً، لأن اليهود كانوا في عيد المظلة.

وأما دكاكين المراوزة والحريريين، والقزازين وجميع أرباب الأنوال والحاكة والصناع وجميع أرباب الصنائع، وسكان الأحكار ظاهر دمشق، وأهل الصالحية بأجمعهم حضروا إلى الجامع المعمور لأجل الصلاة عليه

---

(١) «الأعلام العلية» (ص: ٥٢ و٥٣).
(٢) (٢ / ٣٠٧ـ٣٠٨).

وامتلأ الجامع أكثر من يوم الجمعة، لأن أهل الصالحية مع أهل الأحكار يصلون يوم الجمعة في جوامعهم، وفي هذا اليوم حضروا إلى الجامع بأجمعهم، ولعل من لا له عادة بالصلاة حضر لأجل الصلاة عليه. اهـ.

قال[١]: ولم يتخلّف أحد من غالب النّاس فيما أعلم، إلاّ ثلاثة أنفس[٢] كانوا قد اشتهروا بمعاندته، فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم بحيث غلب على ظنِّهم أنهم متى خرجوا رجمهم النّاس، وأهلكوهم، فَغُسِّل رضي الله عنه وكُفِّن، قال: وازدحم مَن حضر غسله من الخاصة والعامّة على الماء المنفصل عن غسله، حتى حصل لكل واحد منهم شيء قليل[٣].

ثم أُخرِجت جنازته، فما هو إلاّ أن رآها الناس فأكبّوا عليها من كلّ جانب كل منهم يقصد التبرك بها، حتى خشي على النعش أن يُحطّم قبل وصوله إلى القبر.

فأحدق بها الأمراء والأجناد واجتمع الأتراك، فمنعوا النّاس من الزِّحام عليها، خشيةً على سقوطها وعليهم من اختناق بعضهم، وجعلوا يردونهم عن الجنازة بكل ما يمكنهم، وهم لا يزدادون إلاّ ازدحاماً وكثرة.

حتى أُدخلت جامع بني أميّة المحروس ظنّاً منهم أنّه يسع النّاس، فبقي كثير من الناس خارج الجامع، وصُلِّي عليه رضي الله عنه في الجامع،

---

(١) من كان حاضراً بدمشق حين وفاة شيخ الإسلام وهم غير واحد أخبروا الحافظ البزار بذلك كما تقدم. انظر: «الأعلام العلية» (ص: ٥٢).

(٢) سيأتي ذكرهم (ص: ٤٥٨).

(٣) هذا مما لا يجوز شرعاً كما أفصح شيخ الإسلام عنه وأنكره على أصحاب الطرق وغيرهم.

ثم حُمِل على أيدي الكبراء والأشراف ومن حصل له ذلك من جميع الناس إلى ظاهر دمشق، ووُضِع بأرضٍ فسيحة متَّسعة الأطراف، وصلّى عليه الناس. اهـ.

وفي «التاريخ»[1]: ثمّ صُلِّي عليه بالجامع الأموي عقيب صلاة الظهر، وقد تضاعف اجتماع الناس على ما تقدّم ذكره، ثمّ تزايد الجمع إلى أن ضاقت الرِّحاب والأزقّة والأسواق بأهلها ومَن فيها، ثم حُمِل بعد أن صُلِّي عليه على الرؤوس والأصابع، وخرج النعش به من باب البريد واشتدّ الزِّحام وعلت الأصوات بالبكاء والنحيب والترحم عليه والثناء والدعاء له، وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم وثيابهم[2]، وذهبت النّعال من أرجل الناس وقباقيبهم ومناديل وعمائم لا يلتفتون إليها لشغلهم بالنظر إلى الجنازة، وصار النعش على الرؤوس تارة يتقدم وتارة يتأخر، وتارة يقف حتى تمرّ الناس.

[اكتظاظ أبواب البلد بالناس عند الخروج بنعشه]

وخرج الناس من الجامع من أبوابه كلها وهي شديدة الزِّحام، كل باب أشدّ زحمة من الآخر، ثم خرج النّاس من أبواب البلد جميعها من شدّة الزحام فيها، لٰكن كان معظم الزِّحام من الأبواب الأربعة: باب الفرج الذي أُخرِجت منه الجنازة، وباب الفراديس، وباب النصر، وباب الجابية[3].

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٤١).

(٢) تقدم التعليق على ذلك، وهو من التبرك الممنوع شرعاً.

(٣) تقدم التعريف بهذه الأبواب.

وعَظُمَ الأمر «بسوق الخيل» وتضاعف الخلق وكثر الناس، ووضعت الجنازة هناك وتقدّم للصلاة عليه هناك أخوه زين الدين عبدالرحمٰن[1]. اهـ.

قال في «حوادث الزمان»[2]: ثم حضر[3] الأمراء والحجاب والنقباء بالعصي والدبابيس حول نعشه، وحمله الترك من الأمراء والمقدمين على رؤوسهم تبركاً به، والأجناد يضربون الناس، ولولا ذلك لما قدروا يصلوا به إلى قبره من كثرة الزحام والتبرك به ـ إلى أن قال ـ ثم حمل من سوق الخيل[4] فمُرَّ به تحت القلعة المحروسة.

والله العظيم، لقد رأيت الناس قاعدين على الطريق يميناً وشمالاً، الرجال والنساء مختلطين كأنهم ينتظرون عبور السلطان ومنهم من يبكي، ومنهم من يضجّ ويصيح، ومن يتأسف، ومنهم من يتفرج.

فلما وصلت إلى مقبرة الصوفية رأيتها وقد امتلأت بالعالم. اهـ.

[دفن شيخ الإسلام بمقابر الصوفية قبل وقت العصر بيسير ومعاينة أخيه زين الدين قبره قبل لحده فيه]

قال الحافظ ابن كثير: فلما قضيت الصلاة حُمِل إلى مقبرة الصوفية فَدُفِنَ إلى جانب أخيه شرف الدين عبدالله رحمهما الله، وكان دفنه قبل العصر بيسير وذلك من كثرة من يأتي ويصلي عليه من أهل البساتين وأهل الغوطة وأهل القرى وغيرهم.

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ١٤١).

(٢) (٢/ ٣٠٨).

(٣) عقب صلاة الظهر بالجامع الأموي.

(٤) بعد صلاة أخيه زين الدين عليه وقد امتدَّ العالم من المسجد الأموي إلى سوق الخيل.

وأغلق الناس حوانيتهم ولم يتخلف عن الحضور إلا من هو عاجز عن الحضور مع الترحم والدعاء له وأنه لو قدر ما تخلف[1]. اهـ.

قال الإمام القرشي[2]: فلما وصلت إلى مقبرة الصوفية رأيتها وقد امتلأت بالعالم، وقد حفروا قبره إلى جانب أخيه الشيخ شرف الدين وحضر أخوه زين الدين وحوله نقباً يحمونه من الناس، حتى شاهد القبر قبل وضع أخيه، وتأخرت الجنازة إلى قريب العصر حتى وُضع في قبره، وألحدوه وطُمَّ عليه ولقنوه(!)، وبعد ذلك انصرف الناس أولاً بأول متأسفين عليه.

[أزيد من خمسمائة ألف شارك في تشييع الجنازة]

قال الحافظ البزار: قال[3]: وكنت أنا قد صلّيت عليه في الجامع، وكان في مستشرف على المكان الذي صُلِّي عليه بظاهر دمشق، فأحببت أن أنظر إلى الناس وكثرتهم، فأشرفت عليهم حال الصلاة، وجعلت أنظر يميناً وشمالاً ولا أرى أواخرهم، بل رأيت الناس قد طبقوا تلك الأرض كلِّها.

واتفق جماعة ممّن حضر حينئذ وشاهد الناس والمصلِّين عليه، على أنّهم يزيدون على نحو خمسمائة ألف، وقال العارفون بالنقل والتاريخ: لم يُسْمَع في جنازة بِمثل هذا الجمع، إلاّ جنازة الإمام أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ ثمّ حُمِل بعد ذلك إلى قبره فوضِع.

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٤١).

(٢) «حوادث الزمان» (٢ / ٣٠٨).

(٣) من حدثه بمجريات أحداث وفاته وعظيم جنازته وهم غير واحد فإنه لم يكن حاضراً يومئذ.

وقد جاء الملك شمس الدين الوزير[1] ولم يكن حاضراً قبل ذلك، فصلّى عليه أيضاً ومن معه من الأمراء والكبراء ومن شاء الله من الناس[2]. اهـ.

[المواضع التي صُلِّيَ عليه الجنازة بها وأسماء الأئمة]

صُلِّيَ عليه «أولاً» بدِركات القلعة[3]، وأمَّ الناس في الصلاة عليه، الزاهد القدوة محمد بن تمام الصالحي الحنبلي، وضج الناس حينئذٍ بالبكاء، والثناء والترحم[4].

ثم صُلِّيَ عليه «ثانياً» بالجامع الأموي بعد صلاة الظهر، في مواضع الجنائز مما يلي المقصورة، وأمَّ الناس عليه، نائب الخطابة علاء الدين ابن الخراط، لغيبة القزويني بالديار المصرية، والجند يحفظون الجنازة من الزحام، وجلس الناس على غير صفوف، بل مرصوصين، لا يتمكن أحد من الجلوس والسجود إلا كلفة، وذلك قبل أذان الظهر بقليل، وجاء الناس من كل مكان، وكثروا كثرة لا تحد، ولا توصف[5].

وصُلِّيَ عليه «مرة ثالثة» «بسوق الخيل»، وأمَّ الناس في الصلاة عليه، أخوه الإمام المجاهد، المحتسب الصابر أبو محمد زين الدين عبد

---

(١) شمس الدين عبدالله غبريال بن صنعة الله. انظر تعليق الأستاذ الشاويش على «الأعلام العلية» ط٢، (ص: ٨٣).

(٢) «الأعلام العلية» (ص: ٥١).

(٣) «قلعة دمشق» وهي معتقله الذي توفي فيه ظلماً.

(٤) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٤١)، وانظر «مختصر طبقات الحديث» (٤ / ٢٩٥)، و«الذيل» لابن رجب (٢ / ٤٠٦).

(٥) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٤١) مختصراً، وانظر «الذيل» لابن رجب (٢ / ٤٠٦).

الرحمن، وامتلأ «سوق الخيل» بالناس، وعظم الأمر[1].

ثم لما دفن الشيخ ـ رحمه الله ـ جعل الناس يأتون قبره للصلاة عليه، من القرى والأطراف، والأماكن والبلاد، مشاة وركباناً[2]، من آحاد الناس، والأمراء، والأعيان والنواب، والعلماء وحداناً وجماعات، ممن لم يكن حاضراً قبل ذلك، أو منعه شدة الزحام، أو غير ذلك من الأعذار.

وتقدم قبل قليل صلاة الملك شمس الدين الوزير عليه، ومن معه من الأمراء والكبراء، ومن شاء الله من الناس، وصُلِّيَ عليه صلاة الغائب في غالب بلاد الإسلام، القريبة والبعيدة، حتى في اليمن والصين.

وأخبر المسافرون: أنه نودي بأقصى الصين، للصلاة عليه يوم جمعة «الصلاة على ترجمان القرآن»[3].

[مشاركة أكثر من خمس عشرة ألف امرأة بتشييع جنازته والمزايدة بشراء بعض حاجياته الخاصة]

قال الحافظ ابن كثير: وحضر نساء كثيرات بحيث حزرن بخمسة عشر ألف امرأة، غير اللاّتي كن على الأسطحة وغيرهن، الجميع يترحمن ويبكين عليه فيما قيل.

وأمّا الرجال فحزروا بستين ألفاً إلى مائة ألف إلى أكثر من ذلك إلى مائتي ألف، وشرب جماعة الماء الذي فَضُل من غسله، واقتسم جماعة بقية

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٤١) مختصراً، وانظر «مختصر طبقات المحدثين» (٤ / ٢٩٦).

(٢) «الكواكب الدرية» (ص: ١٧٩) مختصراً.

(٣) «الذيل» لابن رجب (٢ / ٤٠٧).

السدر الذي غُسِّل به[1].

ودُفع في الخيط الذي كان فيه الزئبق الذي كان في عنقه بسبب القمل مائة وخمسون درهماً، وقيل إنّ الطاقيّة التي كانت على رأسه دُفع فيها خمسمائة درهم.

وحصل في الجنازة ضجيج وبكاء كثير، وتضرُّع، وخُتِمت له ختمات كثيرة بالصالحيّة وبالبلد، وتردد الناس إلى قبره أيّاماً كثيرة ليلاً ونهاراً يبيتون عنده ويصبحون، ورؤيت له منامات صالحة كثيرة، ورثاه جماعة بقصائد جمّة[2].[3]. اهـ.

[نبذة من حياة شيخ الإسلام للحافظ البرزالي]

قال: وكان مولده يوم الاثنين عاشر ربيع الأول بحرّان سنة إحدى وستين وستمائة، وقدم مع والده وأهله إلى دمشق وهو صغير، فسمع الحديث من ابن عبدالدائم وابن أبي اليسر وابن عبد والشيخ شمس الدين الحنبلي، والشيخ شمس الدين بن عطاء الحنفي، والشيخ جمال الدين بن الصيرفي، ومجد الدين ابن عساكر، والشيخ جمال الدين البغدادي، والنجيب بن المقداد، وابن أبي الخير وابن علّان وابن أبي بكر الهروي والكمال عبدالرحيم والفخر علي وابن شيبان والشرف بن القوّاس، وزينب بنت مكي[4]، وخلق كثير سمع منهم الحديث.

وقرأ بنفسه الكثير وطلب الحديث وكتب الطباق والأثبات ولازم

---

(١) تقدم التعليق على ذلك.

(٢) ذكر معظم هذه المراثي الحافظ ابن عبدالهادي في آخر كتابه «العقود الدرية».

(٣) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٤٢).

(٤) انظر كتاب «مشيخة ابن تيمية برواية الإمام الذهبي».

السماع بنفسه مدة سنين، وقلّ أن سمع شيئاً إلاّ حفظه، ثم اشتغل بالعلوم وكان ذكياً كثير المحفوظ فصار إماماً في التفسير وما يتعلّق به عارفاً بالفقه، فيقال إنّه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه وغيره.

وكان عالماً باختلاف العلماء، عالماً في الأصول والفروع والنحو واللغة، وغير ذلك من العلوم النقليّة والعقليّة، وما قُطع في مجلس ولا تكلّم معه فاضل في فنّ من الفنون إلاّ ظنّ أنّ ذلك الفن فنّه، ورآه عارفاً به متقناً له.

وأمّا الحديث فكان حامل رايته حافظاً له مميِّزاً بين صحيحه وسقيمه، عارفاً برجاله متضلِّعاً من ذلك، وله تصانيف كثيرة وتعاليق مفيدة في الأصول والفروع، كمّل منها جملة وبُيِّضَت وكتبت عنه وقُرِئت عليه أو بعضها، وجملة كبيرة لم يكمِّلها، وجملة كمّلها ولم تُبيَّض إلى الآن.

وأثنى عليه وعلى علومه وفضائله جماعة من علماء عصره، مثل القاضي الخُوَيّي[1]، وابن دقيق العيد، وابن النّحاس، والقاضي الحنفي قاضي مصر ابن الحريري وابن الزملكاني وغيرهم[2].

ووجدتُ بخط ابن الزملكاني أنّه قال: اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها، وأنّ له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتدين، وكتب على تصنيفٍ له هذه الأبيات:

ماذا يقول الواصفون له　　　وصفاته جلّت عن الحصرِ

---

(١) قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر الخُوَيِّيّ الشافعي (ت ٦٩٣).

(٢) تقدم التعريف بهم.

هــو حجّـةٌ لِلّـه قـاهـرةٌ هـو بيننـا أُعجـوبَـةُ الـدهـرِ
هـو آيـةٌ فـي الخلـق ظـاهـرةٌ أنـوارهـا أربـتْ علـى الفجـرِ

وهذا الثناء عليه، وكان عمره يومئذٍ نحو الثلاثين سنة.

[الحافظ البرزالي وصحبته لشيخ الإسلام]

قال: وكان بيني وبينهُ مودّةٌ وصحبة من الصغر، وسماع الحديث والطلب من نحو سنة، وله فضائلُ كثيرة، وأسماء مصنّفاته وسيرته وما جرى بينه وبين الفقهاء والدولة وحبسه مراتٍ وأحواله لا يحتمل ذكر جميعها هذا الموضع، وهذا الكتاب.

[نبأ وفاة ابن تيمية يبلغ البرزالي بعد أكثر من خمسين يوما وهو غائب عن دمشق ويتأسف لفقده]

قال: ولمّا مات كنت غائباً عن دمشق بطريق الحجاز، ثمّ بلغنا خبر موته بعد وفاته بأكثر من خمسين يوماً لمّا وصلنا إلى تبوك، وحصل التأسُّف لفقده رحمه الله تعالى. قال الحافظ ابن كثير: هذا لفظه في هذا الموضع من تاريخه[١]. اهـ.

[مقارنة البرزالي جنازة ابن تيمية بجنازة الإمام أحمد بن حنبل الشهيرة]

قال ابن كثير: ثم ذكر الشيخ علم الدين في «تاريخه» بعد إيراده هذه الترجمة[٢] جنازة أبي بكر بن أبي داوود[٣] وعظمها، وجنازة الإمام

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ١٤٢ ـ ١٤٣).
(٢) أي: ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية.
(٣) عبد الله بن سليمان بن الأشعث (أبي داود صاحب السنن المشهور (ترجمته في =

أحمد[1] ببغداد وشهرتها، وقال الإمام أبو عثمان الصابوني: سمعت أبا عبدالرحمٰن السيوفي يقول: حضرتُ جنازة أبي الفتح القوّاس الزّاهد مع الشيخ أبي الحسن الدارقطني فلمّا بلغ إلى ذلك الجمع العظيم أقبل علينا وقال: سمعتُ أبا سهل بن زياد القطّان يقول: سمعت عبدالله بن أحمد بن حنبل يقول: سمعت أبي يقول: قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم الجنائز، ولاشك أن جنازة أحمد بن حنبل كانت هائلةً عظيمة، بسبب كثرة أهل بلده واجتماعهم لذلك، وتعظيمهم له، وأنّ الدولة كانت تحبُّه.

والشيخ تقي الدين بن تيميّة رحمه الله توفي ببلده دمشق، وأهلها لا يعشرون أهل بغداد حينئذ كثرة، ولٰكنّهم اجتمعوا لجنازته اجتماعاً لو جمعهم سلطان قاهر، وديوانٌ حاصر لما بلغوا هذه الكثرة التي اجتمعوها في جنازته، وانتهوا إليها.

هذا مع أنّ الرجل مات بالقلعة محبوساً من جهة السلطان، وكثير من الفقهاء والفقراء يذكرون عنه للناس أشياء كثيرة، مما ينفر منها طباع أهل الأديان، فضلاً عن أهل الإسلام، وهذه كانت جنازته[2]. اهـ.

[تفرد جنازة ابن تيمية بالهيبة والوقار والعظمة]

ولم يُرَ لجنازة أحد ما رؤيَ لجنازته من الوقار، والهيبة، والعظمة، والجلالة وتعظيم الناس لها، وتوقيرهم إيّاها، وتفخيمهم أمر صاحبها،

= السير ١٣ / ٢٢١).

(١) شيخ الأمة وعالم أهل العصر أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الذُهلي (ت ٢٤١هـ) «شذرات الذهب» (٣ / ١٨٥)، وانظر عظمة جنازته وعدة الجمع الذين صلوا عليه في «مناقب أحمد بن حنبل» لأبي الفرج ابن الجوزي (ص: ٤١٤ ـ ٤١٧).

(٢) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٤٣).

وثنائهم عليه بما كان عليه، من العلم والعمل والزّهادة والعبادة، والإعراض عن الدنيا، والاشتغال بالآخرة، والفقر والإيثار، والكرم والمروءة، والصبر والثبات، والشجاعة والفِراسة.

والإقدام والصدع بالحق، والإغلاظ على أعداء الله، وأعداء رسوله، والمنحرفين عن دينه، والنصر لله ولرسوله ولدينه ولأهله، والتواضع لأولياء الله، والتذلُّل لهم والإكرام والإعزاز والاحترام لجنابهم، وعدم الاكتراث بالدنيا وزخرفها، ونعيمها ولذّاتها، وشدة الرغبة في الآخرة، والمواظبة على طلبها، حتى سمع ذلك ونحوه، من الرجال، والنساء، والصبيان، وكلٌّ منهم يُثني عليه بما يعلمه من ذلك[1]. اهـ.

[توافد الناس حول القلعة فور سماع نبأ موته

وفتح بابها لخواص الأصحاب والأحباب والتوجع والبكاء لفقده]

قال[2]: وقد اتّفق موته في سحر ليلة الاثنين المذكور، فذكر ذلك مؤذن القلعة على المنارة بها وتكلم بها الحرّاس على الأبرجة، فما أصبح الناس إلاّ وقد تسامعوا بهذا الخطب العظيم والأمر الجسيم، فبادر الناس على الفور إلى الاجتماع حول القلعة من كلِّ مكان أمكنهم المجيء منه، حتى من الغوطة والمرج، ولم يطبخ أهل الأسواق شيئاً، ولا فتحوا كثيراً من الدكاكين التي من شأنها أنْ تُفتَح أوائل النهار على العادة، وكان نائب السلطنة تنكز قد ذهب يتصيّد في بعض الأمكنة، فحارت الدولة ماذا يصنعون.

---

(١) «الأعلام العلية» (ص: ٥٣ ـ ٥٤).

(٢) الحافظ البرزالي.

وجاء الصاحب شمس الدين غبريال نائب القلعة فعزّاه فيه، وجلس عنده، وفتح باب القلعة وباب القاعة لمن يدخل من الخواص والأصحاب والأحباب، فاجتمع عند الشيخ في قاعته خلقٌ من أخصَّاء أصحابه من الدولة وغيرهم من أهل البلد والصالحية.

فجلسوا عنده يبكون ويئنّون؛ «على مثل ليلى يقتل المرء نفسه»[1]. اهـ.

[تقبيل الحافظ ابن كثير شيخ الإسلام قبل تغسيله وعدة الختمات التي تلاها منذ دخول القلعة إلى حين وفاته]

قال[2]: وكنت ممن حضر هناك[3] مع شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي[4] ـ رحمه الله ـ وكشفت عن وجه الشيخ ونظرت إليه وقبّلته، وعلى رأسه عمامة بعذب مغروزة وقد علاه الشيب أكثر ممّا فارقناه.

وأخبر الحاضرين أخوه زين الدين عبدالرحمٰن أنّه قرأ هو والشيخ منذ دخل القلعة ثمانين ختمة وشرعا في الحادية والثمانين، فانتهيا فيها إلى آخر اقتربت الساعة: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾.

فشرع عند ذلك الشيخان الصالحان الخيّران عبدالله بن المحب وعبدالله الزرعي الضرير ـ وكان الشيخ رحمه الله يحب قراءتهما ـ، فابتدآ

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٤٣).

(٢) الحافظ الحجة عماد الدين أبو الفداء: إسماعيل بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ)، انظر «إنباء الغمر بأبناء العمر» (١ / ٤٥ ـ ٤٧).

(٣) بالقلعة للنظر إليه رحمه الله وتوديعه والتهيؤ لتغسيله.

(٤) تقدم التعريف به.

من أول سورة الرحمٰن حتى ختموا القرآن وأنا حاضرٌ أسمع وأرى.

[مساعدة الحافظ المزي في تغسيل شيخ الإسلام]

قال: ثمّ شرعوا في غسل الشيخ وخرجت إلى مسجد هناك ولم يدعوا عنده إلاّ من ساعد في غسله، منهم شيخنا الحافظ المِزي وجماعة من كبار الصالحين الأخيار، أهل العلم والإيمان، فما فرغ منه حتى امتلأت القلعة وضجّ الناس بالبكاء والثناء والدعاء والترحم. اهـ.

وفي «حوادث الزمان»[1]: والذي تولى غسله مع المغسل الشيخ الصالح تاج الدين محمود الفارقي، والشيخ شمس الدين بن الرزير[2] خطيب جامع كريم الدين، فغسلوه وكفنوه. اهـ.

[بيننا وبينكم يوم الجنائز]

ثمّ ساروا به إلى الجامع فسلكوا طريق العماديّة على العادلية الكبيرة، ثم عطفوا على ثلث الناطفانيين، وذلك أنّ سويقة باب البريد كانت قد هُدِمت لتصلّح.

ودخلوا بالجنازة إلى الجامع الأموي، والخلائق فيه بين يدي الجنازة وخلفها وعن يمينها وشمالها ما لا يحصي عدتهم إلا الله تعالى، فصرخ صارخ وصاح صائح هٰكذا تكون جنائز أئمة السنّة، فتباكى الناس وضجّوا عند سماع هذا الصارخ.

ووضع الشيخ في موضع الجنائز ممّا يلي المقصورة، وجلس الناس من كثرتهم وزحمتهم على غير صفوف، بل مرصوصين رصاً لا يتمكن أحد

---

(١) (٢ / ٣٠٧).

(٢) وفي «نهاية الأرب» شمس الدين ابن إدريس.

من السجود إلّا بكلفة جو الجامع وبرى الأزقة والأسواق، وذلك قبل أذان الظهر بقليل.

[كون يوم تشييع جنازة ابن تيمية يوماً مشهوداً لم يعهد مثله بدمشق]

وجاء النّاس من كلِّ مكان، ينوي خلق الصيام لأنهم لا يتفرّغون في هذا اليوم لأكل ولا لشرب، وكثر الناس كثرة لا تحد ولا توصف.

فلمّا فرغ من أذان الظهر أُقيمت الصلاة عقبه على السدة خلاف العادة، فلمّا فرغوا من الصلاة خرج نائب الخطيب لغيبة الخطيب بمصر فصلى عليه إماماً، وهو الشيخ علاء الدين الخرّاط، ثم خرج الناس من كل مكان من أبواب الجامع والبلد كما ذكرنا.

واجتمعوا بسوق الخيل، ومن الناس مَن تعجّل بعد أن صلّى في الجامع إلى مقابر الصوفيّة، والناس في بكاءٍ وتهليل في مخافتة كل واحدٍ بنفسه، وفي ثناءٍ وتأسُّف، والنساء فوق الأسطحة من هناك إلى المقبرة يبكين ويدعين ويقلن: هذا العالم.

وبالجملة كان يوماً مشهوداً لم يعهد مثله بدمشق إلّا من يكون في زمن بني أميّة حين كان الناس كثيرين، وكانت دار الخلافة.

ثم دفِن عند أخيه قريباً من أذان العصر على التحديد، ولا يمكن أحداً حصر من حضر الجنازة، وتقريب ذلك أنه عبارة عمن أمكنه الحضور من أهل البلد وحواضره ولم يتخلف من الناس إلا القليل من الصغار والمخدرات[1]. اهـ.

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٤٤).

قال الشيخ القاضي الإمام العالم ابن فضل الله العمري[1]: وكان يوم دفنه يوماً مشهوداً ووقتاً معدوداً، ضاقت به البلد وظواهرها، وتُذُكِّرت به أوائل الرَّزايا وأواخرها ولم يكن أعظم منها منذ مئين سنين جنازةٌ رفعت على الرِّقاب، ووُطئت في زحامها الأعقاب، وسار مرفوعاً على الرؤوس متبوعاً بالنُّفوس، تحدوه العبراتُ، وتتبعه الزّفرات، وتقول له الأمم: لا فُقدت مِن غائب، ولأقلامه النَّافعة: لا أبعدكن الله مِن شجرات.

وكان أمةً وحده، وفرداً حتى نزل لحده. اهـ.

[مشاركة شمس الدين محمد بن إبراهيم الجزري القرشي بتشييع جنازة شيخ الإسلام]

قال[2]: وكنت حيث حضرت إلى الجامع المعمور شرعت في قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقريت إلى حيث دفن وانصرفت من عند قبره ألف مرة وأحد عشر مرة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين وفاتحة الكتاب وآية الكرسي.

وأهديت ثواب ذلك جميعه إليه[3] وطلبت من الله تعالى المغفرة والمفاداة والرضوان ووصلت إلى بيتي أذان العصر.

وبعد انصرافي ذكروا أن بعض الأمراء أحضر خيمة كبيرة نصبت على

---

(١) «الكواكب الدرية» (ص: ١٨٢) تحقيق الأستاذ نجم عبد الرحمن خلف.

(٢) هو الإمام شمس الدين أبو عبدالله القرشي (ت ٧٣٩هـ)، وأما حديث: «من مر بالمقابر فقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إحدى عشرة مرة ثم وهب أجره للأموات أعطي من الأجر بعدد الأموات» فهذ حديث باطل موضوع. كما قال الألباني في «أحكام الجنائز» (ص: ١٩٣).

(٣) قال تعالى ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [سورة النجم: ٣٩]، وانظر «أحكام الجنائز» للألباني المسألة «١١٩».

قبره وحضر جماعة من القراء وختموا على قبره(!)، وأنه أحضر لهم مأكولاً كثيراً من الطعام وغيره، وحضروا بكرة النهار وتُليت ختمات كثيرة عند قبره، وفي الصالحية، وفي بيوت أصحابه، وأهدي ثوابها له، وتردد الناس إلى قبره أياماً كثيرة.

ورأوا له منامات صالحة لم أضبطها[1]. اهـ.

[تخلف ثلاثة من أعداء الشيخ عن تشييع جنازته خوفا على أنفسهم من الناس]

قال ابن كثير: وما علمتُ أحداً من أهل العلم إلاّ النفر اليسير تخلّف عن الحضور في جنازته، وهم ثلاثة أنفس وهم: ابن جملة، والصدر، والقفجاري[2]، وهؤلاء كانوا قد اشتهروا بمعاداته فاختفوا من الناس خوْفاً على أنفسهم، بحيث إنّهم علموا متى خرجوا قُتلوا وأهلكهم النّاس[3]. اهـ.

[انتشار خبر موته في سائر البلدان والأقاليم وصلاة الغائب عليه في غالب بلاد الإسلام]

قال: ودُفِن في ذلك اليوم ـ رضي الله عنه ـ وأعاد علينا من بركاته ثم جعل الناس ينتابون قبره للصلاة عليه، من القرى والأطراف، والأماكن

---

(١) «حوادث الزمان» (٢ / ٣٠٨).

(٢) يوسف بن إبراهيم بن جُملة القاضي، والثاني هو: الأديب نجم الدين علي بن داود القِحْفازي، والثالث: الصدر ولعله عبدالكريم بن محمد القزويني. اهـ من حاشية الأستاذ الشاويش على «الأعلام العلية» (ص: ٨٥).

(٣) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٤٤ ـ ١٤٥).

والبلاد، مشاة وركباناً.

وما وصل خبر موته إلى بلد فيما نعلم إلاّ وصُلِّيَ عليه في جميع جوامعه، ومجامعه، خصوصاً أرض مصر، والشام والعراق، وتبريز والبصرة وقراها، وغيرها[1]. اهـ.

قال الإمام ابن مفلح الحنبلي[2]: وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله يتمثل كثيراً بهذين البيتين[3]:

بينا يرى الإنسانُ فيها مُخْبِراً حتى يُرى خبراً من الأخبار

طُبِعَتْ على كَدَرٍ وأنتَ تريدُها صفواً من الأقذارِ والأكدارِ

[المناداة بالصلاة على ترجمان القرآن بأقصى الصين]

قال الحافظ بن رجب: وتأسّف المسلمون لفقده ـ رضي الله عنه ـ ورحمه وغفر له، وصُلِّيَ عليه صلاة الغائب في غالب بلاد الإسلام القريبة والبعيدة حتى في اليمن والصين، وأخبر المسافرون: أنّه نودِيَ بأقصى الصين للصلاة عليه يوم الجمعة «الصلاة على ترجمان القرآن»[4]. اهـ.

[تردد الفزاري على قبر شيخ الإسلام]

قال الحافظ ابن كثير: وتردد شيخنا الإمام العلاّمة برهان الدين الفزاري إلى قبره في الأيام الثلاثة وكذلك جماعة من علماء الشافعيّة، وكان

---

(١) «الأعلام العلية» (ص: ٥٤).

(٢) «المستدرك على مجموع الفتاوى» (١ / ١٦٣).

(٣) وهما لأبي الحسن علي بن محمد التهامي كما نبه عليه محققا في «الآداب الشرعية» لابن مفلح الحنبلي (ط ٣) مؤسسة الرسالة (٢ / ٣٦٥ ـ ٣٦٦).

(٤) «الذيل على طبقات الحنابلة» (٤ / ٤٠٧).

برهان الدين الفزاري يأتي راكباً على حماره وعليه الجلالة والوقار رحمه الله.

وعملت له ختمات كثيرة ورئيت له منامات صالحة عجيبة، ورثي بأشعار كثيرة وقصائد مطولة جداً[1]. اهـ.

[السر في محبة الناس له ووجدهم لموته والتحسر لفراقه]

قال الحافظ البزار[2]: وذلك لمّا وجب للشيخ ـ رضي الله عنه ـ عليهم من الحق في إرشادهم إلى الحق، والمنهج المستقيم، بالأدلة الواضحة الجليلة، النقليّة والعقليّة ـ خصوصاً في أُصول الدين ـ.

فإنّ الله أنعم على الناس في هذا الزمان الذي قد ظهرت فيه البدع، وأميتت السنن، وصار غالب أهله مرحين في البدع والحرام، من حيث لا يشعرون، ومن حيث لا يعلمون، ومَنّ الله عليهم بما وفّقه له من إيضاح أُصول الدين، وتبيين الحق المحض، والاعتقاد العدل، وإفراده عن غيره من البدع والضلالات بأمورٍ لم يسبق إلى مثلها، وإظهارها على لسانه، بما أورده من ذلك في مؤلفاته ومصنّفاته وقواعد المطابقة للحق وتقريراته، وما أبرزه من الحجج والبراهين الظاهرة على موافقة المعقول والمنقول مما لم يتمكن أحد من المتكلمين والنظار على الإتيان بمثله.

وما أظهره وأورده من كثرة الدلائل العقليّة بعد النقليّة، حتى قطع به جميع المبتدعين، وكشف به عوار حجج الشاكّين المشككين، فجزاه الله أحسن الجزاء عن الإسلام والمسلمين، وسبحان من أعطاه ما أولاه، وأمدّه

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ١٤٥).

(٢) أي رثاؤه والتوجع لفقده والتحسر لوفاته والسَّير في تشييع جنازته وعظيم محبة الناس له.

بحسن التوفيق إلى ما هداه، وأعانه بالصبر الجميل إلى أن توفاه، فرضي الله عنه وأرضاه[١]. اهـ.

قلت: وما شاهده الناس منه في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ودفعه العدو الصائل على أمته وتحريكه الجيوش لقتال التتار وحضه الخليفة وسلطان المسلمين على قتالهم والتصدي لهم بعد استكانتهم وجبنهم والعدو يفتك بأرواح العباد ويغتصب أراضي المسلمين.

وما شاهدوه منه في وقعة قازان وملاقاته عظيم التتار قازان وحقنه دماء المسلمين.

وقتاله في «معركة شقحب» وأنه كان بطلها بلا منازع وسعيه في إصلاح الأمة وتحكيم الشريعة فيها.

وحيكت المؤامرات ضده لاغتياله وقتله وسجنه عدة مرات لأنه كان حامل أعباء أمته واتهامه بالسعي للمُلك والانقلاب على السلطان حتى آلت المؤامرة إلى اعتقاله حتى الموت وتكتُّمهم على مرضه إلى أن فاضت نفسه إلى باريها.

[عزم الحافظ ابن كثير على إفراد ترجمة شيخ الإسلام]

قال: وقد أُفرِدت له تراجم كثيرة، وصنف في ذلك جماعة من الفضلاء وغيرهم. وسألخّص من مجموع ذلك ترجمة وجيزة في ذكر مناقبه وفضائله وشجاعته وكرمه ونصحه وزهادته وعبادته وعلومه المتنوِّعة الكثيرة المجوّدة وصفاته[٢] الكبار والصغار، التي احتوت على غالب العلوم

(١) «الأعلام العلية» (ص ٥٥، ٥٦).

(٢) كذا. ولعلّ الصواب: «ومصنفاته» كما يقتضيه السياق.

ومفرداته في الاختيارات التي نصرها بالكتاب والسنة وأفتى بها .

وبالجملة كان رحمه الله من كبار العلماء، وممّن يخطىء ويصيب ولٰكن خطأه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحرٍ لجّي، وخطؤُه أيضاً مغفور له كما في «صحيح البخاري»[1]: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»، فهو مأجور. وقال الإمام مالك بن أنس: كل أحد يؤخذ من قوله ويُترك إلاّ صاحب هذا القبر[2]. اهـ.

[أول مرثية قيلت في الشيخ بداهة يوم دفنه على ضريحه]

قال الإمام أَبو الحسن علي بن محمد بن سليمان بن غانم المقدسي (ت ٧٣٧)[3]، يرثي الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمة الله عليه، وهي أول ما قيل بديهاً يوم دفنه على الضريح فيه:

أَيُّ حبر مضى وأَيُّ إمام	فجعت فيه ملةُ الإسلام
ابن تيمية التقي وحيدُ الدهـ	ـر من كان شامةً في الشام
بحر علم قد غاض من بعد ما	فاض نداه وعمَّ بالإنعام
زاهد عابد تنزه في دنياه	عن كل ما بها من حُطام
كان كنزاً لكل طالب علم	ولمن خاف أن يُرى في حرام
ولعافٍ قد جاء يشكو من الـ	ـفقر لديه فنال كل مرام
حاز علمٌ فما له من مساوٍ	فيه من عالم ولا من مسامي

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) «البداية والنهاية» (١٤ / ١٤٥).

(٣) انظر «العبر» للذهبي (٤ / ١٠٦) و«البداية والنهاية» (١٤ / ١٨٠).

لم يكن في الدُّنا له من نظير — في البرايا في الفضل والإحكام
كـان فـي علمـه وحيـداً فـريـداً — لـم ينـالـوا ما نـال فـي الأحـلام
عـالـم فـي زمـانـه فـاق بـالـ — ـعلـمِ جميـع الأئمـة الأعـلام
كـلٌّ مـن فـي دمشـق نـاحَ عليـه — ببكـاءِ مـن شـدة الآلام
فُجعَ الناس فيه في الغرب والشر — ق وأضحـوا بـالحـزن كـالأيتـام
لـو يفيـد الفـداء فـادوه بـالأرواح — منهـم مـن الـردى والحِمـام
أوحـدٌ فيـه قـد أُصيـب البـرايـا — فتعـزّى فيـه جميـع الأنـام
أعظـم اللّـه أجـرهـم فيـه إذ صـا — ر على الرغم في الثرى والرغام
مـا يُـرى مثـل يـومـه عنـدمـا سـا — ر علـى النعـش نحـو دار السـلام
حملوه على الرقاب إلى القبر وكا — دوا أن يهلكـوا فـي الـزحـام
فهـو الآن جـارُ ربِ السمـوا — ت الـرحيـم المهيمـن العـلام
قـدَّس اللّـه روحَـه وسَقَـى قَبـ — ـراً حـواهُ بهـاطـلات الغمـام
فلقـد كـان نـادراً فـي بني الـدهـ — ـر وحُسنـاً فـي أوجـه الأيـام[1]

[مرثية الحافظ الذهبي في الشيخ]

قال الحافظ الكبير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الذهبي لنفسه، يرثي شيخ الإسلام أبا العباس ابن تيمية رحمة الله تعالى عليه:

يا موتُ خُذْ من أردْتَ أوْ فَدَعِ — محـوْتَ رَسْـمَ العلـومِ والـورعِ
أخذْتَ شيخَ الإسلام وانْفَصَمَتْ — عُرى التُقى واشتفى أُولو البدعِ

(١) «الرد الوافر» (ص: ٢٤٠ ـ ٢٤١)، وانظر «الكواكب الدرية» (ص: ١٩١ ـ ١٩٣).

غَيّبْتَ بحراً مفسراً جبلاً حَبْراً تقياً مُجانِبَ الشّيعِ

فإن يحدّث فمسلمٌ ثِقَةٌ وإن يُناظِر فصاحِبُ «اللّمَع»

وإن يخَضْ نحو سيبويْه يَفُه بكل معنى في الفن مُخْتَرِع

وصار عَالي الإسْناد حَافظِه كَشُعْبَة أوْ سَعيدِ الضُّبَعي

وَالفِقْهُ فيهِ فكَانَ مجْتَهداً وذا جِهَادِ عَارٍ من الجزَع

وجُودُهُ «الحَاتِمِيّ» مُشْتَهر وزهْدُهُ «القادري» في الطّمع

أسَكَنَهُ اللّه في الجنانِ ولا زَالَ عَليّاً في أجمل الخُلَع

مَعَ مَالِكِ الإمامِ وأَحْمد والنّعْمَان والشَافِعِي والخِلَعي

مضى ابنُ تيمية وَمَوعِدهُ مع خَصْمِهِ يَوْمَ نَفْخَة الفَزَع[1]

* * *

(١) «الرد الوافر» (ص: ٧٢)، وقد اقتصرت على ذكر هاتين المنظومتين في رثاء الشيخ، وللمزيد انظر مراثي العلماء والشعراء لشيخ الإسلام ابن تيمية في «العقود الدرية» (ص: ٣٩٣ـ٥١٦).



فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

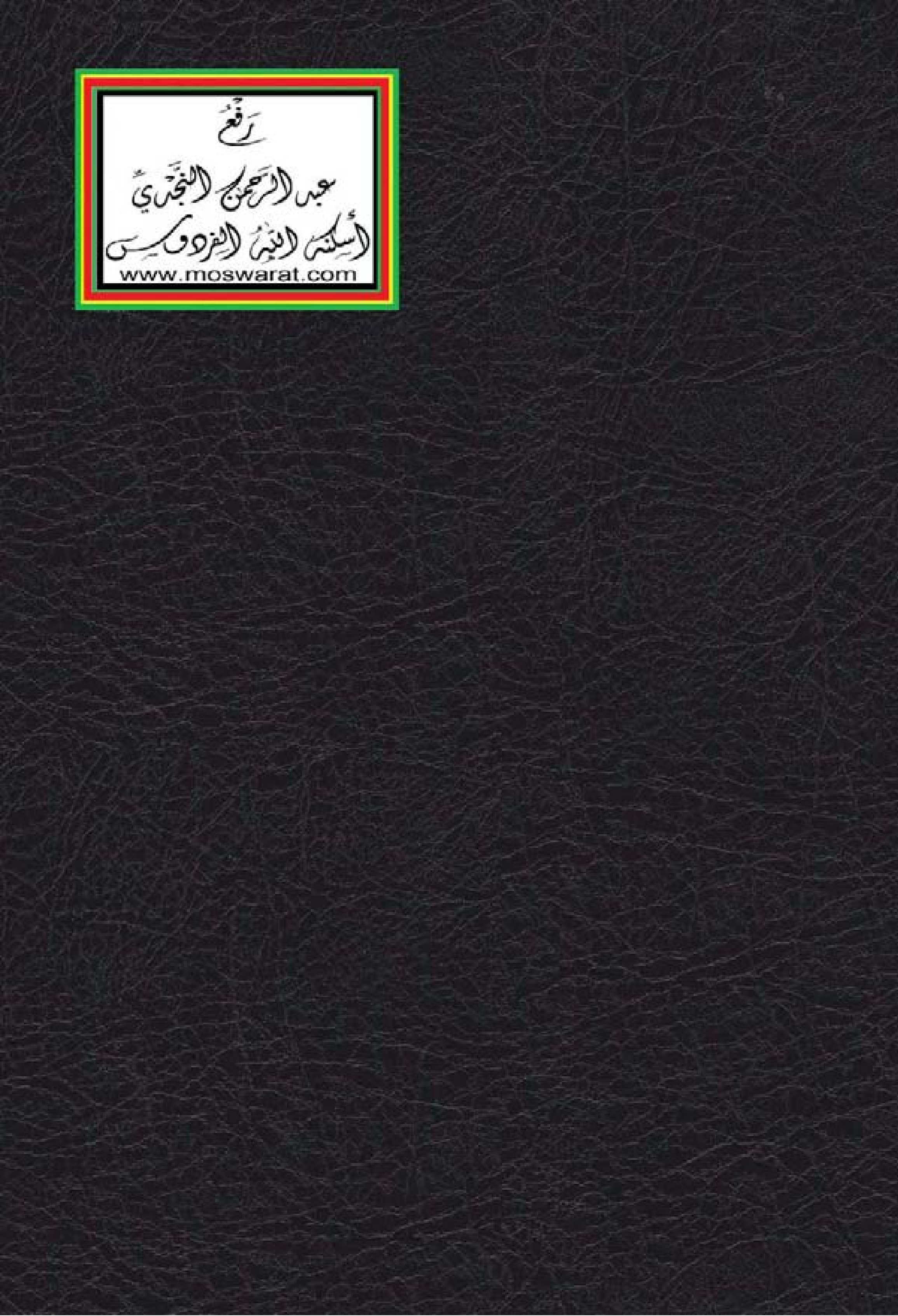
الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

* * *


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com